

هذبه وحققه وضبط نصه وعلق عليه

الدكتور بشار عواد معروف   عصام فارس الحرستاني

المجلد الرابع

الأنفال إلى النحل

مؤسسة الرسالة




تفسير الطبري
٤

الطّبعَة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسَّسَة الرّسَالة بَيرُوت - شارع سوريَا - بنَاية صَمَدي وَصَالحَة
هَاتف : ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب : ٧٤٦٠ - برقيا : بيوشران



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الأنفال» التي ذكرها الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هي الغنائمُ، وقالوا: معنى الكلام: يسألُكَ أصحابُكَ، يا محمدُ، عن الغنائمِ التي غنمتها أنتَ وأصحابُكَ يومَ بَدْرٍ، لمن هيَ؟ فقل: هي للهِ ولرسولِه.

وقال آخرون: هي أنفالُ السرايا.

وقال آخرون: «الأنفال»، ما شَذَّ من المشركينَ إلى المسلمينَ، من عَبْدٍ أو دابةٍ، وما أشبهَ ذلك.

وقال آخرون: «النفل»، الخُمس الذي جعلَهُ الله لأهلِ الخُمُس.

وأولى هذه الأقوالِ بالصوابِ في معنى: «الأنفال»، قولُ مَنْ قال: هي زياداتٌ يَزيدها الإمامُ بعضَ الجيشِ أو جَمِيعَهُمْ، إمَّا من سَهْمِه على حقوقِهم من القسمةِ، وإمَّا مما وصلَ إليه بالنفلِ أو ببعضِ أسبابه، ترغيباً له، وتحريضاً لِمَنْ معهُ من جيشهِ على ما فيه صلاحُهم وصلاحُ المسلمينَ، أو صلاحُ أحدِ الفريقين. وقد يدخلُ في ذلك الفَرَسُ والدِّرْعُ ونحو ذلك، ويدخلُ فيه ما عادَ من المشركين إلى المسلمين من عبدٍ أو فَرَسٍ، لأنَّ ذلك أمرُه إلى الإمامِ، إذا لم يكن ما وصلوا إليه بغَلَبَةٍ وقَهْرٍ، يفعلُ ما فيه صلاحُ أهلِ الإسلام، وقد يدخلُ فيه ما غلب عليه الجيش بقَهر.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى الأقوالِ بالصواب، لأنَّ «النفل» في كلام العرب، إنما هو الزيادةُ على الشيء، يقال منه: «نفَّلتُكَ كذا» و«أنفلتك»، إذا زِدْتُكَ.

فإذْ كان معناه ما ذَكَرْنَا، فَكُلُّ مَنْ زِيدَ من مقاتلةِ الجيشِ على سهمه من الغنيمةِ - إنْ كان ذلك لبلاءٍ أبلاهُ، أو لغَنَاءٍ كان منه عن المسلمين - بتنفيلِ الوالي ذلك إيَّاهُ، فيصير حُكْمُ ذلكَ له كالسَّلبِ الذي يسلبه القاتل، فهو منفل ما زِيدَ من ذلـك، لأنَّ الـزيادةَ نَفَلٌ، والنَّفَلُ، وإنْ كان مُسْتَوْجِبُهُ في بعضِ الأحوالِ لحق، ليس هو من الغنيمةِ التي تقعُ فيها القسمة. وكذلك كُلُّ ما رُضِخَ لمن لا سهمَ له في الغنيمة، فهو «نفل»، لأنه وإنْ كان مغلوباً عليه، فليس مما وقعتْ عليه القسمةُ.

فالفصل - إذا كانَ الأمرُ على ما وَصَفْنَا - بين «الغنيمة» و«النفل»، أنَّ «الغنيمة»، هي ما أفاءَ اللهُ على المسلمينَ من أموالِ المشركينَ بغلبةٍ وقهرٍ، نَفَّلَ منه مُنَفِّلٌ أو لم ينفل، و«النفل» هو ما أُعطيه المرءُ على البلاءِ والغَنَاء عن الجيشِ على غيرِ قسمةٍ.

وإذْ كان ذلك معنى «النفل»، فتأويلُ الكلام: يسألُكَ أصحابُكَ، يا محمدُ، عن الفضلِ من المالِ الذي تقعُ فيه القسمةُ من غنيمةِ كفارِ قريش الذين قُتِلُوا ببدر، لِمَنْ هُوَ؟ قُلْ لهم يا محمدُ: هو للهِ ولرسولِه دونَكم، يجعلُه حيثُ شاء.

واختلف في السبب الذي من أجله نزلتْ هذه الآيةُ.

فقال بعضهم: نزلت في غنائمِ بدر، لأنَّ النبيَّ ﷺ كانَ نفَّلَ أقواماً على بلاءٍ، فأبلى أقـوامٌ، وتَخَلَّفَ آخـرونَ مع رسولِ الله ﷺ، فاختلفوا فيها بعد انقضاءِ الحربِ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةُ على رسوله، يعلمهم أنَّ ما فعلَ فيها رسولُ الله ﷺ فماضٍ جائزٌ.

وقال آخرون: بَلْ إنما أُنْزِلتْ هذه الآيةُ، لأنَّ بعضَ أصحابِ رسولِ الله

ﷺ سألـه من المَغْنَم شيئـاً قبلَ قسمتها، فلم يُعْطِه إياهُ، إذْ كان شِرْكاً بين الجيش، فجعلَ اللهُ جميعَ ذلك لرسولِه ﷺ.

وقال آخرون: بل نزلت: لأنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ سألوا قِسْمَةَ الغنيمةِ بينهم يومَ بدر، فأعلمهم اللهُ أنَّ ذلك للهِ ولرسولِه دونَهم، ليس لهم فيه شيء. وقالوا: معنى «عن» في هذا الموضع «من»، وإنما معنى الكلام: يسألونك من الأنفال. وقالوا: قد كان ابنُ مسعود يقرأه: ﴿يَسْأَلُونَكَ الأَنْفَالَ﴾، على هذا التأويل.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى أخبرَ في هذه الآية عن قومٍ سألوا رَسولَ الله ﷺ الأنفالَ أنْ يُعْطِيهُمُوهَا، فأخبرَهم اللهُ أنها لله، وأنه جعلها لرسولِه.

وإذا كان ذلـك معنـاه، جاز أنْ يكـونَ نزولُها كانَ من أجلِ اختلافِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ فيها ـ وجائزٌ أنْ يكونَ كان من أجلِ مسألةِ مَنْ سأله السيفَ الذي ذُكِرَ عن سعدٍ[1] أنه سألَهُ إياهُ ـ وجائز أنْ يكونَ من أجل مسألة مَنْ سأله قَسْمَ ذلك بين الجيش.

واختلفوا فيها أمنسوخةٌ هي أم غير منسوخة؟

فقال بعضهم: هي منسوخة. وقالوا نَسَخَها قولُه: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]، الآية.

وقال آخرون: هي مُحْكَمَةٌ، وليست منسوخةً. وإنما معنى ذلك: «قُلِ

---

(١) يعني: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فقد سأل رسول الله ﷺ أن ينفله سيف سعيد بن العاص بن أمية يوم بدر. رواه الطبري من عدة طرق (١٥٦٥٦-١٥٦٥٩) و(١٥٦٦٢-١٥٦٦٤)، وهو صحيح الإسناد في أكثر طرقه.

الأنفالُ لله»، وهي لاشَكَّ للهِ مع الدنيا بما فيها والآخرة ـ وللرسولِ، يَضَعُهَا في مواضِعِها التي أَمَرَهُ اللهُ بوضعها فيه.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُهُ أخبر أنه جعلَ الأنفالَ لنبيهِ ﷺ، يُنفِّلُ مَنْ شاء، فَنَفَّلَ القاتل السَّلَب وجعلَ للجيشِ في البَدْأة[1] الربع، وفي الرجعة الثلث بعد الخمس. ونفَّل قوماً بعد سُهْمَانهم بعيراً بعيراً في بعضِ المغازي. فجعل اللهُ تعالى ذِكْرُه حُكْمَ الأنفالِ إلى نبيهِ ﷺ، يُنَفِّلُ على ما يرى مما فيه صلاحُ المسلمين. وعلى مَنْ بَعْدَهُ من الأئمةِ أنْ يَسْتَنُّوا بسُنَّتِه في ذلك.

وليس في الآية دليلٌ على أنَّ حُكْمَها منسوخٌ، لاحتمالها ما ذكرتُ من المعنى الذي وصفتُ. وغير جائزٍ أنْ يحكم بحكم قد نزل به القرآنُ أنه منسوخٌ، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، فقد دَلَّلْنَا في غيرِ موضع من كتبنا على أنْ لا منسوخَ إلَّا ما أَبْطَلَ حُكْمَه حادثُ حُكْمٍ بخلافِه، يَنْفِيه من كُلِّ معانيهِ، أو يأتي خبرٌ يُوجِبُ الحجةَ أنَّ أحَدَهُما ناسخُ الآخرَ.

وقد ذُكِرَ عن سعيد بن المسيب: أنه كان يُنْكِرُ أنْ يكونَ التنفيلُ لأحدٍ بعدَ رسولِ الله ﷺ، تأويلاً منه لقولِ الله تعالى: «قُلِ الأنفال لله والرسول».

وقد بيَّنَّا أنَّ للأئمةِ أنْ يتأسَّوْا برسولِ الله ﷺ في مغازِيهم بفِعلِه، فينفِّلُوا على نحوِ ما كانَ ينفلُ، إذا كان التنفيل صلاحاً للمسلمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١﴾

(١) البدأة: ابتداء سفر الغزو، والرجعة: القُفولُ منه.

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: فخـافُوا الله، أيها القومُ، واتقوهُ بطاعتِه واجتنابِ معاصيه، وأصلحوا الحالَ بينكم.

واختلف أهلُ التأويلِ في الذي عَنَى بقوله: «وأصلحوا ذاتَ بينِكُم».

فقـال بعضهم: هو أمرٌ من الله الذين غَنِمُوا الغنيمةَ يومَ بدر، وشهدوا الوقعةَ مع رسولِ الله ﷺ إذ اختلفوا في الغنيمة: أنْ يردَّ ما أصابوا منها بعضُهم على بعض.

وقال آخرون: هذا تحريجٌ من اللهِ على القومِ، ونهيٌ لهم عن الاختلافِ فيما اختلفوا فيه من أمرِ الغنيمةِ وغيره.

وأما قوله: «وأطيعوا الله ورسولَهُ»، فإنَّ معناه: وانتهوا، أيها القومُ الطالبونَ الأنفالَ، إلى أمرِ الله وأمرِ رسولِه فيما أفاءَ اللهُ عليكم، فقد بَيَّنَ لكم وُجُوهَهُ وسُبُلَهُ. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم مصدقينَ رسولَ الله فيما آتاكم من عندِ رَبِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ليس المؤمنُ بالذي يخالفُ اللهَ ورسولَهُ، ويتركُ اتباعَ ما أنزلَهُ إليه في كتابِه من حدودِه وفرائضِه، والانقياد لحكمه، ولكنَّ المؤمنَ هو الذي إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِل قلبُه، وانقادَ لأمره، وخضعَ لذِكْرِه، خوفاً منه، وفَرَقاً من عقابِه، وإذا قُرِئَتْ عليه آياتُ كتابه صَدَّقَ بها، وأيقنَ أنها من عندِ الله، فازدادَ بتصديقه بذلك، إلى تصديقِه بما كان قد بلغه منه قَبْلَ ذلك، تصديقاً. وذلك

هو زيادة ما تُليَ عليهم من آياتِ الله إيَّاهم إيمـاناً. «وعلى رَبِّهم يتوكلون»، يقولُ: وباللهِ يُوقِنُونَ، في أنَّ قَضاءَهُ فيهم ماضٍ، فلا يَرْجُونَ غيره، ولا يَرْهَبُونَ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين يؤدُّونَ الصلاةَ المفروضةَ بحدودها، ويُنفقونَ مما رَزَقهمُ اللهُ من الأموالِ فيما أمرهم اللهُ أنْ يُنفِقُوها فيه، من زكاةٍ وجهادٍ وحَجٍّ وعمرة، على مَنْ تَحبُ عليهم نفقته، فيؤدُّونَ حقوقهم. «أولئك»، يقول: هؤلاءِ الذينَ يفعلونَ هذه الأفعالَ. «هُمُ المؤمنونَ»، لا الذينَ يقولونَ بألسنتهم: «قَدْ آمَنَّا»، وقلوبهم منطويةٌ على خِلافِه نفاقاً، لا يُقيمونَ صلاةً، ولا يؤدُّون زكاةً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «لهم درجاتٌ»، لهؤلاءِ المؤمنينَ الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ صِفتَهُمْ. «درجاتٌ»، وهي مراتبُ رفيعة.

وقـولـه: «ومغفـرة»، يقول: وعَفْوٌ عن ذُنوبهم، وتغطيةٌ عليها. «ورزقٌ كريم»، قِيلَ: الجنة. وهو عندي: ما أَعَدَّ اللهُ في الجنة لهم من مزيدِ المآكلِ والمشاربِ وهنيءِ العيش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ

﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

اختلف أهلُ التأويل في الجالب لهذه «الكاف» التي في قوله: «كما أخرجكَ»، وما الذي شُبِّه بإخراج اللهِ نَبِيَّهُ ﷺ من بيتهِ بالحق.

فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم رَبَّهم، وإصلاحهم ذاتَ بَيْنِهم، وطاعتهم اللهَ ورسولَهُ. وقالوا: معنى ذلك: يقولُ الله: وأصلِحُوا ذاتَ بينِكم، فإنَّ ذلك خيرٌ لكم، كما أخرجَ اللهُ محمداً ﷺ من بيتهِ بالحقِّ، فكان خيراً له.

وقال آخرون: معنى: ذلك: كما أخرجكَ رَبُّكَ، يا محمدُ، من بيتك بالحقِّ على كُرْهٍ من فريقٍ من المؤمنينَ، كذلك هم يَكرهونَ القتالَ، فهم يُجادِلونكَ فيه بعد ما تَبَيَّنَ لهم.

وقال آخرون منهم: معنى ذلك: يسألونكَ عن الأنفالِ مُجَادلةً، كما جَادلوكَ يومَ بدر فقالوا: «أَخْرَجْتَنَا للعِيرِ، ولم تُعلمنا قِتالاً فنستعدَّ له».

وأَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال في ذلك أنَّ معناه: كما أخرجكَ رَبُّكَ بالحقِّ على كره من فريقٍ من المؤمنين، كذلك يجادلونكَ في الحق بعد ما تَبَيَّنَ لأنَّ كِلَا الأمرينِ قد كان، أعني: خروجَ بعضِ مَنْ خرجَ من المدينةِ كارهاً، وجدالهم في لقاء العدو وعند دُنُوِّ القومِ بعضِهم من بعضٍ، فتشبيه بعضِ ذلكَ ببعضٍ، مع قُرْبِ أَحَدِهما من الآخر، أَوْلى من تشبيههِ بما بَعُدَ عنه.

وقال مجاهد في «الحق» الذي ذُكِرَ أنهم يجادلونَ فيه النبيَّ ﷺ بعد ما تَبَيَّنُوه: هو القتالُ.

وأما قوله: «مِنْ بيتكَ»، فإنَّ بعضهم قال: معناه: من المدينةِ.

وأما قوله: «وإنَّ فريقاً من المؤمنينَ لكارِهُونَ»، فإنَّ كراهَتَهم كانتْ لما سمع رَسول اللهِ ﷺ بأبي سفيانَ مُقْبِلاً من الشأم، نَدَبَ إليهم المسلمينَ[1]، وقال: هذه عِيرُ[2] قريشٍ فيها أموالُهم، فاخْرُجوا إليها، لَعَلَّ اللهَ أنْ ينفِّلَكُمُوهَا! فانتدب الناس، فَخَفَّ بعضُهم وثَقُلَ بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يَلْقى حرباً[3].

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في الذين عُنُوا بقوله: «يُجادِلونكَ في الحق بعد ما تبين».

فقال بعضهم: عُني بذلك أهلُ الإيمان من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، الذين كانوا معه حين توجَّه إلى بدرٍ للقاءِ المشركين.

وقال آخرون: عُني بذلك المشركونَ.

والصوابُ من القول في ذلك أنَّ ذلك خبرٌ من اللهِ عن فريقٍ من المؤمنينَ أنهم كَرِهُوا لِقاءَ العدو، وكان جِدالُهم نبيَّ الله ﷺ أنْ قالوا: «لم يُعلمنا أنا نَلْقَى العَدُوَّ فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعير». وما يدلُّ على صحته قولُه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أنها لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، ففي ذلك الدليلُ الواضح لمن فَهِمَ عن الله، أنَّ القومَ قد كانوا للشوكةِ كارهينَ، وأنَّ جدالهم كان في القتال، كما قال مجاهد، كراهيةً منهم له، لأنَّ الذي قَبْلَ قولِه: «يجادلونكَ في الحق»، خبرٌ عن أهلِ الإيمان، والذي يَتْلُوه خبرٌ عنهم، فأنْ يكونَ خبراً عنهم، أوْلى منه بأنْ يكونَ خبراً عَمَّنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ.

---

(١) ندب الناس إلى حربٍ أو مَعُونةٍ، فانتدبوا، أي: دعاهم فاستجابوا وأسرعوا إليه.

(٢) العِير: القافلة.

(٣) أنظر سيرة ابن هشام: ٢/٢٥٧ـ٢٥٨.

وأما قوله: «بعد ما تَبَيَّنَ»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: بعدما تبين لهم أنَّكَ لا تفعلُ إلا ما أمرَكَ الله.

وقال آخرون: معناه: يجادلونكَ في القتال بعدما أُمِرْتَ به.

وأما قوله: «كأنَّما يُسَاقُونَ إلى الموتِ وهم يَنظرون»، فإنَّ معناه: كأنَّ هؤلاء الذين يُجادلونكَ في لقاء العدوِّ، من كراهتهم للقائهم إذا دُعُوا إلى لقائهم للقتالِ، «يُسَاقونَ إلى الموت».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكروا، أيها القومُ. «إذ يَعِدُكُمُ الله إحدى الطائفتين»، يعني إحدى الفرقتين، فرقة أبي سفيان بن حرب والعِير، وفرقة المشركين الذين نَفَروا من مكة لمنعِ عِيْرِهم.

وقوله: «أنها لكم»، يقول: أنَّ ما معهم غنيمةٌ لكم. «وتَوَدُّونَ أنَّ غيرَ ذاتِ الشوكةِ تكونُ لكم»، يقول: وتُحِبُّونَ أنْ تكونَ تلك الطائفةُ التي ليست لها شوكةٌ - يقول: ليس لها حدٌّ، ولا فيها قتال - أن تكون لكم. يقول: تَوَدُّونَ أنْ تكونَ لكم العيرُ التي ليس فيها قتالٌ لكم، دونَ جماعةِ قريش الذين جاءوا لمنعِ عِيرِهم، الذين في لقائهم القتالُ والحربُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويُرِيدُ الله أنْ يُحِقَّ الإسلامَ ويُعليَه. «بكلماته»،

يقـول: بأمـرِه إياكم، أيهـا المؤمنونَ، بقتالِ الكفار، وأنتم تُريدونَ الغنيمةَ، والمالَ. وقوله: «ويقطعَ دابرَ الكافرينَ»، يقول: يُريدُ أنْ يَجُبَّ أصلَ الجاحدينَ توحيدَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويريد الله أنْ يقطعَ دابرَ الكافرين، كَيْمَا يُحِقَّ الحَقَّ، كيما يُعْبَدَ اللهُ وحدَهُ دونَ الآلهةِ والأصنام، ويُعَزَّ الإسلامُ، وذلك هو «تحقيق الحق». «ويُبْطِلَ الباطلَ»، يقول: ويُبْطِلَ عبادةَ الآلهةِ والأوثان والكفر، ولو كَرِهَ ذلك الذين أجرموا فاكتسبوا المآثمَ والأوزارَ من الكفار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «ويبطل الباطل»، حينَ تَستغيثونَ رَبَّكم فـ«إذْ» من صلة «يبطل».

ومعنى قوله: «تَستغيثونَ رَبَّكم»، تَستجيرونَ به من عَدُوِّكم، وتَدْعُونَهُ للنصرِ عليهم. «فاستجابَ لكم»، يقول: فأجابَ دُعاءَكم، بأنِّي مُمِدُّكُمْ بألفٍ من الملائكةِ يُرْدِفُ بعضُهم بعضاً، ويَتْلُو بعضُهم بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يجعلِ اللهُ إردافَ الملائكةِ بعضَها بعضاً وتَتابُعَها بالمصير إليكم، أيهـا المؤمنونَ، مَدَداً لكم. «إلا بشرى» لكم، أي: بشارة لكم، تُبَشِّرُكُمْ بنصرِ الله إياكم على أعدائِكم. «ولتطمئنَّ به قلوبكم»، يقول: ولتسكنَ قلوبكم بمجيئها إليكم، وتُوقِنَ بنصرِ اللهِ لكم. «وما النصرُ إلا من عند الله»، يقول: وما تُنْصَرُونَ على عدوِّكم، أيها المؤمنونَ، إلا أنْ يَنصرَكُم اللهُ عليهم، لا بِشِدَّةِ بأسِكم وقواكم، بَلْ بنصرِ اللهِ لكم، لأنَّ ذلك بيدهِ وإليهِ، يَنْصُرُ مَنْ يشاء من خَلْقِه. «إنَّ الله عزيز حكيم»، يقول: إنَّ الله الذي ينصركم، وبيدهِ نَصْرُ مَنْ يشاء من خَلْقِه. «عزيز»، لا يقهره شيءٌ، ولا يغلبه غالِبٌ، بل يَقْهرُ كُلَّ شيءٍ ويغلبه، لأنه خلقه. «حكيم»، يقول: حكيمٌ في تدبيره ونَصْرِه مَنْ نَصَرَ، وخذلانِه مَنْ خذلَ من خَلْقِه، لا يدخلُ تدبيره وهنٌ ولا خَللٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولتطمئنَّ به قلوبُكم»، «إذْ يُغَشِّيكم النعاسَ»، ويعني بقوله: «يغشيكم النعاسَ»، يلقي عليكمُ النعاسَ. «أَمَنَةً» يقول: أماناً من الله لكم من عَدُوِّكُم أنْ يَغْلِبَكُمْ، وكذلك النعاسُ في الحرب أمنة من الله عَزَّ وجَلَّ.

وأما قوله عَزَّ وجَلَّ: «ويُنَزِّلُ عليكم من السماءِ ماءً ليطهركم به»، فإنَّ ذلك مطرٌ أنـزلَهُ اللهُ من السماءِ يومَ بدرٍ لِيُطَهِّرَ به المؤمنينَ لصلاتهم، لأنهم كانوا أصبحـوا يومئـذٍ مُجْنِبينَ على غيرِ ماءٍ. فلمـا أنـزلَ اللهُ عليهم الماءَ اغتسلوا وتَطَهَّرُوا، وكانَ الشيطانُ قد وسوسَ إليهم بما حَزَنَهُمْ به من إصباحهم مُجْنِبينَ

على غيرِ ماءٍ، فأذْهَبَ اللهُ ذلك من قلوبهم بالمطرِ. فذلك رَبْطُه على قلوبهم، وتقويته أسبابهم، وتَثْبيته بذلك المطرِ أقدامَهُمْ، لأنهم كانوا التقوا مع عَدُوِّهم على رملة ميثاء[1]، فَلَبَّدَها المطرُ، حتى صارت الأقدامُ عليها ثابتةً لا تسوخُ فيها، توطئةً من الله عَزَّ وجَلَّ لنبيهِ عليه السلام وأوليائه، أسبابَ التَّمَكُّنِ من عَدُوِّهم والظفر بهم.

وأما قوله: «إذْ يُوحي رَبُّكَ إلى الملائكةِ أنِّي معكم»، أنْصُرُكُمْ. «فَثَبِّتوا الذين آمنوا»، يقول: قَوُّوا عَزْمَهم، وصَحِّحُوا نِيَّاتهم في قتالِ عدوهم من المشركين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سأُرْعِبُ قلوبَ الذين كفروا بي، أيها المؤمنونَ، منكم، وأملأها فَرَقاً حتى ينهزموا عنكم. «فاضْرِبُوا فوقَ الأعناق».

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فوق الأعناق».

فقال بعضهم: معناه: فاضربوا الأعناقَ.

واحتج قائلو هذه المقالةِ بأنَّ العربَ تقول: «رأيتُ نفس فلان»، بمعنى: رأيته. قالوا: فكذلك قوله: «فاضربوا فوقَ الأعناق»، إنما معناه: فاضربوا الأعناقَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك، فاضربوا الرؤوسَ.

واعتل قائلو هذه المقالة بأنَّ الذي «فوق الأعناق»، الرؤوس. قالوا: وغير

(١) الرملة الميثاء: اللَّيِّنةُ السهلة.

جائزٍ أنْ تقول «فوق الأعناق»، فيكون معناه: «الأعناق». قالوا: ولو جازَ ذلك، جازَ أنْ يُقالَ: «تحتَ الأعناق»، فيكون معناه: «الأعناق». قالوا: وذلك خِلافُ المعقولِ من الخطابِ، وقلبٌ لمعاني الكلام.

وقال آخرون: معنى ذلك: فاضربوا على الأعناقِ، وقالوا: «على» و«فوقَ» معناهما متقاربان، فجاز أن يُوضَعَ أحَدُهما مكانَ الآخر[1].

والصوابُ من القول في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله أمرَ المؤمنين، مُعَلِّمَهُمْ كيفيةَ قَتْلِ المشركينَ وضَرْبِهم بالسيفِ: أنْ يَضربُوا فوقَ الأعناق منهم والأيديَ والأرجل. وقوله «فوق الأعناق»، محتملٌ أنْ يكونَ مُراداً به الرؤوس، ومحتمل أن يكون مراداً له: من فوق جِلْدَةِ الأعناقِ، فيكون معناه: على الأعناق. وإذا احتمل ذلك، صَحَّ قولُ مَنْ قال، معناه: الأعناق. وإذا كان الأمرُ محتملاً ما ذكرنا من التأويلِ، لم يَكُنْ لنا أنْ نوجِّهه إلى بعضِ معانيهِ دونَ بعضٍ، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها. ولا حُجَّةَ تدلُّ على خصوصِه، فالواجبُ أن يقالَ: إنَّ الله أمرَ بضربِ رؤوس المشركينَ وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم، أصحابَ نَبيِّهِ ﷺ الذين شَهِدُوا معه بدراً.

وأما قوله: «واضربوا منهم كُلَّ بَنان»، فإنَّ معناه: واضربوا، أيها المؤمنونَ، من عَدُوِّكم كُلَّ طَرَفٍ ومَفْصِلٍ من أطرافِ أيديهم وأرجلهم.

و«البنانُ» جمع «بنانة»، وهي أطرافُ أصابعِ اليدين والرجلين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٣﴾

---

(١) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/٢٤٢.

يعني تعالى ذِكْرُه لقوله: «ذلك بأنَّهم»، هذا الفعلُ من ضَرْبِ هؤلاء الكَفَرةِ فوقَ الأعناقِ وضَرْبِ كُلِّ بَنانٍ منهم، جزاءٌ لهم بِشِقَاقِهم اللهَ ورسولَهُ، وعقابٌ لهم عليه.

ومعنى قولـه: «شَـاقُّوا اللهَ وَرسولَهُ»، فارقوا أمرَ اللهِ ورسولَهُ وعصوهما، وأطاعوا أمرَ الشيطان.

ومعنى قوله: «ومَنْ يُشَاقِقْ اللهَ ورسولَهُ»، ومَنْ يخالِفْ أمرَ اللهِ وأمرَ رسولِهِ ففـارق طاعتهما. «فإنَّ اللهَ شديدُ العقاب» له. وشدة عقابه له: في الدنيا، إحلالُه به ما كانَ يحلُّ بأعدائِه من النِّقَمِ، وفي الآخرة، الخلودُ في نارِ جهنم. وحذف «له» من الكلام، لدلالة الكلام عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: هذا العقـابُ الـذي عَجَّلْتُه لكم، أيها الكافرونَ المشاقُّونَ للهِ ورسولِهِ، في الدنيا، مِنَ الضَّرْبِ فوقَ الأعناقِ منكم، وضرب كُلِّ بنـانٍ، بأيدي أوليائي المؤمنين، فَذُوقُوه عاجلًا، واعلموا أنَّ لكم في الآجلِ والمَعَادِ عذابَ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «إذا لَقِيتُمُ الذين

كفـروا» في القتـالِ. «زحفـاً»، يقـول: مُتَزَاحِفـاً بعضُكم إلى بعضٍ - و«التـزاحف»، التـداني والتقـاربُ. «فلا تُوَلُّوهم الأدبارَ»، يقول: فلا تولوهم ظُهوركم فتنهزِمُوا عنهم، ولكن اثبتوا لهم، فإنَّ الله معكم عليهم. «ومَنْ يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ»، يقول: ومَنْ يولِّهم منكم ظَهْرَهُ. «إلَّا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ»، يقول: إلا مستطرداً لقتالِ عَدُوِّهِ، يطلبُ عورةً له يمكنه إصابتها فيكرّ عليه. «أو متحيزاً إلى فئـة» أوْ: إلَّا أنْ يُولِّيهم ظَهْـرَهُ متحيِّزاً إلى فئة، يقول: صائراً إلى حَيِّزِ المؤمنينَ الذين يَفِيئونَ به معهم إليهم لقتالهم، ويرجعونَ به إليهم معهم.

واختلف أهلُ العلمِ في حُكْمِ قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: «ومَنْ يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ إلَّا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأواهُ جهنم»، هل هو خاصٌّ في أهلِ بدر، أم هو في المؤمنينَ جميعاً؟

فقال قوم: هو لأهلِ بدرٍ خاصة، لأنه لم يكن لهم أنْ يتركُوا رسولَ الله ﷺ مع عَدُوِّهِ وينهزموا عنه، فأما اليومَ فلهم الانهزامُ.

وقال آخرون: بل هذه الآية حُكْمُهَا عام في كُلِّ مَنْ وَلَّى الدبرَ عن العدوِ منهزماً.

وأوْلى التأويلين في هذه الآيةِ بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: حُكْمُهَا مُحْكَمٌ، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابتٌ في جميع المؤمنين، وأنَّ الله حَرَّمَ على المؤمنينَ إذا لَقُوا العَدُوّ، أنْ يولُّوهم الدُّبُرَ منهزمينَ إلا لتحرفٍ لقتال، أو لتحيُّزٍ إلى فئةٍ من المؤمنينَ حيثُ كانت من أرضِ الإسلام، وأنَّ مَنْ ولَّاهُمْ الدبرَ بعد الزحفِ لقتالٍ منهزماً بغير نِيَّةِ إحدى الخلَّتين اللَّتين أباحَ اللهُ التوليةَ بهما، فقد استوجبَ من اللهِ وعِيدَهُ، إلَّا أنْ يتفضَّلَ عليه بعفوِه.

وإنما قلنا هي محكمةٌ غير منسوخة، لما قد بَيَّنَّا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره: أنه لا يجوزُ أنْ يُحْكَمَ لحكمِ آيةٍ بنسخٍ، وله في غيرِ النسخ وجهٌ،

إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، من خبرٍ يقطعُ العُذْرَ، أو حجةِ عقلٍ. ولا حُجَّةَ من هذين المعنيين تدلُّ على نسخِ حكمِ قولِ الله عَزَّ وجَلَّ: «ومَنْ يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة».

وأما قوله: «فقد باء بغضب من الله»، يقول: فقد رجعَ بغضبٍ من الله. «ومأواهُ جهنمُ»، يقول: ومصيرهُ الذي يَصيرُ إليه في مَعادِه يومَ القيامة جهنم. «وبئس المصير»، يقول: وبئس الموضعُ الذي يصيرُ إليه ذلك المصير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسولِه، مِمَّنْ شَهِدَ بدراً مع رسول الله ﷺ، فقاتلَ أعداءَ دِينهِ معه من كفارِ قريش: فَلَمْ تَقْتُلوا المشركينَ، أيها المؤمنون، أنتم، ولكنَّ الله قَتلَهُمْ.

وأضافَ جَلَّ ثناؤُهُ قَتلَهُمْ إلى نفسِه، ونَفاهُ عن المؤمنينَ به الذين قاتلوا المشركينَ، إذْ كان جَلَّ ثناؤُهُ هو مُسَبِّبَ قَتْلِهم، وعن أمرِه كانَ قتالُ المؤمنينَ إياهم. ففي ذلك أدلُّ الدليلِ على فسادِ قولِ المنكرين أنْ يكونَ لله في أفعال خَلْقِه صُنْعٌ به وَصَلوا إليها.

وكذلك قولُه لنبيهِ عليه السلام: «وما رَمَيْتَ إذْ رميتَ ولكنَّ الله رمى»، فأضاف الرمي إلى نبيِّ الله، ثم نفاهُ عنه، وأخبرَ عن نفسِه أنه هو الرامي، إذ كان جَلَّ ثناؤُهُ هو المُوصِلَ المَرْمِيَّ به إلى الذين رُمُوا به من المشركينَ، والمسبِّبُ الرميةَ لرسولِهِ.

فيقال للمنكرين ما ذكرنا: قد علمتم إضافةَ الله رَمْي نبيه ﷺ المشركينَ إلى نفسه، بعد وصفه نبيَّه به، وإضافته إليه، وذلك فِعْلٌ واحد، كان من الله تسبيبهُ وتسديدهُ، ومن رسولِ الله ﷺ الحذفُ والإرسالُ، فما تنْكِرُونَ أنْ يكونَ كذلك سائر أفعالِ الخَلْقِ المُكْتَسبة: مِنَ اللهِ الإنشاءُ والإنجازُ بالتسبيب، ومن الخَلْقِ الاكتسابُ بالقُوى؟ فلن يقولوا في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمُوا في الآخر مثله.

وأما قوله: «وليُبْلِيَ المؤمنينَ منه بلاءً حسناً»، فإنَّ معناه: وكي يُنْعِمَ على المؤمنينَ باللهِ ورسوله بالظفرِ بأعدائهم، ويُغَنِّمَهُم ما معهم، ويكتبَ لهم أجورَ أعمالِهم وجهادَهُمْ مع رسولِ الله ﷺ.

وذلـك «البـلاء الحسن»، رميُ الله هؤلاءِ المشـركينَ، ويعني بـ«البلاء الحسن»، النعمةَ الحسنةَ الجميلةَ، وهي ما وصفت وما في معناه.

وقـوله: «إن الله سميع عليم»، يعني: إنَّ الله سميع، أيها المؤمنون، لدعاءِ النبيِّ ﷺ، ومناشَدَتِه رَبَّهُ، ومسألته إياهُ إهلاكَ عَدُوِّهِ وعَدُوِّكُمْ ولقِيْلِكُمْ وقِيلِ جميعِ خَلْقِه. «عليمٌ»، بذلك كُلِّه، وبما فيه صلاحُكُمْ وصلاحُ عبادِه، وغير ذلك من الأشياء، محيطٌ به، فاتقوه وأطيعوا أمرَهُ وأمرَ رسولِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ذلكم»، هذا الفعلُ من قَتْلِ المشركينَ، ورَمْيهم حتى انهزموا، وابتلاءِ المؤمنينَ البلاء الحسن بالظَّفَرِ بهم، وإمكانِهم من قَتلِهم وأسْرِهم فِعْلُنَا الذي فَعَلْنَا. «وإنَّ الله مُوهِنُ كيدِ الكافرين»، يقول: واعلموا أنَّ الله مع ذلـك مُضْعِفُ «كيدِ الكافرين»، يعني: مَكْرَهُمْ، حتى يَذِلُّوا وينقادوا للحقِّ، أو يُهْلَكوا.

وقد اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «موهن».

فقرأته عامة قَرأةِ أهلِ المدينة وبعض المكيين والبصريين: ﴿مُوَهِّنُ﴾ بالتشديد، من «وَهَّنْتُ الشيءَ»، ضَعَّفته.

وقرأ ذلك عامة قرأة الكوفيين: ﴿مُوهِنُ﴾، من «أَوْهَنْتُهُ، فأنا مُوهِنُهُ»، بمعنى: أضعفته.

والتشديدُ في ذلك أعجبُ إليَّ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه كان ينقضُ ما يُبرمهُ المشركونَ لرسولِ الله ﷺ وأصحابه، عَقْداً بعد عَقْدٍ، وشيئاً بعد شيءٍ. وإنْ كان الآخرُ وجهاً صحيحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه للمشركينَ الذين حاربوا رسولَ الله ﷺ ببدر: «إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فقد جاءَكُمُ الفتحُ»، يعني: إن تستحكموا الله على أقطعِ الحِزْبَيْن للرحمِ، وأظلمِ الفئتين، وتَستنصِرُوه عليه، فقـد جاءكم حُكْمُ الله، ونَصْرُه المظلوم على الظالمِ، والمُحِقَّ على المُبْطِلِ.

وأما قوله: «وإنْ تَنْتَهُوا فهو خيرٌ لكم»، فإنه يقول: «وإنْ تنتهوا»، يا معشرَ قريش، وجماعة الكفار، عن الكفرِ باللهِ ورسولِهِ، وقتال نَبيِّه ﷺ والمؤمنينَ به. «فهو خيرٌ لكم»، في دنياكم وآخرتكم. «وإنْ تعودوا نَعُدْ»، يقول: وإنْ تعودوا لحربِهِ وقتالِه وقتالِ أتباعِه المؤمنين. «نَعُدْ»، أي: بمثلِ الوقعةِ التي أوقعتُ بكم يومَ بدر.

وقوله: «ولن تُغنيَ عنكم فِئَتُكم شيئاً ولو كَثُرَتْ»، يقول: وإنْ تَعودوا نَعُدْ لهلاكِكُمْ بأيدي أوليائي وهزيمتِكُمْ، ولَنْ تُغنيَ عنكم عند عَوْدِي لقتلِكم بأيديهم وسَبْيكم وهـزمكم. «فئتكم شيئـاً ولو كثرت»، يعني: جندهم وجماعتهم من المشركينَ، كما لم يُغْنُوا عنهم يومَ بدرٍ، مع كثرةِ عددهم وقلةِ عَدَدِ المؤمنينَ، شيئاً. «وأنَّ الله مع المؤمنين»، يقول جَلَّ ذِكْرُه: وأنَّ الله مع مَنْ آمَن به من عبادِه على مَنْ كَفَرَ به منهم، ينصرهم عليهم، أو يُظْهِرُهم كما أظهرَهُمْ يومَ بدرٍ على المشركين.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «وأن الله مع المؤمنين».

ففتحها عامةُ قَرَأَةِ أهل المدينة بمعنى: ولن تغنيَ عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله لمع المؤمنين ـ فعطف بـ«أن» على موضع «ولو كثرت»، كأنه قال: لكثرتها، ولأنَّ الله مع المؤمنين. ويكون موضع «أن» حينئذٍ نصباً على هذا القول[1].

وكان بعضُ أهلِ العربية يزعمُ أنَّ فتحها إذا فتحت، على: «وأنَّ الله موهنُ كيدِ الكافرين»، «وأنَّ الله مع المؤمنين»، عطفاً بالأخرى على الأولى.

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الكوفيين والبصريين: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾، بكسر الألف، على الابتداء، واعْتَلُّوا بأنها في قراءة عبدالله: ﴿وإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأَوْلى القراءتين بالصوابِ، قراءةُ مَنْ كسر «إن» للابتداء، لتقضِّي الخبرِ قبلَ ذلك عما يقتضي قوله: «وأن الله مع المؤمنين».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٤٠٧.

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله «أطيعوا الله ورسوله»، فيما أمَرَكُمْ به وفيما نَهاكُمْ عنه. «ولا تولوا عنه»، يقول: ولا تُدْبِرُوا عن رسولِ الله ﷺ مخالفينَ أمْرَهُ ونَهْيَهُ. «وأنتم تسمعون»، أمرَهُ إياكُمْ ونَهْيَهُ، وأنتم به مؤمنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ باللهِ ورسولِه من أصحابِ نبيِّ الله ﷺ: لا تكونوا، أيها المؤمنون، في مخالفةِ رسولِ الله ﷺ، كالمشركينَ الذين إذا سمعوا كتابَ الله يُتْلَى عليهم قالوا: «قد سمعنا»، بآذاننا. «وهم لا يسمعون»، يقول: وهم لا يعتبرونَ ما يسمعونَ بآذانِهم ولا ينتفعونَ به، لإعراضِهم عنه، وتَرْكِهم أنْ يُوعُوه قلوبَهُمْ ويَتَدَبَّرُوهُ. فجعلهم الله، إذْ لم يَنتفعُوا بمواعظِ القرآنِ وإنْ كانوا قد سَمِعُوها بآذانِهم، بمنزلةِ مَنْ لم يَسْمَعْهَا. يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ لأصحابِ رسولِ الله ﷺ: لا تكونوا أنتم في الإعراضِ عن أمرِ رسولِ الله، وتركِ الانتهاءِ إليه وأنتم تسمعونَهُ بآذانِكم، كَهؤلاءِ المشركينَ الذين يسمعونَ مواعظَ كتابِ الله بآذانهم، ويقولون: «قد سمعنا»، وهُمْ عن الاستماعِ لها والاتِّعاظِ بها مُعْرِضُونَ كمن لا يسمَعُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ شَرَّ ما دَبَّ على الأرضِ من خَلْقِ اللهِ عند الله،

الذين يُصْغُونَ[1] عن الحَقِّ لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويَتَّعِظُوا به، وينكُصون عنه إنْ نطقوا به، الذين لا يعقلونَ عن الله أمْرَهُ ونهيه، فيستعملوا بهما أبدانهم.

واخْتُلِفَ فيمن عُنِيَ بهذه الآية.

فقال بعضهم: عُني بها نفرٌ من المشركينَ.

وقال آخرون: عُنيَ بها المنافقون.

وأولى القـولين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: إنه عُنيَ بهذه الآيةِ مشركُو قريش، لأنها في سياقِ الخبرِ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾

تأويلُ الآية: ولـو عَلِمَ اللهُ في هؤلاءِ القائلينَ خيراً، لأَسْمَعَهُمْ مواعظَ القرآنِ وعِبَرهُ، حتى يَعْقِلُوا عن الله عَزَّ وجَلَّ حُجَجَهُ منه، ولكنه قد عَلِمَ أنه لا خيرَ فيهم، وأنهم مِمَّنْ كُتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون. ولو أَفْهَمَهُمْ ذلك حتى يعلموا ويفهموا، لَتَوَلَّوْا عن اللهِ وعن رسولهِ، وهم مُعْرِضُونَ عن الإيمانِ بما دَلَّهُمْ على صحته مواعظُ الله وعِبَرُه وحججه، معاندونَ للحقِّ بعد العلمِ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

اختلف أهـلُ التأويل في تأويل قوله: «إذا دعاكم لما يحييكم». فقال

(١) أي يميلون عن الحق، وصغت الشمس والنجوم: مالت للغُروب، وصغا إلى القوم: كان هواه معهم. وصغا على القوم: كان هواه مع غيرهم.

بعضُهم: معناه: اسْتَجِيبُوا لله وللرسولِ إذا دعاكم للإيمانِ.

وقال آخرون: للحَقِّ.

وقال آخرون: معناه: إذا دَعَاكُمْ إلى ما في القرآن.

وقال آخرون: معناه: إذا دعاكم إلى الحربِ وجهادِ العدو.

وأَوْلى الأقـوال في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قالَ: معناه: استجيبوا للهِ وللرسولِ بالطاعةِ، إذا دعاكم الرسولُ لما يُحْيِيكُمْ من الحَقِّ. وذلك أن ذلك إذا كان معناه، كان داخلاً فيه الأمرُ بإجابتِهم لقتالِ العدوِّ والجهادِ، والإجابة إذا دعاكم إلى حُكْمِ القرآنِ، وفي الإجابةِ إلى كل ذلك حياةُ المُجِيبِ. أما في الدنيا، فبقاءُ الذِّكْرِ الجميل، وذلك له فيه حياةٌ. وأما في الآخرة، فحياةُ الأبدِ في الجِنانِ والخلود فيها.

وأمـا قولُ مَنْ قال: معنـاه: الإسلامُ، فقولٌ لا معنى له. لأنَّ الله قد وصفهم بالإيمانِ بقوله: «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للهِ وللرسولِ إذا دعاكم لما يحييكم»، فلا وَجْهَ لأَنْ يُقالَ للمؤمن: اسْتَجِبْ لله وللرسولِ إذا دعا الى الإسلامِ والإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضُهم: معناه: يَحُولُ بين الكافرِ والإيمان، وبين المؤمنِ والكفر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يَحُولُ بين المرءِ وعقله، فلا يدري ما يَعمل.

وقال آخرون: معناه: يَحولُ بن المرء وقلبه، أنْ يقدرَ على إيمانٍ أو كُفْرٍ إلا بإذنِه.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنه قريبٌ من قلبِه، لا يَخْفَى عليه شيءٌ أظْهَرَهُ أو أسَرَّهُ.

وأوْلى الأقوالِ بالصوابِ عندي في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ ذلك خبر من الله عَزَّ وجَلَّ أنه أَمْلَكُ لقلوبِ عبادِه منهم، وأنه يَحُولُ بينهم وبينها إذا شاءَ، حتى لا يقدرَ ذُو قلبٍ أن يُدركَ به شيئاً من إيمانٍ أو كفر، أو أن يَعِيَ به شيئاً، أو أنْ يفهمَ، إلا بإذنِه ومشيئته. وذلك أنَّ «الحول بين الشيء والشيء»، إنما هو الحجزُ بينهما، وإذا حَجَزَ جَلَّ ثناؤُهُ بين عبدٍ وقلبهِ في شيءٍ أنْ يُدْرِكَهُ أو يفهمَهُ، لم يَكُنْ للعبدِ إلى إدراكِ ما قد مَنَعَ اللهُ قلبَهُ إدراكَهُ سبيلٌ.

وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قولُ مَنْ قال: «يحولُ بين المؤمن والكفر، وبين الكافرِ والإيمان»، وقولُ مَنْ قال: «يحولُ بينه وبين عقله»، وقولُ مَنْ قال: «يحولُ بينه وبين قلبه حتى لا يستطيعَ أنْ يؤمنَ ولا يكفرَ إلا بإذنه»، لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ إذا حال بين عبدٍ وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حِيلَ بينه وبينه ما مُنِعَ إدراكه به، على ما بَيَّنْتُ.

غير أنه ينبغي أنْ يقالَ: إنَّ الله عَمَّ بقولِهِ: «واعلموا أنَّ اللهَ يحولُ بين المرءِ وقلبه»، الخبرَ عن أنَّهُ يحولُ بين العبدِ وقلبه، ولم يخصصْ من المعاني التي ذكرنا شيئاً دونَ شيءٍ، والكلامُ محتملٌ كُلَّ هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجبُ التسليمُ له.

وأما قوله: «وأنه إليه تُحْشَرُونَ»، فإنَّ معناه: واعلموا، أيها المؤمنونَ، أيضاً، مع العلم بأنَّ الله يحولُ بين المرءِ وقلبه: أنَّ الله الذي يقدرُ على قلوبكم، وهو أملكُ بها منكم، إليه مَصِيرُكم ومَرْجِعُكم في القيامة، فَيُوفِّيكُمْ

جزاءَ أعمالِكم، المحسنَ منكم بإحسانِه، والمسيءَ بإساءتِه، فاتَّقُوه وراقبوهُ فيما أمَرَكُمْ ونَهاكم هو ورسولهُ أنْ تُضيعوه، وأنْ لا تَستجيبُوا لرسولِه إذا دعاكم لما يُحْيِيكُمْ، فيوجب ذلك سَخَطَه، وتستحقوا به أليمَ عذابِه حين تُحْشَرُونَ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: للمؤمنينَ به وبرسوله: «اتقوا»، أيها المؤمنون. «فتنةً»، يقول: اختباراً من اللهِ يَخْتبركُمْ، وبلاءً يَبْتَلِيكم. «لا تُصِيبَنَّ»، هذه الفتنةُ التي حَذَّرْتُكُمُوها. «الذين ظلموا»، وهم الذين فَعَلُوا ما ليسَ لهم فِعْلُه إما أجْرامٍ أصابـوها، وذنوبٍ بينهم وبين الله رَكِبُوها. يحذرهم جَلَّ ثناؤُهُ أنْ يركَبُوا له معصيةً، أو يأتوا مأثماً يستحقُّونَ بذلك منه عقوبةً.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وهم الذين عُنوا بها.

وأما قوله: «اعلموا أنَّ الله شديدُ العقاب»، فإنه تحذيرٌ من اللهِ، ووعيدٌ لمن واقَـعَ الفتنةَ التي حَذَّرَهُ إياها بقوله: «واتقوا فتنة». يقول: اعلموا، أيها المؤمنون، أنَّ رَبَّكم شديدٌ عقابُه لمن افْتُتِنَ بظلمِ نفسِه، وخالفَ أمرَهُ فأثِمَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وهذا تذكيرٌ من الله عَزَّ وجَلَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ، ومناصحةٌ. يقول:

أطيعوا اللهَ ورسولَهُ، أيها المؤمنونَ، واستجيبُوا له إذا دعاكم لما يُحْييكم، ولا تخالِفُوا أمرَه وإنْ أمركم بما فيه عليكم المَشَقَّةُ والشِدَّةُ، فإنَّ الله يُهَوِّنُه عليكم بطاعتِكُمْ إياهُ، ويعجِّلُ لكم منه ما تُحبُّونَ، كما فعل بكم إذْ آمنتم به واتَّبعتمُوه وأنتم قليلٌ يَسْتضعفُكم الكفارُ فَيَفْتِنُونَكُمْ عن دِينكم، ويَنالونكم بالمكروهِ في أنفسِكم وأعراضِكم، تخافونَ منهم أنْ يَتَخَطَّفُوكم فيقتلوكم ويَصْطَلِمُوا جميعَكم. «فآواكم»، يقول: فجعلَ لكم مأوى تأْوُونَ إليه منهم. «وأيَّدَكُمْ بنصره»، يقولُ: وقَوَّاكُمْ بنصرِه عليهم حتى قتلتم منهم مَنْ قتلتم ببدر. «ورزقكم من الطيبات»، يقول: وأطعمَكُمْ غَنِيمتَهم حلالاً طيباً. «لعلكم تشكرون»، يقول: لكي تَشْكُروه على ما رَزَقكم وأنعمَ به عليكم من ذلك وغيرِه من نِعَمِه عندكم.

واختلف أهلُ التأويل في «الناس» الذين عُنُوا بقوله: «أنْ يَتخطَّفكُمْ الناسُ».

فقال بعضهم: كفارُ قريش.

وقال آخرون: بل عُني به غيرُ قريش.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: «عُني بذلك مشركو قريش»، لأنَّ المسلمينَ لم يكونوا يخافون على أنفسهم قبلَ الهجرةِ من غيرهم، لأنهم كانوا أدنى الكفارِ منهم إليهم، وأشدَّهُمْ عليهم يومئذٍ، مع كَثْرةِ عَدَدِهم وقلةِ عَدَدِ المسلمين.

وأما قوله: «فآواكم»، فإنه يعني: آواكم المدينةَ، وكذلك قوله: «وأيدكم بنصره»، بالأنصارِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ باللهِ ورسولِه من أصحابِ نبيه ﷺ: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «لا تخونوا الله»، وخيانَتُهم اللهَ ورسولَهُ، كانتْ بإظهارِ مَنْ أظهرَ منهم لرسولِ الله ﷺ والمؤمنينَ الإيمانَ في الظاهرِ والنصيحةَ، وهو يَسْتَسِرُّ الكُفْرَ والغِشَّ لهم في الباطنِ، يَدُلُّونَ المشركينَ على عورَتِهم، ويخبرونهم بما خفيَ عنهم من خبرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ: واعلموا، أيها المؤمنونَ، أنَّما أموالُكُم التي خَوَّلَكُمُوهَا الله، وأولادكم التي وَهَبَهَا اللهُ لكم، اختبارٌ وبلاءٌ، أعطاكُمُوها ليختبرَكُمْ بها ويَبْتليكم، لينظرَ كيفَ أنتم عاملونَ من أداءِ حَقِّ الله عليكم فيها، والانتهاءِ إلى أمْرِه ونهيِهِ فيها. «وأنَّ الله عنده أجرٌ عظيم»، يقول: واعلموا أنَّ الله عنده خيرٌ وثوابٌ عظيم، على طاعَتِكُمْ إياهُ فيما أمركم ونهاكم، في أموالِكم وأولادِكم التي اختبركُمْ بها في الدنيا. وأطيعُوا اللهَ فيما كَلَّفَكُم فيها، تَنالُوا به الجزيلَ من ثوابِهِ في مَعادِكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، إنْ تَتَّقُوا اللهَ بطاعتِه

وأداءِ فرائضِه، واجتناب معاصيه، وتركِ خيانَته وخيانةِ رسولِه وخيانة أماناتكم. «يَجْعَلْ لكم فُرقاناً»، يقول: يَجْعَلْ لكم فَصْلاً وفرْقاً بين حَقِّكم وباطلِ مَنْ يَبْغِيكُم السُّوءَ من أعدائِكم المشركينَ، بنصره إيَّاكُم عليهم، وإعطائِكم الظفرَ بهم. «ويُكَفِّرْ عنكم سَيِّئَاتِكم»، يقول: ويَمْحُو عنكم ما سَلَفَ من ذنوبكم بينكم وبينه. «ويغفرْ لكم»، يقول: ويُغَطِّيها فَيَسْتُرها عليكم، فلا يُؤاخِذكُم بها. «والله ذُو الفضل العظيم»، يقول: والله الذي يفعلُ ذلكَ بكم، له الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خَلْقِه بفعله ذلك وفعلِ أمثاله. وإنَّ فعله جزاءٌ منه لعبده على طاعته إياه، لأنه الموفِّقُ عَبْدَهُ لطاعته التي اكتسبها، حتى استحق من ربه الجزاء الذي وعَدَهُ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾

(يعني): واذْكُرْ، يا محمدُ، نعمتي عندكَ، بمكري بِمَنْ حاولَ المكرَ بكَ من مشركي قومكَ، بإثباتكَ أو قَتْلِكَ أو إخراجكَ من وطنكَ، حتى استنقذتُكَ منهم وأهلكتهم، فامْضِ لأمري في حربِ مَنْ حاربكَ من المشركينَ، وتَوَلَّى عَنْ إجابةِ ما أرسلتُكَ به من الدِّينِ القيم، ولا يَرْعَبَنَّكَ كثرةُ عَدَدِهم، فإنَّ ربَّكَ خيرُ الماكرينَ بمن كَفَرَ به، وعَبَدَ غيرَهُ، وخالفَ أمره ونهيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا تُتْلَى على هؤلاءِ الذينَ كَفَرُوا آيات كتابِ الله الواضحة لِمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِفَهْمِه. «قالوا»، جَهْلاً منهم، وعِناداً للحقِّ،

وهم يعلمون أنهم كاذبون في قِيْلِهم. «لو نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا»، الذي تُلِيَ علينا. «إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولين»، يعني: أنهم يقولون: ما هذا القرآنُ الذي يُتْلى عليهم إلَّا أساطيرُ الأولين.

وإنما عَنَى المشركونَ بقولهم: «إنْ هذا إلَّا أساطيرُ الأولين»، إنْ هذا القرآنُ الذي تتلوه علينا يا محمدُ، إلَّا ما سَطَّرهُ الأولون وكَتَبُوهُ من أخبارِ الأممِ! كأنهم أضافُوه إلى أنه أُخِذَ عن بني آدمَ، وأنه لم يُوحِهِ اللهُ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكُرْ، يا محمدُ، أيضاً ما حَلَّ بمن قال: «اللهُمَّ إنْ كان هذا هو الحَقَّ من عندكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم»، إذ مكرت بهم، فأتيتهم بعذاب أليم، وكان ذلك العذاب، قَتْلَهم بالسيفِ يومَ بدر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: تأويلُه: «وما كانَ اللهُ ليعذبهم وأنتَ فيهم»، أي: وأنتَ مقيمٌ بين أَظْهُرِهم. قال: وأُنزلتْ هذه على النبيِّ ﷺ وهو مقيمٌ بمكة. قال: ثم خرجَ النبيُّ ﷺ من بين أظهرهم، فاستغفرَ مَنْ بها من المسلمينَ، فأنزل بعد

خروجِهِ عليه، حين استغفرَ أولئكَ بها: «وما كانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وهم يستغفرونَ».
قال: ثم خرجَ أولئكَ البقيةُ من المسلمينَ من بينِهِم، فعذّب الكفار.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما كانَ اللهُ ليعذِّبَ هؤلاءِ المشركينَ من قريش بمكةَ وأنتَ فيهم، يا محمدُ، حتى أخرجكَ من بينِهم. «وما كان الله معذبهم»، وهؤلاء المشركون، يقولون: «يا رَبِّ غُفرانكَ!»، وما أشبهَ ذلك من معاني الاستغفار بالقولِ. قالوا: وقوله: «وما لَهُمْ ألاَّ يُعَذِّبَهُمْ اللهُ»، في الآخرةِ.

وقال آخرون: معنى ذلك: «وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم»، يا محمدُ، وما كانَ اللهُ مُعَذِّبَ المشركينَ وهم يستغفرونَ أي: لو اسْتَغْفَرُوا. قالوا: ولم يكونوا يستغفرون، فقال جَلَّ ثناؤُهُ إذْ لم يكونوا يستغفرون: «وما لَهُمْ ألاَّ يعذِّبَهُم الله وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام».

وقال آخرون: معنى ذلك: وما كانَ الله ليعذبهم وهم يُسْلِمُونَ. قالوا: و«استغفارهم»، كان في هذا الموضع، إسلامَهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفيهم مَنْ قد سَبَقَ له من اللهِ الدخولُ في الإسلامِ.

وقال آخرون: بل معناهُ: وما كان الله معذبهم وهم يُصَلُّون.

وأوْلى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: تأويله: «وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم»، يا محمدُ، وبين أظهرهم مقيمٌ، حتى أخرجكَ من بينِ أظْهُرِهم، لأنِّي لا أُهلكُ قريةً وفيها نَبِيُّها. «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»، من ذنوبهم وكُفْرِهم، ولكنهم لا يستغفرونَ من ذلك، بَلْ هُمْ مُصِرُّونَ عليه، فهم للعذابِ مستحقُّونَ. كما يقال: «ما كنتُ لأُحْسِنَ إليكَ وأنت تُسِيءُ إليَّ»، يُرَادُ بذلك: لا أُحْسِنُ إليكَ، إذا أسأتَ إليَّ، ولو أسأتَ إليَّ لم أُحْسِنْ إليكَ، ولكنْ أحسن إليكَ لأنك لا تسيءُ إليَّ. وكذلك ذلك،

ثم قيل: «وما لهم ألَّا يُعَذِّبَهُم اللهُ وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام»، بمعنى: وما شأنهم، وما يمنعهم أنْ يعذبهم الله وهم لا يستغفرونَ اللهَ مِنْ كُفْرِهم فيؤمنوا به، وهم يصدون المؤمنينَ باللهِ ورسوله عن المسجدِ الحرام؟

وإنما قلنا: «هذا القول أوْلى الأقوال في ذلك بالصواب»، لأنَّ القومَ ـ أعني مشركي مكة ـ كانوا استعجَلُوا العذابَ، فقالوا: «اللهم إنْ كانَ ما جاءَ به محمدٌ هو الحَقّ، فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم»، فقال الله لنبيه: «ما كنتُ لِأُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فيهم، وما كنتُ لأعذبهم لو استغفروا، وكيف لا أعذبهم بعد إخراجكَ منهم، وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام»؟. فأعْلَمَهُ جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ الذي استعجَلُوا من العذابِ حائِقٌ بهم ونازلٌ، وأعلمهم حال نزوله بهم، وذلك بعد إخراجه إياهُ من بين أظهُرهم. ولا وجهَ لإيعادِهم العذابَ في الآخرة، وهم مُسْتَعْجِلُوهُ في العاجل، ولاشَكَّ أنهم في الآخرة إلى العذابِ صائرون. بل في تعجيل الله لهم ذلك يومَ بَدْرٍ، الدليلُ الواضحُ على أنَّ القولَ في ذلك ما قلنا.

وكذلك لا وجهَ لقولِ مَنْ وجَّه قوله: «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»، إلى أنه عَنَى به المؤمنين، وهو في سياق الخبرِ عنهم، وعَمَّا اللهُ فاعلٌ بهم. ولا دليلَ على أنَّ الخبرَ عنهم قد تَقَضَّى، وعلى ذلك [كُنِيَ] به عنهم، وأن لا خلافَ في تأويلِهِ من أهله موجودٌ.

وكذلك أيضاً لا وجهَ لقولِ مَنْ قال: ذلك منسوخٌ بقوله: «وما لهم ألَّا يُعَذِّبَهُمْ اللهُ وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام»، الآية، لأنَّ قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وما كان الله مُعَذِّبَهُمْ وهم يَستغفرون»، خبرٌ، والخبرُ لا يجوزُ أنْ يكونَ فيه نسخٌ، وإنما يكون النسخُ للأمرِ أو النهي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا

ﭐلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما لهؤلاءِ المشركينَ ألاَّ يُعَذِّبَهُمْ اللهُ وهم يصدون عن المسجد الحرام، ولم يكونوا أولياءَ اللهِ. «إنْ أولياؤُه»، يقول: ما أولياءُ اللهِ. «إلاَّ المتقـون»، يعني: الـذين يَتَّقُونَ اللهَ بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه. «ولكن أكثـرهم لا يعلمـون»، يقول: ولكن أكثرَ المشركينَ لا يعلمونَ أنَّ أولياءَ الله المتقون، بل يَحسبونَ أنهم أولياءُ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما لهؤلاءِ المشركينَ ألاَّ يُعَذِّبهم الله، وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرام الذين يصلون لله فيه ويعبدونه، ولم يكونوا للهِ أولياءَ، بَلْ أولياؤه الـذين يصـدونهم عن المسجدِ الحرام، وهم لا يُصَلُّونَ في المسجدِ الحرام. «وما كان صلاتُهم عندَ البيتِ»، يعني بيتَ اللهِ العتيق. «إلاَّ مُكاءً»، وهو الصفير.

وأمـا «التصديةُ»، فإنها التصفيقُ، يقال منه: «صَدَّى يُصَدِّي تصديةً»، و«صفَّق»، و«صفَّح»، بمعنى واحد.

وأما قوله: «فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون»، فإنه يعني العذابَ الذي وَعَدَهُمْ به بالسيفِ يومَ بَدْرٍ. يقولُ للمشركينَ الذين قالوا: «اللهُمَّ إنْ كانَ هذا هو الحق من عنـدكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء» الآية، حين أتاهم بما استعجَلُوه من العذابِ. «ذوقوا»، أي: اطْعَمُوا، وليس بذوق بفَمٍ، ولكنه ذوقُ بالحسِّ ووجـودُ طَعْمِ ألمِـه بالقلوبِ. يقـول لهم: فذوقوا العذابَ بما كنتم تَجْحدونَ أنَّ الله مُعَذِّبكم به على جحودِكم توحيدَ رَبِّكم، ورسالةَ نَبِيِّكُمْ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين كفروا باللهِ ورسولِه يُنفقونَ أموالَهم، فيعطونها أمثالَهم من المشركينَ ليتقوَّوْا بها على قتالِ رسولِ الله ﷺ والمؤمنينَ به، ليصدُّوا المؤمنينَ باللهِ ورسولِه عن الإيمانِ بالله ورسوله، فَسَيُنْفِقُونَ أموالَهم في ذلك، ثم تكونُ نفقتُهم تلك عليهم. «حَسْرةً»، يقول: تصيرُ ندامةً عليهم، لأنَّ أموالَهم تذهبُ، ولا يَظفرونَ بما يَأْملونَ ويطمعونَ فيه من إطفاءِ نورِ الله، وإعلاءِ كلمةِ الكُفْرِ على كلمةِ الله، لأنَّ الله مُعْلي كلمته، وجاعل كلمة الكفرِ السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشرُ اللهُ الذين كفروا به وبرسولِه إلى جهنم، فَيُعَذَّبُونَ فيها، فأعْظِمْ بها حسرةً وندامةً لمن عاشَ منهم ومَنْ هلك! أما الحيُّ، فَحُرِبَ مالُه وذهبَ باطلاً في غير دَرَكِ نَفْعٍ، ورجعَ مغلوباً مقهوراً مَحْرُوباً مَسْلُوباً. وأما الهالكُ، فَقُتِلَ وسُلِبَ، وعُجِّلَ به إلى نارِ الله يَخْلُدُ فيها، نعوذُ بالله من غضبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يحشرُ الله هؤلاء الذين كفروا بربهم ويُنفقونَ أموالَهم للصَدِّ عن سبيلِ الله، إلى جهنم، ليفرق بينهم ـ وهم أهلُ الخبث، كما قال وسماهم «الخبيث» ـ وبين المؤمنينَ بالله وبرسوله، وهم «الطيبون»، كما سماهم

جَلَّ ثناؤُهُ . فميَّزَ جَلَّ ثناؤُهُ بينهم بأنْ أَسْكَنَ أهلَ الإيمانِ به وبرسوله جناته، وأنزل أهلَ الكفرِ نارَه.

ويعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ويجعلَ الخبيثَ بعضَهُ على بعض»، فيجعل الكفار بعضَهم فوقَ بعضٍ. «فيركمه جميعاً»، يقول: فيجعلُهم رُكاماً، وهو أنْ يجمعَ بعضَهم إلى بعضٍ حتى يَكثُروا، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ في صفة السحاب: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً﴾ [النور: ٤٣]، أي: مجتمعاً كثيفاً.

وقوله: «فيجعله في جهنم» يقول: فيجعل الخبيثَ جميعاً في جهنم - فوحَّـدَ الخبـرَ عنهم لتوحيدِ قوله: «لِيَميزَ اللهُ الخبيثَ»، ثم قال: «أولئك هم الخاسرون»، فجمع، ولم يقل: «ذلك هو الخاسرُ»، فردَّهُ إلى أوَّلِ الخبر.

ويعني بـ«أولئك»، الذين كفروا، وتأويله: هؤلاءِ الذين يُنفقونَ أموالَهم لِيَصُدُّوا عن سبيلِ الله «هم الخاسرون»، ويعني بقوله: «الخاسرون»، الذين غُبِنَتْ صفقتُهم، وخَسِرَتْ تجارتُهم. وذلك أنهم شَرَوْا بأموالهم عذابَ الله في الآخـرة، وتَعَجَّلُوا بإنفاقِهم إياها فيما أنفقوا من قتالِ نبيِّ الله والمؤمنينَ به، الخزيَ والذلَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، «للذين كفروا، من مشركي قومكَ. «إنْ يَنْتَهُوا»، عَمَّا هُمْ عليه مُقيمونَ من كُفْرِهم بالله ورسوله، وقتالِكَ وقتالِ المؤمنينَ، فَيُنِيبُوا إلى الإيمانِ ـ يغفر اللهُ لهم ما قَدْ خَلاَ ومَضَى من ذنوبِهم قبلَ إيمانِهم وإنابتِهم إلى طاعةِ الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم. «وإنْ يَعُودوا»، يقول: وإنْ يَعُدْ هؤلاءِ المشركونَ لقتالِكَ بعد الوقعةِ التي أوقَعْتَها

بهم يومَ بدرٍ - فقد مَضَتْ سُنَّتي في الأوَّلينَ منهم ببدر، ومن غيرِهم من القرونِ الخالية، إذْ طَغَوْا وكَذَّبُوا رسلي ولم يَقْبَلُوا نُصْحَهُمْ، من إحلالِ عاجلِ النِّقَمِ بهم، فأحلَّ بهؤلاء إنْ عادوا لحربكَ وقتالك، مثال الذي أحللتُ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: للمؤمنينَ به وبرسوله: وإنْ يَعُدْ هؤلاءِ لحربكَ، فقد رأيتم سنتي فيمَنْ قاتلكم منهم يومَ بدر، وأنا عائدٌ بمِثْلها فيمَنْ حارَبَكُمْ منهم، فقاتلوهم حتى لا يكونَ شِرْكٌ، ولا يُعْبَد إلَّا الله وحده لا شريكَ له، فيرتفع البلاءُ عن عبادِ الله من الأرض - وهو «الفتنة» - «ويكونَ الدين كله لله»، يقول: وحتى تكونَ الطاعةُ والعبادةُ كُلُّها للهِ خالصةً دونَ غيره.

وأما قوله: «فإن انتهوا»، فإنَّ معناه: فإنِ انتهوا عن الفتنةِ، وهي الشِّرْكُ بالله، وصارُوا إلى الدِّينِ الحق معكم. «فإنَّ الله بما يعملونَ بصيرٌ»، يقول: فإنَّ الله لا يَخْفَى عليه ما يعملونَ من تَرْكِ الكُفْرِ والدخولِ في دينِ الإسلام، لأنه يُبْصِرُهم ويبصرُ أعمالكم، والأشياءُ كلها متجليةٌ له، لا تَغِيبُ عنه، ولا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرَ من ذلكَ ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ ۞

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ أدبَرَ هؤلاءُ المشركونَ عما دَعَوْتُموهم إليه، أيها المؤمنونَ، من الإيمانِ باللهِ ورسولِهِ، وتركِ قتالِكم على كُفْرِهم، فأبوا إلَّا

الإصرارَ على الكفرِ وقتالِكُمْ، فقاتِلُوهم، وأيقِنُوا أنَّ الله مُعِينُكم عليهم وناصِرُكم. «نعم المولى»، هُوَ لكم، يقول: نِعْمَ المعينُ لكم ولأوليائِه. «ونعم النصيرُ»، وهو الناصرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ

وهذا تعليمٌ من الله عَزَّ وجَلَّ المؤمنينَ قَسْمَ غنائِمِهم إذا غَنِمُوها. يقول تعالى ذِكْرُه: واعلموا، أيها المؤمنونَ، أنَّ ما غَنِمْتُمْ من غنيمةٍ.

واختلف أهلُ العلم في معنى «الغنيمة» و«الفيء».

فقال بعضهم: فيهما معنيان، كُلُّ واحدٍ منهما غير صاحبه. قالوا: إذا ظهرَ المسلمونَ على المشركينَ وعلى أرضِهم وأخذوهم عنوةً، فما أَخَذُوا من مالٍ ظَهَرُوا عليه فهو «غنيمةٌ»، وأما الأرضُ فهي في سوادنا هذا «فيءٌ».

وقال آخرون: «الغنيمة»، ما أُخِذَ عنوةً، و«الفيء»، ما كانَ عن صُلْحٍ.

وقال آخرون: «الغنيمةُ» و«الفيءُ»، بمعنى واحد. وقالوا: هذه الآيةُ التي في «الأنفال»، ناسخةٌ قولَهُ: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلْرَّسُولِ﴾ الآية، [الحشر: ٧].

وقد بَيَّنَّا فيما مضى «الغنيمة»، وأنها المالُ يُوصَلُ إليه من مالِ مَنْ خَوَّلَ اللهُ مالَهُ أهلَ دِينِه، بِغَلَبَةٍ عليه وقهرٍ بقتال.

فأما «الفيء»، فإنه ما أفاءَ اللهُ على المسلمينَ من أموالِ أهل الشِّرْكِ، وهو ما رَدَّهُ عليهم منها بصلحٍ من غير إيجافِ خيلٍ ولا رِكاب. وقد يجوزُ أنْ يُسَمَّى ما ردَّته عليهم منها سيوفُهم ورماحهم وغير ذلك من سلاحِهم «فيئاً» لأنَّ «الفيءَ»، إنما هو مصدرٌ من قولِ القائلِ: «فاءَ الشيء يفيء فيئاً»، إذا رجعَ، و«أفاءه الله»، إذا رَدَّهُ.

غيرَ أنَّ الذي ردّ حُكْمَ الله فيه من الفيءِ بحكمه في «سورة الحشر»، إنما هو ما وصفتُ صِفَتَهُ من الفيءِ، دونَ ما أوجفَ عليه منه بالخيلِ والركاب، لعلل قد بَيَّنْتُهَا في كتاب: «كتاب لطيف القول، في أحكام شرائع الدين»، وسَنُبَيِّنُه أيضاً في تفسير «سورة الحشر»، إذا انتهينا إليه إنْ شاء الله تعالى.

وأما قولُ مَنْ قال: الآيةُ التي في «سورة الأنفال»، ناسخةٌ الآيةَ التي في «سورة الحشر»، فلا معنى له، إذْ كان لا معنى في إحدى الآيتين ينفي حُكْمَ الأخرى. وقد بَيَّنا معنى «النسخ»، وهو نفيُ حُكْمٍ قد ثَبَتَ بحكمٍ خلافه، في غير موضعٍ، بما أغنى عن إعادتِه في هذا الموضع.

وأما قوله: «من شيء»، فإنه مُرَادٌ به: كُلُّ ما وقعَ عليه اسمُ «شيء»، مما خَوَّلَهُ الله المؤمنينَ من أموالِ مَنْ غلبوا على مالِه من المشركين، مما وَقَعَ عليه القَسْمُ، حتى الخيط والمِخْيط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضُهم قوله: «فأنَّ لله خُمُسَهُ»، مفتاحُ كلامٍ، ولله الدنيا والآخرةُ وما فيهما، وإنما معنى الكلام: فإنَّ للرسولِ خُمُسَهُ.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإنَّ لبيتِ الله خُمُسَهُ وللرسولِ.

وقال آخرون: ما سُمِّيَ لرسولِ الله ﷺ من ذلك، فإنما هو مُرَادٌ به قرابته، وليس لله ولا لرسولِه منه شيءٌ.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: قوله: «فأن لله خمسه»،

«افتتاح كلام»، وذلك لإجماع الحُجَّةِ على أنَّ الخمس غيرُ جائزٍ قَسْمُه على ستةِ أسهم. ولو كان لله فيه سَهْمٌ، لَوَجَبَ أن يكونَ خمسُ الغنيمةِ مقسوماً على ستةِ أسهمٍ. وإنما اختلفَ أهلُ العلم في قَسْمِه على خمسة فما دونها.

فأما مَنْ قال: «سهمُ الرسول لذوي القربى»، فقد أوجبَ للرسولِ سهماً، وإنْ كان ﷺ صَرَفَهُ إلى ذوي قرابته، فلم يخرج من أن يكون القسم كان على خمسة أسهم.

وأما قوله: «ولذي القُرْبى»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا فيهم.

فقال بعضهم: هم قرابةُ رسولِ الله ﷺ من بني هاشم.

وقال آخرون: بل هم قريش كُلُّها.

وقال آخرون: سَهْمُ ذي القربى كان لرسولِ الله ﷺ، ثم صارَ من بعدِه لوليِّ الأمرِ من بعده.

وقال آخرون: بل سهم ذي القربى كان لبني هاشم وبني المُطَّلِبِ خاصةً.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: «سهم ذي القربى، كان لقرابةِ رسولِ الله ﷺ من بني هاشم وحلفائهم من بني المطلب»، لأنَّ حليفَ القومِ منهم، ولصِحَّةِ الخبرِ الذي رواه جبير بن مُطْعِم قال: لما قَسَمَ رسولُ الله ﷺ سهمَ ذي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب، مشيتُ أنا وعثمان بن عفان رحمةُ الله عليه، فقلنا: يا رسولَ الله، هؤلاء إخوتُكَ بنو هاشم، لا ننكر فَضْلَهُم، لمكانِكَ الذي جعلكَ اللهُ به منهم، أرأيتَ إخوانَنا بني المطلب، أعطيتَهُمْ وتَرَكْتَنَا، وإنما نحنُ وهُمْ منكَ بمنزلةٍ واحدة؟ فقال: إنهم لم يُفَارِقُونا في جاهليةٍ ولا إسلام، إنما بَنُو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحد!

الأنفال: ٤١

ثم شَبَّكَ رسولُ الله ﷺ يديه إحْدَاهُمَا بالأخرى[1].

واختلف أهلُ العلم في حكمِ هذين السهمين - أعني سهمَ رسولِ الله ﷺ، وسهمَ ذي القربى بعد رسولِ الله ﷺ.

فقال بعضهم: يُصْرَفَانِ في معونةِ الإسلامِ وأهله.

وقال آخرون: سهمُ ذوي القربى من بعدِ رسولِ الله ﷺ مع سهمِ رسولِ الله ﷺ إلى وليِّ أمرِ المسلمين.

وقال آخرون: سهمُ رسولِ الله ﷺ مردودٌ في الخمس، والخمسُ مقسومٌ على ثلاثةِ أسهمٍ: على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وذلك قولُ جماعةٍ من أهل العراق.

وقال آخرون: الخمسُ كله لقرابةِ رسولِ الله ﷺ.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أنَّ سهمَ رسولِ الله ﷺ مردودٌ في الخمس، والخمسُ مقسومٌ على أربعةِ أسهمٍ: للقرابةِ سهمٌ، ولليتامى سهم، وللمساكين سهم، ولابن السبيل سهم، لأنَّ الله أوجبَ الخُمسَ لأقوامٍ موصوفينَ بصفاتٍ، كما أوجبَ الأربعةَ الأخماس لآخرينَ. وقد أجمعوا أنّ حَقَّ الأربعةِ الأخماس لن يستحقه غيرهم، فكذلك حَقُّ أهلِ الخُمُسِ لن يستحقه غيرهم. فغيرُ جائزٍ أنْ يخرجَ عنهم إلى غيرهم، كما غيرُ جائزٍ أنْ تخرجَ بعضُ السهمانِ التي جعلها الله لِمَنْ سَمَّاهُ في كتابه بفقدِ بعضِ مَنْ يستحقُّهُ، إلى غير أهلِ السهمانِ الأُخَر.

وأما «اليتامى»، فهم أطفالُ المسلمين الذين قد هلك آباؤهم.

و«المساكين»، هم أهلُ الفاقةِ والحاجةِ من المسلمين.

(١) أخرجه الطبري (١٦١١٩)، والشافعي في الأم: ٤/ ٧١، وأبو داود (٢٩٨٠)، وأبو عبيد في الأموال (٨٤٢) وإسناده صحيح.

و«ابن السبيل»، المجتاز سَفَراً قد انقُطِعَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أيقِنُوا، أيها المؤمنونَ، أنَّ ما غنمتم من شيءٍ فمقسومٌ القَسْمَ الذي بَيَّنْتُهُ وصَدِّقُوا به، إنْ كنتم أَقْرَرْتُمْ بوحدانيةِ الله وبما أنزلَ الله على عبدِه محمدٍ ﷺ يومَ فَرَّق بين الحَقِّ والباطلِ ببدر، فأبانَ فَلَجَ المؤمنينَ وظهورَهم على عَدُوِّهم، وذلك «يوم التقى الجمعانِ»، جمعُ المؤمنينَ وجمعُ المشركين، والله على إهلاكِ الكفرِ وإذلالِهم بأيدي المؤمنينَ، وعلى غيرِ ذلك مما يشاءُ. «قديرٌ»، لا يمتنع عليه شيءٌ أراده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أيْقِنُوا، أيها المؤمنونَ: واعْلَمُوا أنَّ قَسْمَ الغنيمةِ ما بيَّنه لكم رَبُّكم، إنْ كنتم آمنتم باللهِ وما أنزل على عبدِه يومَ بدر، إذْ فرقَ بين الحقِّ والباطلِ من نصرِ رسولِه. «إذْ أنتم»، حينئذٍ، «بالعُدْوَةِ الدنيا»، يقول: بشفيرِ الوادي الأدنى إلى المدينة. «وهُمْ بالعُدْوَةِ القُصوى»، يقول: وعَدُوُّكُمْ من المشركينَ نُزُولٌ بشَفيرِ الوادي الأقصى إلى مكة. «والركبُ أسفلَ منكم»، يقول: والعِيرُ فيه أبو سفيان وأصحابُه في موضعٍ أسفلَ منكم إلى ساحلِ البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾

الأنفال: ٤٢

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو كان اجتماعُكم في الموضعِ الذي اجتمعتَمْ فيه، أنتم أيها المؤمنون وعدوكم من المشركين، عن ميعَادٍ منكم ومنهم، «لاختلفتُمْ في الميعاد»، لكثرةِ عَدَدِ عَدُوِّكم، وقِلَّةِ عَدَدِكم، ولكنَّ الله جمعكم على غير ميعادٍ بينكم وبينهم. «ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً»، وذلك القضاءُ من الله، كان نَصْرَه أولياءَهُ من المؤمنينَ باللهِ ورسولِه، وهلاك أعدائه وأعدائِهم ببدرٍ بالقتلِ والأسر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنَّ الله جمعهم هنالك، ليقضيَ أمراً كان مفعولاً. «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنة».

وهذه اللامُ في قوله: «ليهلك» مكررة على «اللام» في قوله: «ليقضي»، كأنه قال: ولكنْ ليهلكَ مَنْ هَلَكَ عن بينة، جَمَعكم.

ويعني بقوله: «ليهلك مَنْ هَلَكَ عن بينةٍ»، ليموتَ مَنْ ماتَ من خَلْقِه، عن حجةٍ لله قد أُثبتت له وقَطَعَتْ عُذْرَهُ، وعبرة قد عاينها ورآها. «ويحيا مَنْ حَيَّ عن بينةٍ»، يقولُ: وليعيشَ مَنْ عاشَ منهم عن حجةٍ لله قد أُثبتت له وظهرت لعينه فعلمها، جمعنا بينكم وبين عدوكم هنالك.

وأمـا قولـه: «وإنَّ الله لسميعٌ عليم»، فإنَّ معنـاه: «وإن الله»، أيهـا المؤمنـون، «لسميع»، لقـولكم وقـولِ غيركم، حين يُري الله نبيه في منامه ويريكم، عَدُوَّكم في أعينكم قليلاً وهُمْ كثيرٌ، ويراكم عَدُوُّكُمْ في أعينهم قليلاً. «عليم»، بما تُضْمِرُه نفوسُكم، وتنطوي عليه قلوبُكم، حينئذٍ وفي كُلِّ حالٍ.

يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ لهم ولعباده: فاتقوا رَبَّكم، أيها الناسُ، في مَنْطِقِكم:

أنْ تنطقُوا بغيرِ حَقٍّ، وفي قلوبكم: أن تعتقدوا فيها غيرَ الرُّشدِ، فإنَّ الله لا يَخْفَى عليه خافيةٌ من ظاهرٍ أو باطن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ الله، يا محمدُ، سميعٌ لما يقول أصحابُكَ، عليمٌ بما يُضْمِرُونَهُ، إذ يُرِيكَ اللهُ عدوك وعدوهم «في منامك قليلًا»، يقول: يُرِيكَهُمْ في نومكَ قليلًا، فتخبرهم بذلك، حتى قَوِيَتْ قلوبهم، واجترأوا على حربِ عَدُوِّهم، ولو أراكَ رَبُّكَ عَدُوَّكَ وعَدُوَّهم كثيراً، لفشلَ أصحابُكَ فَجَبُنُوا وخَافوا، ولم يقـدروا على حربِ القومِ، ولتنازَعُوا في ذلك، ولكنَّ الله سَلَّمَهُم من ذلك بما أراكَ في منامك من الرؤيا، إنه عليمٌ بما تُجِنُّه الصدورُ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ مما تضمره القلوبُ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ولكنَّ الله سَلَّمَ».

فقال بعضهم: معناه: ولكن الله سَلَّمَ للمؤمنينَ أمرهم، حتى أظهرهم على عدوهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولكن الله سَلَّمَ أمرَهُ فيهم.

وأوْلى القولين في ذلك بالصوابِ عندي ما قاله ابنُ عباس، وهو أنَّ الله سَلَّمَ القومَ ـ بما أرى نَبِيَّه ﷺ في منامه ـ من الفشلِ والتنازعِ، حتى قويتْ قلوبُهم، واجترأوا على حربِ عَدُوِّهم. وذلك أنَّ قوله: «ولكن الله سلم»، عَقِيب قوله: «ولو أراكَهُمْ كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر»، فالذي هو أوْلى بالخبر عنه

أنه سَلَّمَهُمْ منه جَلَّ ثناؤهُ ، ما كانَ مخوفاً منه لو لم يُرِ نبيَّهُ ﷺ من قِلَّةِ القومِ في منامه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإنَّ الله لسميعٌ عليم» إذْ يُري الله نبيه في منامه المشركين قليلاً، وإذْ يُريهم اللهُ المؤمنينَ إذْ لقوهم في أعينهم قليلاً وهم كثيرٌ عَدَدُهم، ويُقَلِّلُ المؤمنينَ في أعينهم، ليتركوا الاستعدادَ لهم، فتهون على المؤمنين شوكتهم.

قوله: «ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: قَلَّلْتُكم، أيها المؤمنون، في أعينِ المشركين، وأَرَيْتُكُمُوهُمْ في أعينكم قليلاً، حتى يقضيَ اللهُ بينكم ما قضى من قتال بعضِكم بعضاً، وإظهارِكم، أيها المؤمنون، على أعدائِكم من المشركينَ والظفرِ بهم، لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلى. وذلك أمرٌ كان الله فاعلَه وبالغاً فيه أمرَه.

«وإلى الله تُرْجَعُ الأمور»، يقول جَلَّ ثناؤه: مصيرُ الأمورِ كُلّها إليه في الآخرة، فيجازي أهلها على قَدْرِ استحقاقِهم، المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

وهذا تعريفٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ أهلَ الإيمانِ به، السيرةَ في حربِ أعدائه من أهلِ الكفرِ به، والأفعالَ التي يُرْجَى لهم باستعمالها عند لقائِهم النُّصْرَةَ عليهم والظفر بهم. ثم يقولُ لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «يا أيها الذين آمنوا»، صَدَّقُوا الله ورسولَهُ ـ إذا لقيتم جماعةً من أهلِ الكفرِ للحربِ والقتال، فاثْبُتوا لقتالهم، ولا تنهزمُوا عنهم ولا تُوَلُّوهم الأدبارَ هاربينَ، إلَّا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ منكم. «واذكُروا اللهَ كثيراً»، يقولُ: وادْعُوا الله بالنصرِ عليهم والظفرِ بهم، وأشْعِرُوا قلوبَكُمْ وألسنتكم ذكره. «لعلكم تفلحون»، يقول: كيما تَنْجَحُوا فَتَظْفَرُوا بعدوِّكم، ويرزقكم اللهُ النصرَ والظفرَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به: أطيعوا، أيها المؤمنون، رَبَّكم ورسولَهُ فيما أمرَكُمْ به ونَهاكم عنه، ولا تُخالِفُوهُمَا في شيءٍ. «ولا تنازعوا فتفشلوا»، يقول: ولا تَخْتَلِفُوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم. «فتفشلوا»، يقول: فَتَضْعُفُوا وتَجْبُنُوا، «وتذهبَ رِيحُكم».

وهذا مثلٌ. يُقالُ للرجلِ إذا كان مُقْبِلًا ما يُحبُّه ويُسَرُّ به: «الريحُ مُقْبِلَةٌ عليه»، يعني بذلك: ما يحبه.

وإنما يُرادُ به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم، فَتَضْعُفُوا ويدخلكم الوهنُ والخَللُ.

«واصبروا»، يقول: اصبروا مع نبيِّ الله ﷺ عند لقاءِ عَدُوِّكُم، ولا تَنْهزمُوا عنه وتتركُوهُ. «إنَّ الله مع الصابرين»، يقول: اصبروا فإني معكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

وهذا تقدُّمٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ إلى المؤمنينَ به وبرسولِه، أنْ لا يَعملُوا عملاً إلا لله خاصة، وطلبِ ما عِنْدَهُ، لا رِئاءَ الناسِ، كما فعلَ القومُ من المشركينَ في مسيرِهم إلى بدرٍ طلبَ رِئاء الناس. وذلك أنهم أُخْبِرُوا بفَوْتِ العِيرِ رسولَ الله ﷺ وأصحابه، وقيل لهم: «انصرفوا فقد سَلِمَت العِيرُ التي جِئْتُمْ لِنُصْرَتِها!»، فأبوا وقالوا: «نأتي بدراً فنشرب بها الخمرَ، وتعزفُ علينا القِيان، وتَتَحَدَّثُ بنا العربُ فيها»، فَسُقُوا مكانَ الخمرِ كؤوسَ المنايا.

فتأويل الكلام إذاً: ولا تكونُوا، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسوله، في العملِ بالرياءِ والسمعةِ، وتركِ إخلاصِ العملِ لله، واحتسابِ الأجرِ فيه، كالجيشِ من أهلِ الكُفْرِ بالله ورسوله الذين خَرجُوا من منازلِهم بَطَراً ومراءاة الناسِ بزيِّهم وأموالِهم وكثرةِ عددهم وشِدَّةِ بطانتهم. «ويَصُدُّونَ عن سبيلِ الله»، يقول: ويَمنعونَ الناسَ من دِينِ اللهِ والدخول في الإسلام، بقتالِهم إيَّاهم، وتعذيبهم مَنْ قَدَرُوا عليه من أهلِ الإيمانِ بالله. «والله بما يعملون»، من الرياءِ والصَّدِّ عن سبيلِ الله، وغيرِ ذلك من أفعالهم. «محيطٌ»، يقول: عالمٌ بجميعِ ذلك، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، وذلك أنَّ الأشياءَ كُلَّها له متجلِّيَةٌ، لا يعزبُ عنه منها شيءٌ، فهو لهم بها مُعاقِبٌ، وعليها مُعذِّبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ

نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالهم»، وحين زَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالَهم.

فتأويلُ الكلام: «وإنَّ اللهَ لسميعٌ عليم»، في هذه الأحوالِ - وحين زَيَّنَ لهم الشيطانُ خُروجَهم إليكم، أيها المؤمنونَ، لحربِكم وقِتالِكم وحَسَّنَ ذلكَ لهم وحَثَّهُمْ عليكم، وقال لهم: لا غالبَ لكمُ اليومَ من بني آدمَ، فاطْمَئِنُّوا وأبْشِرُوا. «وإني جَارٌ لكم»، من كِنَانَةَ أنْ تأتيَكُمْ من ورائِكم فَمُعِيذُكُم، أُجِيْرُكُمْ وأَمْنَعُكُمْ منهم، فلا تَخافُوهم، واجعلوا حَدَّكم وبأسَكُمْ على محمدٍ وأصحابه. «فلما تَراءتِ الفِئتانِ»، يقول: فلما تَزَاحفتْ جنودُ اللهِ من المؤمنينَ وجنود الشيطان من المشركينَ، ونَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ. «نَكَصَ على عقبيه»، يقول: رَجَعَ القَهْقرى على قَفَاهُ هارباً. وقال للمشركين: «إني بريءٌ منكم إنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ»، يعني أنه يرى الملائكةَ الذين بعثهم اللهُ مَدداً للمؤمنينَ، والمشركون لا يَرَوْنَهُمْ - إني أخافُ عقابَ اللهِ، وكذب عدوُّ اللهِ. «واللهُ شديد العقاب».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإنَّ اللهَ لسميعٌ عليم»، في هذه الأحوالِ. «وإذ يقولُ المنافقون»، وكرَّ بقوله: «إذْ يقول المنافقون»، على قوله: «إذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ في مَنَامِكَ قليلاً»، «والذين في قلوبهم مرض»، يعني: شَكٌّ في الإسلام، لم

يَصحَّ يَقِينُهم، ولم تُشْرَحْ بالإيمانِ صُدورُهم. «غَرَّ هؤلاءِ دِينُهم»، يقول: غَرَّ هؤلاءِ الذين يُقاتِلُونَ المشركينَ من أصحابِ محمدٍ ﷺ من أنفسِهم، دِينُهم وذلك الإسلام.

وذُكرَ أنَّ الذين قالوا هذا القولَ، كانوا نَفراً مِمَّنْ كان قد تَكلَّمَ بالإسلامِ من مشركي قريش، ولم يَسْتَحْكِم الإسلامُ في قلوبهم.

وأما قوله: «ومَنْ يَتَوَكَّلْ على الله»، فإنَّ معناه: ومَنْ يُسْلِمْ أمْرَهُ إلى الله، ويَثِقْ به، ويَرْضَ بقضائه، فإنَّ الله حافظُه وناصِرُه لأنه «عزيزٌ»، لا يغلبُه شيءٌ، ولا يقهرهُ أحدٌ، فجارُه مَنيعٌ، ومَنْ يتوكَّلْ عليه مكفيٌّ.

وهذا أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤهُ المؤمنينَ به من أصحابِ رسولِ الله وغيرهم، أنْ يُفَوِّضُوا أمْرَهُمْ إليه، ويُسَلِّمُوا لقضائِه، كيما يَكْفِيهم أعداءَهُمْ، ولا يَسْتَذِلُّهُمْ مَنْ نَاوَأَهُمْ، لأنه «عزيزٌ» غير مغلوبٍ، فجارُه غيرُ مقهورٍ. «حكيمٌ»، يقول: هو فيما يُدَبِّرُ من أمرِ خَلْقِهِ حكيمٌ، لا يدخلُ تدبيرَهُ خَلَلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولو تُعاينُ، يا محمدُ، حين يتوفَّى الملائكةُ أرواحَ الكُفَّارِ، فتنزعُهَا من أجسادِهم، تَضْرِبُ الوجوهَ منهم والأَسْتَاه، ويقولون لهم: ذُوقُوا عذابَ النار التي تحرقكم يومَ وُرُودِكم جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مُخْبِراً عن قِيلِ الملائكةِ لهؤلاءِ المشركينَ الذين قُتِلُوا ببـدرٍ، أنهم يقولونَ لهم وهم يَضرِبُونَ وجوهَهُمْ وأدبارهم: «ذُوقُوا عذابَ الله الذي يحرقكم»، هذا العذابُ لكم. «بما قَدَّمَتْ أيديكم»، أي: بما كسبت أيديكم من الآثامِ والأوزارِ، واجترحتُمْ من معاصي الله أيامَ حياتِكم، فذوقوا اليومَ العذابَ، وفي مَعَادِكم عذابَ الحريق، وذلك لكم بأنَّ الله «ليسَ بظَلَّامٍ للعبيد»، لا يعاقبُ أحداً من خَلْقِه إلا بجرمٍ اجتَرَمَهُ، ولا يُعَذِّبه إلا بمعصيتِهِ إياهُ لأنَّ الظلمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فِعْلُ هؤلاءِ المشركينَ من قريش الذين قُتِلُوا ببدر، كعادةِ قومِ فرعون وصنيعهم وفِعْلِهم وفِعْلِ مَنْ كذَّبَ بحججِ الله ورُسُلِه من الأممِ الخاليةِ قَبْلَهُمْ، فَفَعَلْنَا بهم كَفِعْلِنَا بأولئكَ.

وقوله: «فأخَذَهُم الله بذنوبهم»، يقول: فعاقَبهُمُ اللهُ بتكذيبهم حُجَجَهُ ورُسُلَهُ ومعصيتهم رَبَّهم، كما عاقبَ أشكالهم والأممَ الذين قَبْلَهُمْ. «إنَّ الله قويٌّ»، لا يغلبه غالِبٌ، ولا يَرُدُّ قضاءَهُ رَادٌّ، يُنْفِذ أمْرَهُ، ويُمْضِي قضاءه في خَلْقِه ـ شديدٌ عِقابهُ لِمَنْ كَفرَ باللهِ وجَحَدَ حُججه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأخذنا هؤلاءِ الذين كَفرُوا بآياتنا من مشركي قريش ببدرٍ بذنوبِهم، وفعلنا ذلكَ بهم، بأنهم غَيَّرُوا ما أنعمَ اللهُ عليهم به من ابتعاثه

رسولَهُ منهم وبينَ أَظْهُرِهم، بإخراجِهم إياهُ من بينهم، وتكذيبهم له، وحَرْبهم إياهُ، فَغَيَّرنَا نِعْمَتَنا عليهم بإهلاكِنَا إياهم، كَفِعْلِنَا ذلك في الماضينَ قَبْلهم ممن طَغَى علينا وعَصَى أمْرَنَا.

وقوله: «وأن الله سميع عليم»، يقول: لا يَخْفَى عليه شيءٌ من كلامِ خَلْقِه، يسمعُ كلامَ كُلِّ ناطقٍ منهم بخيرٍ نَطَقَ أو بشرٍّ. «عليمٌ»، بما تُضْمِرُه صُدورُهم، وهو مُجَازِيهم ومُثِيبُهم على ما يَقُولونَ ويعملونَ، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرًّا فشرًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: غَيَّرَ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ، المقتولونَ ببدرٍ، نِعمةَ رَبِّهم التي أنعم بها عليهم، بابتعاثِه محمداً منهم وبين أظهرهم، داعياً لهم إلى الهدى، بتكذِيبهم إياهُ، وحَرْبِهم له، «كدأبِ آلِ فرعون» كَسُنَّةِ آلِ فرعون وعادَتِهم وفِعْلِهم بموسى نبيِّ الله، في تكذِيبهم إياهُ وقَصْدِهم لحرْبه، وعادةِ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ المُكَذِّبةِ رُسُلَها وصَنِيعِهم، «فأهلكناهم بذنوبهم»، بَعْضاً بالرجفةِ، وبعضاً بالخَسْفِ، وبعضاً بالرِّيح، «وأغرقنا آلَ فرعون»، في اليَمِّ، «وكُلٌّ كانوا ظالمينَ»، يقول: كُلُّ هؤلاءِ الأممِ التي أهلكناها كانوا فاعلينَ ما لم يَكُنْ لهم فِعْلُه، من تَكْذِيبهم رُسُلَ الله، والجحود لآياته. فكذلك أهلكنا هؤلاءِ الذينَ أهلكناهم ببدرٍ، إذْ غَيَّرُوا نعمةَ الله عندهم، بالقتلِ بالسيفِ، وأذللنا بعضَهم بالإسارِ والسِّبَاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ شَرَّ ما دَبَّ على الأرض عندَ الله، الذين كَفَرُوا بربِّهم، فَجَحَدُوا وحدانِيَّتَهُ، وعَبَدُوا غيرَهُ، «فهم لا يؤمنون»، يقول: فهم لا يُصَدِّقونَ رُسُلَ الله، ولا يُقِرُّون بوحيهِ وتنزيله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ شَرَّ الدوابِّ عند الله الذين كفروا»، «الذينَ عاهدتَ منهم»، يا محمدُ، يقول: أخذتَ عُهودَهُمْ ومواثِيقَهُمْ أنْ لا يحاربوكَ، ولا يُظَاهِرُوا عليكَ مُحَارِباً لكَ، كَقريظةَ ونُظَرائِهم مِمَّنْ كانَ بينكَ وبينهم عَهْدٌ وعَقْدٌ، «ثم ينقضون»، عهودَهُم ومواثيقهم كلما عاهدوكَ وواثقوكَ، حاربوكَ وظاهَرُوا عليك، وهم لا يَتَّقُونَ الله، ولا يخافون في فِعْلهم ذلك أن يوقع بهم وقعةً تجتاحهم وتهلكهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فإمَّا تَلْقَيَنَّ في الحرب هؤلاء الذين عاهَدْتهم فَنَقَضُوا عَهْدَكَ مرةً بعد مرةٍ من قريظة، فتأسرهم. «فَشَرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهم»، يقول: فافعلْ بهم فِعلاً يكون مشرِّداً مَنْ خَلْفَهُمْ من نُظَرائِهم، مِمَّنْ بينكَ وبينه عَهْدٌ وعقد.

«التشريدُ»، التَّطرِيدُ والتبديدُ والتَّفْرِيقُ.

وإنما أمِرَ بذلك نبيُّ اللهِ ﷺ أنْ يفعلَ بالناقضِ العهدَ بينه وبينهم إذا قدرَ عليهم، فِعْلاً يكونُ إخافةً لمن وراءَهُمْ، مِمَّنْ كانَ بين رسولِ الله ﷺ وبينه عَهْدٌ، حتى لا يَجْتَرئُوا على مِثْلِ الذي اجترأ عليه هؤلاءِ الذين وَصَفَ اللهُ صِفَتهم في هذه الآيةِ من نقضِ العهدَ.

وأما قوله: «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرون»، فإنَّ معناه: كي يَتَّعِظُوا بما فعلتُ بهؤلاء الذين وصفتُ صِفَتَهُم، فَيَحْذَرُوا نقضَ العهدِ الذي بينكَ وبينهم خوفَ أنْ ينزلَ بهم منكَ بهؤلاءِ إذا هُمْ نَقَضُوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإمَّا تَخافَنَّ»، يا محمدُ، من عَدُوٍّ لكَ بينك وبينَهُ عهدٌ وعَقْدٌ، أنْ ينكثَ عهده، ويَنْقُضَ عقده، ويَغْدُرَ بكَ ـ وذلك هو «الخيانة» والغدر ـ «فانْبِذْ إليهم على سواء»، يقول: فَنَاجِزْهُمْ بالحربِ، وأَعْلِمْهُمْ قبلَ حربكَ إياهم أنكَ قد فسختَ العهدَ بينك وبينهم، بما كانَ منهم من ظهورِ أمارِ[1] الغدرِ والخيانةِ منهم، حتى تصيرَ أنتَ وهُمْ على سواءٍ في العلم بأنكَ لهم محاربٌ، فيأخذوا للحربِ آلتَهَا، وتبرأ من الغدر. «إنَّ الله لا يحبُّ الخائنين»، الغادرينَ بِمَنْ كان منه في أمانٍ وعهدٍ بينه وبينه أنْ يغدرَ به فيحاربَهُ، قبلَ إعلامِه إيَّاهُ أنه له حَرْبٌ، وأنه قد فَاسَخَهُ العقدَ.

فإنْ قال قائلٌ: وكيفَ يجوزُ نَقْضُ العهدِ بخوفِ الخيانةِ، و«الخوفُ» ظَنٌّ لا يَقِينٌ؟

قيل: إنَّ الأمرَ بخلافِ ما إليه ذهبتَ، وإنما معناه: إذا ظهرت أمارُ

---

(١) الأمار، والأمارة: العَلَامةُ، ويقال: «أمار» جمع «أمارة».

الخيانـةِ من عَدُوِّك، وخِفْتَ وقـوعَهُمْ بكَ، فألْقِ إليهم مقاليدَ السَّلم وآذِنْهُمْ بالحربِ. وذلك كالذي كان من بني قريظة إذْ أجابوا أبا سفيانَ ومَنْ مَعَهُ من المشركينَ إلى مُظَاهَرتِهم على رسولِ الله ﷺ ومحارَبَتِهم معهم، بعد العهدِ الذي كانوا عَاهَدُوا رسولَ الله ﷺ على المسالمةِ، ولن يقاتِلُوا رسولَ الله ﷺ. فكانت إجَابَتُهم إياهُ إلى ذلكَ، مُوجِباً لرسولِ الله ﷺ خوفَ الغدرِ به وبأصحابهِ منهم. فكذلك حُكْمُ كُلِّ قومٍ أهلِ موادعةٍ للمؤمنينَ، ظهرَ لإمامِ المسلمينَ منهم من دلائلِ الغدرِ مثل الذي ظهرَ لرسولِ الله ﷺ وأصحابه من قريظةَ منها، فَحَقٌّ على إمامِ المسلمينَ أنْ ينبذَ إليهم على سواء، ويُؤْذِنَهُمْ بالحربِ.

ومعنى قوله: «على سواء»، أي: حتى يستوي عِلْمُكَ وعِلْمُهم بأنَّ كُلَّ فريقٍ منكم حَرْبٌ لصاحبِه لا سِلْمٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الحجاز والعراق: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ﴾، بكسرِ الألفِ من «إنهم»، وبالتاء في «تحسبنَّ» بمعنى: ولا تحسبن، يا محمدُ، الذين كفروا سَبَقُونَا فَفَاتُونَا بأنفسِهم. ثم ابْتُدِيءَ الخبرُ عن قُدْرَةِ اللهِ عليهم فقيل: إنَّ هؤلاءِ الكَفَـرَةَ لا يُعْجِزُونَ رَبَّهم، إذا طلبهم وأرادَ تَعْذِيبَهُمْ وإهلاكَهم، بأنفسهم فيفوتوهُ بها.

وقـرأ ذلك بعضُ قَرَأَةِ المدينةِ والكوفةِ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، بالياء في «يحسبن» وكسر الألف من ﴿إِنَّهُمْ﴾.

وهي قراءةٌ غير حميدة[1]، لمعنيين، أحدهما: خُروجُهَا من قراءةِ القَرَأَةِ وشذوذها عنها، والآخر: بُعْدَها من فصيحِ كلامِ العربِ. وذلك أن «يحسب» يطلب في كلام العرب منصوباً وخبره، كقوله: «عَبْدُ الله يحسبُ أخاكَ قائماً» و«يقوم» و«قام». فقارىءُ هذه القراءةِ أصْحَبَ «يحسب» خبراً لغيرِ مُخْبَرٍ عنه مذكور. وإنما كان مُرادُه، ظَنِّي: ولا يحسبنَّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يُعْجِزُونَنَا فلم يُفَكِّرْ في صوابِ مخرجِ الكلامِ وسُقْمِه، واستعمل في قراءته ذلك كذلك، ما ظهرَ له من مفهومِ الكلام. وأحسبُ أن الذي دَعَاهُ إلى ذلك، الاعتبارُ بقراءةِ عبدالله. وذلك أنه فيما ذكر في مصحف عبدالله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، وهذا فصيحٌ صحيحٌ، إذا أدخلت «أنهم» في الكلام، لأنَّ «يحسبن» عاملةٌ في «أنهم»، وإذا لم يكن في الكلام «أنهم» كانت خاليةً من اسم تعملُ فيه.

والذي قرأ ذلك من القَرَأَةِ وجهانِ في كلامِ العرب، وإنْ كانا بَعِيدَيْنِ من فصيحِ كلامِهم:

أحدهما أنْ يكونَ أُريدَ به: ولايَحْسَبَنَّ الذينَ كَفَرُوا أنْ سَبَقُوا، أو: أنهم سبقوا، ثم حذف «أن» و«أنهم»، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾، [الروم: ٢٤]، بمعنى: أنْ يُريكم.

والوجه الثاني على أنه أراد إضمارَ منصوب بـ«يحسب»، كأنه قال: ولا يحسب الذين كفروا أنهم سبقوا ثم حذف «أنهم» وأضمر.

وقد وجَّه بعضُهم معنى قوله: ﴿إنَّما ذَلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّف أَوْلِياءَه﴾، [آل عمران: ١٧٥]: إنما ذلكم الشيطانُ يخوف المؤمنَ من أوليائِه، وأنَّ ذِكْرَ «المؤمن» مُضْمَرٌ في قوله: «يُخَوِّفُ»، إذْ كان الشيطانُ عنده لا يخوِّفُ أولياءه.

---

(١) هذه القراءة التي رَدَّها أبو جعفر، وقال بأنها غير حميدة هي قراءتنا اليوم.

وقـرأ ذلك بعضُ أهلِ الشأم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالتاء من «تحسبن» ﴿سَبَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، بفتحِ الألفِ من «أنهم»، بمعنى: ولا تحسبن الذين كفروا أنهم لا يعجزون.

ولا وجهَ لهذه القراءةِ يُعقلُ، إلَّا أنْ يكونَ أرادَ القارئُ بـ«لا» التي في «يعجزون»، «لا» التي تدخلُ في الكلامِ حَشْواً وصِلَةً، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: ولا تَحْسَبَنَّ الذين كفروا سبقوا أَنَّهم يُعْجِزُونَ. ولا وجهَ لتوجيهِ حرفٍ في كتابِ الله إلى التطويل، بغيرِ حُجَّةٍ يجبُ التسليمُ لها، وله في الصِحَّةِ مخرجٌ.

والصوابُ من القراءة في ذلك عندي، قراءةُ مَنْ قرأ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾، بالتاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ﴾، بكسر الألفِ من «إنهم»، ﴿لَا يُعْجِزُونَ﴾، بمعنى: ولا تحسبن أنتَ، يا محمدُ، الذين جَحَدُوا حُجَجَ الله وكَذَّبُوا بها، سَبَقُونَا بأنفسِهم ففاتونا، إنهم لا يعجزوننا ـ أي يفوتوننا بأنفسهم، ولا يقدرون على الهربِ منا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأَعِدُّوا»، لهؤلاءِ الذيمَ كَفَرُوا بربِّهم، الذينَ بينَكُمْ وبينهم عَهْـدٌ. إذا خِفْتُمْ خيانَتَهُمْ وغَدْرَهُمْ، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسوله. «ما استطعتم من قوة»، يقول: ما أَطَقْتُمْ أنْ تُعِدُّوهُ لهم من الآلاتِ التي تكونُ قوةً لكم عليهم، من السلاحِ والخيلِ. «تُرْهِبُونَ به عَدُوَّ اللهِ وعدوكم»، يقول: تُخِيفُونَ بإعدادِكم ذلك عَدُوَّ الله وعَدُوَّكم من المشركينَ.

الأنفال: ٦٠

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل في هؤلاء «الآخرين»، مَنْ هم، وما هم؟

فقال بعضهم: هم بنو قريظة.

وقال آخرون: من فارس.

وقال آخرون: هُمْ كُلُّ عَدُوٍّ للمسلمينَ، غير الذين أمرَ النبيُّ ﷺ أنْ يُشَرِّدَ بهم مَنْ خَلْفَهُمْ. قالوا: وهم المنافقون.

وقال آخرون: هم قومٌ من الجنِّ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ الله أمرَ المؤمنينَ بإعدادِ الجهادِ وآلةِ الحربِ وما يَتَقَوَّوْنَ به على جهادِ عَدُوِّهِ وعَدُوِّهم من المشركينَ، من السلاحِ والرمي وغير ذلك، ورباطِ الخيلِ - ولا وجهَ لأَنْ يُقالَ: عَنَى بـ«القوة» معنًى دونَ معنى من معاني «القوة»، وقد عَمَّ اللهُ الأمرَ بها.

وأما قوله: «وآخرينَ من دُونِهم لا تَعْلَمُونَهم»، فإنَّ قولَ مَنْ قالَ: عَنَى به الجِنَّ، أقربُ وأشبهُ بالصواب، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ قد أدخلَ بقوله: «ومِنْ رِباطِ الخيلِ تُرْهبون به عَدُوَّ الله وعَدُوَّكُمْ»، الأمرَ بارتباطِ الخيلِ لإرهابِ كُلِّ عدوٍّ للهِ وللمؤمنينَ يعلمونهم. ولاشَكَّ أنَّ المؤمنينَ كانوا عالمينَ بعداوةِ قريظةَ وفارِسَ لهم، لِعِلْمِهم بأنَّهم مُشركونَ، وأنهم لهم حَرْبٌ. ولا معنى لأَنْ يقالَ، وهم يعلمونهم لهم أعداءً: «وآخرينَ من دُونهم لا تعلمونهم»، ولكن معنى ذلك إنْ شاء الله: تُرهبونَ بارتباطِكم، أيها المؤمنونَ، الخيلَ عدوَّ الله وأعداءَكُمْ من بني آدمَ الذين قد علمتم عَداوتَهُمْ لكم، لِكُفْرِهم باللهِ ورسوله، وتُرهبونَ بذلك جنساً آخرَ من غيرِ بني آدم، لا تعلمونَ أماكنهم وأحوالهم، اللهُ يعلمهم دُونَكُمْ، لأنَّ

بني آدم لاَ يرونهم. وقيل: إنَّ صهيلَ الخيلِ يرهبُ الجِنَّ، وأنَّ الجِنَّ لا تقربُ داراً فيها فَرَسٌ[(١)].

فإنْ قالَ قائلٌ: فإنَّ المؤمنينَ كانوا لا يعلمونَ ما عليهِ المنافقونَ، فما تُنْكِرُ أنْ يكونَ عُنِيَ بذلك المنافقون؟

قيل: فإنَّ المنافقينَ لم يَكُنْ تَرُوعُهم خَيْلُ المسلمينَ ولا سلاحهم، وإنما كانَ يَرُوعهم أنْ يظهرَ المسلمونَ على سَرَائِرهم التي كانوا يَسْتَسِرُّونَ من الكُفْرِ، وإنما أُمِرَ المؤمنونَ بإعدادِ القوةِ لإرهابِ العدوِّ، فأما مَنْ لم يرهبه ذلك، فغيرُ داخـلٍ في معنى مَنْ أُمِرَ بإعدادِ ذلك له المؤمنون. وقيل: «لا تعلمونهم»، فاكتفى لـ«العلم»، بمنصوبٍ واحدٍ في هذا الموضع، لأنه أُريدَ: لا تَعْرِفُونَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وما أنفقتم، أيها المؤمنونَ، من نفقةٍ في شراءِ آلةِ حَرْبٍ من سلاحٍ أو حِرَابٍ أو كُرَاعٍ أو غير ذلك من النفقاتِ، في جهادِ أعداءِ الله المشركينَ يُخلفُه اللهُ عليكم في الدنيا، ويُدَّخَرُ لكم أجورَكُم على ذلك عِنْدَهُ حتى يُوَفِّيكُمُوهَا يومَ القيامةِ. «وأنتم لا تظلمون»، يقول: يفعلُ ذلكَ بكم رَبُّكم، فلا يضيعُ أُجورَكم عليه.

---

(١) قوله: «وقيل: إن صهيل الخيل... إلخ» مأخوذٌ من حديث نُسِبَ إلى رسول الله ﷺ لا يَصحُّ إسناداً ولا متناً، ولذلك رَدَّ ابن كثير وغيره تفسيرَ الطبري هذا، ورَجَّحُوا أنَّ المقصودَ بذلك هم المنافقونَ (تفسير القرطبي: ٣٨/٨، وتفسير أبي حيان: ٥١٣/٤).
والأَوْلى أنها عامةٌ لا تخصصُ بفئة معينة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦١﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإمَّا تخافنَّ من قومٍ خيانةً وغَدْراً، فانبذْ إليهم على سواء، وآذِنْهُمْ بالحرب. «وإن جَنَحُوا للسلم فاجنحْ لها»، وإنْ مَالُوا إلى مُسَالَمتكَ ومُتَارَكَتِكَ الحربَ، إمَّا بالدخول في الإسلام، وإما بإعطاءِ الجزية، وإما بموادعةٍ، ونحوِ ذلك من أسبابِ السلمِ والصلحِ. «فاجنحْ لها»، يقول: فَمِلْ إليها، وابْذُلْ لهم ما مَالُوا إليه من ذلكَ وسَأَلُوكَهُ.

فأما ما قاله قتادة ومَنْ قالَ مِثْلَ قوله، من أنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ، فقولٌ لا دلالةَ عليه من كتابٍ ولا سنةٍ ولا فطرةِ عقلٍ.

وقد دللنا في غير موضعٍ من كتابنا هذا وغيره على أنَّ الناسخَ لا يكونُ إلا ما نفى حُكْمَ المنسوخِ من كُلِّ وجه. فأما ما كانَ بخلافِ ذلك، فغيرُ كائنٍ ناسخاً.

وقول الله في براءة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم﴾، غير نافٍ حكمُه حُكْمَ قوله: «وإنْ جَنَحُو للسَّلْمِ فاجنحْ لها»، لأنَّ قوله: «وإنْ جنحوا للسلم»، إنما عُنيَ به بنو قريظة، وكانوا يهوداً أهلَ كتابٍ، وقد أَذِنَ اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ للمؤمنينَ بصلحِ أهلِ الكتابِ ومُتَارَكَتِهم الحربَ على أخذِ الجزيةِ منهم.

وأما قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فإنما عُنيَ به مُشركُو العربِ من عَبَدَةِ الأوثانِ، الذين لا يجوزُ قبولُ الجزيةِ منهم. فليس في إحدى الآيتين نفي حكم الأخرى، بل كل واحدة منهما محكمةٌ فيما أُنزِلَتْ فيه.

وأما قوله: «وتوكل على الله»، يقول: فَوِّضْ إلى الله، يا محمدُ، أمرَكَ، واسْتَكْفِهِ، واثقاً أنه يَكْفيكَ.

وقوله: «إنه هُوَ السميعُ العليم»، يعني بذلك: إنَّ الله الذي تتوكَّلُ عليه، «سميعٌ»، لما تقولُ أنتَ ومَنْ تُسَالِمُهُ وتُتَارِكُهُ الحربَ من أعداءِ الله وأعدائِك عند عَقْدِ السلم بينكَ وبينه، وما يشترطُ كلُّ فريقٍ منكم على صاحبه من الشروطِ. «العليم»، بما يُضْمِرُه كُلُّ فريقٍ منكم للفريقِ الآخرِ من الوفاءِ بما عَاقَدَهُ عليه، ومَنِ المُضْمِرَ ذلك منكم في قلبِهِ، والمنطوي على خِلَافِه لصاحِبِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يُرِد، يا محمدُ، هؤلاءِ الذينَ أَمَرْتُكَ بأنْ تَنْبذَ إليهم على سواء إنْ خِفْتَ منهم خيانةً، وبمسالمتهم إنْ جَنَحُوا للسلْم، خداعَك والمكـرَ بكَ. «فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ»، يقول: فإنَّ الله كافِيْكَهُمْ وكافيكَ خِدَاعَهُمْ إياكَ، لأنَّهُ مُتَكَفِّلٌ بإظهارِ دِينكَ على الأديانِ، ومُتَضَمِّنٌ أنْ يجعلَ كلمتَهُ العليا وكلمةَ أعدائِه السُّفْلى. «هو الذي أيَّدَكَ بنصرِه»، يقول: الله الذي قَوَّاكَ بنصره إياكَ على أعدائِه. «وبالمؤمنين»، يعني: بالأنصار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٣﴾

يُريدُ جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وأَلَّفَ بين قلوبِهم»، وجمعَ بين قلوبِ المؤمنينَ من الأوسِ والخـزرج، بعد التَّفَرُّقِ والتَّشَتُّتِ، على دِينهِ الحق، فَصَيَّرَهُمْ به جميعاً بعد أنْ كانوا أشتاتاً، وإخواناً بعد أنْ كانُوا أعداء.

وقوله: «لو أنفقتَ ما في الأرضِ جميعاً ما ألَّفْتَ بين قلوبِهم»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لو أنفقتَ، يا محمدُ، ما في الأرضِ جميعاً من ذهبٍ ووَرَقٍ وعَرَضٍ، ما جمعتَ أنتَ بين قُلوبِهم بحَيْلِكَ[1]، ولكنَّ الله جَمَعَها على الهدى فَأْتَلَفَتْ واجْتَمَعَتْ، تقْويةً من الله لكَ وتأييداً منه ومعونةً على عَدُوِّكَ. يقول جَلَّ ثناؤه: والذي فعلَ ذلك وسَبَّبَهُ لكَ حتى صَارُوا لكَ أعواناً وأنصاراً ويَداً واحدة على مَنْ بَغَاكَ سوءاً، هو الذي إنْ رامَ عدوٌّ منكَ مراماً يكفيكَ كَيْدَهُ وينصركَ عليه. فَثِقْ به، وامْضِ لأمرِه، وتَوَكَّلْ عليه.

وقوله: «إنه عزيزٌ حكيم»، يقول: إنَّ الله الذي أَلَّفَ بين قلوبِ الأوسِ والخَزْرَجِ بعد تَشَتُّتِ كَلِمَتِهِمَا وتَعَادِيهما، وجَعْلهم لكَ أنصاراً. «عزيزٌ»، لا يقهره شيءٌ، ولا يَرُدُّ قضاءَهُ رَادٌّ، ولكنه ينفذ في خلقه حُكْمه. يقول: فعليه فتوكَّلْ، وبه فَثِقْ. «حكيم»، في تدبير خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ الله»، وحَسْبُ مَنِ اتَّبعكَ من المؤمنينَ، اللهُ. يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: ناهِضُوا عَدُوَّكُمْ، فإنَّ الله كافِيكُمْ أمْرَهُمْ، ولا يَهُولَنَّكُمْ كثرةُ عَدَدِهم وقِلَّة عَدَدِكم، فإنَّ الله مُؤَيِّدُكم بنصرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم

(١) الحَيْلُ: القوة، مثل الحَوْل. وفي الحديث: «اللهم ذا الحَيْلِ الشديد».

مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «يا أيها النبيُّ حَرِّضِ المؤمنينَ على القتال»، حُثَّ مُتَّبعيكَ ومُصَدِّقِيكَ على ما جِئْتَهُمْ به من الحق، على قتالِ مَنْ أدبـرَ وتـولَّى عن الحقِّ من المشـركينَ. «إنْ يَكُنْ منكم عِشـرونَ» رجـلاً. «صـابـرونَ»، عند لقاءِ العَدُوِّ، ويحتسبونَ أنفُسَهم ويَثْبُتونَ لعدوهم. «يَغْلِبُوا مئتين»، من عَدُوِّهم ويقهروهم. «وإنْ يَكُنْ منكم مئةٌ»، عند ذلك «يغلبوا» منهم «ألفاً». «بأنهم قومٌ لا يفقهون»، يقول: من أجْلِ أنَّ المشركينَ قومٌ يقاتلون على غيرِ رجاءِ ثوابٍ، ولا لطلبِ أجرٍ ولا احتساب، لأنهم لم يَفْقهوا أنَّ الله مُوجبٌ لِمَنْ قاتلَ احتساباً، وطَلَبَ موعودَ الله في الميعاد، ما وَعَدَ المجاهدينَ في سبيلِه، فهم لا يثبتـون إذا صَدَقُـوا في اللقـاء، خشيةَ أنْ يُقْتَلُوا فتذهبَ دُنْيَاهُمْ. ثم خَفَّفَ تعالى ذِكْرُه عن المؤمنينَ، إذْ عَلِمَ ضَعْفَهُمْ فقالَ لهم: «الآنَ خَفَّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً»، يعني: أنَّ في الواحدِ منهم عن لقاءِ العشرة من عَدُوِّهم ضَعْفاً. «فإنْ يَكُنْ منكم مِئَةٌ صابرة»، عند لقائِهم للثباتِ لهم. «يَغْلِبُوا مئتين» منهم. «وإنْ يَكُنْ منكم ألفٌ يغلبوا ألفين» منهم. «بإذنِ اللهِ»، يعني: بتخليةِ اللهِ إياهم لغلبتهم، ومعونتِه إياهم. «واللهُ مع الصابرين»، لِعَدُوِّهم وعَدُوِّ الله، احتساباً في صبره، وطلباً لجزيلِ الثوابِ من رَبِّه، بالعونِ منه له، والنصر عليه.

وهذه الآية أعني قوله: «إنْ يَكُنْ منكم عِشْرونَ صابرون يغلبوا مئتين» وإنْ كان مخرجها مخرجَ الخبر، فإنَّ معناها الأمر. يدلُّ على ذلك قولُه: «الآن خَفَّفَ اللهُ عنكم»، فلم يَكُنِ التخفيفُ إلا بعد التثقيلِ. ولو كان ثبوت العشرةِ منهم

للمئةِ من عَدُوِّهم كان غيرَ فَرْضٍ عليهم قبلَ التخفيفِ، وكانَ نَدْباً، لم يَكُنْ للتخفيفِ وَجْهٌ، لأنَّ التخفيفَ إنما هو ترخيصٌ في تَرْكِ الواحدِ من المسلمينَ الثبوتَ للعشرةِ من العدوِّ. وإذا لم يكن التشديدُ قد كانَ له مُتقدِّماً، لم يَكُنْ للترخيصِ وَجْهٌ، إذْ كان المفهومُ من الترخيصِ إنما هو بعدَ التشديدِ. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ حُكْمَ قولِه: «الآنَ خَفَّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً»، ناسخٌ لِحُكْمِ قولِه: «إنْ يَكُنْ منكم عِشْرونَ صابرونَ يغلبوا مئتين وإنْ يكن منكم مئةٌ يَغْلِبُوا ألفاً من الذينَ كفروا». وقد بَيَّنَّا في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام»، أنَّ كُلَّ خبرٍ من الله وَعَدَ فيه عِبادَهُ على عملٍ ثواباً وجزاء، وعلى تَرْكِه عقاباً وعذاباً، وإنْ لم يَكُنْ خارجاً ظاهرُه مخرجَ الأمرِ، ففي معنى الأمرِ بما أغنى عن إعادَتِه في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما كانَ لنبيٍّ أنْ يَحْتَبِسَ كافراً قدرَ عليه وصارَ في يَدِه من عَبَدَةِ الأوثانِ للفداءِ أو للمَنِّ.

وإنما قال الله جَلَّ ثناؤُهُ [ذلك] لنبيه محمدٍ ﷺ، يُعَرِّفُه أنَّ قَتْلَ المشركينَ الذين أَسَرَهُم ﷺ يومَ بدرٍ ثم فَادَى بهم، كان أَوْلى بالصوابِ مِنْ أَخْذِ الفديةِ منهم وإطلاقهم.

وقوله: «حتى يُثْخِنَ في الأرضِ»، يقول: حتى يُبالِغَ في قَتْلِ المشركينَ فيها، ويَقْهَرَهُمْ غَلَبَةً وقَسْراً.

يقال منه: «أثخنَ فلانٌ في هذا الأمرِ»، إذا بالغَ فيه. وحُكيَ: «أَثْخَنْتُه مَعْرِفةً»، بمعنى: قَتَلْتُه معرفةً.

«تريدون»، يقولُ للمؤمنين من أصحابِ رسولِ الله ﷺ: «تريدون»، أيها المؤمنونَ، «عَرَضَ الدنيا»، بأَسْرِكم المشركينَ وهو ما عَرَضَ للمرءِ منها من مالٍ ومتاعٍ. يقول: تُرِيدُونَ بأَخْذِكم الفِداءَ من المشركينَ متاعَ الدنيا وطُعْمَها. «واللهُ يريدُ الآخرة»، يقولُ: واللهُ يُريدُ لكم زينةَ الآخرةِ وما أَعَدَّ للمؤمنينَ وأهلَ ولايتِهِ في جَنَّاتِه، بقَتْلِكُمْ إيَّاهُمْ، وإثْخانِكُمْ في الأرضِ. يقول لهم: فاطْلُبُوا ما يريدُ اللهُ لكم ولَهُ اعْمَلُوا، لا ما تَدْعُوكم إليه أهواءُ أنفسكم من الرغبةِ في الدنيا وأسبابها. «واللهُ عزيزٌ»، يقول: إنْ أنتم أردتُم الآخرةَ، لم يَغْلبكم عَدُوٌّ لكم، لأنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُقْهَرُ ولا يُغْلَبُ، وأنه «حكيمٌ» في تَدْبيرِه أمرَ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لأهلِ بدرٍ الذين غَنموا وأَخَذُوا من الأسرى الفِداءَ: «لولا كِتَابٌ من اللهِ سَبَقَ»، يقول: لولا قَضاءٌ من الله سَبَقَ لكم أهلَ بَدْرٍ في اللوحِ المحفوظ، بأنَّ الله مُحِلٌّ لكم الغنيمةَ، وأنَّ الله قَضَى فيما قَضَى أنه لا يُضِلُّ قوماً بعد إذْ هداهم حتى يُبَيِّنَ لهم ما يَتَّقُونَ، وأنه لا يعذبُ أحداً شَهِدَ المشهدَ الذي شهدتموه ببدرٍ مع رسولِ الله ﷺ ناصراً دِينَ الله - لَنالَكُمْ من اللهِ، بأَخْذِكُم الغنيمةَ والفِداءَ، عذابٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ من أهلِ بدرٍ: «فَكُلُوا»، أيها المؤمنونَ. «مِمَّا غَنِمْتُمْ»، من أموالِ المشركينَ. «حلالاً»، بإحلالِه لكم. «طيباً واتقُوا الله»، يقول: وخَافُوا اللهَ أنْ تَعُودُوا، أنْ تفعلوا في دِينكم شيئاً بعد هذه من قَبْلِ أنْ يُعْهَد فيه إليكم، كما فعلتم في أَخْذِ الفِداءِ وأكلِ الغنيمةِ، وأَخَذْتُوهُمَا مِنْ قَبْلِ أنْ يحلاَّ لكم. «إنَّ الله غفور رحيم».

وهذا من المُؤخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ، وتأويلُ الكلام: «فَكُلُوا مما غنمتم حلالاً طيباً»، «إنَّ الله غَفُورٌ رحيم»، «واتقوا الله».

ويعني بقوله: «إنَّ الله غَفُور»، لذنوبِ أهلِ الإيمانِ من عبادِه. «رحيمٌ»، بهم، أنْ يُعاقِبَهُمْ بعد تَوْبَتِهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا أيها النبيُّ، قُلْ لِمَنْ في يديكَ وفي يدي أصحابكَ من أسرى المشركينَ الذين أُخِذَ منهم من الفداءِ ما أُخِذَ: «إنْ يَعْلَمِ الله في قلوبِكم خيراً»، يقول: إنْ يَعْلَمِ اللهُ في قلوبكم إسلاماً. «يُؤْتِكُمْ خيراً مما أُخِذَ منكم»، من الفِداءِ. «ويَغْفِرْ لكم»، يقول: ويَصْفَحْ لكم عن عقوبةِ جُرْمكم الذي اجْترمْتُموه بقتالِكم نبيَّ اللهِ وأصحابَهُ وكُفْرِكُم باللهِ. «والله غفور»، لذنوبِ عبادِه إذا تابوا. «رحيم»، بهم، أنْ يعاقبهم عليها بعد التوبةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه: وإنْ يُرِدْ هؤلاءِ الأسارى الذين في أيديكم. «خيانتكَ»، أي الغَدْرَ بكَ والمكرَ والخِداعَ، بإظهارِهم لكَ بالقولِ خِلافَ ما في نُفوسِهم. «فقد خَانُوا اللهَ من قَبْلُ»، يقول: فقد خالفوا أمرَ الله من قَبْلِ وقعةِ بدرٍ، وأمكنَ منهم ببـدرٍ المؤمنينَ. «والله عليم»، بما يقولونَ بألسنتِهم ويُضْمِرُونه في نُفوسِهم. «حكيم»، في تدبيرهم وتدبيرِ أمورِ خَلْقِه سِواهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: إنَّ الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ. «وهاجروا»، يعني هَجَرُوا قومَهم وعشيرتَهم ودُورَهم، يعني تَركُوهُمْ وخَرَجُوا عنهم، وهَجَرَهُمْ قَوْمُهم وعشيرتُهم. «وجـاهـدوا في سبيلِ الله»، يقـول: بَالَغُـوا في إتعابِ نفوسِهم وإنصَابها في حربِ أعداءِ الله من الكفار. «في سبيل الله»، يقول: في دِينِ الله الذي جَعَلَهُ طريقاً إلى رحمتِه والنجاة من عَذَابه. «والذين آوَوْا ونَصَرُوا». يقول: والذينَ آووا رسولَ الله والمهاجرينَ معه، يعني: أنهم جَعَلُوا لهم مأوًى يأوونَ إليه، وهو المثوى والمسكن، يقول: أسْكَنُوهم، وجَعَلُوا لهم من منازلهم مسـاكنَ إذْ أخـرجهم قَوْمُهم من منازِلهم. «ونَصَرُوا»، يقول: ونَصَرُوهُمْ على أعـدائِهم وأعداءِ اللهِ من المشركينَ. «أولئكَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ»، يقول: هاتانِ الفرقتانِ، يعني المهاجرينَ والأنصارُ، بَعْضُهم أنصارُ بعضٍ، وأعوانٌ على مَنْ سِواهم من المشركينَ، وأيديهم واحدةٌ على مَنْ كَفَرَ بالله، وبعضُهم إخوانٌ لبعضٍ دونَ أقربائِهم الكفار.

وقد قيل: إنما عَنَى بذلك أنَّ بعضَهم أوْلى بميراثِ بعضٍ، وأنَّ الله ورَّثَ

بعضَهم من بعض بالهجرةِ والنُّصْرَةِ، دونَ القرابةِ والأرحام، وأنَّ الله نسخَ ذلك بَعْدُ بقولِه: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾، [الأنفال: ٧٥ والأحزاب: ٦].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٢﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «والذين آمنوا»، الذين صَدَّقُوا باللهِ ورسولِه. «ولم يُهَاجِرُوا»، قَوْمَهُمْ الكفار، ولم يُفارِقُوا دارَ الكُفْرِ إلى دارِ الإسلام. «ما لكم»، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسولِه، المهاجرونَ قومَهُم المشركينَ وأرضَ الحرب. «مِنْ وَلَايَتِهم»، يعني: من نُصْرَتِهم وميراثِهم.

«مِنْ شيءٍ حتى يُهَاجِرُوا»، قومَهم ودُورَهُم، من دارِ الحربِ إلى دارِ الإسلام. «وإنِ استنصروكم في الدِّينِ»، يقول: إنِ اسْتَنْصَرَكُمْ هؤلاءِ الذينَ آمنوا ولم يهاجروا. «في الدِّينِ»، يعني: بأنهم من أهلِ دِينكم على أعدائِكم وأعدائِهم من المشركينَ. «فعليكُمُ»، أيها المؤمنونَ من المهاجرينَ والأنصار، «النصرُ» «إلَّا» أنْ يستنصروكم. «على قومٍ بَيْنَكُمْ وبينَهُم مِيثاقٌ»، يعني: عَهْدٌ قد وثَّقَ به بعضكم على بعض أنْ لا يُحارِبَهُ. «واللهُ بما تعملونَ بصير»، يقول: واللهُ بما تعملونَ فيما أمَرَكُم ونَهَاكُم من ولايةِ بعضِكم بعضاً، أيها المهاجرونَ والأنصار، وترك ولايةِ مَنْ آمَنَ ولم يُهَاجِرْ ونُصْرَتِكم إياهم عند استنصارِكم في الدين، وغير ذلكَ من فرائضِ الله التي فَرَضَها عليكم. «بصيرٌ»، يَرَاهُ ويُبْصِرُه، فلا يَخْفَى عليه من ذلكَ ولا مِنْ غيرِه شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «والذين كفروا»، بالله ورسوله. «بعضُهم أولياءُ بعضٍ»، يقول: بَعْضُهم أعوانُ بعضٍ وأنصاره، وأحَقُّ به من المؤمنينَ بالله ورسوله.

وأما قوله: «إلَّا تَفْعَلُوه تَكُنْ فِتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: إلَّا تَفْعَلُوا، أيها المؤمنونَ، ما أُمِرْتُم به من مُوارَثةِ المهاجرينَ منكم بعضهم من بعضٍ بالهجرة، والأنصار بالإيمان، دونَ أقربائِهم من أعرابِ المسلمينَ ودونَ الكفار. «تَكُنْ فتنةٌ»، يقول: يَحْدُثْ بلاءٌ في الأرضِ بسببِ ذلك. «وفسادٌ كبير»، يعني: ومَعَاصٍ لله.

وقال آخرون: معنى ذلك: إلَّا تَناصَرُوا، أيها المؤمنونَ، في الدين، تكن فِتْنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير.

إنَّ أوْلى التأويلين بقوله: «إلَّا تفعلوه تكن فِتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبير»، تأويلُ مَنْ قال: إلَّا تَفْعَلُوا ما أَمَرْتُكم به من التعاونِ والنُّصْرَةِ على الدِّينِ، تَكُنْ فِتنةٌ في الأرض إذْ كان مُبْتَدَأُ الآيةِ من قولِهِ: «إنَّ الذين آمنوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا بأموالهم وأنفسِهم في سبيل الله»، بالحَثِّ على الموالاةِ على الدِّينِ والتناصُرِ جاء، فكذلك الواجبُ أنْ تكونَ خَاتمتُهَا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «والذينَ آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا في سبيلِ الله والذين آوَوْا ونَصَرُوا»، آوَوْا رسولَ اللهِ ﷺ والمهاجرينَ معه ونَصَرُوهم، ونَصَرُوا دِينَ الله، أولئكَ هُم أهلُ الإيمانِ باللهِ ورسولِه حقًّا، لا مَنْ آمَنَ ولم يُهَاجِرْ دارَ الشركِ، وأقامَ بينَ أَظْهُرِ أهلِ الشركِ، ولم يَغْزُ مع المسلمينَ عدوهم. «لهم مغفرةٌ»، يقول: لهم سترٌ من اللهِ على ذُنوبِهم، بعفوِه لهم عنها. «ورزْقٌ كريمٌ»، يقول: لهم في الجنة مطعمٌ ومشربٌ هنيٌّ كريم، لا يتغيرُ في أجوافِهم فيصير نَجْواً، ولكنه يصيرُ رَشْحاً كَرَشْحِ المسك.

وهذه الآية تُنْبِئُ عن صِحَّةِ ما قُلْنَا: أنَّ معنى قولِ الله: «بعضُهم أولياء بعض» في هذه الآية، وقوله: «ما لكم مِنْ وَلَايتهم من شيء»، إنما هو النُّصْرَةُ والمعونَةُ، دونَ الميراث. لأنه جَلَّ ثناؤُهُ عَقَّبَ ذلك بالثناءِ على المهاجرينَ والأنصارِ والخبر عَمَّا لهم عنده، دونَ مَنْ لم يهاجِرْ بقوله: «والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيلِ الله والذينَ آوَوْا ونَصَرُوا»، الآية، ولو كان مُراداً بالآياتِ قبل ذلك، الدلالةُ على حُكْمِ ميراثهم، لم يكن عَقِيبَ ذلك إلَّا الحثُّ على إمضاءِ الميراثِ على ما أمر. وفي صِحَّةِ ذلك كذلك، الدليلُ الواضحُ على أنْ لا ناسخَ في هذه الآياتِ لشيءٍ، ولا منسوخ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «والذين آمَنُوا»، باللهِ ورسولِه، بعدَ تبياني ما بَيَّنْتُ من ولايةِ المهاجرينَ والأنصارِ بعضهم بعضاً، وانقطاع وَلَايتهم مِمَّنْ آمَن ولم يهاجِرْ حتى يُهاجِرَ. «وهاجروا»، دارَ الكُفْرِ إلى دارِ الإسلام. «وجاهدوا معكم»، أيها

المؤمنون. «فأولئك منكم»، في الولايةِ، يجبُ عليكم لهم من الحَقِّ والنُصْرَةِ في الدِّينِ والموارثَةِ، مِثْلُ الذي يجبُ لكم عليهم، ولبعضِكم على بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والمُتَناسِبُونَ بالأرحام. «بعضُهم أوْلى ببعضٍ»، في الميراث، إذا كانوا مِمَّنْ قَسَمَ اللهُ له منه نَصِيباً وحظًّا، من الحليفِ والولي. «في كتابِ الله»، يقول: في حُكْمِ الله الذي كتبه في اللوح المحفوظِ والسابقِ من القضاء. «إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليم»، يقول: إنَّ اللهَ عَالِمٌ بما يصلحُ عبادَهُ، في توريثِهِ بعضَهم من بعضٍ في القرابة والنسب، دونَ الحلفِ بالعقدِ، وبغيرِ ذلك من الأمورِ كلها، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها.



تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّوْبَةِ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٢﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «بَراءةٌ من اللهِ ورسوله»، هذه براءةٌ من الله ورسوله.

وقد اختلف أهلُ التأويل فيمن بَرِئَ اللهُ ورسولُه إليه من العهدِ الذي كان بينه وبينَ رسولِ الله من المشركينَ، فأَذِنَ له في السياحةِ في الأرضِ أربعةَ أشهر.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: إنَّهُ لأهلِ العهدِ الذين ظَاهَرُوا على رسولِ الله ﷺ، ونَقَضُوا عَهْدَهم قبل انقضاءِ مُدَّته. فأما الذين لم يَنْقُضُوا عهدَهُم ولم يُظَاهِرُوا عليه، فإنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أمرَ نبيَّهُ ﷺ بإتمامِ العهدِ بينه وبينهم إلى مدته بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِين﴾ [التوبة: ٤].

فإنْ ظَنَّ ظَانٌّ أنَّ قولَ الله تعالى ذِكْرُه: ﴿فَإِذا ٱنْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْـرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، يدلُّ على خِلافِ ما قُلْنا في ذلك، إذْ كان ذلـكَ يُنْبِيءُ على أنَّ الفرضَ على المؤمنينَ كان بعد انقضاءِ الأشهرِ الحرم، قَتْلَ كُلِّ مشركٍ، فإنَّ الأمرَ في ذلك بخلافِ ما ظن، وذلك أنَّ الآيةَ التي تَتلُو ذلكَ تبينُ عن صِحَّةِ ما قُلنا، وفسادِ ما ظَنَّهُ مَنْ ظَنَّ أنَّ انسلاخَ الأشهرِ الحرم كانَ يُبيحُ قَتْلَ كُلِّ مشرك، كانَ له عَهْدٌ من رسولِ الله ﷺ، أو لم يَكُنْ كانَ له منـه عهدٌ، وذلك قوله: ﴿كَيْفَ يكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وعِنْدَ

رَسولِه إلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُّمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فما ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، [التوبة : ٧]، فهؤلاء مشركون، وقد أمرَ اللهُ نبيه ﷺ والمؤمنينَ بالاستقامةِ لهم في عهدِهم، ما استقامُوا لهم بتركِ نَقْضِ صُلْحِهم، وترك مُظَاهَرةِ عَدُوِّهم عليهم.

وبَعْدُ، ففي الأخبارِ المتظاهرةِ عن رسولِ الله ﷺ: أنه حين بَعَثَ عليًّا رحمةُ الله عليه ببراءة إلى أهلِ العهودِ بينه وبينهم، أمَرَهُ فيما أمرهُ أنْ ينادي به فيهم: «ومَنْ كان بَيْنَهُ وبينَ رسولِ الله ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُه إلى مُدَّتِه»[1]، أوضحُ الدليلِ على صِحَّةِ ما قُلْنا. وذلك أنَّ الله لم يأمُرْ نبيه ﷺ بنقضِ عهدِ قومٍ كان عاهَـدَهُمْ إلى أجلٍ فاستقاموا على عَهْدِهم بتركِ نَقْضِه، وأنه إنما أَجَّلَ أربعةَ أشهرٍ مَنْ كان قد نَقَضَ عهده قبلَ التأجيل، أو مَنْ كان له عَهْدٌ إلى أجلٍ غير محدود. فأما مَنْ كان أجلُ عهدِه محدوداً، ولم يجعل بنقضِه على نفسِه سبيلاً، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان بإتمام عَهْدِه إلى غايةِ أجَلِه مأموراً. وبذلك بَعَثَ مُناديه ينادي به في أهلِ الموسم من العرب.

فقـد أنبأَتْ هذه الأخبارُ ونظائرها عن صِحَّةِ ما قُلْنَا، وأنَّ أجلَ الأشهرِ الأربعةِ إنما كان لِمَنْ وَصَفْنَا. فأمَّا مَنْ كان عَهْدُه إلى مُدَّةٍ معلومة، فلم يجعلْ لرسولِ الله ﷺ وللمؤمنينَ لنَقْضِه ومظاهرةِ أعدائِهم عليهم سبيلاً، فإنَّ رسولَ الله ﷺ قد وَفَى له بعهدِه إلى مُدَّتِه، عن أمرِ الله إياهُ بذلك. وعلى ذلك دَلَّ ظاهرُ التنزيلِ، وتَظَاهرتْ به الأخبارُ عن الرسولِ ﷺ.

وأما الأشهرُ الأربعة، فإنها كانت أجَل مَنْ ذَكَرْنَا. وكان ابتداؤُها يومَ الحَجِّ الأكبرِ، وانقضاؤُها انقضاء عَشْرٍ من ربيع الآخر، فذلك أربعةُ أشهرٍ مُتَتَابعةٍ،

---

(١) ساق الطبري الآثار بذلك (١٦٣٦٨-١٦٣٧٩)، وفيها ما هو صحيح وضعيف، فالحديث صحيح، وانظر تفسير ابن كثير: ٤/١١١.

التوبة: ٢

جُعِلَ لأهلِ العهدِ الذين وصفنا أمْرَهُمْ، فيها، السياحةُ في الأرض، يذهبونَ حيث شاؤوا، لا يَعْرِضُ لهم فيها من المسلمينَ أحَدٌ بحربٍ ولا قتلٍ ولا سلب.

فإنْ قال قائلٌ: فإذا كان الأمرُ في ذلك كما وصفتَ، فما وَجْهُ قولِه: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، [التوبة: ٥]. وقد علمتَ أنَّ انسلاخَها انسلاخ المُحَرَّمِ، وقد زعمتَ أنَّ تأجيلَ القومِ من الله ومن رسولِه كان أربعةَ أشهرٍ، وإنما بينَ يوم الحجِّ الأكبرِ وانسلاخِ الأشهرِ الحُرُمِ خَمْسُونَ يوماً أكثرُه، فأينَ الخمسونَ يوماً من الأشهرِ الأربعة؟

قيل: إنَّ انسلاخَ الأشهرِ الحرم، إنما كان أجَلَ مَنْ لا عهدَ له من المشركينَ من رسولِ الله ﷺ، والأشهرُ الأربعةُ لِمَنْ له عَهْدٌ، إما إلى أجلٍ غير محدودٍ، وإما إلى أجلٍ محدودٍ قد نَقَضَهُ، فصار بنقضِه إياهُ بمعنى مَنْ خِيْفَ خيانَتُه، فاستحقَّ النَّبْذَ إليه على سواء، غير أنه جُعِلَ له الاستعداد لنفسه والارتياد لها من الأجلِ الأربعةِ الأَشْهُر. أَلَا تَرَى اللهَ يقولُ لأصحابِ الأشهرِ الأربعةِ، ويَصِفُهم بأنهم أهلُ عهدٍ: «براءةٌ من اللهِ ورسولِه إلى الذينَ عَاهَدْتُمْ من المشركينَ فَسِيحُوا في الأرضِ أربعةَ أشهرٍ واعلموا أنكم غيرُ مُعْجِزي الله»، ووصفَ المجعولَ لهم انسلاخُ الأشهرِ الحُرُمِ أجلاً، بأَنَّهُمْ أهلُ شِرْكٍ لا أهلُ عَهْدٍ فقال: «وأذانٌ من اللهِ ورسولِه إلى الناسِ يومَ الحَجِّ الأكبرِ أنَّ الله بريءٌ من المشركينَ ورسولُه» الآية. «إلَّا الذينَ عاهدتم من المشركينَ» الآية؟ ثم قالَ: «فإذا انسلخَ الأشهرُ الحُرُمُ فاقْتُلُوا المشركينَ حيثُ وَجَدْتُموهم»، فأمَرَ بقتلِ المشركينَ الذينَ لا عَهْدَ لهم بعدَ انسلاخِ الأشْهُرِ الحُرُم، وبإتمامِ عَهْدِ الذين لهم عَهْدٌ، إذا لم يكونوا نَقَضُوا عَهْدَهُم بالمظاهرةِ على المؤمنينَ، وإدخالِ النقصِ فيه عليهم.

فإنْ قال قائلٌ: وما الدليلُ على أنَّ ابتداءَ التأجيلَ كانَ يومَ الحَجِّ الأكبر، دونَ أنْ يكونَ كانَ من شوال، على ما قالَهُ قائِلُوا ذلك؟

قيل له: إنَّ قائلي ذلك زَعَمُوا أنَّ التأجيلَ كان من وقتِ نُزولِ «براءة»، وذلك غيرُ جائزٍ أنْ يكونَ صحيحاً، لأنَّ المجعولَ له أجلُ السياحةِ إلى وقتٍ محدود، إذا لم يُعْلَمْ ما جُعِلَ له، ولاسيما مع عَهْدٍ له قد تَقَدَّمَ قبلَ ذلك بخلافِه، فكَمَنْ لم يجعل له ذلك، لأنه إذا لم يُعْلَمْ ما لَهُ في الأجلِ الذي جُعِلَ له وما عليهِ بعد انقضائِه، فهو كهيئته قبل الذي جُعلَ له من الأجلِ. ومعلومٌ أنَّ القومَ لم يعلموا بما جُعلَ لهم من ذلك، إلاَّ حين نُودِيَ فيهم بالموسم. وإذا كانَ ذلكَ كذلك، صَحَّ أنَّ ابتداءَهُ ما قلنا، وانقضاءَهُ كان ما وَصَفْنَا.

وأما قوله: «فَسِيحُوا في الأرضِ أربعةَ أشهر»، فإنَّه يعني: فَسِيرُوا فيها مُقْبِلينَ ومُدْبِرينَ، آمنينَ غيرَ خائفينَ من رسولِ الله ﷺ وأتباعِه.

وأما قوله: «واعْلَمُوا أنكم غيرُ مُعْجزي الله»، فإنه يقولُ لأهلِ العهدِ من الذينَ كان بينهم وبينَ رسولِ الله ﷺ عَهْدٌ قبلَ نزولِ هذه الآية: اعْلَمُوا، أيها المشركون، أنكم إنْ سِحْتُمْ في الأرضِ، واختَرْتُمْ ذلكَ مع كُفْرِكُمْ باللهِ، على الإقرارِ بتوحيدِ الله وتصديقِ رسوله. «غيرُ مُعْجزي الله»، يقول: غير مُفِيتيه بأنفسِكم، لأنكم حيثُ ذهبتم وأينَ كُنْتُمْ من الأرضِ، ففي قَبْضَتِه وسُلْطَانه، لا يَمْنَعُكُمْ منه وزيرٌ، ولا يحولُ بينكم وبينه إذا أرادَكُمْ بعذابٍ مَعْقِلٌ ولا مَوْئِلٌ، إلا الإيمان بهِ وبرسولِه، والتوبة من معصيتِه. يقول: فبادِرُوا عُقوبَتَهُ بتوبةٍ، ودَعُوا السياحةَ التي لا تنفعكم.

وأما قوله: «وأنَّ الله مُخْزِي الكافرينَ»، يقولُ: واعلمُوا أنَّ اللهَ مُذِلُّ الكافرينَ، ومُورثهم العارَ في الدنيا، والنارَ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإعلامٌ من اللهِ ورسولِه إلى الناسِ يومَ الحَجِّ الأكبر.

وأما قوله: «يوم الحَجِّ الأكبر»، فإنَّ فيه اختلافاً بين أهلِ العلم.

فقال بعضهم: هو يومُ عَرَفة.

وقال آخرون: هو يومُ النَّحْرِ.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصحةِ، قولُ مَنْ قال: «يومُ الحَجِّ الأكبر، يومُ النَّحْرِ»، لتظاهُرِ الأخبارِ عن جماعةٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ أنَّ عليًّا نادى بمـا أَرْسَلَهُ به رسولُ الله ﷺ من الرسالةِ إلى المشركينَ، وتلا عليهم «براءة»، يومَ النحر[1]. هذا، مع الأخبارِ التي ذكرناها عن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ يومَ النحر: أتدرونَ أيّ يومٍ هذا؟ هذا يومُ الحَجِّ الأكبر[2].

وبَعْدُ، فإنَّ «اليوم»، إنما يُضافُ إلى المعنى الذي يكونُ فيه، كقولِ الناسِ: «يوم عرفة»، وذلك يومُ وقوفِ الناسِ بعرفة؛ و«يوم الأضحى»، وذلك يوم يضحون فيه؛ و«يوم الفطر»، وذلك يوم يفطرون فيه؛ وكذلك «يوم الحج»، يوم يَحجُّونَ فيه، وإنما يَحجُّ الناسُ ويَقْضُونَ مناسِكَهُم يومَ النحر، لأنَّ في ليلةِ نهار يومِ النحر، الوقوفَ بعرفة غير فائتٍ إلى طلوع الفجر، وفي صبيحتها يعمل

(١) تقدمت الإشارة إلى ذلك قبل قليل.

(٢) يشير المؤلف إلى حديث ابن عمر الذي أخرجه برقم (١٦٤٤٧) وحديثين آخرين «عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ» (١٦٤٤٨) و(١٦٤٤٩)، وفيهما كلام، والصحابةُ مختلفون في ذلك بين يوم عرفة ويوم النحر، فالاستدلال بمثل هذه الأحاديث لا يقوي حجة المؤلف، لكن له استدلالاته الأخرى.

أعمـال الحـج. فأما يومُ عرفة، فإنه وإنْ كان فيه الوقوفُ بعرفة، فغير فائت الوقوف به إلى طلوعِ الفجر من ليلةِ النحر، والحَجُّ كُلُّه يوم النحر.

واختلف أهلُ التأويل في السبب الذي من أجلِه قيل لهذا اليوم: «يوم الحج الأكبر».

فقال بعضهم: «سُمِّيَ بذلك، لأنَّ ذلك كان في سنةٍ اجتمعَ فيها حَجُّ المسلمينَ والمشركينَ.

وقال آخرون: «الحَجُّ الأكبرُ»، الحج. و«الحج الأصغر»، العمرة.

وقال آخرون: «الحج الأكبر»، القِرانُ، و«الحج الأصغر»، الإفراد.

وأوْلى هذه الأقـوالِ بالصوابِ في ذلك عندي، قولُ مَنْ قال: «الحج الأكبـر، الحـج»، لأنـهُ أكبرُ من العمرةِ بزيادةِ عَمَلِه على عَمَلِهَا، فقيل له: «الأكبر»، لذلك. وأما «الأصغر»، فالعمرة، لأنَّ عملها أقل من عَمَلِ الحج، فلذلك قيل لها: «الأصغر»، لِنُقْصَانِ عملها عن عَمِلِه.

وأمـا قوله: «أنَّ الله بريءٌ من المشركينَ ورسولُهُ»، فإنَّ معناه: أنَّ الله بريءٌ من عَهْدِ المشركينَ ورسولُه، بعد هذه الحجة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فإنْ تُبْتُمْ»، من كُفْرِكُمْ، أيها المشركونَ، ورجعتم إلى توحيدِ اللهِ وإخلاصِ العبادةِ له ـ دونَ الآلهةِ والأنداد ـ فالرجوعُ إلى ذلك «خَيْرٌ لكم»، من الإقامةِ على الشِّرْكِ في الدنيا والآخرة. «وإن توليتم»، يقولُ: وإنْ أدبرتُمْ عن الإيمانِ بالله، وأبيتم إلا الإقامةَ على شِرْكِكُمْ. «فاعلموا أنكم غيرُ مُعْجِزي الله»، يقولُ: فأيْقِنوا أنكم لا تُفِيتونَ اللهَ بأنفسِكُمْ من أنْ يحلَّ بكم

عَذَابُه الأليمُ وعِقابُه الشديدُ، على إقامتِكم على الكُفْرِ، كما فعلَ بِمَنْ قَبْلَكُمْ من أهلِ الشركِ من إنزالِ نِقَمِه به، وإحلاله العذاب عاجلاً بساحته. «وبَشِّر الذين كفروا»، يقولُ: وأَعْلِمْ، يا محمدُ، الذين جَحَدُوا نبوَّتك وخالفوا أمرَ رَبِّهم «بعذابٍ»، موجع يحلُّ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأَذَانٌ من اللهِ ورسولِه إلى الناسِ يومَ الحَجِّ الأكبرِ أنَّ الله بريءٌ من المشركينَ ورسولُه»، إلَّا مِنْ عَهْدِ الذين عاهدتم من المشركينَ، أيها المؤمنونَ. «ثم لم يَنْقُصوكم شيئاً»، من عَهْدِكم الذي عاهدتُموهم. «ولم يُظَاهِرُوا عليكم أحداً»، من عَدُوِّكم، فيعينوهم بأنفسِهم وأبدانهم، ولا بسلاح ولا خيل ولا رجال. «فأتِمُّوا إليهم عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهم»، يقول: فوفوا لهم بعهدهم الذي عاهدتموهم عليه ولا تنصبوا لهم حرباً إلى انقضاء أجل عَهْدِهم الذي بينكم وبينهم. «إنَّ الله يحبُّ المتقينَ»، يقولُ: إنَّ الله يحبُّ مَنِ اتَّقاهُ بطاعتِه، بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «فإذا انسلخَ الأشهرُ الحُرُمُ»، فإذا انقضى ومضى وخرج.

ويعني بـ «الأشهر الحرم»، ذَا القعدة، وذا الحجة، والمحرم.

وإنما أُريدَ في هذا الموضع انسلاخ المُحَرَّم وَحْدَهُ، لأنَّ الأذانَ كان ببراءة يومَ الحَجِّ الأكبر. فمعلومٌ أنهم لم يكونوا أُجِّلُوا الأشهرَ الحُرُمَ كُلَّها وقد دللنا على صِحَّةِ ذلك فيما مضى ولكنه لَمَّا كان مُتَّصلاً بالشهرين الآخرين قبله الحرامين، وكان هُوَ لَهُمَا ثالثاً، وهي كلها مُتَّصِلٌ بعضُها ببعض، قيل: «فإذا انسلخ الأشهر الحرم»، ومعنى الكلام: فإذا انقضت الأشهرُ الحُرُمُ الثلاثةُ عن الذين لا عهدَ لهم، أو عن الذينَ كان لهم عَهْدٌ فَنَقَضُوا عَهْدَهُمْ بمظاهرتِهم الأعداءَ على رسولِ الله ﷺ وعلى أصحابه، أو كان عَهْدُهم إلى أجلٍ غير معلوم.

«فاقتُلوا المشركين»، يقولُ: فاقتلوهم. «حَيثُ وجدتموهم»، يقولُ: حيث لَقِيتُمُوهُمْ من الأرضِ، في الحرم، وغير الحرم، في الأشهرِ الحُرُم وغيرِ الأشهر الحرم. «وخُذُوهم» يقولُ: وَأْسُرُوهم «واحْصُروهم»، يقولُ: وامْنَعُوهُمْ التصرُّفَ في بلادِ الإسلامِ ودخولِ مكة. «واقعدوا لهم كُلَّ مَرْصَدٍ»، يقولُ: واقعدوا لهم بالطلبِ لقتلِهم أو أَسْرِهم. «كُلَّ مرصد»، يعني: كُلَّ طريقٍ ومرقَب.

«فإنْ تابوا»، يقولُ: فإنْ رجعوا عما هم عليه من الشرك بالله وجحود نبوة محمدٍ ﷺ، إلى توحيدِ اللهِ وإخلاصِ العبادةِ له دونَ الآلهةِ والأندادِ، والإقرارِ بنبوةِ محمدٍ ﷺ. «وأقاموا الصلاة»، يقولُ: وأَدّوا ما فَرَضَ اللهُ عليهم من الصلاةِ بحدودها ـ وأعطوا الزكاةَ التي أوجبها اللهُ عليهم في أموالهم أهلها. «فَخَلُّوا سبيلهم»، يقولُ: فَدَعُوهم يَتصرَّفُونَ في أمصارِكم، ويدخلونَ البيتَ الحرام. «إن الله غفور رحيم»، لِمَنْ تابَ من عبادِه ـ فأنابَ إلى طاعتِه، بعد الذي كان عليه من معصيتِه، ساترٌ على ذَنْبِه، رحيمٌ به، أنْ يُعَاقِبَهُ على ذنوبه السالفةِ قبلَ توبتِه، بعدَ التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: وإن استأمنك، يا محمدُ، من المشركينَ، الذينَ أمرْتُكَ بقتالِهم وقَتْلِهم بعد انسلاخِ الأشهرِ الحُرُمِ ، أحَدٌ ليسمعَ كلامَ الله منكَ ـ وهو القرآنُ الذي أنزله اللهُ عليه ـ «فأَجِرْهُ»، يقولُ: فأَمِّنْهُ حتى يسمعَ كلامَ الله وتتلوه عليه. «ثم أَبْلِغْهُ مأمَنَهُ»، يقولُ: ثم رُدَّهُ بعد سماعِهِ كلامَ اللهِ إنْ هو أَبَى أنْ يُسْلِمِ ، ولم يَتَّعِظْ بما تَلَوْتَهُ عليه من كلامِ الله فيؤمن. «إلى مأمنه»، يقولُ: إلى حيثُ يأمَنُ منكَ ومِمَّنْ في طاعتكَ، حتى يَلْحَقَ بدارِه وقومِه من المشركينَ. «ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون»، يقولُ: تفعلُ ذلكَ بهم، من إعطائِكَ إياهم الأمانَ ليسمعوا القرآنَ، وردِّكَ إياهم إذا أَبَوْا الإسلامَ إلى مأمَنِهم، من أجلِ أنهم قومٌ جَهَلَةٌ لا يَفْقَهُونَ عن اللهِ حُجَّةً، ولا يعلمونَ ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوِزْرِ والإثمِ بتركِهم الإيمانَ بالله.

واختلف في حُكْمِ هذه الآية، هل هو منسوخٌ أو هو غيرُ منسوخ؟

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي، قولُ مَنْ قال: «ليس ذلك بمنسوخٍ». وقد دللنا على أنَّ معنى «النسخ»، هو نفي حكمٍ قد كان ثَبَتَ بحكمٍ آخَرَ غيره. ولم تصحَّ حجةٌ بوجوبِ حكم الله في المشركينَ بالقتلِ بكلِّ حالٍ، ثم نسخه بتركِ قَتْلِهم على أخذِ الفِداء، ولا على وجهِ المَنِّ عليهم. فإذْ كان ذلك كذلك، وكان الفِداءُ والمَنُّ والقتلُ لم يزل من حُكْمِ رسولِ الله ﷺ فيهم من أول حربٍ حاربهم، وذلك من يوم بدر ـ كان معلوماً أنَّ معنى الآية: فاقتلوا المشركينَ حيثُ وجدتموهم، وخُذُوهم للقتلِ أو المَنِّ أو الفِداءِ، واحصروهم. وإذا كان ذلكَ معناهُ، صَحَّ ما قلنا في ذلك دونَ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أنّى يكونُ، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسوله، وبأيِّ معنى، يكونُ للمشركينَ بربِّهم عَهْدٌ وذِمَّةٌ عند اللهِ وعندَ رسولِهِ، يُوَفَّى لهم به، ويُتْرَكُوا من أجلِه آمنينَ يتصرفونَ في البلاد؟ وإنما معناه: لا عَهْدَ لهم، وأنَّ الواجبَ على المؤمنينَ قَتْلهُم حيث وجدوهم، إلا الذينَ أعطوا العهدَ عند المسجدِ الحرامِ منهم، فإنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أمرَ المؤمنينَ بالوفاءِ لهم بعدِهم، والاستقامة لهم عليه، ما داموا عليه للمؤمنينَ مُستقيمين.

واختلف أهلُ التأويل في الذين عُنُوا بقوله: «إلَّا الذين عاهدتم عندَ المسجدِ الحرام».

فقال بعضهم: هُمْ قومٌ من جذيمة بن الدُّئِل.

وقال آخرون: هم قريش.

وقال آخرون: هم قوم من خزاعة.

وأَوْلى هذه الأقوالِ بالصوابِ عندي، قولُ مَنْ قال: هم بعضُ بني بكر من كنانة، مِمَّنْ كان أقامَ على عهدِهِ، ولم يكن دَخَلَ في نقضِ ما كان بين رسولِ الله ﷺ وبين قريش يومَ الحديبية من العهدِ مع قريش، حين نَقَضُوه بمعونَتِهم حُلَفَاءَهم من بني الدُّئِل، على حُلفاءِ رسولِ الله ﷺ من خزاعة.

وإنما قلتُ: هذا القولُ أولى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، لأنَّ اللهَ أمرَ نبيه والمؤمنينَ بإتمامِ العهدِ لمن كانوا عاهدُوه عند المسجدِ الحرام، ما استقامُوا على عَهْدِهم. وقد بينّا أنَّ هذه الآيات إنما نادى بها عليٌّ في سنة تِسْعٍ من

الهجرةِ، وذلك بعد فتحِ مكةَ بسنةٍ، فلم يَكُنْ بمكةَ من قريشٍ ولا خزاعة كافرٌ يومئذٍ بينه وبينَ رسولِ الله ﷺ عَهْدٌ، فَيُؤْمَر بالوفاءِ له بعهدِه ما استقامَ على عهدِه، لأنَّ مَنْ كان منهم من ساكني مكة، كان قد نَقَضَ العهدَ وحُورِبَ قبلَ نزولِ هذه الآياتِ.

وأما قوله: «إنَّ الله يحبُّ المتقين»، فإنَّ معناه: إنَّ الله يحبُّ مَنِ اتقى اللهَ وراقَبَهُ في أداءِ فرائِضِه، والوفاءِ بعهدِه لمن عاهده، واجتنابِ معاصيه، وتَرْكِ الغدرِ بعهودِه لمن عاهده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: كيف يكونُ لهؤلاء المشركينَ الذين نَقَضُوا عَهْدَهم أو لمن لا عهدَ له منهم منكم، أيها المؤمنونَ، عَهْدٌ وذِمَّةٌ، وهُمْ «إنْ يَظْهَرُوا عليكم»، يَغْلِبُوكُمْ. «لا يَرْقُبُوا فيكم إلًّا ولا ذِمة».

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمة».

فقال بعضهم، معناه: لا يرقُبُوا اللهَ فيكم ولا عَهْداً.

وقال آخرون: «الإلُّ»، القرابةُ.

وقال آخرون: معناه الحلفُ.

وقال آخرون: «الإلُّ»، هو العَهْدُ، ولكنه كُرِّرَ لما اختلف اللفظان، وإنْ كان معناهما واحداً.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن هؤلاءِ المشركينَ الذين أَمَرَ نبيَّهُ والمؤمنينَ بقتلِهم بعد انسلاخِ الأشهرِ الحُرُمِ،

وحَضْرهم والقعود لهم على كُلِّ مرصد: أنهم لو ظهروا على المؤمنينَ لم يرقبوا فيهم «إلًّا».

و«الإلُّ»، اسمٌ يشتملُ على معانٍ ثلاثة: وهي العهدُ، والعقدُ، والحلفُ، والقرابةُ، وهو أيضاً بمعنى «الله». فإذْ كانت الكلمةُ تشملُ هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خَصَّ من ذلك معنًى دونَ معنى، فالصوابُ أن يُعَمَّ ذلك كما عمّ بها جَلَّ ثَنَاؤُهُ معانيها الثلاثة، فيقال: لا يَرْقُبونَ في مؤمنٍ اللهَ ولا قرابةً ولا عهداً ولا ميثاقاً.

فأما قوله: «يُرْضُونَكُمْ بأفواهِهم»، فإنه يقولُ: يُعْطُونَكُمْ بألسنتهم من القولِ خِلافَ ما يُضْمِرُونَهُ لكم في نفوسهم من العداوةِ والبغضاء. «وتأبى قلوبُهم»، أي: تأبَى عليهم قلوبُهم أنْ يُذْعِنُوا لكم، بتصديقِ ما يُبْدُونَهُ لكم بألسنتهم. يحذِّرُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أمْرَهم المؤمنينَ، ويَشْحَذُهم على قَتْلِهم واجتياحهم حيثُ وُجِدُوا من أرضِ الله، وأنْ لا يُقَصِّرُوا في مَكْرُوهِهم بكلِّ ما قَدَرُوا عليه. «وأكثرهم فاسقون»، يقولُ: وأكثرهم مخالفونَ عَهْدَكُم، ناقضونَ له، كافرونَ بربِّهم، خارجونَ عن طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: ابتاعَ هؤلاءِ المشركونَ الذين أمَرَكُمُ اللهُ، أيها المؤمنونَ، بِقَتْلِهم حيثُ وجدتموهم، بترْكِهم اتِّباعَ ما احْتَجَّ اللهُ به عليهم من حُجَجِه، يسيراً من العِوَضِ قليلاً من عَرَضِ الدنيا.

وذلك أنهم، فيما ذُكِرَ عنهم، كانوا نَقَضُوا العهدَ الذي كان بينهم وبينَ رسولِ الله ﷺ بأكلةٍ أَطْعَمَهُمُوها أبو سفيان بن حرب.

وأما قوله: «فصدوا عن سبيلِه»، فإن معناه: فَمَنَعُوا الناسَ من الدخولِ في الإسلامِ، وحاولُوا رَدَّ المسلمينَ عن دِينهم. «إنهم سَاءَ ما كانوا يعملون»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنَّ هؤلاء المشركينَ الذين وصفتُ صِفاتِهم، ساء عَمَلُهم الذي كانوا يعملون، من اشترائِهم الكُفْرَ بالإيمانِ، والضلالةَ بالهدى، وصَدِّهم عن سبيلِ الله مَنْ آمَنَ باللهِ ورسولِه، أو مَنْ أرادَ أنْ يُؤْمِنَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا يتقي هؤلاءِ المشركونَ الذين أَمَرْتُكم، أيها المؤمنونَ، بقتْلِهم حيثُ وجدتُموهم، في قتل مؤمنٍ لو قَدرُوا عليه. «إلًّا ولا ذِمَّةً»، يقولُ: فلا تُبْقُوا عليهم، أيها المؤمنونَ، كما لا يُبْقُونَ عليكم لو ظَهَرُوا عليكم. «وأولئك هم المعتدون»، يقولُ: المُتَجاوِزُونَ فيكم إلى ما ليسَ لهم بالظُّلمِ والاعتداء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: فإنْ رجعَ هؤلاءِ المشركونَ الذين أَمَرْتُكُمْ، أيها المؤمنونَ، بِقَتْلِهم عن كُفْرِهم وشِرْكِهم بالله، إلى الإيمانِ به وبرسولِه، وأنابُوا إلى طاعتِه. «وأقاموا الصلاة»، المكتوبةَ، فأدَّوْهَا بحدودِها. «وآتوا الزكاة»، المفروضةَ أهلَها. «فإخوانكُم في الدِّينِ»، يقولُ: فهم إخوانُكم في الدِّينِ الذي أمركم اللهُ به، وهو الإسلامُ. «ونُفَصِّلُ الآياتِ»، يقولُ: ونُبَيِّنُ حُجَجَ اللهِ وأدِلَّتَه

على خَلْقِه. «لقومٍ يعلمون»، ما بُيِّنَ لهم، فَنَشْرَحُها لهم مُفَصَّلَةً، دونَ الجُهَّالِ الذين لا يعقلونَ عن اللهِ بيانَهُ ومُحْكَم آياتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ نَقَضَ هؤلاء المشركونَ الذين عاهدتُموهم من قريش، عُهودَهم من بعدِ ما عاقَدُوكُمْ أنْ لا يُقاتِلُوكم ولا يُظاهِرُوا عليكم أحداً من أعدائِكم. «وطعنوا في دِينكم»، يقولُ: وقَدَحُوا في دِينكم الإسلام، فَثَلَبُوهُ وعَابُوه. «فقاتلوا أئمةَ الكُفْرِ»، يقولُ: فقاتلوا رؤساءَ الكُفْرِ بالله. «إنهم لا أيمانَ لهم»، يقولُ: إنَّ رؤساءَ الكفرِ لا عَهْدَ لهم. «لعلهم ينتهون»، لكي يَنْتَهُوا عن الطعنِ في دِينكم والمُظَاهَرَةِ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ باللهِ ورسولِه، حاضًا لهم على جهادِ أعدائِهم من المشركين: «ألا تُقَاتِلُونَ»، أيها المؤمنون، هؤلاءِ المشركينَ الذين نَقَضُوا العهدَ الذي بينكم وبينهم، وطَعَنُوا في دِينكم، وظاهروا عليكم أعداءكم، «وهَمُّوا بإخراجِ الرسولِ»، من بينِ أَظْهُرِهم فأخرجُوه. «وهُمْ بَدَأُوكُم أولَ مرة»، بالقتالِ، يعني فِعْلَهم ذلكَ يومَ بدرٍ، وقيل: قتالهم حُلَفاء رسولِ الله ﷺ من خزاعة. «أَتَخْشَوْنَهُمْ»، يقولُ: أتخافُونَهم على أنفسِكم فتتركوا قتالَهُم خَوْفاً على

أنفسِكم منهم. «فاللهُ أحَقُّ أنْ تَخْشَوْهُ»، يقولُ: فاللهُ أوْلى بكم أنْ تَخافُوا عُقوبَتَهُ بتركِكُم جِهادَهُم، وتَحذَرُوا سخطَهُ عليكم، من هؤلاءِ المشركينَ الذين لا يملكونَ لكم ضرًّا ولا نفعاً إلَّا بإذنِ الله. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقولُ: إنْ كُنْتُمْ مُقِرِّينَ أنَّ خشيةَ اللهِ لكم أوْلى من خشيةِ هؤلاء المشركينَ على أنفسِكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قَاتِلُوا، أيها المؤمنونَ باللهِ ورسوله، هؤلاءِ المشركينَ الذين نَكَثُوا أيمانَهُمْ، ونَقَضُوا عُهودَهم بينكم وبينهم، وأخرجُوا رسولَ الله ﷺ من بينِ أَظْهُرِهم: «يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكم»، يقولُ: يقتلهم الله بأيديكم. «ويُخْزِهِمْ»، يقولُ: ويُذِلَّهمْ بالأسرِ والقهرِ. «ويَنْصُرْكُمْ عليهم»، فيعطيكم الظَّفَرَ عليهم والغَلَبة. «وَيَشْفِ صُدورَ قومٍ مؤمنينَ»، يقولُ: ويُبْرِئُ دَاءَ صُدورِ قومٍ مؤمنين بالله ورسوله، بقتلِ هؤلاءِ المشركينَ بأيديكم، وإذلالكم وقهركم إياهم. وذلك الداءُ، هو ما كانَ في قلوبهم عليهم من المَوْجِدةِ بما كانوا يَنالُونَهُمْ به من الأذى والمكروه.

وقيل: إنَّ الله عَنَى بقوله: «وَيَشْفِ صُدورَ قومٍ مؤمنين»، صدورَ خزاعة حلفاءِ رسولِ الله ﷺ. وذلك أنَّ قريشاً نَقَضُوا العهدَ بينهم وبين رسولِ الله ﷺ بمعونتهم بَكْراً عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُه: ويُذْهِبْ وَجْد قلوبِ هؤلاءِ القومِ المؤمنينَ من

خزاعة، على هؤلاءِ القومِ الذين نَكَثُوا أيمانَهُمْ من المشركينَ، وغَمَّها وكربَها بما فيها من الوَجْدِ عليهم، بمعونتهم بَكْراً عليهم.

وأما قوله: «ويتوبُ اللهُ على مَنْ يشاء»، فإنه خبر مبتدأ، ولذلك رفع وجُزم الأحرفُ الثلاثة قبل ذلك على وجهِ المجازاة، كأنه قال: قَاتِلُوهُمْ، فإنكم إنْ تُقَاتِلُوهم يُعَذبهُمُ الله بأيدِيكم، ويُخْزِهم، ويَنْصُركم عليهم ثم ابتدأ فقال: «ويتوبُ الله على من يشاء»، لأنَّ القتالَ غير مُوجِبٍ لهم التوبةَ من الله، وهو موجبٌ لهم العذابَ من الله، والخزيَ، وشفاءَ صُدورِ المؤمنينَ، وذهابَ غيظِ قُلُوبِهم، فجزم ذلك شرطاً وجزاءً على القتالِ، ولم يكن موجباً القتالُ التوبةَ، فابتُدِىء الخبرُ به ورُفع.

ومعنى الكلام: ويَمُنُّ اللهُ على مَنْ يشاء من عبادِه الكافرينَ، فيقبل به إلى التوبةِ بتوفيقِه إياهُ. «والله عليم»، بسرائِرِ عبادِهِ، ومَنْ هُوَ للتوبةِ أهْلٌ، فيتوب عليه، ومَنْ منهم غيرُ أهلٍ لها فيخذله. «حكيمٌ»، في تصريفِ عبادِه من حالِ كُفْرٍ إلى حالِ إيمانٍ بتوفيقِه مَنْ وفَّقَهُ لذلك ـ ومن حالِ إيمانٍ إلى كُفْرٍ، بخذلانِه مَنْ خَذَلَ منهم عن طاعتِه وتوحيدِه، وغير ذلك من أمرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ الذين أمرهم بقتالِ هؤلاءِ المشركينَ، الذينَ نَقَضُوا عَهْدَهُم الذي بينهم وبينه بقوله: «قَاتِلُوهم يُعَذِّبهُمُ اللهُ بأيديكم»، الآية، حاضًا على جِهادِهم: «أمْ حسبتم»، أيها المؤمنونَ أن يترككم الله بغيرِ محنةٍ يَمْتَحِنُكُمْ بها، وبغيرِ اختبارٍ يَخْتَبِرُكُمْ به، فيعرفُ الصادقَ منكم في دِينِهِ من

الكاذبِ فيه. «ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهدوا»، يقولُ: أحسبتم أنْ تُتْرَكُوا بغيرِ اختبارٍ يعرف به أهلَ ولايته المجاهدينَ منكم في سبيله، من المُضَيِّعينَ أمرَ الله في ذلك المُفَرِّطينَ. «ولم يَتَّخِذُوا من دونِ الله ولا رسولِه»، يقولُ: «ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهَدُوا منكم»، والذين لم يَتَّخِذُوا من دونِ اللهِ ولا من دونِ رسولِه ولا مِنْ دونِ المؤمنينَ «وليجةً». هو الشيءُ يدخلُ في آخر غيره، يقالُ منه: «وَلَجَ فلانٌ في كذا يَلجه، فهو وليجة».

وإنما عَنَى بها في هذا الموضع: البطانةَ من المشركينَ. نَهَى اللهُ المؤمنينَ أنْ يَتَّخِذُوا من عَدُوِّهم من المشركينَ أولياءَ، يفشُونَ إليهم أسرارَهُم. «واللهُ خبيرٌ بما تعملون»، يقولُ: واللهُ ذُو خبرةٍ بما تعملون، من اتِّخَاذِكُمْ من دونِ الله ودون رسولِه والمؤمنينَ به أولياءَ وبطانةً، بعد ما قد نَهَاكُمْ عنه، لا يَخْفَى ذلك عليه، ولا غيره من أعمالكم، والله مُجَازِيكم على ذلك، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرًّا فشراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما ينبغي للمشركينَ أنْ يَعْمُرُوا مساجدَ الله وهم شاهدونَ على أنفسِهم بالكفرِ. يقولُ: إنَّ المساجدَ إنما تُعْمَرُ لعبادةِ الله فيها، لا للكُفْرِ به. فَمَنْ كان بالله كافراً، فليسَ من شأنهِ أنْ يَعْمُرَ مساجدَ الله.

وقوله: «أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم»، يقولُ: بَطلتْ وذَهَبَتْ أجورها، لأنها لم تكن لله بَلْ كانت للشيطان. «وفي النارِ هُمْ خالدون»، يقولُ: ماكِثُونَ فيها أبداً، لا أحياءً ولا أمواتاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنما يَعْمُرُ مساجدَ الله»، المُصَدِّقُ بوحدانيةِ الله، المخلص له العبادةَ. «واليوم الآخرِ»، يقولُ: الذي يُصَدِّقُ ببعثِ الله الموتى أحياءً من قُبورِهم يومَ القيامة. «وأقامَ الصلاةَ»، المكتوبةَ، بحدودِهَا، وأدَّى الزكاةَ الواجبةَ عليه في مالِه إلى مَنْ أوجبها اللهُ له. «ولم يَخْشَ إلا الله»، يقولُ: ولم يَرْهَبْ عقوبةَ شيءٍ على معصيتِه إياهُ سِوَى الله. «فعسى أولئكَ أنْ يكونُوا من المهتدينَ»، يقولُ: فَخَلِيقٌ بأولئكَ الذين هذِه صِفَتُهم، أنْ يكونوا عند الله مِمَّنْ قد هَدَاهُ الله للحقِّ وإصابةِ الصواب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

وهذا توبيخٌ من الله تعالى ذِكْرُه لقومٍ افْتَخَرُوا بالسقايةِ وسِدَانةِ البيتِ، فأعْلَمَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ الفخرَ في الإيمانِ بالله واليومِ الآخرِ والجهادِ في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السِّدانةِ والسقاية.

فتأويلُ الكلام إذاً: أَجَعَلْتُمْ، أيها القومُ، سقايةَ الحاج وعمارةَ المسجدِ الحرامِ، كإيمانِ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وجاهدَ في سبيلِ الله. «لا يَسْتَوُونَ» هؤلاءِ، وأولئكَ، ولا تَعْتَدِل أحوالُهما عندَ اللهِ ومنازلهما، لأنَّ الله تعالى لا يقبلُ بغير الإيمانِ به وباليومِ الآخرِ عملاً. «واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين»، يقولُ:

والله لا يُوفِّقُ لصالحِ الأعمالِ مَنْ كان به كافراً، ولتوحيدِه جاحداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٢٠﴾

وهذا قضاءٌ من الله بَيْن فِرَقِ المفتخرينَ الذين افتخرَ أحدهم بالسقايةِ، والآخرُ بالسِّدانةِ. والآخرُ بالإيمانِ بالله والجهادِ في سبيله. يقول تعالى ذِكْرُه: «الذين آمنوا» بالله، وصَدَّقُوا بتوحيدِه من المشركينَ. «وهَاجَرُوا» دُوْرَ قومِهم. «وجاهدوا» المشركينَ في دينِ الله. «بأموالهم وأنفسهم أعظمُ درجةً عند الله»، وأرفعُ منزلةً عندَهُ، من سُقَاةِ الحاج وعُمَّارِ المسجدِ الحرام، وهُمْ بالله مُشركونَ. «وأولئك»، يقولُ: وهؤلاءِ الذين وصفنا صِفَتهم، أنهم آمنوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا. «هُمُ الفائزون»، بالجنةِ، الناجونَ من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُبَشِّرُ هؤلاءِ الذينَ آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله. «ربُّهُمْ برحمةٍ منه»، لهم، أنَّهُ قَدْ رَحِمَهُمْ من أنْ يُعَذِّبَهُمْ وبرضوانٍ منه لهم، بأنه قد رضيَ عنهم بطاعَتِهم إياهُ، وأدائِهم ما كَلَّفَهُمْ. «وجناتٍ»، يقولُ: وبساتين. «لهم فيها نعيمٌ مقيم»، لا يزولُ ولا يَبيدُ، ثابتٌ دائمٌ أبداً لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٢٢﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «خالدينَ فيها»، ماكثين فيها، يعني في الجنات. «أبداً»، لا نهايةَ لذلكَ ولا حَدَّ. «إنَّ الله عِنْدَهُ أجرٌ عظيم»، يقولُ: إنَّ الله عنده لهؤلاءِ المؤمنينَ الذين نعتَهُم جَلَّ ثَنَاؤُهُ النَّعْتَ الذي ذَكَرَهُ في هذه الآيةِ «أجرٌ»، ثوابٌ على طاعَتِهم لربِّهم، وأدائِهم ما كَلَّفَهُمْ من الأعمالِ. «عظيم»، وذلك النعيمُ الذي وَعَدَهُمْ أنْ يُعطيهم في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسولِه: لاتَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وإخْوانَكُم بطانةً وأصدقاء تُفْشُونَ إليهم أسراركُمْ، وتُطْلِعُونَهُمْ على عورةِ الإسلامِ وأهلِه، وتُؤْثِرُونَ المُكْثَ بين أَظْهُرِهم على الهجرةِ إلى دارِ الإسلام. «إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ على الإيمان»، يقـولُ: إنِ اخْتَـارُوا الكفـرَ بالله، على التصديقِ به والإقرارِ بتـوحيدِه. «ومَنْ يَتَـولَّهُمْ منكم»، يقـولُ: ومَنْ يَتَّخِذهُمْ منكم بطانَةً من دونِ المؤمنينَ، ويُؤْثِـر المقـامَ معهم على الهجرةِ إلى رسولِ الله ودارِ الإسلام. «فأولئك هم الظالمون»، يقولُ: فالذين يَفعلونَ ذلك منكم، هُمُ الذين خالَفُوا أمرَ الله، فوضعوا الولايةَ في غيرِ موضعها، وعَصوا الله في أمره.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تبارك وتعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ، للمُتَخَلِّفينَ عن الهجرةِ إلى دارِ الإسلام، المقيمينَ بدارِ الشِّرْكِ: إنْ كان المقامُ مع آبائِكم وأبنائِكم وإخوانِكم وأزواجِكم وعشيرتِكم. وكانتْ «أموالٌ اقترفْتُمُوها»، يقولُ: اكْتَسَبْتُموها. «وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادها»، بفراقِكم بلدَكُمْ. «ومساكنُ تَرْضَوْنَها»، فَسَكَنْتُموها. «أَحَبَّ إليكم»، من الهجرةِ إلى اللهِ ورسولِه، من دارِ الشركِ ومِنْ جهادٍ في سبيلِه، يعني: في نُصْرَةِ دِينِ الله الذي ارتضاهُ. «فَتَرَبَّصُوا»، يقولُ: فتنظَّروا. «حتى يأتيَ اللهُ بأمره»، حتى يأتيَ الله بفتحِ مكةَ. «واللهُ لا يهدي القومَ الفاسقينَ»، يقولُ: واللهُ لا يُوفِّقُ للخيرِ الخارِجينَ عن طاعتهِ وفي معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «لقد نَصَرَكُمُ الله»، أيها المؤمنونَ - في أماكن حَرْبٍ تُوَطِّنُونَ فيها أنفسكم على لقاءِ عَدُوِّكم، ومَشَاهِدَ تَلْتَقُونَ فيها أنتم وهُمْ كثيرة. «ويومَ حُنينٍ»، يقولُ: وفي يومِ حنين أيضاً قد نَصَرَكم.

«إذْ أعجبتكم كَثْرَتُكُم»، وكانوا ذلك اليوم، فيما ذُكِرَ لنا، اثنى عشرَ ألفاً. وهو قولُ الله: «إذْ أعجبتكُمْ كَثْرَتُكُمْ فلم تُغْنِ عنكم شيئاً»، يقولُ: فلم تُغْنِ عنكم كثـرتكم شيئاً. «وضَاقَتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ»، يقولُ: وضاقتِ الأرضُ بسعتها عليكم.

«ثم وَلَّيْتُمْ مُدْبِـرينَ»، عن عَدُوِّكم منهـزمينَ. «مـدبـرين»، يقـولُ: وَلَّيْتُموهم، الأدبارَ، وذلك الهزيمة. يُخْبِرُهُم تباركَ وتعالى أنَّ النصرَ بيدِه ومن عنده، وأنه ليسَ بكثرةِ العدِ وشِدَّةِ البطشِ، وأنه يَنْصُرُ القليلَ على الكثيرِ إذا

شاء، ويخلّي الكثيرَ والقليلَ، فَيهْزِمُ الكثيرُ»[1].

القَوْلُ في تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ثم من بَعْدِ ما ضاقَتْ عليكمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ، وتَوْليتكُمُ الأعداء أدبارَكُمْ، كَشَفَ اللهُ نَازِلَ البلاءِ عنكم، بإنزالِهِ السكينةَ ـ وهي الأَمَنَةُ والطُّمَأنينةُ ـ عليكم.

«وأنزلَ جنوداً لم تروها»، وهي الملائكةُ التي ذكرتُ في الأخبارِ التي قد مضى ذِكْرُهَا. «وعَذَّبَ الذين كفروا»، يقولُ: وعَذَّبَ اللهُ الذينَ جَحَدُوا وحدانيَّتَهُ ورسالةَ رسولِهِ محمدٍ ﷺ، بالقَتْلِ وسَبْيِ الأهلينَ والذراريّ، وسلب الأموالِ، والـذِّلَّـة. «وذلـك جزاءُ الكـافرين»، يقول: هذا الذي فعلنا بهم من القتلِ والسبي. «جزاءُ الكافرينَ»، يقولُ: هو ثوابُ أهلِ جحودِ وحدانيتِه ورسالةِ رسولِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم يَتَفَضَّلُ اللهُ بتوفيقِه للتوبةِ والإنابةِ إليه، من بعدِ عذابِهِ الذي به عَذَّبَ مَنْ هَلَكَ منهم قَتْلاً بالسيف. «على مَنْ يشاء»، أي: يتوبُ الله على مَنْ يشاءُ من الأحياءِ، يُقْبِل به إلى طاعته. «والله غفور»، لذنوبِ

(١) أي: فيهزمُ الكثيرُ القليلَ، على ما جَرَتْ به العادةُ من غَلَبَةِ الكثيرِ على القليل.

مَنْ أنابَ وتابَ إليه منهم ومِنْ غيرِهم منها. «رحيمٌ»، بهم، فلا يُعَذِّبُهُمْ بعد توبتِهم، ولا يُؤَاخِذُهُمْ بها بعد إنابتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسولِه، وأقَرُّوا بوحدانيتِه: ما المشركونَ إلّا نَجس.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «النجس»، وما السببُ الذي من أجله سمّاهُمْ بذلك.

فقال بعضهم: سَمَّاهم بذلك، لأنهم يُجْنِبُونَ فلا يَغْتَسِلُونَ، فقال: هُمْ نَجسٌ، ولا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرام ـ لأنَّ الجُنُبَ لا ينبغي له أنْ يَدْخُلَ المسجدَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ما المشركونَ إلّا رِجْسُ خنزيرٍ أو كلبٍ.

وقوله: «فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بعد عامِهم هذا»، يقولُ للمؤمنينَ: فلا تَدَعُوهُمْ أنْ يقربوا المسجدَ الحرام بدخولهم الحرَمَ. وإنما عَنَى بذلك مَنْعَهُمْ من دخولِ الحَرَمِ، لأنهم إذا دَخَلُوا الحرم فقد قربوا المسجدَ الحرام.

وأما قوله: «بعد عامهم هذا»، فإنه يعني: بعد العامِ الذي نادَى فيه عليٌّ رحمةُ الله عليه ببراءة، وذلك عام حجَّ بالناسِ أبو بكر، وهي سنةُ تِسْعٍ من الهجرة.

وقوله: «وإنْ خفتم عَيْلَةً»، يقول للمؤمنين: وإن خفتم فاقَةً وفقراً، بمنعِ

المشركينَ من أنْ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرام. «فسوفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ من فَضْلِه إنْ شاء».

وإنما قيل ذلك لهم، لأنَّ المؤمنينَ خافوا بانقطاعِ المشركينَ عن دخولِ الحرم، انقطاعَ تِجاراتِهم، ودخول ضررٍ عليهم بانقطاعِ ذلك. وأَمَّنَهُم اللهُ من العيلة، وعوَّضَهم مِمَّا كانوا يكرهونَ انقطاعَهُ عنهم، ما هو خيرٌ لهم منه، وهو الجِزْيةُ، فقال لهم: ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ولَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ﴾ إلى: ﴿صَاغِرُون﴾.

وقال قوم: بإدرارِ المطرِ عليهم.

وأما قولـه: «إنَّ اللهَ عليمٌ حكيم»، فإنَّ معنـاه: «إن الله عليم»، بما حَدَّثَتْكُمْ به أنفُسُكم، أيها المؤمنونَ، من خوفِ العَيْلَةِ عليها، بمنع المشركينَ من أنْ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرام، وغير ذلك من مصالحِ عباده. «حكيمٌ»، في تدبيرِه إياهم، وتدبيرِ جميعِ خلقه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحابِ رسولِه ﷺ: «قاتلوا»، أيها المؤمنونَ، القومَ. «الذينَ لا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخر»، يقولُ: ولا يُصَدِّقُونَ بجنَّةٍ ولا نار. «ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُه ولا يَدِينُونَ دِينَ الحق»، يقولُ: ولا يُطيعونَ اللهَ طاعةَ الحقِّ، يعني أنَّهم لا يطيعونَ طاعةَ أهلِ الإسلام. «مِنَ الذين أُوتُوا الكتابَ»، وهُمُ اليهودُ والنصارَى.

وقوله: «من الذين أُوتُوا الكتاب»، يعني الذين أُعْطُوا كتابَ الله، وهم أهلُ التوراةِ والإنجيل. «حتى يُعْطُوا الجزية».

و«الجــزية»، الفِعْلة من: «جَــزَى فلانٌ فلانـاً ما عليه»، إذا قَضَـاهُ، «يجزيه»، و«الجِزْية» مثل «القِعْدة» و«الجِلْسة».

وقـولـه: «حتى يُعْـطُوا الجزية» حتى يُعْطُوا الخَرَاجَ عن رِقابهم، الذي يبذلونه للمسلمينَ دَفْعاً عنها.

وأما قوله: «عن يَدٍ»، فإنه يعني: من يَدِه إلى يَدِ مَنْ يدفعه إليه.

وأما قوله: «وهم صاغرون»، فإنَّ معناه: وهم أذِلَّاءُ مقهورون.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «الصَّغَار»، الذي عَنَاهُ الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: أنْ يُعْطِيها وهو قائمٌ، والآخذُ جالسٌ.

وقال آخرون: معنى قوله: «حتى يُعْطُوا الجزيةَ عن يَدٍ وهم صاغرون»، عن أنفسهم، بأيديهم يَمْشُونَ بها، وهم كارهونَ. وذلك قول رُوي عن ابن عباس، من وجهٍ فيه نَظَرٌ[1].

وقال آخرون: إعطاؤهم إياها، هو الصَّغَارُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

---

(١) أي: لا يصح.

واختلف أهلُ التأويل في القائل: «عُزَيْرٌ ابنُ الله».

فقال بعضهم: كان ذلك رجلاً واحداً، وهو فِنْحاص.

وقال آخرون: بل كان ذلك قول جماعةٍ منهم.

«وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ذلك قولُهم بأفواهِهم يُضاهِئُونَ قولَ الذين كفروا من قَبْلُ»، يعني قول اليهود: «عزير ابن الله». يقولُ: يُشْبه قولُ هؤلاءِ في الكَذِبِ على اللهِ والفِرْيَةِ عليه ونسبتهم المسيحَ إلى أنه للهِ ابنٌ، كَذِبَ اليهودِ وفِرْيَتهم على الله في نِسْبَتِهم عزيراً إلى أنه لله ابنٌ، ولا ينبغي أنْ يكونَ لله ولدٌ سبحانه، بل لَهُ ما في السمواتِ والأرض كُلٌّ له قانتون.

وقرأ عامةُ قَرَأَةِ الحجاز والعراق: ﴿يُضَاهُونَ﴾، بغير همز.

وقرأ عاصم: ﴿يُضَاهِئُونَ﴾، بالهمز، وهي لغةٌ لثقيف.

وهما لغتان، يقال: «ضَاهَيْتُه على كذا أُضَاهيه مُضَاهاةً»، و«ضَاهَأْتُه عليه مُضَاهأة»، إذا مالأْتُه عليه وأَعَنْتُه.

والصوابُ من القراءة في ذلك تركُ الهمزِ، لأنها القراءةُ المستفيضةُ في قرأة الأمصارِ، واللغة الفصحى.

وأما قوله: «قَاتَلَهُمْ الله»، فإنَّ معناه: لَعَنَهُم اللهُ. وكُلُّ شيءٍ في القرآن «قتل»، فهو لعن.

وقوله: «أنَّى يُؤْفَكُونَ»، يقولُ: أيَّ وجهٍ يُذْهبُ بهم، ويحيدون؟ وكيف يَصدُّون عن الحق؟ وقد بَيَّنَّا ذلك بشواهدِه فيما مضى قَبْلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ

﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: اتَّخذَ اليهودُ «أحبارَهُم»، وهُمُ العلماء. والنصارى «رُهْبَانَهُمْ»، وهم أصحابُ الصوامعِ وأهلُ الاجتهادِ في دِينهم منهم، «أرباباً من دون الله»، يعني: سادةً لهم من دونِ الله، يُطِيعُونَهم في معاصي الله، فَيُحِلُّونَ ما أَحَلُّوه لهم مما قَدْ حَرَّمَهُ اللهُ عليهم، ويُحَرِّمُونَ ما يُحَرِّمونَهُ عليهم مما قد أَحَلَّهُ اللهُ لهم.

وأما قوله: «والمسيحَ ابن مريم»، فإنَّ معناه: اتَّخَذُوا أحبارَهُمْ ورُهْبَانهم والمسيحَ ابن مريم أرباباً من دونِ الله.

وأما قوله: «وما أُمِرُوا إلَّا ليعبدُوا إلهاً واحداً»، فإنه يعني به: وما أُمِرَ هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتَّخَذُوا الأحبارَ والرهبانَ والمسيحَ أرباباً، إلَّا أنْ يَعْبُدُوا معبوداً واحداً، وأنْ يُطيعوا إلَّا ربًّا واحداً، دونَ أربابٍ شتَّى، وهو اللهُ الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ، وطاعةُ كُلِّ خَلْقٍ، المستحقُّ على جميعِ خَلْقِه الدينونةَ له بالوحدانيةِ والربوبية. «لا إله إلَّا هُوَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا تنبغي الألوهيةُ إلَّا للواحدِ الذي أُمِرَ الخَلْقُ بعبادته، ولَزِمَتْ جميعَ العبادِ طاعتُه. «سبحانه عَمَّا يُشركون»، يقول: تنزيهاً وتطهيراً لله عما يُشرك في طاعته وربوبيته، القائلون: «عزيرٌ ابنُ الله»، والقائلونَ: «المسيحُ ابن الله»، المُتَّخِذُونَ أحبارَهُمْ أرباباً من دون الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يريدُ هؤلاءِ المُتَّخِذُونَ أحبارَهم ورهبانهم والمسيحَ ابن مريم أرباباً. «أنْ يُطْفِئُوا نُورَ الله بأفواهِهم»، يعني: أنهم يُحاولونَ بتكذيبِهم

بدينِ الله الذي ابتعثَ به رسولَهُ، وصَدّهم عنه بألسنَتِهم، أنْ يُبْطِلُوه، وهو النُّورُ الذي جعله اللهُ لِخَلْقَه ضياء. «ويأبى اللهُ إلاَّ أنْ يُتِمَّ نُورَهُ»، يَعْلُو دِينُه، وتظهر كَلِمَتهُ، ويتم الحقُّ الذي بَعَثَ به رسولَهُ محمداً ﷺ. «ولو كَرِهَ» إتمامَ اللهِ إياهُ. «الكافرون»، يعني: جاحِدِيه المُكَذِّبينَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي يأبى إلاَّ إتمامَ دِينهِ ولو كَرِهَ ذلك جاحِدُوه ومُنْكِرُوه. «الذي أرسلَ رسولَهُ»، محمداً ﷺ. «بالهدى»، يعني: ببيانِ فرائضِ اللهِ على خَلْقِه، وجميعِ اللازمِ لهم وبدينِ الحَقِّ، وهو الإسلامُ. «ليظهره على الدينِ كُلِّه»، يقولُ: لِيُعْلي الإسلامَ على المِلَلِ كُلِّها. «ولو كَرِهَ المشركونَ»، باللهِ ظهورَهُ عليها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، وأقَرُّوا بوحدانيةِ رَبِّهم، إنَّ كثيراً من العلمـاءِ والقُرَّاءِ من بني إسرائيلَ من اليهودِ والنصارى. «ليأكُلُونَ أمـوالَ النـاسِ بالبـاطـلِ»، يقولُ: يأخذونَ الرِّشَى في أحكامهم، ويُحَرِّفُونَ كِتَابَ الله، ويكتبونَ بأيدِيهم كُتُباً ثم يقولون: «هذه من عِنْدِ الله»، ويأخـذونَ بهـا ثمنـاً قليلاً من سِفْلَتهم. «ويَصُدُّونَ عن سبيلِ الله»، يقولُ: ويمنعونَ مَنْ أرادَ الدُّخولَ في الإسلام الدخولَ فيه، بِنَهْيِهم إيَّاهُمْ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ كثيراً من الأحبارِ والرُّهْبانِ ليأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ»، ويأكلها أيضاً معهم «الذينَ يَكْنِزُونَ الذهبَ والفضةَ ولا يُنفقونَها في سبيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليم»، يقولُ: بَشِّر الكثيرَ من الأحبارِ والرهبانِ الذينَ يأكلونَ أموالَ الناس بالباطلِ، والذين يكنزونَ الذهبَ والفِضَّةَ ولا يُنفقونَها في سبيلِ الله، بعذابٍ أليم لهم يومَ القيامةِ، مُوجعٍ من الله.

ومعنى الكَنْز: هو كُلُّ مالٍ وَجَبَتْ فيه الزكاةُ، فلم تُؤَدَّ زكاتُه. قالوا: وعَنَى بقوله: «ولا يُنفقونَها في سبيلِ الله»، ولا يؤدُّونَ زكاتها.

فالوعيدُ إنما هُوَ من اللهِ على الأموالِ التي لم تُؤَدَّ الوظائفُ المفروضةُ فيها لأهْلِهَا من الصَّدَقَةِ، لا على اقتنائِها واكتنازِها، وإنْ بلغت في الكثرة ألوف ألوف[1].

وقد كان بعضُ الصحابةِ يقولُ: هي عامةٌ في كل كَنْزٍ، غيرَ أنها خاصّة في أهل الكتاب، وإياهم عَنَى الله بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَبَشِّرْ هؤلاءِ الذينَ يكنزونَ الذهبَ والفضةَ، ولا

(١) أطال المؤلف الطبري في تفسير هذه الآية، وأجملنا مقصود تفسيره بعباراتٍ له من مواضع متعددة واءَمْنا بينها.

يُخْرِجُونَ حُقوقَ الله منها، يا محمدُ، بعذابٍ أليم. «يومَ يُحْمَى عليها في نارِ جهنم»، فـ«اليوم» من صلة «العذاب الأليم»، كأنه قيل: يُبَشِّرُهُمْ بعذابٍ أليم، يُعَذِّبُهُم اللهُ به في يوم يُحْمَى عليها.

ويعني بقوله: «يُحْمَى عليها»، تُدْخَلُ النارَ فَيُوقَدُ عليها، أي: على الذهبِ والفِضَّةِ التي كَنَزُوهَا «في نارِ جهنم فَتُكْوى بها جِباهُهُم وجُنُوبُهم وظهورُهم».

وكُلُّ شيءٍ أُدْخِلَ النارَ، فقد أُحْمِيَ إحماءً، يقال منه: «أحميتُ الحديدةَ في النارِ أحميها إحماءً».

وقوله: «فَتُكْوى بها جِباهُهُم»، يعني بالذهبِ والفضةِ المكنوزةِ، يُحْمَى عليها في نارِ جهنم، يَكْوي الله بها. يقول: يُحْرِقُ اللهُ جباهَ كَانِزِيها وجُنوبَهم وظُهورَهُمْ. «هذا ما كَنَزْتُمْ»، ومعناه: ويُقالُ لهم: «هذا ما كنزتم في الدنيا، أيها الكافرونَ الذين منعوا كنوزهم من فرائضِ اللهِ الواجبة فيها لأنفسكم. «فذوقوا ما كنتم تَكْنِزُونَ»، يقولُ: فيقال لهم: فاطعَمُوا عذابَ الله بما كنتم تَمنعونَ من أموالِكم حقوقَ الله وتَكْنِزُونَها مُكاثَرةً ومُباهاةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ عِدَّةَ شهورِ السنةِ عندَ اللهِ اثنا عَشرَ شهراً في كتابِ الله، الذي كتبَ فيه كُلَّ ما هو كائنٌ في قَضائِه الذي قَضَى. «يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ منها أربعةٌ حُرُمٌ»، يقولُ: هذه الشهورُ الاثنا عشر منها أربعةُ

أشهرٍ حرم كانت الجاهلية تُعَظِّمُهُنَّ، وتُحَرِّمُهُنَّ، وتُحَرِّمُ القتالَ فيهن، حتى لو لقيَ الرجلُ منهم فيهن قاتلَ أبيهِ لم يَهِجْهُ، وهُنَّ: رجب مُضر، وثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وأما قوله: «ذلكَ الدينُ القيم»، فإنَّ معناه: هذا الذي أخبرتكُمْ به، مِنْ أنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عندَ اللهِ اثنا عشر شهراً في كتابِ الله، وأنَّ منها أربعةً حُرُماً: هو الدِّينُ المستقيم.

وأما قوله: «فلا تَظْلِمُوا فيهنَّ أنفُسَكُم»، فإنَّ معناه: فلا تَعْصُوا اللهَ فيها، ولا تُحِلُّوا فِيهنَّ ما حَرَّمَ اللهُ عليكم، فتكسبوا أنفسكم ما لا قِبَلَ لها به من سخطِ الله وعقابه.

ثم اختلف أهـلُ التأويلِ في الذي عادت عليه «الهاء»، و«النون» في قوله: «فيهن».

فقال بعضهم: عادَ ذلك على «الاثني العشر الشهر»، وقال: معناه: فلا تَظْلِمُوا في الأشهرِ كُلِّها أنفُسَكم.

وقـال آخـرون: بل معنى ذلك: فلا تَظْلِمُوا في الأربعةِ الأشهرِ الحرُم أنفُسَكم. و«الهاء والنون» عائدةٌ على «الأشهر الأربعة».

وقـال آخرون: بل معنى ذلك: فلا تَظْلِمُوا في تصييركم حرامَ الأشهرِ الأربعةِ حلالاً، وحَلالَها حراماً ـ أَنْفُسَكُمْ.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: فلا تَظْلِمُوا في الأشهرِ الأربعةِ أنفسَكُمْ، باستحلالِ حَرَامِهَا، فإنَّ الله عَظَّمها وعَظَّم حُرْمَتَها.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى بالصوابِ في تأويله، لقوله: «فلا تَظْلِمُوا فيهن»، فأخرجَ الكنايةَ عنه مُخْرَجَ الكنايةِ عن جمع ما بين الثلاثةِ إلى العشرة. وذلكَ

أنَّ العربَ تقولُ فيما بين الثلاثةِ إلى العشرة، إذا كَنَتْ عنه: «فعلنا ذلكَ لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ، ولأربعةِ أيامٍ بَقِينَ»، وإذا أخْبَرَتْ عَمَّا فوقَ العشرة إلى العشرين قالت: «فعلنا ذلك لثلاثَ عشرةَ خَلَتْ، ولأربعَ عشرة مَضَتْ» ـ فكان في قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فلا تَظْلِمُوا فيهن أنفُسَكُمْ»، وإخراجه كناية عَدَدِ الشهور التي نهى المؤمنينَ عن ظُلْمِ أنفسهم فيهن مُخْرَجَ عَدَدِ الجمعِ القليلِ من الثلاثةِ إلى العشرة، الدليلُ الواضحُ على أنَّ «الهاء والنون»، من ذِكْرِ الأشهرِ الأربعة، دونَ الاثني العشر. لأنَّ ذلك لو كان كناية عن «الاثنى عشر شهراً»، لكان: فلا تَظْلِمُوا فيها أنفُسكم[1].

فإنْ قالَ قائلٌ: فما أنكرت أنْ يكونَ ذلك كنايةً عن «الاثني عشر»، وإنْ كان الذي ذكرتَ هو المعروفُ في كلامِ العربِ؟ فقد علمتَ أنَّ من المعروفِ من كلامها، إخراجَ كنايةِ ما بينَ الثلاث إلى العشر، بالهاء دون النون.

قيل: إنَّ ذلـكَ وإنْ كان جائـزاً، فليس الأفصحَ الأعْرفَ في كلامِها. وتوجيهُ كلامِ اللهِ إلى الأفصحِ الأعرفِ، أَوْلى من توجيههِ إلى الأنكرِ.

فإنْ قال قائلٌ: فإنْ كانَ الأمرُ على ما وصفتَ، فقد يجبُ أنْ يكونَ مباحاً لنا ظُلْمُ أنفُسِنَا في غيرهن من سائرِ شهورِ السنة؟

قيل: ليس ذلك كذلك، بل ذلك حرامٌ علينا في كل وقتٍ وزمانٍ، ولكنَّ الله عَظَّمَ حُرْمَةَ هؤلاءِ الأشهرِ وشرَّفَهُنَّ على سائرِ شهورِ السنة، فَخَصَّ الذنبَ فِيهنَّ بالتعظيمِ، كمـا خَصَّهُنَّ بالتشريفِ، وذلك نظير قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾، [البقرة: ٢٣٨]. ولاشَكَّ أَنَّ الله قد أمرنا بالمحافظةِ على الصلواتِ المفروضاتِ كُلِّها بقوله: «حافظوا على الصلوات»، ولم يُبِحْ تَرْكَ المحافظة عليهن، بأمرِه بالمحافظةِ على الصلاةِ الوسطى، ولكنه

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٤٣٥.

تعالى ذِكْرُه زادَها تعظيماً، وعلى المحافظةِ عليها توكيداً، وفي تضييعها تشديداً. فكذلك ذلك في قوله: «منها أربعةٌ حُرُم ذلك الدِّينُ القيمُ فلا تَظْلِمُوا فيهنَّ أنفسكم».

وأما قوله: «وقَاتِلُوا المشركينَ كافةً كما يُقاتلونكم كافةً»، فإنه يقول جَلَّ ثناؤه: وقاتِلُوا المشركينَ بالله، أيها المؤمنونَ، جميعاً غير مختلفينَ، مُؤْتَلِفينَ غيرَ مُفْتَرِقينَ، كما يقاتِلُكُم المشركونَ جميعاً، مجتمعينَ غير مُتَفَرِّقينَ.

وأما قوله: «واعلموا أنَّ الله مع المتقين»، فإنَّ معناه: واعلموا، أيها المؤمنونَ بالله، أنكم إنْ قاتلتمُ المشركينَ كافةً، واتقيتمُ الله فأطعتُمُوه فيما أمرَكُم ونَهاكم، ولم تُخالِفُوا أمْرَهُ فَتَعْصُوه، كانَ اللهُ معكم على عَدُوِّكم وعَدُوِّهِ من المشركينَ، ومَنْ كانَ اللهُ معه لم يَغْلِبْهُ شيءٌ، لأنَّ الله مع مَنِ اتَّقاهُ فخافه وأطاعَهُ فيما كَلَّفَهُ من أمرِهِ ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما النَّسيءُ إلَّا زيادةٌ في الكفر.

و«النسيء» مصدرٌ من قولِ القائل: «نسأتُ في أيامِكَ، ونَسَأَ اللهُ في أجَلِكَ»، أي: زَادَ اللهُ في أيام عمرك ومُدَّةِ حياتِك، حتى تبقى فيها حيًّا. وكُلُّ زيادةٍ حدثت في شيءٍ، فالشيءُ الحادثُ فيه تلك الزيادة بسببِ ما حدثَ فيه: «نَسِيءٌ».

فيكون معناه: إنما التأخيرُ الذي يؤخِّرهُ أهلُ الشِّرْكِ بالله من شهورِ الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرامَ منهنَّ حلالاً، والحلالَ منهن حراماً، زيادة في كُفْرِهم وجحودهم أحكامَ اللهِ وآياته.

وأما قوله: «يُحِلُّونه عاماً»، فإنَّ معناه: يُحِلُّ الذينَ كَفَرُوا النسيءَ - و«الهاء» في قوله: «يحلونه»، عائدةٌ عليه.

ومعنى الكلام: يُحِلُّونَ الذي أَخَّرُوا تحريمَهُ من الأشهرِ الأربعةِ الحُرُم، عاماً. «ويُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله»، يقولُ: ليوافِقُوا بتحليلِهم ما حَلَّلُوا من الشهورِ، وتحريمهمْ ما حَرَّمُوا منها، عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ. «فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالهم»، يقولُ: حُسِّنَ لهم وحُبِّبَ إليهم سيءُ أعمالِهم وقبيحها، وما خُولِفَ به أمرُ اللهِ وطاعته. «واللهُ لا يَهْدي القومَ الكافرين»، يقولُ: واللهُ لا يُوَفِّق لمحاسنِ الأفعالِ وجميلها، وما للهِ فيه رِضًى، القومُ الجاحدينَ توحيدَهُ، والمُنْكِرينَ نبوةَ محمدٍ ﷺ، ولكنه يُخَذِّلهم عن الهدى، كما خَذَّلَ هؤلاءِ الناسَ عن الأشهرِ الحرم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾

وهذه الآية حَثٌّ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ المؤمنينَ به من أصحابِ رسولِه، على غزوِ الرومِ، وذلك غزوة رسول الله ﷺ تبوك.

ومعنى الكلام: ما لَكُمْ أيها المؤمنونَ، إذا قِيلَ لكم: اخْرُجُوا غُزَاةً. «في سبيل الله»، أي: في جهادِ أعداءِ الله. «اثَّاقَلْتُمْ إلى الأرضِ»، يقولُ: تَثَاقلتم إلى لزومِ أرضِكم ومساكِنِكُمْ والجلوسِ فيها.

وقوله: «أَرَضِيتُمْ بالحياةِ الدنيا من الآخرة»، يقول جَلَّ ثناؤه: أرضيتم بحظِّ الدنيا والدَّعَةِ فيها، عِوَضاً من نعيمِ الآخرة، وما عندَ الله للمتقينَ في جَنَّاتِه. «فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرة»، يقولُ: فما الذي يستمتعُ به المُتَمَتِّعُونَ في الدنيا من عَيْشِهَا ولَذَّاتِها في نعيمِ الآخرةِ والكرامةِ التي أَعَدَّها اللهُ لأوليائِه وأهلِ طاعته. «إلَّا قليلٌ»، يَسِيرٌ. يقول لهم: فاطْلُبُوا، أيها المؤمنونَ، نعيمَ الآخرةِ، وشرفَ الكرامةِ التي عندَ اللهِ لأوليائِه، بطاعتِه والمسارعةِ إلى الإجابةِ إلى أمرِه في النفيرِ لجهاد عَدُوِّهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من أصحابِ رسوله، مُتَوَعِّدَهُمْ على تركِ النَّفر إلى عَدُوِّهم من الرومِ: إنْ لم تَنْفِرُوا، أيها المؤمنونَ، إلى مَنْ استنفرَكُمْ رسولُ الله، يُعَذِّبْكُم اللهُ عاجلاً في الدنيا، بتركِكُم النَّفْرَ إليهم، عذاباً مُوجعاً. «ويَسْتَبْدِلْ قوماً غيرَكُمْ»، يقولُ: يستبدل اللهُ بكم نبيَّه قوماً غيرَكم، يَنفرونَ إذا اسْتُنْفِرُوا، ويُجِيبُونَهُ إذا دُعُوا، ويُطيعونَ اللهَ ورسولَهُ. «ولا تَضُرُّوهُ شيئاً»، يقولُ: ولا تَضُرُّوا الله، بتركِكُم النَّفِيرَ ومعصيتكم إياهُ، شيئاً، لأنه لا حاجةَ به إليكم، بَلْ أنتم أهلُ الحاجةِ إليه، وهو الغنيُّ عنكم وأنتمُ الفقراءُ. «واللهُ على كُلِّ شيءٍ قدير»، يقول جَلَّ ثناؤه: واللهُ على إهلاكِكُمْ واستبدالِ قومٍ غيركم بِكُمْ، وعلى كُلِّ ما يشاءُ من الأشياءِ، قديرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾

وهذا إعلامٌ من اللهِ أصحابَ رسولِهِ ﷺ أنَّهُ المتوكِّلُ بنصرِ رسولِهِ على أعداءِ دِينِهِ وإظهارِه عليهم دُونَهم، أعانُوه أو لم يُعِينُوه، ـ وتذكيرٌ منه لهم فِعْلَ ذلك به، وهو من العددِ في قِلَّةٍ، والعدوُّ في كَثْرَةٍ، فكيف به وهو من العَدَدِ في كثرةٍ، والعدوُّ في قلة؟

يقول لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: إلَّا تَنْفِرُوا، أيها المؤمنونَ، مع رسولي إذا اسْتَنفركُم فَتَنصُروهُ، فالله ناصِرُه ومُعِينُه على عَدُوِّهِ، ومُغْنِيه عنكم وعن مَعُونَتكم ونُصْرَتِكُم، كما نَصَرَهُ «إِذْ أخرجَهُ الذينَ كَفَرُوا»، باللهِ من قريشٍ من وطنِهِ ودارِه. «ثانيَ اثنين»، يقولُ: أخرجوه وهو أحدُ الاثنين، أي: واحد من الاثنين.

وإنما عَنَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «ثانيَ اثنين»، رسولَ الله ﷺ وأبا بكرٍ رضي الله عنه، لأنهما كانا اللَّذَيْنِ خَرَجَا هارِبَيْنِ من قريش إذْ هَمُّوا بقتلِ رسولِ الله ﷺ، واخْتفيا في الغار.

وقوله: «إذ هُما في الغار»، يقولُ: إذْ رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ رحمةُ الله عليه، في الغار.

و«الغار»، النقبُ العظيمُ يكون في الجبل.

«إذْ يقولُ لصاحبه»، يقولُ: إذ يقولُ رسولُ الله ﷺ لصاحبه أبي بكر، «لا تحزنْ»، وذلكَ أنه خافَ من الطَّلَبِ أن يعلموا بمكانهما، فَجَزِعَ من ذلكَ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «لا تحزنْ»، لأنَّ الله معنا واللهُ ناصرنا، فَلَنْ يعلمَ المشركونَ بنا ولن يَصِلُوا إلينا.

يقول جَلَّ ثناؤه: فقد نَصَرَهُ اللهُ على عَدُوِّهِ وهو بهذه الحالِ من الخوفِ وقِلَّةِ العَدَدِ، فكيفَ يخذلُه ويُحْوِجُه إليكم، وقد كَثَّرَ اللهُ أنصاره وعَدَدَ جُنُودِه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأنزلَ الله طمأنينَتَهُ وسُكُونَهُ على رسولِه - وقد قيل: على أبي بكر - «وأيَّدَهُ بجنودٍ لم تَرَوْهَا»، يقولُ: وقَوَّاهُ بجنودٍ من عندهِ من الملائكةِ، لم تروها أنتم. «وجَعَلَ كلمةَ الذين كَفَرُوا»، وهي كلمةُ الشِّرْكِ. «السُّفْلى»، لأنها قُهِرَتْ وأُذِلَّتْ، وأبطلها اللهُ تعالى، ومَحَقَ أهْلَها، وكُلّ مقهورٍ ومغلوبٍ فهو أسفل من الغالب، والغالب هو الأعلى. «وكلمةُ الله هي العليا»، يقولُ: ودِينُ الله وتوحيدُه وقولُ لا إله إلاَّ الله، وهي كلمتُه. «العليا»، على الشركِ وأهلِه، الغالبةُ.

وأما قوله: «واللهُ عزيزٌ حكيم»، فإنه يعني: «واللهُ عزيزٌ»، في انتقامِه من أهلِ الكفرِ به، لا يقهرهُ قاهِرٌ، ولا يغلبُهُ غالبٌ، ولا ينصرُ مَنْ عاقبه ناصِرٌ. «حكيم»، في تدبيرِه خَلْقَهُ، وتصريفه إياهم في مشيئتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الخفة» و«الثقل»، اللَّذَيْنِ أمَرَ اللهُ مَنْ كان به أحدهما بالنفرِ معه.

فقال بعضهم: معنى «الخِفَّة»، التي عَنَاها اللهُ في هذا الموضع، الشباب ومعنى «الثقل»، الشيخوخة.

وقال آخرون: معنى ذلك: مشاغيل وغير مشاغيل.

وقال آخرون: معناه: انفروا أغنياءَ وفُقَراءَ.

التوبة: ٤١

وقال آخرون: معناه: نِشَاطاً وغير نِشَاطٍ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ذَا ضَيْعَةٍ وغيرَ ذي ضَيْعةٍ.

وقال آخرون: معناه: رُكباناً ومُشاةً.

وأولى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أمَرَ المؤمنينَ بالنَّفر لجهادِ أعدائِه في سبيلِه، خِفافاً وثِقالاً. وقد يدخلُ في «الخفاف» كُلُّ مَنْ كان سهلاً عليه النفرُ لِقُوَّةِ بَدَنِه على ذلك، وصِحَّةِ جسمِه وشبابِه، ومَنْ كان ذا يُسْرٍ بمالٍ وفراغٍ من الاشتغال، وقادراً على الظهرِ والركاب. ويدخل في «الثقال» كُلُّ مَنْ كان بخلافِ ذلك، من ضعيفِ الجسمِ وعَليلِه وسَقيمه، ومن مُعْسِرٍ من المال، ومُشْتَغِلٍ بضيعةٍ ومعاشٍ، ومَنْ كان لا ظهرَ له ولا رِكاب، والشيخُ ذُو السِّنِّ والعِيَال.

فإذ كان قد يدخلُ في «الخفاف» و«الثقال» مَنْ وَصَفْنَا من أهلِ الصفاتِ التي ذكرنا، ولم يَكُنْ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ خصَّ من ذلك صنفاً دونَ صِنْفٍ في الكتاب، ولا على لسانِ الرسولِ ﷺ، ولا نَصْب على خُصُوصِه دليلاً، وَجَبَ أنْ يقال: إنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أمر المؤمنينَ من أصحاب رسولِه بالنفرِ للجهادِ في سبيله خِفَافاً وثِقالاً مع رسولِه ﷺ، على كُلِّ حالٍ من أحوالِ الخِفَّةِ والثقل.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسولِه من أصحابِ رسولِ الله ﷺ: «جاهِدُوا»، أيها المؤمنونَ، الكفارَ «بأموالِكم»، فأنفِقُوها في مجاهدتهم على دِينِ الله الذي شَرَعَهُ لكم، حتى يَنْقَادُوا لكم، فيدخلوا فيه طَوْعاً أو كرهاً، أو يعطوكُم الجزيةَ عن يَدٍ صَغَاراً، إنْ كانوا أهلَ كتابٍ، أو تقتلوهم. «وأَنْفُسِكُمْ»،

يقولُ: وبأنفسكم، فقاتِلُوهم بأيديكم، يُخْزِهم الله ويَنْصُركم عليهم. «ذلكم خيرٌ لكم»، يقولُ: هذا الذي آمركم به من النفرِ في سبيلِ الله تعالى خِفَافاً وثِقَالاً، وجهادِ أعدائِه بأموالِكم وأنفسِكم، خيرٌ لكم من التثاقُلِ إلى الأرضِ إذا استنفرتم، والخلود إليها، والرِّضَى بالقليلِ من متاعِ الحياةِ الدنيا عِوَضاً من الآخرةِ إنْ كنتم من أهلِ العلمِ بحقيقةِ ما بُيِّنَ لكم من فضلِ الجهادِ في سبيلِ الله على القعودِ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه للنبيِّ ﷺ، وكانت جماعةٌ من أصحابه قد استأذَنُوه في التَّخَلُّفِ عنه حينَ خرجَ إلى تبوك، فأذن لهم: لو كان ما تَدْعُو إليه المتخلفينَ عنك، والمُسْتَأذِنيكَ في تركِ الخروجِ معكَ إلى مَغْزَاكَ الذي استنفرتَهُمْ إليه. «عَرَضَاً قريباً»، يقولُ: غنيمةً حاضرةً. «وسَفَراً قاصِداً»، يقولُ: ومَوْضِعاً قريباً سهلاً. «لاتَّبَعُوكَ»، ونَفَرُوا معكَ إليهما، ولكنك استنفرتهم إلى موضعٍ بعيد، وكَلَّفْتَهُمْ سَفَراً شاقًّا عليهم، لأنك اسْتَنْهَضْتَهُمْ في وقتِ الحرِّ، وزمانِ القَيْظِ، وحينَ الحاجةِ إلى الكِنِّ. «وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسيحلفُ لك، يا محمدُ، هؤلاءِ المُسْتَأذِنُوكَ في تَرْكِ الخروجِ معكَ، اعتذاراً منهم إليكَ بالباطلِ، لتقبلَ منهم عُذْرَهُمْ، وتأذنَ لهم في التخلُّفِ عنكَ، باللهِ كاذبينَ «لَو استطَعْنَا لَخَرَجْنَا معكم»، يقولُ: لو أطَقْنَا الخروجَ معكم، بوجودِ السَّعةِ والمراكبِ والظهور وما لابُدَّ للمسافر والغازي منه، وصِحَّةِ البَدَنِ والقوى، لخرجنا معكم إلى عَدُوِّكُمْ. «يُهْلِكُونَ أنفُسَهم»، يقولُ: يُوجِبُونَ لأنفسهم، بِحَلْفِهم بالله كاذبينَ، الهلاكَ والعطبَ، لأنهم يُورِثُونَها سَخطَ

الله، ويكسبونها أليمَ عِقابه. «والله يعلمُ إنهم لكاذبون»، في حلفهم بالله: «لو استطعنا لخرجنا معكم»، لأنهم كانوا للخروجِ مُطيقينَ، بوجودِ السبيلِ إلى ذلك بالذي كان عِنْدَهُمْ من الأموالِ، مما يحتاجُ إليه الغازي في غَزْوِه، والمسافر في سفره، وصحة الأبدان وقوى الأجسام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

وهذا عِتابٌ من الله تعالى ذِكْرُه، عاتبَ به نبيَّه ﷺ في إذْنِه لِمَنْ أَذِنَ له في التَّخَلُّفِ عنه، حين شَخَصَ إلى تبوك لغزوِ الروم، من المنافقينَ.

يقول جَلَّ ثناؤه: «عَفَا اللهُ عنكَ»، يا محمدُ، ما كانَ منكَ في إذنك لهؤلاءِ المنافقينَ الذين استأذنوكَ في تَرْكِ الخروجِ معكَ، وفي التخلُّفِ عنكَ، من قبل أنْ تعلمَ صِدْقَهُ من كَذِبه. «لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ»، لأيِّ شيءٍ أذنتَ لهم؟. «حتى يتبينَ لكَ الذين صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكاذبينَ»، يقولُ: ما كان ينبغي لكَ أنْ تأذن لهم في التخلُّفِ عنكَ إذْ قالوا لك: «لو استطعنا لخرجنا معكَ»، حتى تعرفَ مَنْ له العُذْرُ منهم في تخلفه، ومَنْ لا عُذْرَ له منهم، فيكون إذنك لِمَنْ أذِنْتَ له منهم على عِلْمٍ منكَ بعذره، وتعلمَ مَنِ الكاذبُ منهم المتخلفُ نِفَاقاً وشَكًّا في دِينِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

وهذا إعلامٌ من الله نبيَّه ﷺ سِيمَا المنافقين: أنَّ من عَلاماتِهم التي يُعرفونَ بها، تَخلُّفَهُم عن الجهادِ في سبيل الله، باستئذانهم رسولَ الله ﷺ في

تَرْكِهم الخروجَ معه إذا اسْتُنْفِرُوا بالمعاذيرِ الكاذبة.

يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمدُ، لا تَأْذَنَنَّ في التخلُّفِ عنكَ إذا خرجتَ لغـزوِ عدوِّكَ، لمن استأذَنَكَ في التخلفِ من غيرِ عُذْرٍ، فإنه لا يستأذِنُكَ في ذلكَ إلَّا منافقٌ لا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ. فأمَّا الذي يُصَدِّقُ باللهِ، ويُقِرُّ بوحدانيتِه وبالبعثِ والدارِ الآخرةِ والثوابِ والعقابِ، فإنه لا يستأذِنُكَ في تركِ الغزوِ وجهادِ أعداءِ الله بمالِه ونَفْسِه. «واللهُ عليمٌ بالمتقينَ»، يقولُ: واللهُ ذُو عِلْمٍ بمن خَافَهُ، فاتقاهُ بأداءِ فرائِضه، واجتنابِ معاصيه، والمسارعةِ إلى طاعته في غزوِ عَدُوِّهِ وجهادِهم بماله ونفسه، وغيرِ ذلك من أمْرِهِ ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنما يَستأذِنُكَ، يا محمدُ، في التخلُّفِ خِلافَـكَ وتركِ الجهادِ معكَ، من غيرِ عُذْرٍ بَيِّنٍ، الذينَ لا يُصَدِّقُونَ باللهِ ولا يُقِرُّونَ بتوحيدِه. «وارتابتْ قُلُوبهم»، يقولُ: وشَكَّتْ قلوبهم في حقيقةِ وحدانيةِ الله، وفي ثوابِ أهلِ طاعتهِ، وعقابِه أهلَ معاصيه. «فَهُمْ في رَيْبِهم يَتَرَدَّدُونَ»، يقولُ: في شَكِّهم مُتَحَيِّرُونَ، وفي ظُلْمَةِ الحيرة مُتَرَدِّدُونَ، لا يعرفونَ حقًّا من باطلٍ، فيعملون على بصيرةٍ. وهذه صفةُ المنافقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ولـو أرادَ هؤلاءِ المُسْتَأْذِنُوكَ، يا محمدُ، في تَرْكِ الخروجِ معكَ لجهادِ عَدُوِّكَ، الخروجَ معك. «لأعَدُّوا له عُدَّةً»، يقولُ: لأعَدُّوا

للخروج عُدَّةً، ولتأهَّبُوا للسفرِ والعَدُوِّ أُهْبَتَهُمَا. «ولَكِنْ كَرِهَ اللهُ انبعاثَهُمْ»، يعني خُروجَهم لذلك. «فَثَبَّطَهُمْ»، يقولُ: فَثَقَّلَ عليهم الخروجَ حتى اسْتَخَفُّوا القعودَ في منازِلِهم خِلافَكَ، واستثقلوا السفرَ والخروجَ معكَ، فتركوا لذلك الخروجَ. «وقِيلَ اقْعُدُوا مع القاعدينَ»، يعني: اقعدوا مع المرضى والضعفاءِ الذين لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ، ومع النساءِ والصبيانِ، واتركوا الخروجَ مع رسولِ الله ﷺ والمجاهدينَ في سبيل الله.

وكان تثبيطُ الله إيَّاهُمْ عن الخروجِ مع رسولِه ﷺ والمؤمنينَ به، لِعِلْمِه بنفاقِهم وغِشِّهِمْ للإسلامِ وأهلِه، وأنهم لو خَرَجُوا معهم ضَرُّوهم ولم يَنْفَعُوا. وذكر أنَّ الذينَ استأذنوا رسولَ الله ﷺ في القعودِ كانوا: «عبدالله بن أُبيّ بن سلول»، و«الجَدُّ بن قيس»، ومَنْ كان على مِثْلِ الذي كانا عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لو خَرَجَ، أيها المؤمنونَ، فيكم هؤلاءِ المنافقونَ. «ما زَادُوكم إلَّا خَبالًا»، يقولُ: لم يَزِيدُوكم بخروجهم فيكم إلا فَساداً وضرًّا، ولذلك ثَبَّطتُهم عن الخروجِ معكم.

«ولأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ»، يقولُ: ولأَسْرَعُوا بركائِبهم السَّيرَ بينكم.

وأما قوله: «يَبْغُونَكُمْ الفِتْنَةَ»، فإنَّ معنى: «يبغونكم الفتنة»، يطلبون لكم ما تفتنون به، عن مخرجكم في مغزاكم، بتثبيطهم إياكم عنه.

وأما قوله: «وفيكم سَمَّاعون لهم»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفُوا في تأويله.

فقال بعضُهم: معنى ذلك: وفيكم سَمَّاعون لحدِيثكُم لهم، يُؤَدُّونَهُ إليهم، عُيونٌ لهم عليكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفيكم مَنْ يسمعُ كلامَهُمْ ويُطيعُ لهم.

وأَوْلى التأويلين عندي في ذلك بالصواب، تأويلُ مَنْ قال: معناه: «وفيكم سَمَّاعُونَ لحدِيثكم لهم، يُبَلِّغُونَهُ عنكم، عُيونٌ لهم»، لأنَّ الأغلبَ من كلامِ العربِ في قولهم: «سمَّاع»، وَصْفُ مَنْ وُصِفَ به أنه سماعٌ للكلام، كما قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ في غير موضعٍ من كتابه: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، واصفاً بذلك قوماً بسماعِ الكذبِ من الحديثِ. وأمَّا إذا وَصَفُوا الرجلَ بسماعِ كلامِ الرجلِ وأمرِهِ ونهيِهِ وقبولِه منه وانتهائِه إليه، فإنما تَصِفُه بأنه «له سامعٌ مُطِيعٌ»، ولا تَكادُ تقولُ: «هو سَمَّاعٌ مطيع».

وأما قوله: «واللهُ عليمٌ بالظالمين»، فإنَّ معناه: والله ذُو عِلْمٍ بمن يُوجِّهُ أفعالَهُ إلى غيرِ وجوهها، ويَضَعُهَا في غيرِ مواضِعها، ومَنْ يستأذنُ رسولَ الله ﷺ لعذرٍ، ومَنْ يستأذِنُه شَكًّا في الإسلامِ ونِفاقاً، ومَنْ يسمعُ حديثَ المؤمنينَ لِيُخْبِرَ به المنافقينَ، ومَنْ يسمعهُ لِيُسَرَّ به المؤمنونَ، ويساء بما ساءهم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من سرائرِ خَلْقِه وعلانيتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد التمسَ هؤلاءِ المنافقونَ الفِتنةَ لأصحابكَ، يا محمدُ، التمسوا صَدَّهُمْ عن دِينهم، وحَرَصُوا على رَدِّهم إلى الكُفْرِ بالتخذيلِ عنه، كَفِعْلِ عبدِالله بن أبيّ بكَ وبأصحابكَ يوم أُحُدٍ، حين انصرفَ عنكَ بِمَنْ تَبِعَهُ من قومِه. وذلك كان ابتغاءهم ما كانوا ابتغوا لأصحابِ رسولِ الله ﷺ من

الفتنةِ من قَبْلُ. ويعني بقوله: «مِنْ قَبْلُ»، مِنْ قَبْلِ هذا. «وقَلَّبُوا لكَ الأُمورَ»، يقـولُ: وأجَـالُوا فيكَ وفي إبطالِ الدِّينِ الذي بعثَكَ به اللهُ الرأيَ بالتخذيلِ عنك، وإنكارِ ما تأتيهم به، وردِّهِ عليكَ. «حتى جاء الحَقُّ»، يقولُ: حتى جاء نَصْرُ اللهِ. «وظَهَرَ أمرُ الله»، يقولُ: وظَهَرَ دِينُ اللهِ الذي أمرَ به وافْتَرَضَهُ على خَلْقِه، وهو الإسلامُ. «وهم كارهون»، يقولُ: والمنافقونَ بظهورِ أمرِ اللهِ ونَصْرِه إياكَ كارهـون. وكذلك الآن، يُظْهِرُكَ اللهُ ويُظْهِرُ دِينَهُ على الذين كَفَرُوا من الرومِ وغيرِهم من أهلِ الكفرِ به، وهم كارهون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيَةَ نزلتْ في الجدِّ بن قيس.

ويعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «ومنهم»، ومِنَ المنافقينَ. «مَنْ يقولُ ائْذَنْ لي»، أُقِمْ فلا أشخَصُ معكَ. «ولا تَفْتِنِّي»، يقولُ: ولا تَبْتَلِني برؤيةِ نساءِ بني الأصفرِ وبناتِهم، فإنِّي بالنساءِ مُغْرَمٌ، فأخرج وآثَمُ بذلك.

وقوله: «وإنَّ جهنمَّ لمحيطةٌ بالكافرينَ»، يقولُ: وإنَّ النارَ لَمطيفةٌ بِمَنْ كَفَرَ باللهِ وجَحَدَ آياته وكَذَّبَ رُسُلَهُ، مُحْدِقَةٌ بهم، جامعةٌ لهم جميعاً يومَ القيامة. يقولُ: فكفى للجدِّ بن قيس وأشكاله من المنافقينَ بِصِلِيِّها خِزْياً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمدُ، إنْ يُصِبْكَ سُرورٌ بفتح اللهِ عليكَ أرضَ الرومِ في غَزاتِكَ هذه، يَسُوء الجَدَّ بنَ قيسٍ ونُظَراءَهُ وأشياعَهُمْ من المنافقينَ، وإنْ تُصِبْكَ مصيبةٌ بفلولِ جيشكَ فيها، يقولُ الجَدُّ ونُظَراؤُه: «قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا من قَبْلُ»، أي قد أخذنا حذرَنا بتخلُّفِنَا عن محمدٍ، وتركِ اتباعِه إلى عَدُوِّه. «مِنْ قَبْلُ»، يقولُ: مِنْ قَبْلِ أنْ تُصِيبَهُ هذه المصيبةُ. «ويَتوَلَّوْا وهُمْ فَرِحُونَ»، يقولُ: ويَرْتَدُّوا عن محمدٍ وهُمْ فَرِحُونَ بما أصابَ محمداً وأصحابَهُ من المصيبةِ، بفلولِ أصحابهِ وانهزامِهم عنه، وقَتْلِ مَنْ قُتِلَ منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مُؤَدِّباً نبيَّهُ محمداً ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المنافقينَ الذين تَخلَّفُوا عنكَ، لَنْ يُصِيبَنَا، أيها المرتابونَ في دِينهم. «إلَّا ما كتبَ اللهُ لنا»، في اللوحِ المحفوظِ، وقَضَاهُ علينا. «هُوَ مَوْلَانا»، يقولُ: هو نَاصِرُنَا على أعدائِه. «وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنونَ»، يقولُ: وعلى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمنونَ، فإنهم إنْ يَتوَكَّلُوا عليهِ، ولم يَرْجُوا النصرَ من عندِ غيرِه، ولم يَخَافُوا شيئاً غَيْرَهُ، يَكْفِهم أمورَهُمْ، وينصرهم على مَنْ بَغَاهُمْ وكَادَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المنافقينَ الذينَ وصفتُ لكَ صِفَتَهُمْ وبينتُ لكَ أمرهم: هل تنتظرونَ بنا إلَّا إحدى

الخَلَّتين اللتين هُمَا أحسنُ من غيرهما، إمَّا ظَفَراً بالعدوِّ وفتحاً لنا بِغَلَبَتِناهُمْ، ففيها الأجرُ والغنيمةُ والسلامةُ ـ وإما قَتْلًا من عَدُوِّنا لنا، ففيه الشهادةُ، والفوزُ بالجنةِ والنجاةُ من النار. وكِلْتَاهُمَا مما نُحِبُّ ولا نَكْرَهُ. «ونحن نَتَرَبَّصُ بكم أنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بعذابٍ من عنده»، يقولُ: ونحنُ ننتظرُ بكم أنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بعقوبةٍ من عنده عاجلة، تُهْلِكُكُمْ. «أو بأيدينا»، فَنَقْتُلُكُمْ. «فَتَرَبَّصُوا إنَّا معكم مُتَرَبِّصُونَ»، يقولُ: فانتظروا إنَّا معكم مُنْتَظِرُونَ ما اللهُ فاعلٌ بنا، وما إليهُ صائرٌ أمرُ كُلِّ فريقٍ مِنَّا ومنكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المنافقينَ: أنْفِقُوا كيفَ شِئْتُمْ أموالَكُمْ في سفركم هذا وغيره، وعلى أيِّ حالٍ شئتم، من حالِ الطَّوْعِ والكره، فإنكم إنْ تُنْفِقُوها لَنْ يَتَقَبَّلَ اللهُ منكم نَفَقَاتِكم، وأنتم في شَكٍّ من دِينكم، وجهلٍ منكم بنبوةِ نَبِيِّكُم، وسُوءِ معرفةٍ منكم بثوابِ اللهِ وعقابه. «إنكم كنتم قوماً فاسقين»، يقولُ: خارجينَ عن الإيمانِ بربِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما مَنَعَ هؤلاءِ المنافقينَ، يا محمدُ، أنْ تُقْبَلَ منهم نَفَقَاتُهم التي يُنْفِقُونَها في سفرهم معكَ، وفي غيرِ ذلك من السُّبُلِ، إلَّا أنهم كَفَرُوا باللهِ وبرسوله.

«ولا يأتون الصلاةَ إلَّا وهم كُسَالى»، يقولُ: لا يأتونها إلا مُتَثَاقِلينَ بها. إلا أنَّهم لا يَرْجُونَ بأدَائِهَا ثَواباً، ولا يَخافُونَ بتركها عِقَاباً، وإنما يُقيمونَها مخافةً على أنفسِهم بتركِهَا من المؤمنينَ، فإذا أَمِنُوهُمْ لم يُقِيمُوهَا. «ولا ينفقونَ»، يقولُ: ولا يُنفقونَ من أموالهم شيئاً. «إلا وهُمْ كارهون»، أنْ يُنفقوهُ في الوجهِ الذي ينفقونَهُ فيه، مما فيه تَقْوِيَةٌ للإِسلامِ وأهلِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾

معنى ذلك: إنما يُريدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الحياةِ الدنيا، بما ألزمَهُمْ فيها من فرائضِه، بأخذِ الزكاة والنفقةِ في سبيل الله.

وأمـا قوله: «وتَزْهَقَ أنفُسُهم وهم كافرون»، فإنه يعني ونُخْرِجُ أنفسَهُمْ فيَمُوتُوا على كُفْرِهم باللهِ، وجُحُودِهم نُبُوَّةَ نبيِّ اللهِ محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويحلفُ باللهِ لكم، أيها المؤمنونَ، هؤلاءِ المنافقونَ، كَذِباً وبَاطِلاً، خَوْفاً منكم: «إنهم لمنكم» في الدِّينِ والمِلَّةِ. يقولُ الله تعالى، مُكَذِّباً لهم: «وما هُمْ مِنْكُمْ»، أي: ليسوا من أهلِ دِينكم ومِلَّتكم، بَلْ هُمْ أهلُ شَكٍّ ونفاقٍ. «ولكنهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ»، يقولُ: ولكنهم قَوْمٌ يَخافُونَكم، فَهُمْ خوفاً منكم يقولونَ بألسنتهم: «إنَّا مِنْكُمْ»، ليأمَنُوا فيكم فلا يُقْتَلوا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ

﴿أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: لو يَجِـد هؤلاءِ المنافقونَ «مَلْجَأً»، يقولُ: عَصَراً يَعْتَصِرُونَ به من حِصْنٍ، ومَعْقِلاً يعتقِلون فيه منكم. «أو مغاراتٍ»، وهي الغِيرانُ في الجبال، واحِدَتُها: «مَغَارة»، وهي «مفعلة»، من: «غَارَ الرجلُ في الشيءِ، يَغُورُ فيه»، إذا دخلَ، ومنه قِيلَ، «غارتِ العينُ»، إذا دَخَلَتْ في الحَدَقة.

«أو مُدَّخلاً»، يقولُ: سَرَباً في الأرضِ يَدْخُلونَ فيه.

وقوله: «لَوَلَّوْا إليه»، يقولُ: لأَدْبَرُوا إليه، هَرَباً منكم. «وهم يَجْمَحُونَ». يقولُ: وهم يُسْرِعُونَ في مَشْيِهم.

وإنما وَصَفَهُمُ اللهُ بما وَصَفَهُمْ به من هذه الصِفَةِ، لأنهم إنما قَامُوا بين أظْهُرِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ على كُفْرِهم ونِفاقِهم وعَدَاوتِهم لهم ولما هُمْ عليه من الإيمـانِ بالله وبـرسـولـه، لأنهم كانوا في قومِهم وعشيرتِهم وفي دُورِهم وأموالِهم، فلم يقدرُوا على تَرْكِ ذلكَ وفِراقِه، فَصَانَعُوا القومَ بالنفاقِ، ودافعوا عن أنفسهم وأموالِهم وأولادِهم بالكفرِ ودعوى الإيمانِ، وفي أَنْفُسِهم ما فيها من البُغْضِ لرسولِ الله ﷺ وأهلِ الإيمانِ به والعداوةِ لهم. فقالَ الله، واصِفَهُمْ بما في ضمائرهم: «لو يَجِدُونَ ملجأً أو مغاراتٍ»، الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن المنافقينَ الذينَ وصفتُ لك، يا محمدُ، صِفَتَهُمْ في هذه الآياتِ. «مَنْ يَلْمِزُكَ في الصدقاتِ»، يقولُ: يَعِيبُكَ في أمْرِهَا، ويطعُنُ عليكَ فيها.

«فإنْ أُعْطُوا منها رَضُوا»، يقولُ: ليس بهم في عَيْبِهم إيَّاكَ فيها، وطَعْنِهم عليكَ بسببها، الدِّين، ولكن الغضب لأنفسهم، فإنْ أنتَ أَعْطَيْتَهُمْ منها ما يُرْضِيهم رَضُوا عنكَ، وإنْ أنتَ لم تُعْطِهم منها سَخِطُوا عليكَ وعابوكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو أنَّ هؤلاءِ الذين يَلْمِزُونَكَ، يا محمدُ، في الصدقاتِ، رَضوا ما أَعطاهُم اللهُ ورسولُهُ من عطاءٍ، وقَسَمَ لهم من قَسْمٍ، «وقالوا حَسْبُنَا اللهُ»، يقولُ: وقالوا: كَافِينَا اللهُ، «سَيُؤْتِينا اللهُ من فَضْله ورسوله»، يقول: سيعطينا اللهُ من فضلِ خزائنه، ورسولُه من الصدقةِ وغيرها. «إنَّا إلى اللهِ راغبون»، يقولُ: وقالوا: إنَّا إلى اللهِ نرغبُ في أن يُوَسِّعَ علينا من فَضْلِه، فيُغْنِينَا عن الصدقةِ وغيرها من صِلَاتِ الناسِ والحاجةِ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما الصدقاتُ إلَّا للفقراءِ والمساكين، ومَنْ سَمَّاهم اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في صفة «الفقير» و«المسكين».

فقال بعضهم: «الفقير»، المحتاجُ المُتَعَفِّفُ عن المسألةِ، و«المسكينُ»، المحتاجُ السائل.

وقال آخرون: «الفقير»، هو ذُو الزَّمانةِ من أهلِ الحاجة، و«المسكينُ»، هو الصحيحُ الجسم منهم.

وقال آخرون: «الفقراء»، فقراءُ المهاجرينَ، و«المساكين»، مَنْ لم يُهَاجِرْ من المسلمينَ، وهو محتاجٌ.

وقال آخرون: «المسكينُ»، الضعيفُ الكَسْبِ.

وقال بعضهم: «الفقير»، من المسلمينَ، و«المسكينُ» من أهلِ الكتاب.

وأوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: «الفقير»، هو ذُو الفَقْرِ والحاجةِ، ومع حاجته يتعفَّفُ عن مسألةِ الناسِ والتذلُّلِ لهم، في هذا الموضع، و«المسكين» هو المحتاجُ المُتَذَلِّلُ للناسِ بمسألتِهم.

وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، وإنْ كان الفريقانِ لم يُعْطَيا إلَّا بالفقر والحاجة، دونَ الذلةِ والمسألةِ، لإجماعِ الجميعِ من أهلِ العلم أنَّ «المسكينَ»، إنما يُعْطَى من الصدقةِ المفروضةِ بالفقرِ، وأنَّ معنى «المسكنة»، عند العربِ، الذلَّة، كما قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، [البقرة: ٦١]، يعني بذلك: الهونَ والذِلَّةَ، لا الفقرَ. فإذْ كان الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ قد صَنَّفَ مَنْ قسمَ له من الصدقةِ المفروضة قَسماً بالفقرِ، فجعلهم صنفين، كان معلوماً أنَّ كُلَّ صنفٍ منهم غير الآخر. وإذ كان ذلك كذلك، كانَ لاشَكَّ أنَّ المقسومَ له باسمِ «الفقير»، غير المقسومِ له باسمِ الفقرِ و«المسكنة»، والفقيرُ المُعْطَى ذلك باسمِ الفقيرِ المُطْلَقِ، هو الذي لا مسكنةَ فيه، والمُعْطَى باسمِ المسكنةِ والفقرِ، هو الجامعُ إلى فقرهِ المسكنةَ، وهي الذلُّ بالطَّلَبِ والمسألة.

فتأويل الكلام، إذْ كان ذلك معناه: إنما الصدقاتُ للفقراء: **المتعفِّف** منهم الذي لا يسألُ، والمتذلِّل منهم الذي يسألُ.

وقوله: «والعاملينَ عليها»، وهم السُّعَاةُ في قَبْضِها من أهلها، ووضعها في مُسْتَحِقِّيها، يُعْطَوْنَ ذلك بالسعايةِ، أغنياءَ كانوا أو فقراء.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أهلُ التأويل في قَدْرِ ما يُعْطَى العامل من ذلك.

فقال بعضهم: يُعْطَى منه الثُّمُن.

وقال آخرون: بل يعطى على قَدْرِ عُمالته.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: يُعْطَى العاملُ عليها على قدر عُمالته وأجْر مِثْلِه.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى بالصواب، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لم يَقْسِمْ صدقةَ الأموالِ بين الأصنافِ الثمانيةِ على ثمانيةِ أسهم، وإنما عَرَّفَ خَلْقَهُ أنَّ الصدقاتِ لن تجاوزَ هؤلاءِ الأصناف الثمانية إلى غيرهم. وإذْ كان كذلك، بما سنوضح بَعْدُ، وبِمَا قَدْ أوضحناهُ في موضعٍ آخر، كان معلوماً أنَّ مَنْ أُعْطِيَ منها حقًّا، فإنما يُعْطَى على قَدْرِ اجتهاد المُعْطِي فيه. وإذا كان ذلك كذلك، وكان العاملُ عليها إنما يُعْطَى على عمله، لا على الحاجةِ التي تزولُ بالعَطِيَّةِ، كان معلوماً أنَّ الذي أعطاه من ذلك إنما هو عِوَضٌ من سَعْيِه وعملِه، وأنَّ ذلك إنما هو قدر ما يستحقُّه عِوَضاً من عملِه الذي لا يزولُ بالعطيةِ، وإنما يزولُ بالعَزْلِ.

وأما «المؤلفة قلوبهم»، فإنهم قومٌ كانوا يُتَألَّفُونَ على الإسلامِ، ممن لم تَصِحَّ نُصْرَتُه، استصلاحاً به نفسَه وعشيرتَهُ، كأبي سفيان بن حربٍ، وعيينةَ بن بدر، والأقرع بن حابس، ونظرائِهم من رؤساءِ القبائل.

ثم اختلف أهلُ العلم في وجود المؤلَّفَةِ اليومَ وعَدَمِهَا، وهل يُعْطَى اليومَ أحدٌ على التألُّفِ على الإسلامِ من الصدقةِ؟

فقال بعضُهم: قد بطلت المؤلفةُ قلوبهم اليومَ، ولا سَهْمَ لأحدٍ في الصدقة المفروضةِ إلَّا لذي حاجةٍ إليها، وفي سبيل الله، أو لعاملٍ عليها.

وقال آخرون: «المؤلفة قلوبهم»، في كُلِّ زمانٍ، وحَقُّهم في الصدقاتِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي: أنَّ الله جعلَ الصدقةَ في معنيين أحدهما: سدُّ خَلَّة المسلمينَ، والآخرُ: معونةُ الإسلامِ وتقويتُه. فما كانَ في معونةِ الإسلامِ وتقويةِ أسبابه، فإنَّه يُعْطَاهُ الغنيُّ والفقير، لأنه لا يُعْطَاهُ مَنْ يُعْطَاهُ بالحاجةِ منه، إليه، وإنما يُعْطَاهُ معونةً للدِّين. وذلك كما يُعْطَى الذي يُعْطاهُ بالجهادِ في سبيلِ الله، فإنه يُعْطَى ذلك غنيًّا كانَ أو فقيراً، للغزو، لا لسدِّ خَلَّتـه. وكذلك المؤلفةُ قلوبهم، يُعْطَوْنَ ذلكَ، وإنْ كانوا أغنياءَ، استصلاحاً بإعْطَائِهِمُوهُ أمرَ الإسلامِ وطَلَبَ تقويتِه وتأييدِه. وقد أعطى النبيُّ ﷺ مَنْ أعطى من المؤلفةِ قلوبهم، بعد أنْ فتحَ اللهُ عليه الفتوحَ، وفشا الإسلامُ وعَزَّ أهلُه. فلا حُجَّةَ لمحتجٍّ بأنْ يقولَ: «لا يُتَأَلَّفُ اليومَ على الإسلامِ أحدٌ، لامتناعِ أهلهِ بكثرةِ العددِ ممن أرادَهُمْ»، وقد أعطى النبيُّ ﷺ مَنْ أعطى منهم في الحال التي وصفت.

أمـا قولـه: «وفي الـرقـاب»، فإنـه عُنِيَ بالـرقاب، في هذا الموضع، المكاتبون، لإجماعِ الحجة على ذلك، فإن الله جعل الزكاةَ حقًّا واجباً على مَنْ أوجبهـا عليه في مالِه، يُخْرِجُهَا منه، لا يرجع إليه منها نفعٌ من عَرَضِ الدنيا، ولا عِوَض. والمعتقُ رقبةً منها، راجعٌ إليه ولاءُ مَنْ أعتقه، وذلك نَفْعٌ يعودُ إليه منها.

وأما «الغارمون»، الذين استدانوا في غيرِ معصيةِ الله، ثم لم يجدوا قضاءً في عينٍ ولا عَرَضٍ.

وأما قوله: «وفي سبيل الله»، فإنه يعني: وفي النفقة في نُصْرَةِ دِينِ اللهِ

وطريقِهِ وشريعتهِ التي شَرَعَها لعبادِه، بقتالِ أعدائه، وذلك هو غزوُ الكفار.

وأما قوله: : «وابن السبيل»، فالمسافرُ الذي يجتازُ من بلدٍ إلى بلد.

وقوله: «فريضةً من الله»، يقول جَلَّ ثناؤه: قَسْمٌ قَسَمَهُ اللهُ لهم، فأوجبه في أموالِ أهلِ الأموالِ لهم. «والله عليمٌ»، بمصالحِ خَلْقِه فيما فَرَضَ لهم، وفي غيرِ ذلـك، لا يَخْفَى عليه شيءٌ. فَعَلَى عِلْمٍ منـه فَرَضَ ما فَرَضَ من الصدقةِ، وبما فيها من المصلحة. «حكيمٌ»، في تدبيره خَلْقَهُ، لا يدخلُ في تدبيره خَلَلٌ.

واختلف أهلُ العلمِ في كيفيةِ قَسْمِ الصَّدَقاتِ التي ذَكَرَهَا اللهُ في هذه الآية، وهل يجبُ لكلِّ صِنفٍ من الأصنافِ الثمانية فيها حَقٌّ، أو ذلك إلى رَبِّ المال؟ ومَنْ يَتَولَّى قَسْمها، في أنَّ له أنْ يُعْطِيَ جميعَ ذلك مَنْ شاء من الأصنافِ الثمانية.

فقال عامةُ أهلِ العلم: للمتولِّي قَسْمُها ووضعُها في أيِّ الأصناف الثمانية شاء. وإنما سمَّى اللهُ الأصنافَ الثمانيةَ في الآية، إعلاماً منه خَلْقَهُ أنَّ الصدقةَ لا تخرجُ من هذه الأصنافِ الثمانيةِ إلى غيرها، لا إيجاباً لِقَسْمِهَا بين الأصنافِ الثمانية الذين ذكرهم.

وكـان بعضُ المتأخرين يقولُ: إذا تَوَلَّى رَبُّ المال قَسْمها، كان عليه وَضْعها في ستةِ أصنافٍ، وذلك أنَّ المؤلفةَ قلوبُهم عنده قد ذَهَبُوا، وأنَّ سَهْمَ العاملينَ يبطلُ بِقَسْمِه إيَّاها. ويزعمُ أنه لا يجزيه أنْ يُعطِي من كُلِّ صنفٍ أقلَّ من ثلاثة أنفس. وكان يقولُ: إنْ تولَّى قَسْمها الإمامُ، كان عليه أن يَقْسِمَهَا على سبعةِ أصنافٍ، لا يجزي عنده غير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ومن هؤلاءِ المنافقينَ جماعةٌ يُؤْذُونَ رسولَ اللهِ ﷺ ويَعِيبُونَهُ. «ويقولون هو أُذُنٌ» سامعةٌ، يسمعُ مِنْ كُلِّ أحدٍ ما يقالُ، فيقبلُه ويصدِّقُه.

وأما قوله: «يؤمنُ باللهِ»، فإنه يقولُ: يُصَدِّقُ باللهِ وحدَهُ لا شريكَ له. وقوله: «ويؤمنُ للمؤمنينَ»، يقولُ: ويُصَدِّقُ المؤمنينَ، لا الكافرينَ ولا المنافقينَ.

وهذا تكذيبٌ من اللهِ للمنافقينَ الذين قالوا: «محمدٌ أُذن!»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنما محمدٌ ﷺ مُسْتَمِعُ خَيْرٍ، يُصَدِّقُ باللهِ وبما جاء من عنده، ويصدقُ المؤمنينَ، لا أهلَ النفاقِ والكُفْرِ باللهِ.

وأما قوله: «ورحمةٌ للذين آمنُوا منكم» فمعناه: وهو رحمةٌ للذينَ آمنوا منكم. وجَعَلَهُ اللهُ رحمةً لمن اتَّبَعَهُ واهتدى بهُداهُ، وصَدَّقَ بما جاءَ به من عندِ ربِّه، لأنَّ اللهَ استنقذَهُمْ به من الضلالةِ، وأورثهم باتِّباعِه جَنَّاته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لهؤلاءِ المنافقينَ الذين يَعِيبُونَ رسولَ الله ﷺ ويقولون: «هو أُذُن»، وأمثالِهم من مُكَذِّبيه، والقائلينَ فيه الهُجْرَ والباطل، عذابٌ من اللهِ موجعٌ لهم في نارِ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين به وبرسولِه ﷺ: يحلفُ لكم، أيها المؤمنونَ، هؤلاءِ المنافقونَ باللهِ، ليرضُوكُمْ فيما بَلَغَكُمْ عنهم من أذاهم رسولَ الله ﷺ، وذكرِهم إياهُ بالطعنِ عليه والعيبِ له، ومطابَقتِهم سرًّا أهلَ الكفرِ عليكم - باللهِ والأيمانِ الفاجرةِ: أَنَّهُمْ ما فَعَلُوا ذلكَ، وإنهم لعلى دِينِكُمْ، ومَعَكُمْ على مَنْ خَالَفَكُمْ، يَبْتغُونَ بذلك رِضَاكُمْ. يقولُ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «واللهُ ورسولُه أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوه»، بالتوبةِ والإِنابةِ مما قالوا ونَطَقُوا. «إنْ كانوا مؤمنينَ»، يقولُ: إنْ كانوا مُصَدِّقِينَ بتوحيدِ الله، مُقِرِّينَ بوعدِه ووعيدِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَلَمْ يعلمْ هؤلاءِ المنافقونَ الذينَ يحلفونَ باللهِ كَذِباً للمؤمنينَ لِيُرْضُوهم، وهم مُقِيمونَ على النفاقِ، أنه مَنْ يحاربِ اللهَ ورسولَهُ، ويخالفهما فيُنَاوِئْهُمَا بالخلافِ عليهما. «فإنَّ له نارَ جهنم»، في الآخرةِ. «خالداً فيها»، يقولُ: لابِثاً فيها مُقيماً إلى غيرِ نهاية؟. «ذلك الخِزْيُ العظيم»، يقولُ: فَلُبْثُه في نارِ جهنم وخلودُه فيها، هو الهوانُ والذلُّ العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يخشى المنافقونَ أنْ تُنَزَّلَ فيهم. «سورةٌ تُنَبِّئُهم بما في قلوبهم»، يقولُ: تُظْهِر المؤمنينَ على ما في قلوبهم.

وقيل: إنَّ الله أنزلَ هذه الآية على رسولِ الله ﷺ، لأنَّ المنافقينَ كانوا إذا عَابُوا رسولَ الله ﷺ، وذكروا شيئاً من أمرِه وأمرِ المسلمينَ، قالوا: «لعلَّ الله لا يُفْشِي سِرَّنا!»، فقال اللهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم: «اسْتَهْزِئُوا»، مُتَهَدِّداً لهم مُتَوَعِّداً: «إنَّ الله مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ».

وأمـا قوله: «إنَّ الله مخرجٌ ما تحذرون»، فإنه يعني به: إنَّ الله مُظْهِرٌ عليكم، أيها المنافقونَ، ما كنتم تَحْذَرون أنْ تُظْهِرُوه، فأظهرَ اللهُ ذلك عليهم وفَضَحَهُمْ. فكانت هذه السورةُ تُدْعَى: «الفَاضِحَةَ».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾

يقول تعالى جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولئن سألتَ، يا محمدُ، هؤلاءِ المنافقينَ عَمَّا قالوا من الباطلِ والكذبِ، ليقولُنَّ لكَ: إنما قُلْنا ذلكَ لعباً، وكُنَّا نخوضُ في حديثٍ لعباً وهزؤاً! يقولُ اللهُ لمحمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، أَباللهِ وآياتِ كتابهِ ورسولِه كنتم تَسْتَهزئُون؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ الذين وصفتُ لك صِفَتَهم: «لا تعتذروا»، بالباطلِ فتقولوا: «كنا نخوضُ ونلعب. «قد كفرتم»، يقولُ: قد

جَحَدْتُم الحَقَّ بقولكم ما قُلْتُمْ في رسولِ الله ﷺ والمؤمنينَ به. «بعد إيمانكم»، يقولُ: بعد تَصْدِيقكم به وإقرارِكُمْ به. «إنْ نَعْفُ عن طائفةٍ منكم نُعَذِّبْ طائفة».

وذكر أنه عُنِي: بـ«الطائفة»، في هذا الموضع، رجلٌ واحد.

واختلف أهلُ التأويل في تأويلِ ذلك.

فقال بعضهم: معناه: «إنْ نَعْفُ عن طائفةٍ منكم»، بإنكارِ ما أنكر عليكم من قبل الكفر. «نُعَذِّبْ طائفةً»، بِكُفْرِه واستهزائِه بآياتِ الله ورسولِه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك. إنْ تَتُبْ طائفةٌ منكم فيعفو اللهُ عنها، يعذب الله طائفةً منكم بتركِ التوبة.

وأما قوله: «إنهم كانوا مجرمين»، فإنَّ معناهُ: نعذب طائفةً منهم باكتسابهم الجُرْمَ، وهو الكُفْرُ بالله، وطَعْنُهم في رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «المنافقونَ والمنافقاتُ»، وهم الذين يُظْهِرُونَ للمؤمنينَ الإيمانَ بألسنتهم، ويُسِرُّون الكفرَ باللهِ ورسوله «بعضهم من بعض»، يقولُ: هم صِنْفٌ واحدٌ، وأمرهُمْ واحدٌ، في إعلانِهم الإيمانَ، واستبطانِهم الكُفْرَ. «يأمرون» مَنْ قبل منهم «بالمنكر»، وهو الكفر بالله وبمحمدٍ ﷺ وبما جاء به وتكذيبه. «وينهون عن المعروفِ»، يقولُ: ويَنْهونَهُمْ عن الإيمانِ باللهِ ورسولِه، وبما جاءهم به من عند الله.

وقولـه: «ويَقْبِضُونَ أيديهم»، يقولُ: ويُمْسِكُونَ أيديهم عن النفقةِ في سبيل الله، ويَكُفُّونَها عن الصدقةِ، فيمنعونَ الذينَ فرضَ اللهُ لهم في أموالهم ما فَرَضَ من الزكاةِ حُقوقَهم.

وأما قوله: «نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ»، فإنَّ معناه: تَرَكُوا اللهَ أنْ يُطِيعُوهُ ويَتَّبِعُوا أمره، فتركهم اللهُ من توفيقِه وهدايتِه ورحمتِه.

قوله: «إنَّ المنافقينَ هم الفاسقون»، يقولُ: إنَّ الذين يُخادِعُونَ المؤمنينَ بإظهارِهم لهم بألْسِنَتِهم الإيمانَ باللهِ، وهم لِلكُفْرِ مُسْتَبْطِنُونَ، هم المُفَارِقُونَ طاعةَ الله، الخارجونَ عن الإيمانِ به وبرسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَعَدَ اللهُ المنافقينَ والمنافقاتِ والكُفَّارَ» باللهِ، «نارَ جهنم»، أنْ يُصْلِيهُمُوهَا جميعاً. «خالدينَ فيها»، يقولُ: ماكثينَ فيها أبداً، لا يَحْيَونَ فيها ولا يَمُوتونَ. «هي حَسْبُهم»، يقولُ: هي كَافِيَتُهُمْ من رحمتِه. «ولهم عذابٌ مقيم»، يقولُ: وللفريقين جميعاً: يعني من أهلِ النفاقِ والكفرِ، عندَ اللهِ «عذابٌ مقيم»، دائمٌ لا يزولُ ولا يَبِيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المنافقينَ الذين قالوا: «إنما كُنَّا نَخُوضُ ونلعب»: أَبالله وآياتِ كتابه ورسولِه كنتم تَسْتَهزئونَ؟. «كالَّذِينَ من قَبْلِكُمْ»، من الأُمَمِ الذينَ فعلوا فِعْلَكُمْ، فأهلكَهُم اللهُ، وعَجَّلَ لهم في الدنيا الخزيَ مع ما أَعَدَّ لهم من العقوبةِ والنكالِ في الآخرة. يقول لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: واحْذَرُوا أنْ يَحلَّ بكم من عقوبةِ الله مثل الذي حَلَّ بهم، فإنَّهم كانوا أَشَدَّ منكم قُوَّةً وبَطْشاً، وأكثر منكم أموالاً وأولاداً. «فاستمتعوا بخَلاقِهم»، يقولُ: فَتَمَتَّعُوا بنصيبهم وحَظِّهم من دُنياهم ودِينهم، ورَضُوا بذلك من نصيبهم في الدنيا عِوَضاً من نَصِيبهم في الآخرة، وقد سَلَكْتُمْ، أيها المنافقونَ، سبيلَهُمْ في الاستمتاع بخَلاقِكم. يقولُ: فعلتُمْ بدِينكُم ودُنياكُم، كما استمتعَ الأممُ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكُمْ، الذينَ أَهْلَكْتُهم بخِلافِهم أمْري. «بخَلاقِهم»، يقولُ: كما فَعَلَ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بنصيبهم من دُنياهم ودينهم. «وخُضْتُمْ»، في الكذبِ والباطلِ على الله «كالذي خاضوا»، يقولُ: وخضتم أنتم أيضاً، أيها المنافقونَ، كخوضِ تلك الأممِ قبلكم.

وأما قوله: «أولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهم»، فإنَّ معناه: هؤلاءِ الذين قالوا: «إنما كُنَّا نخوضُ ونلعب»، وفعلوا في ذلك فِعْلَ الهالكينَ من الأممِ قَبْلَهُمْ. «حَبِطَتْ أعمالُهم»، يقولُ: ذَهَبَتْ أعمالُهم باطلاً، فلا ثوابَ لها إلا النار، لأنها كانت فيما يسخطُ الله ويكرهه. «وأولئك هم الخاسرون»، يقولُ: وأولئكَ هم المَغْبُونُونَ صَفْقَتَهُمْ، ببَيْعِهم نعيمَ الآخرةِ بخَلاقِهم من الدنيا اليسيرِ الزهيدِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم يأتِ هؤلاءِ المنافقينَ الذين يُسِرُّونَ الكُفْرَ باللهِ، وينهون عن الإيمانِ به وبرسولِهِ «نَبَأُ الذينَ مِنْ قَبْلِهِم»، يقولُ: خَبَرُ الأممِ الذين كانوا من قَبْلِهم، حين عَصَوْا رُسُلَنا وخالَفُوا أمرنا، ماذا حَلَّ بهم من عُقوبَتِنَا؟

ثم بَيَّنَ جَلَّ ثَناؤُهُ مَنْ أولئكَ الأمم التي قالَ لهؤلاءِ المنافقينَ أَلَمْ يأْتِهم نَبأُهُم، فقال: «قوم نوح»، ولذلك خفض «القوم»، لأنه تَرْجَمَ بهم عن «الذين»، و«الذين» في موضع خفض.

ومعنى الكلام: ألم يأتِ هؤلاءِ المنافقينَ خَبَرُ قومِ نوحٍ وصَنِيعي بهم، إذْ كَذَّبُوا رسولي نوحاً، وخالفوا أمري؟ أَلَمْ أُغْرِقهم بالطوفان؟

«وعاد»، يقولُ: وخبر عادٍ، إذْ عَصَوْا رسولي هوداً، أَلَمْ أُهْلِكْهُمْ بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية؟ وخبر ثمود، إذْ عَصَوْا رسولي صالحاً، ألم أُهْلِكْهُم بالرجفةِ، فأتركهم بأفنِيَتِهم خُموداً؟ وخبر قوم إبراهيمَ، إذ عَصَوْهُ وردُّوا عليه ما جاءَهُمْ بهِ من عندِ الله من الحَقِّ، ألم أَسْلُبْهُمْ النِّعمةَ، وأُهْلِكْ مَلِكَهُم نمرود؟ وخبر أصحابِ مَدْين بن إبراهيم، ألم أُهلكهم بعذابِ يومِ الظلَّة إذْ كَذَّبُوا رسولي شعيباً؟ وخبر المُنْقَلِبةِ بهم أرضُهم، فصارَ أعلاها أَسْفَلَها، إذ عَصَوْا رسولي لوطاً، وكَذَّبُوا ما جاءهم به مِنْ عندي من الحَقِّ؟ يقول تعالى ذِكْرُه: أَفَأَمِنَ هؤلاءِ المنافقونَ الذين يستهزئونَ باللهِ وبآياتهِ ورسولِهِ، أنْ يُسْلَكَ بهم في الانتقام منهم، وتعجيلِ الخزي والنكالِ لهم في الدنيا، سبيلُ أسلافِهم من الأممِ، ويحلّ بهم بتكْذِيبهم رسولي محمداً ﷺ ما حَلَّ بهم في تكذيبهم رُسُلَنَا، إذْ أتتهم بالبينات.

وقوله: «فما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فما أهلكَ اللهُ هذه الأممَ التي ذَكَرَ أنه أَهْلَكَهَا إلاَّ بإجرامها وظُلْمِها أنفسَها، واستحقاقها من الله عظيمَ العقاب، لا ظلماً من اللهِ لهم، ولا وَضْعاً منه جَلَّ ثَنَاؤُهُ عقوبةً في غيرِ مَنْ هُوَ

لها أَهْلٌ، لأنَّ الله حكيمٌ لا خَلَلَ في تدبيره، ولا خَطأَ في تقديرِه، ولكنَّ القومَ الـذين أهلكهم ظَلَمُـوا أنفسهم بمعصيةِ الله وتكذيبهم رُسُلَهُ، حتى أسخطوا عليهم رَبَّهم، فَحَقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب فَعُذِّبُوا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٧١﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وأما «المؤمنونَ والمؤمنات»، وهم المُصَدِّقُونَ باللهِ ورسولِهِ وآياتِ كتابه، فإنَّ صِفَتَهُم: أنَّ بعضَهم أنصارُ بعضٍ وأعوانهم. «يأمرونَ بالمعروفِ»، يقولُ: يأمرونَ الناسَ بالإيمانِ باللهِ ورسولِه، وبما جاءَ بِهِ من عِنْدِ الله، [«وينهون عن المنكر» . . .]. «ويُقيمونَ الصلاةَ»، يقولُ: ويُؤَدُّونَ الصلاةَ المفـروضـةَ. «ويؤتـون الـزكـاة»، يقـولُ: ويُعْـطُونَ الزكاةَ المفروضةَ أَهْلَها. «ويطيعونَ اللهَ ورسولَهُ»، فيأتمرونَ لأمرِ اللهِ ورسولِه، وينْتَهونَ عَمَّا نَهَاهُمْ عنه. «أولئك سَيَرحَمهُمُ الله»، يقولُ: هؤلاءِ الذينَ هذه صِفَتُهم، الذين سيرحمهمُ اللهُ، فينقـذهم من عذابـه، ويُدْخِلُهم جَنَّتَـهُ، لا أهل النفاقِ والتكذيبِ باللهِ ورسولِه، الناهونَ عن المعروفِ، الآمرونَ بالمُنْكَرِ، القابضونَ أيديهم عن أداءِ حَقِّ اللهِ من أموالهم. «إنَّ الله عزيزٌ حكيم»، يقولُ: إنَّ الله ذُو عِزَّةٍ في انتقامِه سمن انتقمَ مِنْ خَلْقِه على معصيتِه وكُفْرِه به، لا يَمْنَعُهُ من الانتقامِ منه مانعٌ، ولا ينصره منه ناصِرٌ. «حكيمٌ»، في انتقامِه منهم، وفي جميع أفعاله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٧٢﴾

التوبة: ٧٢

يقول تعالى ذِكْرُه: وَعَدَ اللهُ الذينَ صَدَّقُوا اللهَ ورسوله، وأقَرُّوا به وبما جاءَ به من عندِ اللهِ، من الرجالِ والنساءِ «جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ»، يقولُ: بساتين تجري تحتَ أشجارِها الأنهارُ. «خالدينَ فيها»، يقولُ: لابثينَ فيها أبداً، مُقِيمينَ لا يزولُ عنهم نَعيمُهَا ولا يَبِيدُ. «ومساكِنَ طيبةً»، يقولُ: ومنازلَ يسكنونها طيبةً.

وأما قوله: «في جناتِ عَدْنٍ»، فإنه يعني: وهذه المساكنُ الطيبةُ التي وَصَفَها جَلَّ ثَنَاؤُهُ، «في جناتِ عدن».

وقيل: «جنات عدن»، لأنها بساتينُ خُلْدٍ وإقامةٍ، لا يظعَنُ منها أحدٌ.

وقيل: إنما قيل لها: «جنات عدن»، لأنها دارُ اللهِ التي اسْتَخْلَصَها لنفسِه، ولِمَنْ شاءَ من خَلْقِه ـ من قول العرب: «عَدَنَ فلانٌ بأرضِ كذا»، إذا أقامَ بها وخلد بها، ومنه «المَعْدِن»، ويقال: «هو في معدِن صِدْقٍ»، يعني به: أنه في أصلٍ ثابت.

وقال آخرون: معنى «جنات عدن»، جنات أعنابٍ وكُرُومٍ.

وقال آخرون: هي اسم لبُطْنانِ الجنةِ ووَسطها.

وقال آخرون: «عدن»، اسمٌ لقصر.

وقيل: هي مدينةُ الجنة.

وقيل: إنه اسم نهر.

وأما قوله: «ورِضْوَانٌ من الله أكبرُ»، فإنَّ معناه: ورِضَى الله عنهم أكبرُ من ذلكَ كُلِّه.

وابتُدِيء الخبر عن «رضوان الله» للمؤمنينَ والمؤمناتِ أنه أكبرُ مِنْ كُلِّ ما

ذكر جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فرفع، وإنْ كان «الرضوان» فيما قد وَعَدَهُمْ. ولم يعطف به في الإعرابِ على «الجنات» و«المساكن الطيبة»، ليعلم بذلك تفضيلُ اللهِ رِضْوانَهُ عن المؤمنينَ، على سائرِ ما قَسَمَ لهم من فَضْلِه، وأَعْطَاهُمْ من كَرامتِه، نظير قولِ القائلِ في الكلامِ لآخرَ: «أَعْطَيْتُكَ ووصَلْتُكَ بكذا، وأكْرَمْتُكَ، ورِضايَ بَعْدُ عنك أفضلُ لكَ».

«ذلك هو الفوز العظيم»، هذه الأشياءُ التي وَعَدْتُ المؤمنينَ والمؤمناتِ «هو الفوزُ العظيمُ»، يقولُ: هو الظَّفَرُ العظيمُ، والنجاءُ الجسيمُ، لأنهم ظَفِرُوا بكرامةِ الأبدِ، ونَجَوْا من الهوانِ في سَقَر، فهو الفوزُ العظيمُ الذي لا شيءَ أعظم منه.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يا أيها النبيُّ جاهدِ الكُفَّارَ»، بالسيفِ والسلاحِ، «والمنافقينَ».

واختلف أهلُ التأويل في صفة «الجهاد» الذي أمرَ اللهُ نَبِيَّهُ به في المنافقينَ.

فقال بعضهم: أمره بجهادِهم باليَدِ واللسانِ، وبِكُلِّ ما أطاقَ جِهَادَهُمْ به.

وقال آخرون: بل أمره بجهادِهم باللسان.

وقال آخرون: بل أمره بإقامةِ الحُدودِ عليهم.

وأَوْلى الأقوالِ في تأويلِ ذلك عندي بالصوابِ، ما قيل: من أنَّ اللهَ أمرَ نبيَّهُ ﷺ من جهادِ المنافقينَ بنحوِ الذي أمرَهُ به من جهادِ المشركين.

فإن قال قائل: فكيف تَرَكَهُم ﷺ مُقيمينَ بين أظْهُرِ أصحابِه، مع عِلْمِه بهم؟

قيل: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما أَمَرَ بقتالِ مَنْ أظهرَ منهم كلمةَ الكفر، ثم أقامَ على إظهارِه ما أظهرَ من ذلك. وأمَّا مَنْ إذا اطُّلِعَ عليه منهم أنه تَكَلَّمَ بكلمةِ الكُفْرِ وأُخِذَ بها، أنْكَرَها ورَجَعَ عنها وقال: «إنِّي مسلمٌ»، فإنَّ حُكْمَ الله في كُلِّ مَنْ أظهرَ الإسلامَ بلسانه، أنْ يَحقِنَ بذلك له دمه وماله، وإنْ كان معتقداً غيرَ ذلك، وتَوكَّلَ هو جَلَّ ثَنَاؤُهُ بسَرَائِرِهم، ولم يجعلْ للخَلْقِ البحثَ عن السرائرِ. فلذلك كانَ النبيُّ ﷺ، مع عِلْمِه بهم وإطْلاعِ اللهِ إياهُ على ضمائرهم واعتقادِ صدورهم، كان يُقِرُّهم بين أَظْهُرِ الصحابةِ، ولا يسلكُ بجهادِهم مسلكَ جهادِ مَنْ قد ناصبَه الحربَ على الشِّرْكِ بالله، لأنَّ أحدهم كانَ إذا اطُّلع عليه أنه قد قالَ قولاً كَفَرَ فيه بالله، ثم أُخِذَ به أنْكَرَهُ وأظهرَ الإسلامَ بلسانِه. فلم يَكُنْ ﷺ يأخذُه إلَّا بما أظهر له من قولِه، عند حضورِه إياهُ وعَزْمه على إمضاءِ الحُكْمِ فيه، دُونَ ما سَلَفَ من قولٍ كان نَطَقَ به قَبْلَ ذلك، ودونَ اعتقادِ ضميرِه الذي لم يُبح اللهُ لأحدٍ الأخذَ به في الحُكْمِ، وتَوَلَّى الأخذَ به هو دُونَ خَلْقِه.

وقوله: «واغلظ عليهم»، يقول تعالى ذِكْرُه: واشْدُدْ عليهم بالجهادِ والقتالِ والإرْهاب.

وقوله: «ومأواهم جَهَنَّمُ»، يقولُ: ومَسَاكِنُهم جَهَنَّمُ، وهي مَثْواهم ومأْواهم، «وبِئْسَ المصير». يقولُ: وبِئْسَ المكانُ الذي يُصَارُ إليه جهنَّمُ.

القَوْلُ فِي تأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ

ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾

إن الله تعالى أخبرَ عن المنافقينَ أنَّهُمْ يَحْلِفُونَ بالله كَذِباً على كلمةِ كُفْر تَكَلَّمُوا بها، أنهم لم يقولوها.

وأما قوله: «وهَمُّوا بما لَمْ يَنالُوا»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في الذي كان هَمَّ بذلك، وما الشيء الذي كانَ همَّ به.

فقال بعضهم: هو رَجُلٌ من المنافقينَ، وكان الذي هَمَّ به، قتلَ ابنِ امرأتِه الذي سمعَ منه ما قالَ، وخَشِيَ أنْ يفشيه عليه.

وقال آخرون: كان الذي هَمَّ، رجلاً من قريش ـ والذي هَمَّ به، قتلَ رسولِ الله ﷺ.

وقال آخرون: الذي هَمَّ، عبدالله بن أبيّ بن سلول، وكانَ هَمُّهُ الذي لم يَنَلْهُ، قولـه: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾، [المنافقون: ٨]، من قول قتادة، وقد ذكرناه.

وقوله: «وما نَقَمُوا إلَّا أنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ ورسولُه من فَضْلِه»، ذكر لنا أنَّ المنافقَ الذي ذَكَرَ اللهُ عنه أنه قالَ كلمةَ الكُفْرِ، كان فقيراً فأغناهُ الله بأنْ قُتِلَ له مولًى، فأعطاهُ رسولُ الله ﷺ دِيَتَهُ. فلما قالَ ما قالَ، قالَ اللهُ تعالى: «وما نَقَمُوا»، يقولُ: ما أَنْكَرُوا على رسولِ الله ﷺ شيئاً. «إلَّا أنْ أغناهُمُ اللهُ ورسولُه من فضله».

وأما قوله: «فإنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيراً لهم»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ يَتُبْ هؤلاءِ القائلونَ كلمةَ الكُفْرِ من قِيلِهم الذي قالُوه فرجَعُوا عنه، يَكُ رُجُوعُهُمْ وتَوْبَتُهم من ذلك، خيراً لهم من النفاق. «وإنْ يَتَوَلَّوْا»، يقولُ: وإنْ يُدْبِرُوا عن التوبةِ،

فَيَأْتُوهَا ويُصِرُّوا على كُفْرِهم، «يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عذاباً أليماً»، يقولُ: يعذبهم عذاباً موجعاً في الدنيا، إمَّا بالقتلِ، وإما بعاجلِ خزيٍ لهم فيها، ويعذبهم في الآخرةِ بالنار.

وقوله: «وما لهم في الأرضِ من وَليٍّ ولا نصير»، يقولُ: وما لهؤلاءِ المنافقينَ إنْ عَذَّبَهُمُ اللهُ في عاجل الدنيا. «من وليٍّ»، يُواليه على مَنْعِه من عقابِ الله. «ولا نصير» يَنْصُرُهُ من الله فينقِذُهُ من عقابه. وقد كانوا أهلَ عِزٍّ ومَنعةٍ بعشائِرهم وقومِهم، يمتنعونَ بهم مِمَّنْ أرادَهُمْ بسوءٍ، فأخبرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ الذين كانوا يمنعونهم مِمَّنْ أرادَهُمْ بسوءٍ من عشائِرهم وحلفائهم، لا يمنعونهم من الله ولا ينصرونهم منه، إن احتاجُوا إلى نَصْرِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن هؤلاءِ المنافقينَ الذينَ وَصَفْتُ لكَ، يا محمدُ، صِفَتَهُم. «مَنْ عاهَدَ الله، يقولُ: أَعْطى اللهَ عهداً. «لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِه»، يقولُ: لئن أعطانا الله من فضله، ورَزَقنا مالاً، ووسَّع علينا من عنده. «لَنَصَّدَّقَنَّ»، يقول لَنُخْرِجَنَّ الصدقةَ من ذلكَ المالِ الذي رزقنا ربُّنا. «ولَنَكُونَنَّ من الصالحينَ»، يقولُ: ولَنَعْمَلَنَّ فيها بعَمَلِ أهلِ الصلاحِ بأموالهم، من صِلَةِ الرَّحِمِ به، وإنفاقِه في سبيلِ الله. يقولُ الله تبارك وتعالى: فَرزَقَهُمْ اللهُ وآتاهُمْ من فَضْلِه. «فلما آتاهُمُ اللهُ من فضله بَخِلُوا به»، بفضلِ اللهِ الذي آتاهم، فلم يَصَّدَّقُوا منه، ولم يَصِلُوا منه قرابةً، ولم يُنْفِقُوا منه في حَقِّ الله. «وتَوَلَّوْا»، يقولُ:

وأدْبَرُوا عن عَهْدِهم الذي عاهَدُوه اللهَ. «وهُمْ مُعْرِضُونَ»، عنه. «فأعْقَبَهُمْ» اللهُ. «نِفَـاقـاً في قلوبهم»، ببُخْلِهِم بحقِّ الله الـذي فَرَضَهُ عليهم فيما آتاهم من فضله، وإخلافِهِم الوعدَ الذي وَعَدُوا اللهَ، ونَقْضِهم عَهْدَهُ في قلوبهم. «إلى يوم يَلْقَوْنَهُ بما أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوه»، من الصَّدَقَةِ والنفقةِ في سبيله. «وبما كانـوا يَكْـذِبُونَ»، في قِيْلِهم، وحَرَمَهم التوبةَ منه، لأنه جَلَّ ثَنَاؤُهُ اشترطَ في نِفاقِهم أنَّه أَعْقَبَهُمُوه إلى يوم يَلْقَوْنَهُ، وذلك يوم مَمَاتِهم وخُروجِهم من الدنيا.

في هذه الآية، الإبانةُ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن علامةِ أهلِ النفاقِ، أعني في قوله: «فأعقبهم نِفاقاً في قُلوبهم إلى يوم يَلْقَونَهُ بما أَخْلَفُوا اللهَ ما وعدوه وبما كانوا يكذبون».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَلَمْ يعلمْ هؤلاءِ المنافقونَ الذينَ يكفرونَ باللهِ ورسوله سِرًّا، ويُظْهِرُونَ الإيمانَ بهما لأهلِ الإيمانِ بهما جهراً. «أنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهم»، الـذي يُسِـرُّونـه في أنفسهم، من الكفـرِ به وبـرسـوله. «ونجواهم»، يقولُ: «ونجواهم»، إذا تَناجَوا بينهم بالطَّعْنِ في الإسلام وأهلِهِ، وذكرِهم بغيرِ ما ينبغي أن يُذْكَرُوا به، فَيَحْذَرُوا من اللهِ عقوبَتَهُ أنْ يُحِلَّها بهم، وسطوته أنْ يُوقِعَها بهم، على كُفْرِهم باللهِ وبرسولِه، وعَيْبِهم للإسلامِ وأهلِهِ، فينزعوا عن ذلك ويَتُوبوا منه. «وأَنَّ الله عَلَّامُ الغيوب»، يقولُ: أَلَمْ يَعْلَمُوا أنَّ اللهَ عَلَّامُ ما غابَ عن أسمـاعِ خَلْقِـه وأبصـارهم وحـواسِّهم، ممـا أَكَنَّتْـهُ نُفوسهم، فلم يَظْهَرْ على جوارِحِهم الظاهرة، فينهاهم ذلك عن خداعِ أوليائه بالنفاقِ والكذبِ، ويزجرهم عن إضمارِ غيرِ ما يُبْدُونَهُ، وإظهارِ خلافِ ما يعتقدونه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين يلمزون المُطَّوِّعينَ في الصدقةِ على أهلِ المَسْكَنةِ والحاجةِ بما لم يُوجِبهُ اللهُ عليهم في أموالهم، ويطعنونَ فيها عليهم بقولهم: «إنما تَصَدَّقُوا به رياءً وسُمْعة، ولم يريدوا وجهَ الله»، ويلمزون الذينَ لا يجدونَ ما يَتصدَّقُونَ به إلا جهدهم، وذلك طاقتهم، فينتقِصُونَهُمْ ويقولون: «لقد كانَ اللهُ عن صَدَقَةِ هؤلاءِ غنيًّا!»، سخريةً منهم بهم. «فيسخرونَ منهم سَخِرَ اللهُ منهم».

«ولهم عذاب أليم»، يقولُ: ولهم مِنْ عندِ الله يومَ القيامةِ عذابٌ موجعٌ مؤلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ادْعُ اللهَ لهؤلاءِ المنافقينَ، الذين وصفتُ صِفَاتِهم في هذه الآياتِ، بالمغفرةِ، أو لا تَدْعُ لَهُمْ بها.

وهذا كلامٌ خَرَجَ مخرجَ الأمر، وتأويله الخبر، ومعناهُ: إنِ استغفرت لهم، يا محمدُ، أو لَمْ تَسْتَغْفِرْ لهم، فَلَنْ يغفرَ اللهُ لهم.

وقوله: «إنْ تستغفرْ لهم سبعينَ مرة فَلَنْ يغفرَ اللهُ لهم»، يقولُ: إنْ تسأل لهم أن تُسْتَرَ عليهم ذُنُوبهم بالعفوِ منه لهم عنها، وترك فَضِيحَتِهم بها، فلن يَسْتُرَ

اللهُ عليهم، ولَنْ يعفوَ لهم عنها، ولكنه يَفْضَحُهم بها على رؤوسِ الأشهادِ يومَ القيامة. «ذلك بأنَّهم كَفرُوا باللهِ ورسوله»، يقول جَلَّ ثناؤه: هذا الفِعْلُ من اللهِ بهم، وهو تَركُ عَفْوِه لهم عن ذنوبِهم، من أجلِ أنهم جَحَدُوا توحيدَ الله ورسالَةَ رسولِه. «واللهُ لا يهدي القومَ الفاسقينَ»، يقولُ: والله لا يُوفِّقُ للإيمانِ به وبرسوله، مَنْ آثَرَ الكُفْرَ به والخروجَ عن طاعتِه، على الإيمانِ به وبرسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَرِحَ الذينَ خَلَّفَهُمْ اللهُ عن الغَزوِ مع رسولِه والمؤمنينَ به وجهاد أعدائِه «بمقعدِهم خِلافَ رسولِ الله»، يقولُ: بجلوسِهم في منازلهم. «خِلافَ رسولِ الله»، يقول: على الخِلافِ لرسولِ الله في جُلوسِه ومقعده. وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ أمَرَهُم بالنَّفْرِ إلى جهادِ أعداءِ الله، فخالفوا أمْرَهُ وجلسوا في منازلهم.

وقوله: «وكَرِهُوا أنْ يُجاهِدُوا بأموالهم وأنفسِهم في سبيلِ الله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكَرِهَ هؤلاءِ المُخَلَّفُونَ أنْ يَغْزُوا الكفارَ بأموالِهم وأنفسِهم. «في سبيلِ الله»، يعني: في دِينِ اللهِ الذي شَرَعَهُ لعبادِه لينصروه، وميلاً إلى الدعة والخَفْضِ، وإيثاراً للراحةِ على التعبِ والمشقةِ، وشحًّا بالمالِ أنْ ينفقوه في طاعةِ الله.

«وقالوا لا تنفروا في الحَرِّ»، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوةِ، وهي غزوةُ تبوك، في حَرٍّ شديد، فقال المنافقون بعضهم لبعضٍ: «لاتَنْفِرُوا في الحَرِّ»، فقال الله لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» لهم، يا محمدُ. «نارُ

جهنم»، التي أعَدَّهَا الله لمن خالفَ أمْرَهُ وعَصَى رسولَهُ. «أشد حرًّا»، من هذا الحرِّ الذي تتواصون بينكم أنْ لا تنفروا فيه. يقولُ: الذي هو أشدُّ حراً، أحرى أنْ يُحْذَرَ ويُتَّقى، مِنَ الذي هو أقلهما أذًى. «لو كانوا يفقهون»، يقول: لو كانَ هؤلاءِ المنافقونَ يَفْقَهُونَ عن اللهِ وَعْظَهُ، ويَتدبَّرونَ آيَ كِتابِه، ولكنَّهم لا يفقهونَ عن اللهِ، فهم يَحْذَرُونَ من الحرِّ أقلَّهُ مكروهاً وأخفَّه أذًى، ويواقِعُونَ أشدَّه مكروهاً، وأعْظَمَهُ على مَنْ يَصْلاَهُ بلاءً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَرِحَ هؤلاءِ المُخَلَّفُونَ بمقعدِهم خِلافَ رسولِ الله، فَلْيَضْحَكُوا فَرِحينَ قليلاً في هذه الدنيا الفانيةِ بمقعدِهم خِلافَ رسولِ الله، ولَهْوِهم عن طاعةِ رَبِّهم، فإنهم سيبكونَ طويلاً في جهنم مكانَ ضحكهم القليل في الدنيا. «جزاء»، يقولُ: ثواباً مِنَّا لهم على معصيتهم، بتركِهم النَّفْرَ إذ اسْتُنْفِرُوا إلى عَدُوِّهم، وقعودِهم في منازلهم خِلافَ رسولِ الله. «بما كانوا يكسبون»، يقولُ: بما كانوا يَجْتَرِحُونَ من الذنوب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فإنْ رَدَّكَ الله، يا محمدُ، إلى طائفةٍ من هؤلاءِ المنافقينَ من غزوتك هذه. «فاستأذنوكَ للخروج» معكَ في أخرى غيرِها، «فَقُلْ» لهم. «لَنْ تَخْرُجُوا معيَ أبداً ولَنْ تُقَاتِلُوا معي عدوًّا إنكم رَضِيتُمْ

بالقُعودِ أوَّلَ مرة»، وذلك عند خروجِ النبيِّ ﷺ إلى تبوك. «فاقعدوا مع الخَالِفينَ»، يقولُ: فاقعدوا مع الذين قَعَدُوا من المنافقينَ خِلافَ رسولِ الله ﷺ، لأنكم منهم، فاقْتَدُوا بِهَدْيِهِم، واعْمَلُوا مِثْلَ الذي عَمِلُوا من معصيةِ الله، فإنَّ الله قد سَخِطَ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨٤﴾

يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولا تُصَلِّ، يا محمدُ، على أحدٍ ماتَ من هؤلاءِ المنافقينَ الذين تَخَلَّفُوا عن الخروجِ معكَ أبداً. «ولا تَقُمْ على قَبْرِه»، يقولُ: ولا تَتولَّ دَفْنَهُ وتقبيره.

«إنهم كفروا بالله»، يقولُ: إنهم جَحَدُوا توحيدَ الله ورسالةَ رسوله ـ وماتوا وهم خارجونَ من الإسلامِ، مُفارِقُونَ أمرَ الله ونهيه.

وقد ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ حين صَلَّى النبي ﷺ على عبدالله بن أُبيّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولا تُعْجِبْكَ، يا محمدُ، أموالُ هؤلاءِ المنافقينَ وأولادُهم، فتُصَلِّيَ على أحَدِهم إذا ماتَ وتقومَ على قبره، من أجلِ كَثْرَةِ مالِه وولدِه، فإنِّي إنما أعطيتُه ما أعطيتُه من ذلك لأُعَذِّبَهُ بها في الدنيا بالغُمومِ والهُمومِ، بما أُلْزِمُهُ فيها من المؤنِ والنفقاتِ والزكواتِ، وبما يَنُوبُهُ فيها من الرَّزايا والمصيباتِ، «وتَزْهَقَ أنفسُهم»، يقولُ: وليموتَ فتخرجَ نَفْسُه من جَسَدِه، فيفارقَ ما أعطيتُه من المالِ والولدِ، فيكون ذلك حسرةً عليه عند موتِه،

ووبالاً عليه حينئذٍ، ووبالاً عليه في الآخرةِ، بموتهِ جاحداً توحيدَ الله، ونُبُوَّةَ نبيهِ محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا أُنْزِلَ عليكَ، يا محمدُ، سورةٌ من القرآنِ، بأنْ يُقالَ لهؤلاءِ المنافقينَ: «آمِنُوا بالله»، يقولُ: صَدِّقُوا بالله. «وجاهدوا مع رسوله»، يقولُ: اغْزُوا المشركينَ مع رسولِ الله ﷺ. «استأذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ منهم»، يقولُ: استأذنك ذَوُو الغِنَى والمالِ منهم في التَّخَلُّفِ عنكَ، والقعودِ في أهلِه. «وقالوا ذَرْنَا»، يقولُ: وقالوا لكَ: دَعْنَا، نَكُنْ مِمَّنْ يقعدُ في منزلِه مع ضُعفاءِ الناسِ ومَرْضَاهُمْ، ومَنْ لا يَقْدِرُ على الخروجِ معكَ في السفر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: رَضِيَ هؤلاءِ المنافقونَ ـ الذينَ إذا قِيلَ لهم: آمِنُوا بالله وجاهدوا مع رسولِه، استأذنكَ أهلُ الغِنى منهم في التخلُّفِ عن الغزوِ والخروجِ معكَ لقتالِ أعداءِ الله من المشركينَ ـ أنْ يكونوا في منازلِهم، كالنساءِ اللواتي ليسَ عليهنَّ فَرْضُ الجهاد، فَهُنَّ قعودٌ في منازلِهنَّ وبيوتِهنَّ.

«وطُبِعَ على قُلوبهم»، يقولُ: وخَتَمَ اللهُ على قلوبِ هؤلاءِ المنافقينَ. «فهم لا يفقهون»، عن اللهِ مواعِظَهُ، فَيَتَّعِظُونَ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يُجَاهِد المنافقونَ الذين اقْتَصَصْتُ قَصَصَهم المشركينَ، لكن الرسول محمد ﷺ، والذين صدقُوا الله ورسولَهُ معه، هُمُ الذين جَاهَدُوا المشركينَ بأموالِهم وأنفسِهم، فأنفقوا في جهادِهم أموالَهم، وأَتْعَبُوا في قتالهم أَنْفُسَهم وبَذَلُوها. «وأولئك»، يقولُ: وللرسولِ وللذينَ آمنوا معه، الذين جَاهَدُوا بأموالهم وأنفسهم. «الخيراتُ»، وهي خيراتُ الآخرةِ، وذلك: نِسَاؤُها، وجَنَّاتُها، ونَعِيمُهَا.

«وأولئكَ هم المفلحون»، يقولُ: وأولئكَ هُمُ المُخَلَّدُونَ في الجَنَّاتِ، البَاقُونَ فيها، الفائزونَ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أعَدَّ اللهُ لرسولِهِ محمدٍ ﷺ وللذينَ آمنوا معه «جناتٍ»، وهي البساتينُ، تجري من تحتِ أشجارِها الأنهارُ. «خالدينَ فيها»، يقول: لابثينَ فيها، لا يَمُوتُونَ فيها، ولا يَظْعَنُونَ عنها. «ذلك الفوزُ العظيم»، يقولُ: ذلكَ النجاءُ العظيم، والحَظُّ الجزيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وجاء»، رسولَ الله ﷺ «المُعَذِّرُونَ من الأعراب لِيُؤْذَنَ لهم»، في التَّخَلُّفِ. «وقَعَدَ»، عن المجيءِ إلى رسولِ الله ﷺ والجهادِ معه «الذين كَذَبُوا اللهَ ورسولَهُ»، وقالوا الكَذِبَ، واعْتَذَرُوا بالباطلِ منهم. يقول تعالى ذِكْرُه: سيُصِيبُ الذين جَحَدُوا توحيدَ الله ونبوةَ نبيهِ محمدٍ ﷺ، منهم عَذَابٌ أليم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ليس على أَهْلِ الزَّمَانةِ وأهلِ العَجْزِ عن السفر والغـزوِ، ولا على المَرْضَى، ولا على مَنْ لا يجدُ نفقةً يَتَبَلَّغُ بها إلى مَغْزاهُ «حَـرَجٌ» - وهو الإثمُ - يقولُ: ليسَ عليهم إثمٌ، إذا نَصَحُوا للهِ ولرسولِه في مَغِيبهم عن الجهادِ مع رسولِ الله ﷺ. «ما على المُحْسِنينَ من سبيل»، يقولُ: ليسَ على مَنْ أحْسَنَ فنصحَ للهِ ولرسولِه في تَخَلُّفِه عن رسولِ الله ﷺ عن الجهادِ معه، لِعُذْرٍ يُعْذَرُ به، طريقٌ يتطرَّقُ عليه فيعاقب من قِبَلِهِ. «والله غفورٌ رحيم»، يقولُ: والله سَاتِرٌ على ذُنوبِ المحسنينَ، يَتَغَمَّدُها بعفوِه لهم عنها. «رحيمٌ»، بهم، أنْ يُعاقِبَهُمْ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ۞

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ولا سبيلَ أيضاً على النفر الذينَ إذا ما جاءوك،

لِتَحْمِلَهُمْ. يسألونكَ الحُمْلانَ، لِيَبْلُغوا إلى مَغْزاهم لجهادِ أعداءِ الله معكَ، يا محمدُ، قُلْتَ لهم: لا أجِدُ حَمُولةً أَحْمِلُكُمْ عليها. «تَوَلَّوْا»، يقولُ: أَدْبَرُوا عنكَ، «وأعينُهم تَفِيضُ من الدَّمْعِ حَزَناً»، وهم يَبْكُونَ من حزنٍ على أنهم لا يَجِدُونَ ما يُنفِقونَ، ويَتَحَمَّلُونَ به للجهادِ في سبيل الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٩٣﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه: ما السبيلُ بالعقوبةِ على أهلِ العُذْرِ، يا محمدُ، ولكنها على الذين يستأذنونكَ في التَّخَلُّفِ خِلافَك، وتركِ الجهادِ معكَ، وهُمْ أهلُ غِنًى وقوّةٍ وطاقةٍ للجهادِ والغزوِ، نِفاقاً وشَكًّا في وَعْدِ الله ووعيده. «رَضُوا بأَنْ يكونوا مع الخوالفِ»، يقولُ: رَضُوا بأنْ يجلسوا بعدكَ مع النساء - وهُنَّ «الخوالف» -، خَلْفَ الرجالِ في البيوت، ويَتْرُكُوا الغزوَ معكَ، «وطَبَعَ الله على قلوبهم»، يقولُ: وخَتَمَ اللهُ على قلوبهم بما كَسَبُوا من الذنوبِ، «فهم لا يعلمون»، سُوءَ عاقبتهم، بِتَخَلُّفِهم عنكَ، وتركهم الجهادَ معكَ، وما عليهم من قبيحِ الثناءِ في الدنيا، وعظيمِ البلاءِ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يعتذرُ إليكم، أيها المؤمنونَ باللهِ، هؤلاءِ المُتَخَلِّفُونَ

خِلَافَ رسولِ الله ﷺ، التاركونَ جِهادَ المشركينَ معكم من المنافقينَ، بالأباطيلِ والكذبِ، إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم. «قُلْ»، لهم، يا محمدُ، «لا تَعْتَذِرُوا لن نُؤْمِنَ لكم»، يقولُ: لن نُصَدِّقَكُمْ على ما تقولون. «قد نَبَّأَنَا اللهُ من أخباركم»، يقولُ: قد أخبرنا الله من أخباركم، وأعْلَمَنَا من أمركم ما قَدْ عَلِمْنَا به كَذِبَكُمْ. «وسيرى اللهُ عَمَلَكُمْ ورسولُه»، يقولُ: وسيرى الله ورسولُه فيما بَعْدُ عَمَلَكُمْ، أَتَتُوبُونَ من نِفاقِكم، أَمْ تُقِيمُونَ عليه؟ «ثم تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغيبِ والشهادة»، يقولُ: ثم تُرْجَعُونَ بعد مماتِكم «إلى عالِمِ الغيب والشهادة، يعني الذي يَعْلَمُ السِرَّ والعلانيةَ الذي لا يَخْفَى عليه بواطنُ أمورِكم وظواهِرهَا. «فَيُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ تَعملون»، فَيُخْبِرُكُمْ بأعمالِكم كلها سَيِّئِها وحَسَنِهَا، فيجازيكم بها: الحَسَنَ منها بالحسنِ، والسيّء منها بالسيّء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سَيَحْلِفُ، أيها المؤمنونَ بالله، لَكُمْ هؤلاءِ المنافقونَ الذينَ فَرِحُوا بمقعدِهم خِلافَ رسولِ الله. «إذا انْقَلَبْتُمْ إليهم»، يعني: إذا انصرفتُمْ إليهم من غزوكم. «لِتُعْرِضُوا عنهم»، فلا تُؤَنِّبُوهُمْ. «فأعرِضُوا عنهم»، يقول جَلَّ ثناؤُه للمؤمنينَ: فَدَعُوا تأنِيبَهُمْ، وخَلُّوهُمْ وما اخْتَارُوا لأنفسِهم من الكُفْرِ والنفاقِ. «إنهم رِجْسٌ ومأواهم جهَنَّمُ»، يقولُ: إنهم نَجَسٌ.

«ومأواهُمْ جَهَنَّمُ»، يقولُ: ومَصِيرُهُم إلى جَهَنَّمَ، وهي مسكنهم الذي يأْوُونَهُ في الآخرةِ. «جَزَاءً بما كانوا يَكْسِبُونَ»، يقولُ: ثَواباً بأعمالِهم التي كانوا يعملونها في الدنيا من معاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يحلفُ لكم، أيها المؤمنونَ باللهِ، هؤلاءِ المنافقونَ، اعتذاراً بالباطلِ والكَذِبِ «لِتَرْضَوْا عنهم فإنْ تَرْضَوْا عنهم فإنَّ الله لا يَرْضَى عن القومِ الفاسقين»، يقولُ: فإنْ أنتم، أيها المؤمنونَ، رَضِيتُمْ عنهم وقَبِلْتُمْ مَعْذِرَتَهُمْ، إذْ كنتم لا تعلمونَ صِدْقهم من كَذِبِهم، فإنَّ رِضَاكم عنهم غيرُ نافِعهم عندَ الله، لأنَّ الله يعلمُ من سرائرِ أمْرِهم ما لا تَعلمونَ، ومن خَفِيِّ اعتقادِهم ما تَجْهلُونَ، وأنهم على الكفرِ بالله (مقيمون، وأنهم هم الفاسقون)[1]، يعني أنهم الخارجونَ من الإيمانِ إلى الكُفْرِ باللهِ، ومن الطاعةِ إلى المعصية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الأعرابُ أشدُّ جُحُوداً لتوحيدِ الله، وأشدُّ نِفاقاً، من أهلِ الحَضَرِ في القرى والأمصار. وإنما وَصَفَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بذلك، لجفائِهم، وقَسْوةِ قلوبهم، وقِلَّةِ مُشَاهَدَتِهم لأهلِ الخير، فهم لذلك أقسى قُلوباً، وأقلُّ عِلْماً بحقوق الله.

وقوله: «وأجْدَرُ أنْ لا يَعْلَمُوا حُدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ»، يقولُ: وأخْلَقُ أنْ لا يعلموا حُدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسوله، وذلك فيما قال قتادة: السُّنن.

---

(١) ما بين العضادتين إضافة منا بدل كلام سقط من المخطوط.

وقوله: «واللهُ عليم حكيم»، يقولُ: «والله عليم»، بِمَنْ يَعْلَمُ حُدودَ ما أنـزلَ على رسولِه، والمنافقِ من خَلْقِه، والكافرِ منهم، لا يَخْفَى عليه منهم أحَدٌ. «حكيمٌ»، في تدبيرِه إياهم، وفي حِلْمِه عن عِقَابِهم، مع عِلْمِه بسرائرِهم وخِداعِهم أولياءَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ومِنَ الأعرابِ مَنْ يَعُدُّ نَفَقَتَهُ التي يُنفقُها في جهاد مشرك، أو في معونة مسلم، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده. «مَغْرَماً»، يعني: غُرْماً لَزِمَهُ، لا يَرْجُو له ثواباً، ولا يدفعُ به عن نفسِه عقاباً. «ويَتَرَبَّصُ بكم الدوائرَ»، يقولُ: وينتظرونَ بكم الدوائرَ، أنْ تدورَ بها الأيامُ والليالي إلى مَكْروهٍ ومجيءِ مَحْبُوبٍ، وغَلَبَةِ عَدُوٍّ لكم. يقول الله تعالى ذِكْرُه: «عليهم دائرةُ السَّوْءِ»، يقولُ: جَعَلَ اللهُ دائرَةَ السَّوءِ عليهم، ونزولَ المكروهِ بهم، لا عليكم أيها المؤمنونَ، ولا بكم. «والله سميع»، لِدُعَاءِ الدَّاعِينَ. «عليمٌ» بتدبيرِهم، وما هُوَ بهم نازلٌ من عقابِ الله، وما لَهُمْ إليه صَائِرُونَ من أليمِ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنَ الأعرابِ مَنْ يُصدِّقُ اللهَ ويُقِرُّ بوحْدَانيَّتِه، وبالبعثِ بعد الموتِ، والثوابِ والعقابِ، وينوي ما ينفقُ من نفقةٍ في جهادِ المشركينَ،

وفي سَفَرِه مع رسولِ الله ﷺ «قُرُباتٍ عندَ اللهِ»، و«القُرُبات» جمع «قربة»، وهو ما قَرَّبَهُ من رِضَى اللهِ ومَحَبَّتِه. «وصلواتِ الرسول»، يعني بذلك: ويَبْتغي بنفقةِ ما يُنْفِقُ، مع طَلَبِ قربته من اللهِ، دُعَاءَ الرسولِ واستغفارَهُ له.

قال الله: «ألَا إنها قُرْبةٌ لهم»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ صلواتِ الرسولِ قربةٌ لهم من الله.

وقد يحتمل أنْ يكونَ معناه: ألَا إنَّ نفقتَهُ التي يُنْفِقُهَا كذلكَ، قربةٌ لهم عند الله. «سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ في رحْمتـه»، يقـولُ: سيدخلهم اللهُ فِيْمَنْ رَحِمَهُ فأدْخَلَهُ برحمتِه الجنةَ. «إنَّ الله غفورٌ»، لما اجْتَرَمُوا. «رحيمٌ»، بهم مع تَوْبَتِهم وإصلاحِهم أنْ يُعَذِّبَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذينَ سَبَقُوا الناسَ أولاً إلى الإيمانِ باللهِ ورسوله. «من المهاجرين»، الذين هَاجَرُوا قومَهُمْ وعشيرتَهُمْ، وفارقوا مَنَازِلهم وأوطانَهم. «والأنصـارِ»، الـذين نَصَرُوا رسولَ اللهِ ﷺ على أعدائِه من أهلِ الكُفْرِ باللهِ ورسولِه، «والذين اتَّبَعُوهُمْ بإحسانٍ»، يقولُ: والذين سَلَكُوا سبيلَهُمْ في الإيمانِ باللهِ ورسولِه، والهجرةِ من دارِ الحربِ إلى دارِ الإسلامِ، طَلَبَ رِضَى الله. «رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه».

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «والسابقونَ الأوَّلونَ».

فقال بعضهم: هُمُ الذين بَايَعُوا رسولَ الله ﷺ بيعةَ الرضوان، أو أدْرَكُوا.

وقال آخرون: بَلْ هُمُ الذين صَلُّوا القِبْلَتَيْنِ مع رسولِ الله ﷺ.

وأما الذين اتَّبَعُوا المهاجرينَ الأولينَ والأنصارِ بإحسانٍ، فَهُمْ الذينَ أسلموا لله إسلامَهم، وسَلَكُوا مِنْهَاجَهُمْ في الهِجْرةِ والنُّصْرَةِ وأعمالِ الخير.

ومعنى الكلام: رَضِيَ الله عن جميعِهم لِمَا أطاعوه، وأجَابُوا نبيَّهُ إلى ما دَعَاهُمْ إليه من أمْره ونهيه - ورضيَ عنه السابقونَ الأوَّلُونَ من المهاجرينَ والأنصارِ، والذينَ اتَّبَعُوهم بإحسانٍ، لِمَا أجزلَ لهم من الثوابِ على طاعتِهم إياهُ، وإيمانِهم به وبنبيِّهِ عليه السلام. «وأَعَدَّ لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهارُ»، يَدْخُلُونَها. «خالدينَ فيها»، لابثينَ فيها. «أبداً»، لا يموتونَ فيها ولا يخرجونَ منها. «ذلك الفوز العظيم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى ذِكْره: ومِنَ القومِ الذين حَوْلَ مدينَتِكُمْ من الأعرابِ مُنافقونَ، ومن أهلِ مدينتكم أيضاً أمثالُهُمْ أقوامٌ منافقون.

وقوله: «مَرَدُوا على النفاقِ»، يقولُ: مَرَنُوا عليه ودَرِبُوا به.

«لا تعلمهم»، يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تعلم، يا محمدُ، أنتَ هؤلاءِ المنافقينَ الذين وصفتُ لكَ صِفَتَهُمْ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ من الأعرابِ ومن أهلِ المدينةِ، ولكنا نحنُ نعلمهم.

وقوله: «سَنُعَذِّبُهُم مرَّتين»، يقولُ: سنعذبُ هؤلاءِ المنافقينَ مرتين، إحداهما في الدنيا، والأخرى في القبر.

ثم اختلف أهلُ التأويل في التي في الدنيا، ما هيَ؟

فقال بعضهم: هي فَضِيحَتُهم، فَضَحَهُم اللهُ بكشفِ أمورِهم، وتبيينِ سرائرِهم للناسِ على لسانِ رسولِه ﷺ.

وقال آخرون: ما يُصِيبُهُمْ من السَّبيِ والجوعِ والخوفِ في الدنيا

وقال آخرون: معنى ذلك: سنعذبهم عذاباً في الدنيا، وعذاباً في الآخرة.

وقال آخرون: كان عذابهم إحدى المرتين، مصائِبَهُمْ في أموالهم وأولادِهم، والمرة الأخرى في جهنم.

وقال آخرون: بل إحدى المرتين، الحُدُودُ، والأخرى عذابُ القبر.

وقال آخرون: بل إحدى المرتين، أَخْذُ الزكاةِ من أموالهم، والأخرى عذابُ القبر.

وقال آخرون: بل إحدى المرتين، عذابُهُم بما يدخلُ عليهم من الغَيْظِ في أمرِ الإسلام.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ عندي أنْ يُقالَ: إنَّ الله أخبر أنه يُعَذِّبُ هؤلاءِ الذينَ مَرَدُوا على النفاقِ مرتين، ولم يَضَعْ لنا دليلاً يوصِّلُ به إلى عِلْمِ صفةِ ذَيْنِكَ العذابينِ ـ وجائزٌ أنْ يكونَ بعضَ ما ذكرنَا عن القائلينَ ما أَنْبَئْنَا عنهم. وليس عندنا علمٌ بأيِّ ذلكَ من أيٍّ. غيرَ أنَّ في قولِه جَلَّ ثَنَاؤُهُ «ثم يُرَدُّونَ إلى عذابٍ عظيم»، دلالة على أنَّ العذابَ في المرَّتين كلتيهما قبلَ دُخولهم النارَ. والأغلبُ من إحدى المرتين أنها في القبرِ.

وقوله: «ثم يُرَدُّونَ إلى عذابٍ عظيم»، يقولُ: ثم يُرَدُّ هؤلاءِ المنافقونَ، بعدَ تعذيبِ اللهِ إياهم مرتين، إلى عذابٍ عظيم، وذلك عذابُ جهنمَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن أهلِ المدينةِ مُنافقون مَرَدُوا على النفاقِ، ومنهم «آخرونَ اعترفُوا بذنوبِهم»، يقولُ: أقَرُّوا بذنوبِهم. «خَلَطُوا عملاً صالحاً»، يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بالعمـلِ الصـالحِ الذي خَلَطُوه بالعملِ السـيءِ: اعترافهم بذنوبِهم، وتوبتهم منها، والآخرُ السيءُ: هو تَخَلُّفُهم عن رسولِ الله ﷺ، حينَ خرجَ غازياً، وتَرْكُهم الجهادَ مع المسلمينَ.

«عسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهم»، يقولُ: لَعَلَّ اللهَ أنْ يتوبَ عليهم - «وعسى» من اللهِ واجبٌ، وإنما معناه: سيتوبُ اللهُ عليهم، ولكنه في كلامِ العربِ على ما وَصَفت. «إنَّ اللهَ غَفُورٌ رحيم»، يقولُ: إنَّ الله ذُو صَفْحٍ وعفوٍ لمن تابَ عن ذنوبه، وساترٌ له عليها. «رحيمٌ»، به أنْ يُعَذِّبه بها.

وقد نزلت هذه الآيةُ في المعترفينَ بخطأ فِعْلِهم في تَخَلُّفِهم عن رسولِ الله ﷺ، وتركهم الجهادَ معه، والخروجَ لغزو الروم، حين شَخَصَ إلى تبوك - وأنَّ الذين نزلَ ذلك فيهم جماعةٌ، أحدهم أبو لبابة[1].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمدُ، خُذْ من أمولِ هؤلاءِ الذينَ اعترفُوا بذنُوبِهم فتابوا منها. «صَدَقةً تُطَهِّرُهُم»، من دَنَسِ ذُنوبهم. «وتُزَكِّيهم بها»، يقولُ: وتُنَمِّيهم وتَرْفَعُهم عن خَسيسِ منازلِ أهلِ النفاق بها، إلى منازلِ

(١) أبو لبابة بن عبدالمنذر الأنصاري، أحد النقباء الذين شهدوا العقبة.

أهلِ الإخلاص. «وصَلِّ عليهم»، يقولُ: وادْعُ لهم بالمغفرةِ لذنوبهم، واستغفرْ لهم منا. «إنَّ صلاتَكَ سَكَنٌ لهم»، يقولُ: إنَّ دُعاءَكَ واستغفارَكَ طمأنينةٌ لهم، بأنَّ اللهَ قد عَفَا عنهم وقَبِلَ توبَتَهم. «واللهُ سميعٌ عليم»، يقولُ: واللهُ سميعٌ لدعائِكَ إذا دعوتَ لهم، ولغيرِ ذلكَ من كلامِ خَلْقِه. «عليمٌ»، بما تَطْلُبُ لهم بدعائِكَ رَبَّكَ لهم. وبغيرِ ذلك من أمورِ عبادِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه، أخبرَ به المؤمنينَ به: أنَّ قَبُولَ توبةِ مَنْ تابَ من المنافقينَ، وأخذ الصدقة من أموالهم إذا أعطوها ليس الى نبيِّ الله ﷺ، وأنَّ نبيَّ الله حين أبى أنْ يُطْلِقَ مَنْ ربطَ نفسَهُ بالسواري من المُتَخلِّفينَ عن الغزوِ معه، وحين تَرَكَ قَبُولَ صَدَقَتِهم بعد أنْ أطلق الله عنهم حين أذِنَ له في ذلك. إنما فَعَلَ ذلك من أجلِ أنَّ ذلكَ لم يَكُنْ إليه ﷺ، وأنَّ ذلك إلى اللهِ تعالى ذِكْرُه دونَ محمدٍ، وأنَّ محمداً إنما يفعلُ ما يفعلُ من تَرْكٍ وإطلاقٍ وأخذِ صدقةٍ وغيرِ ذلك من أفعالِه، بأمرِ الله. فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ألم يَعْلَمْ هؤلاءِ المتخلِّفونَ عن الجهادِ مع المؤمنينَ، المُوثِقُو أنفسهم بالسواري، القائلونَ: «لا نُطْلِقُ أَنْفُسَنا حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يُطْلِقُنَا»، السَّائِلُو رسول الله ﷺ أخذَ صَدَقَةِ أموالهم، أنَّ ذلك ليسَ إلى محمدٍ، وأنَّ ذلكَ إلى اللهِ، وأنَّ اللهَ هُوَ الذي يقبلُ توبةَ مَنْ تابَ من عبادِه أو يردُّهَا، ويأخذ صدقةَ مَنْ تَصدَّقَ منهم أو يَرُدُّهَا عليه دونَ محمدٍ، فَيُوَجِّهُوا تَوْبَتَهم وصدقتهم إلى الله، ويَقْصِدُوا بذلك قَصْدَ وجه دونَ محمدٍ وغيره، ويُخْلِصُوا التوبةَ له، ويُريدُوه بِصَدَقَتِهم، ويَعْلَمُوا أنَّ الله هُوَ التوابُ الرحيم؟ ـ يقولُ: المراجِعُ لعبيدِه إلى

العفوِ عنهم إذا رَجعُوا إلى طاعَتِه، الرحيمُ بهم إذا هُمْ أنابُوا إلى رِضاهُ من عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٠٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وقُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ الذينَ اعترفُوا لك بذنوبهم من المتخلفينَ عن الجهادِ معكَ. «اعْمَلُوا» لله بما يُرْضِيه، من طاعتِه، وأداءِ فَرائضِه «فسيرى اللهُ عَمَلَكُمْ ورسولُه»، يقولُ: فسيرى اللهُ أحسن ما عمِلْتُمْ عَمَلَكُم، ويَراهُ رسولُه والمؤمنونَ، في الدنيا. «وسَتُرَدُّونَ»، يومَ القيامةِ، إلى مَنْ يعلمُ سَرائِركُم وعَلانِيتكُمْ، فلا يَخْفَى عليه شيءٌ من باطنِ أُمورِكم وظَواهِرِهَا. «فَيُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تَعْمَلُونَ»، يقولُ: فيخبركم بما كنتم تعملونَ، وما مِنْهُ خَالصاً، وما منه رِياءً، وما منه طاعةً، وما منه لله معصية، فيجازِيكُمْ على ذلك كُلِّه جزاءكم، المُحْسِنَ بإحسانِهِ، والمُسِيءَ بإساءتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن هؤلاءِ المُتَخَلِّفِينَ عنكم حين شَخَصْتُمْ لعدوِّكُم، أيها المؤمنونَ، آخَرُونَ.

«وآخَرون مُرْجَوْنَ»، يعني: مُرْجَئُونَ لأمرِ اللهِ وقَضائه.

يقال منه: «أَرْجَأْتُه أُرْجِئُه إرْجَاءً، وهو مُرْجَأٌ»، بالهمزِ وتَرْكِ الهمز، وهما لغتان معناهما واحد. وقد قرأتِ القَرَأَةُ بهما جميعاً.

وقيل: عُني بهؤلاءِ الآخرينَ، نَفرٌ مِمَّنْ كَانَ تَخلَّفَ عن رسولِ الله ﷺ في غزوةِ تبوك، فَندِمُوا على ما فَعلُوا، ولم يعتذروا إلى رسولِ الله ﷺ عند مَقْدمِه، ولم يُوثِقُوا أنْفُسَهُمْ بالسواري، فأرجأَ اللهُ أمْرَهُمْ إلى أنْ صَحَّتْ توبتُهم، فتابَ عليهم وعَفَا عنهم.

وأما قوله: «إمَّا يُعذِّبُهم»، فإنه يعني: إمَّا أن يَحْجزَهُمُ الله عن التوبةِ بخذلانِه، فيعذبهم بذنوبِهم التي مَاتُوا عليها في الآخرة. «وإما يتوبُ عليهم»، يقولُ: وإما يُوَفِّقُهم للتوبةِ فيتوبُوا من ذنوبِهم، فيغفر لهم. «واللهُ عليمٌ حكيم»، يقـولُ: والله ذُو عِلْمٍ بأمـرِهم وما هم صائرونَ إليه من التوبةِ والمقامِ على الذنب. «حكيمٌ»، في تدبيرِهم وتدبيرِ مَنْ سِواهم من خَلْقِه، لا يدخلُ حُكْمَهُ خَلَلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين ابْتَنَوْا مَسْجِداً ضِراراً، وهُمْ، فيما ذُكِرَ، اثنا عشر نفساً من الأنصار.

فتـأويلُ الكلام: والذين ابتنوا مسجداً ضراراً لمسجدِ رسولِ الله ﷺ، وكُفْراً باللهِ لِمُحَادَّتِهم بذلك رسولَ الله ﷺ، ويُفرِّقُوا به المؤمنينَ، لِيُصَلِّي فيه بعضُهم دونَ مسجدِ رسولِ الله ﷺ، وبعضهم في مسجدِ رسولِ الله ﷺ، فَيَخْتَلِفُـوا بسبب ذلك ويَفْتَرِقُوا. «وإرصاداً لِمَنْ حاربَ اللهَ ورسولَهُ من قَبْلُ»، يقولُ: وإعداداً له لأبي عامر الكافر، الذي خَالفَ اللهَ ورسولَهُ، وكَفَرَ بهما، وقاتلَ رسولَ الله «مِنْ قَبْلُ»، يعني من قَبْلِ بنائِهم ذلكَ المسجد. وذلك أنَّ أبا

عامر هو الذي كان حَزَّبَ الأحزابَ ـ يعني: حَزَّبَ الأحزابَ لقتالِ رسولِ الله ﷺ ـ فلما خذَلَهُ اللهُ، لَحِقَ بالرومِ يطلبُ النَّصْر من ملكهم على نبيِّ الله، وكَتَبَ إلى أهلِ مسجد الضِّرارِ يَأْمُرُهُمْ ببناءِ المسجدِ الذي كانوا بَنَوْهُ، فيما ذُكِرَ عنه، ليصلِّي فيه، فيما يزعمُ، إذا رَجَعَ إليهم. فَفَعَلُوا ذلك. وهذا معنى قولِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وإرصاداً لمن حاربَ الله ورسولَهُ من قبل».

«ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أردنا إلَّا الحُسْنَى»، يقول جَلَّ ثناؤه: وليحلفنَّ بَانُوهُ: «إنْ أرَدْنَا إلَّا الحسنى»، ببِنَائِنَاهُ، إلَّا الرِّفْقَ بالمسلمينَ، والمنفعةَ والتَّوْسِعَةَ على أهلِ الضَّعْفِ والعِلَّةِ ومَنْ عجزَ عن المصيرِ إلى مسجدِ رسولِ الله ﷺ للصلاةِ فيه، وتلك هي الفعلةُ الحسنةُ. «والله يَشْهَدُ إنهم لكاذبونَ»، في حَلْفِهم ذلكَ، وقِيلِهم: «ما بنيناه إلَّا ونحنُ نُريدُ الحسنى!»، ولكنهم بَنَوْهُ يُريدُونَ ببنائه السُّوآى، ضِراراً لمسجدِ رسولِ الله ﷺ، وكُفْراً بالله، وتَفْرِيقاً بينَ المؤمنينَ، وإرْصاداً لأبي عامر الفاسق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تَقُمْ، يا محمدُ، في المسجدِ الذي بَنَاهُ هؤلاءِ المنافقونَ، ضِراراً وتَفْرِيقاً بين المؤمنينَ، وإرصاداً لِمَنْ حاربَ الله ورسولَهُ. ثم أقسمَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، فقال: «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ أَحَقُّ أنْ تقوم»، أنتَ «فيه».

يعني بقوله: «أُسِّسَ على التقوى»، ابتُدِئَ أساسُه وأصلُه على تَقْوى اللهِ وطاعَتِه. «مِنْ أولِ يومٍ»، ابْتُدِئَ في بنائِه. «أَحَقُّ أنْ تقومَ فيه»، يقولُ: أوْلى أنْ تقومَ فيه مُصَلِّياً.

وقيل معنى قوله: «مِنْ أولِ يومٍ»، مبدأ أولِ يومٍ كما تقولُ العربُ: «لم أَرَهُ مِنْ يومِ كذا»، بمعنى: مَبْدَؤه، و«مِنْ أولِ يومٍ»، يُرادُ به: من أولِ الأيامِ، كقولِ القائلِ: «لَقِيْتُ كُلَّ رجلٍ»، بمعنى كُلَّ الرجال.

واختلف أهلُ التأويل في المسجد الذي عَناهُ بقوله: «لمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يوم».

فقال بعضهم: هو مسجدُ رسولِ الله ﷺ الذي فيه مِنْبَرُهُ وقَبْرَهُ اليومَ.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك مَسْجِدَ قُباء.

وأَوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: هو مسجدُ الرسولِ ﷺ، لصحةِ الخَبَرِ بذلك عن رسولِ الله[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: في حاضري المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ، رجالٌ يحبُّون أن ينظفوا مقاعدَهُمْ بالماءِ إذا أَتَوْا الغائط، والله يحبُّ المتطهِّرينَ بالماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾

(١) حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم (١٣٩٨) والترمذي (٣٠٩٩) وأحمد: ٣/٢٤، وحديث سهل بن سعد الساعدي عند أحمد: ٥/٣٣١.

(يعني): أيُّ هؤلاءِ الذينَ بنوا المساجدَ خَيْرٌ، أيها الناسُ، عِنْدَكُم: الذين ابتدأوا بناءَ مَسْجِدِهم على اتِّقاءِ الله، بطاعَتِهم في بنائِه، وأداءِ فَرَائِضِه ورضىً من اللهِ لبنائِهم ما بَنَوْهُ من ذلكَ، وفِعْلهم ما فَعَلُوه ـ خيرٌ، أَمِ الذين ابْتَدَأُوا بناءَ مَسْجِدِهم على شَفَا جُرفٍ هارٍ؟

وإنما هذا مَثَلٌ. يقول تعالى ذِكْرُه: أيُّ هذينِ الفريقينِ خَيْرٌ؟ وأيُّ هذين البناءين أَثْبَتُ؟ أمَن ابتدأَ أساسَ بنائِه على طاعةِ الله، وعِلْمٍ منه بأنَّ بناءَهُ لله طاعةٌ، واللهُ به رَاضٍ، أَمْ مَن ابتدأه بنفاقٍ وضَلالٍ، وعلى غيرِ بَصيرةٍ منه بصوابِ فِعْلِه من خَطَئِه، فهو لا يدري متى يتبينُ له خطأُ فِعْلِه وعظيمُ ذَنْبه، فيهدمه، كما يأتي البناءُ على جرف ركيَّةٍ لا حابسَ لماءِ السُّيُولِ عنها ولغيره من المياه، ثَرِيّةِ الترابِ متناثرة، لا تُلْبثُه السيولُ أنْ تَهْدِمَهُ وتنثره؟

يقـول الله جَلَّ ثَنـاؤُهُ: «فانهارَ به في نارِ جهنم»، يعني فانتثر الجُرفُ الهاري ببنائِه في نارِ جهنم.

قوله: «واللهُ لا يهدي القوم الظالمينَ»، يقولُ: والله لا يُوفِّقُ للرشادِ في أفعاله، مَنْ كان بانياً بناءَهُ في غيرِ حَقِّه وموضعِه، ومَنْ كان مُنَافِقاً مُخَالِفاً بِفِعْلِه أمرَ الله وأمرَ رسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: لا يزالُ بنيانُ هؤلاءِ الذين اتَّخذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وكُفْراً. «رِيبةً»، يقولُ: لا يزالُ مسجدُهم الذي بَنَوهُ «رِيبةً في قلوبهم»، يعني: شَكّاً ونِفَاقاً في قُلوبهم، يحسبونَ أنهم كانوا في بنائِه مُحْسنينَ، «إلَّا أنْ تَقَطَّعَ قُلوبُهم»، يعني: إلَّا أنْ تَتَصَدَّعَ قلوبهم فيموتُوا. «والله عليم»، بما عليه هؤلاءِ

المنافقونَ الذينَ بنوا مسجدَ الضرارِ، مِنْ شَكِّهم في دِينهم، وما قَصَدُوا في بنائِهِمُوهُ وأرادوه، وما إليه صائرٌ أمْرُهُمْ في الآخرةِ، وفي الحياةِ ما عاشوا، وبغيرِ ذلك من أمْرِهم وأمرِ غيرهم. «حكيمٌ»، في تدبيرِه إياهم، وتدبيرِ جميعِ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله ابتاعَ من المؤمنينَ أنْفُسَهُمْ وَأموالَهم بالجنةِ. «وَعْداً عليه حَقًّا» - يقولُ: وَعَدَهُمْ الجنةَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَعْداً عليه حقًّا أنْ يوفِّي لهم به، في كُتُبِه المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هُمْ وَفَوا بما عَاهَدُوا الله، فقاتلوا في سبيله ونُصْرةِ دِينه أعداءَه، فقَتَلوا وقُتِلوا. «ومَنْ أوفى بعهدِه من الله»، يقول جَلَّ ثناؤه: ومَنْ أحسنُ وفاءً بما ضَمِنَ وشَرَطَ من الله. «فاستبشروا»، يقولُ ذلك للمؤمنينَ: فاستبشروا أيها المؤمنونَ، الذينَ صَدَقُوا اللهَ فيما عَاهَدُوا، ببَيْعِكُمْ أنْفُسَكُمْ وأموالَكُمْ بالذي بِعْتُمُوهَا من رَبِّكم به، فإنَّ ذلك هو الفوزُ العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله اشترى من المؤمنينَ التائبينَ العابدينَ أَنْفُسَهُمْ وأموالهم - ولكنه رفع، إذْ كان مبتدأ به بعد تمامِ أخرى مثلها. والعربُ تفعلُ

ذلك، وقد تقدَّمَ بياننا ذلك في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]، بما أغنى عن إعادتِه في هذا الموضع.

ومعنى: «التائبون»، الراجِعُونَ مِمَّا كَرِهَهُ اللهُ وسَخِطَهُ إلى ما يُحبه ويرضاه.

وأما قوله: «العابدون» فهم الذين ذَلُّوا خشيةً للهِ وتَواضُعاً له، فَجَدُّوا في خِدْمَتِه.

وأما قوله: «الحامدونَ»، فإنهم الذين يَحْمدونَ الله على كُلِّ ما امْتَحَنَهُمْ به من خيرٍ وشر.

وأما قوله: «السائحونَ»، فإنهم الصائمون.

وقوله: «الراكعونَ الساجدونَ»، يعني المُصَلِّينَ، الراكعينَ في صلاتهم، الساجدينَ فيها.

وأما قوله: «الآمِرُونَ بالمعروفِ والنَّاهُونَ عن المُنْكَرِ»، فإنه يعني أنهم يأمرون الناسَ بالحَقِّ في أديانهم، واتباع الرُّشْدِ والهُدَى، والعمل ويَنْهَوْنَهُمْ عن المنكرِ، وذلك نَهيهم الناسَ عن كُلِّ فِعْلٍ وقولٍ نَهَى اللهُ عبادَه عنه.

وأما قوله: «والحافظونَ لحدودِ الله»، فإنه يعني: المُؤَدُّونَ فرائضَ الله، المُنْتَهُونَ إلى أمرِه ونهيِهِ، الذينَ لا يضيعون شيئاً ألزمهم العملَ به، ولا يَرْكَبُونَ شيئاً نَهَاهم عن ارتكابِه.

وأما قوله: «وبَشِّرِ المؤمنينَ»، فإنه يعني: وبَشِّر المُصَدِّقينَ بما وَعَدَهُمُ اللهُ إذا هُمْ وفَّوا اللهَ بعهدِه، أنه مُوفٍّ لهم بما وَعَدَهُمْ من إدْخَالِهم الجنةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن

﴿يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما كان ينبغي للنبيِّ محمدٍ ﷺ، والذين آمَنُوا به، «أنْ يَسْتَغْفِرُوا»، يقولُ: أنْ يَدْعُوا بالمغفرةِ للمشركينَ، ولو كانَ المشركونَ الذينَ يستغفرونَ لهم، «أُولي قُرْبَى»، ذوي قرابة لهم، «مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لهم أنهم أصحابُ الجحيم»، يقولُ: مِنْ بعدِ ما ماتُوا على شِرْكِهم باللهِ وعبادةِ الأوثانِ، وتبين لهم أنهم من أهلِ النار، لأنَّ الله قد قَضَى أنْ لا يغفرَ لمشركٍ، فلا ينبغي لهم أن يسألوا رَبَّهم أنْ يفعلَ ما قد عَلِمُوا أنه لا يفعله. فإنْ قالوا: فإنَّ إبراهيمَ قد استغفرَ لأبيهِ وهو مُشْرِكٌ؟ فلم يَكُنْ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلَّا لموعدةٍ وعَدَهَا إياهُ. فلما تَبَيَّنَ له وعَلِمَ أنه للهِ عَدُوٌّ، خلَّاهُ وتَركَهُ، وتَرَكَ الاستغفارَ له، وآثَرَ اللهَ وأمْرَهُ عليه، فَتَبَرَّأَ منه حينَ تَبَيَّنَ له أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

(يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله): «الأوّاه»، الدَّعَّاء[1]، لأنَّ اللهَ ذَكَرَ ذلك، ووصَفَ به إبراهيم خليلَهُ صلواتُ الله عليه، بعد وَصْفِه إيَّاهُ بالدعاءِ والاستغفارِ لأبيهِ فقال: «وما كانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلَّا عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إياهُ فلما تبينَ له أنه عَدُوٌّ لله تبرأ منه»، وتركَ الدعاءَ والاستغفارَ له. ثم قال: إنَّ إبراهيمَ لَدَعَّاءٌ لربه، شَاكٍ لَهُ، حَليمٌ عَمَّنْ سَبَّهُ ونالَهُ بالمكروهِ. وذلكَ أنه صلواتُ الله عليه وَعَدَ أباهُ بالاستغفار له، ودعاءَ اللهِ لَهُ بالمغفرةِ، عند وعيدِ أبيهِ إياهُ، وتهدُّدِهِ له بالشَّتْمِ، بَعْدَ ما رَدَّ عليه نَصِيحتَهُ في الله قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا

(١) الدَّعَّاءُ ـ بتشديد العين ـ: كثيرُ الدعاء.

إبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، فقالَ له صلواتُ الله عليه، ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بي حَفِيًّا* وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَنْ لاَ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾، [مريم: ٤٦-٤٨]. فَوَفَّى لأبيهِ بالاستغفارِ له، حتى تَبَيَّنَ له أنه عَدُوٌّ لله، فوصفه اللهُ بأنه دَعَّاءٌ لربِّه، حليمٌ عَمَّنْ سَفِهَ عليه.

وأصْلُه من «التَّأَوُّهِ»، وهو التَّضَرُّعُ والمسألةُ بالحزنِ والإشفاقِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما كانَ اللهُ ليقضي عليكم، في استغفارِكُم لموتَاكُم المشركينَ، بالضلالِ، بعد إذْ رَزَقَكُمْ الهدايةَ، وَوَفَّقَكُمْ للإيمانِ بهِ وبرسولِه، حتى يَتَقَدَّمَ إليكم بالنهي عنه، فتتركوا الانتهاءَ عنه. فأمَّا قَبْلَ أنْ يُبَيِّنَ لكم كراهيةَ ذلك بالنهيِ عنه، ثم تَتَعَدَّوْا نَهْيَهُ إلى ما نَهاكُمْ عنه، فإنه لا يحكمُ عليكم بالضلالِ، لأنَّ الطاعةَ والمعصيةَ إنما يكونانِ من المأمورِ والمنهيِّ، فأما مَنْ لم يُؤْمَرْ ولم يُنْهَ، فغيرُ كائنٍ مُطِيعاً أو عاصياً فيما لم يُؤْمَرْ به ولم يُنْهَ عنه. «إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله ذُو عِلْمٍ بما خالطَ أنفُسَكُمْ عندَ نَهْيِ اللهِ إياكم من الاستغفارِ لموتاكم المشركينَ، من الجزعِ على ما سَلَفَ منكم من الاستغفارِ لهم قَبْلَ تَقَدُّمِه إليكم بالنهيِ عنه، وبغيرِ ذلكَ من سرائرِ أمورِكم وأمورِ عبادِه وظواهِرِهَا، فبيَّنَ لكم حِلْمَهُ في ذلك عليكم، ليضعَ عنكم ثِقْلَ الوَجْدِ بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله، أيها الناسُ، له سلطانُ السموات والأرضِ ومُلْكُهُمَا، وكُلُّ مَنْ دُونَهُ من الملوكِ، فَعَبِيدُهُ ومماليكُهُ، بيدِهِ حَيَاتُهم وموتُهم، يُحْيِي مَنْ يشاءُ منهم، ويُمِيتُ مَنْ يشاء منهم. فلا تَجْزَعُوا، أيها المؤمنونَ، مِنْ قتالِ مَنْ كَفَرَ بي من الملوكِ، ملوك الروم كانوا أو ملوك فارس والحبشة، أو غيرهم، واغْزُوهُمْ وجَاهِدُوهم في طاعتي، فإني المُعِزُّ مَنْ أشاءُ منهم ومنكم، والمُذِلُّ مَنْ أشاء.

وهذا حَضٌّ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ المؤمنينَ على قتالِ كُلِّ مَنْ كَفَرَ به من المماليكِ، وإغراءٌ منه لهم بحَرْبِهم.

وقوله: «وما لكم من دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نصير»، يقولُ: وما لكم من أحدٍ هو لكم حَلِيفٌ من دونِ الله يُظَاهِرُكُمْ عليه، إنْ أنتم خَالفتُمْ أمْرَ الله فعاقَبَكُمْ على خِلافِكُمْ أمْرَهُ، يَسْتنقذكُمْ من عقابه. «ولا نصير»، يَنْصُركُمْ منه إنْ أرادَ بكم سُوءاً. يقولُ: فَبِالله فَثِقُوا، وإياهُ فارْهَبُوا، وجَاهِدُوا في سبيله مَنْ كَفَرَ به، فإنه قد اشترى منكم أَنْفُسَكُمْ وأموالَكُمْ بأنَّ لكم الجنة، تُقاتِلُونَ في سبيله فَتَقْتُلون وتُقْتَلون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد رَزَقَ اللهُ الإنابَةَ إلى أمرِه وطاعتِه، نبيَّه محمداً ﷺ، والمهاجرينَ دِيارَهُمْ وعشيرتَهم إلى دارِ الإسلام، وأنصار رسوله في الله - الذين اتَّبَعُوا رَسُولَ الله في ساعة العُسْرَةِ منهم من النفقة والظَّهْرِ والزَّادِ والماء. «مِنْ بعدِ ما كَادَ يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم». يقولُ: مِنْ بعدِ ما كادَ يميلُ قلوبُ

بعضِهم عن الحَقِّ، ويشكُّ في دِينه ويَرْتَاب، بالذي نَالَهُ من المَشَقَّةِ والشِدَّةِ في سَفَرِه وغَزْوِه. «ثم تابَ عليهم»، يقولُ: ثم رَزَقَهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ الإنابةَ والرُّجُوعَ إلى الثباتِ على دِينه، وإبصار الحَقِّ الذي كانَ قد كاد يلتبسُ عليهم. «إنَّهُ بهم رَؤُوفٌ رحيم»، يقولُ: إنَّ رَبَّكم بالذينَ خالطَ قُلوبَهُمْ ذلكَ لِمَا نَالَهُمْ في سَفرِهم من الشِدَّةِ والمشقةِ رؤوفٌ بهم. «رحيمٌ» أنْ يُهْلِكَهُم، فينزع منهم الإيمانَ، بعدما قد أَبْلَوْا في اللهِ ما أَبْلَوْا مع رسولِه، وصَبَرُوا عليه من البأساءِ والضراء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «لقد تابَ اللهُ على النبيِّ والمهاجرينَ والأنصار» ـ «وعلى الثلاثةِ الذين خُلِّفُوا»، وهؤلاءِ الثلاثةُ الذينَ وَصَفَهُمُ اللهُ في هذه الآيةِ بما وصفهم به فيما قِيلَ، هم الآخَرُونَ الذين قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ آللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَآللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦]، فتابَ عليهم عَزَّ ذِكْرُهُ، وتَفَضَّلَ عليهم. (وهم: كعبُ بن مالك الشاعر، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيعة، وكلهم من الأنصار)[١].

فتأويلُ الكلامِ إذاً: ولقد تابَ اللهُ على الثلاثةِ الذين خَلَّفَهُمُ اللهُ عن التوبةِ، فأرجأهم عَمَّنْ تابَ عليه مِمَّنْ تَخَلَّفَ عن رسولِ الله ﷺ.

«حتى إذا ضاقت عليهمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ»، يقولُ: بِسَعَتِهَا، غَمًّا ونَدَماً على تَخَلُّفِهم عن الجهادِ مع رسولِ الله ﷺ، «وضَاقَتْ عليهمْ أنفُسُهم»، بما

(١) ما بين القوسين إضافة من الآثار الكثيرة التي ذكرها الطبري فيما بَعْدُ، وضعناها ها هنا ليتصل الكلام.

نالهم من الوَجْدِ والكَرْبِ بذلك، «وظَنُّوا أنْ لا ملجأَ»، يقولُ: وأَيْقَنوا بقلوبِهم أنْ لا شيءَ لهم يلجأُونَ إليه مما نَزَلَ بهم من أمْرِ اللهِ من البلاءِ، بتَخَلُّفِهم خِلافَ رسولِ اللهِ ﷺ، يُنَجِّيهم من كَرْبِهِ، ولا مِمَّا يَحْذَرُونَ من عذابِ اللهِ، إلَّا اللهُ، ثم رَزَقَهُمْ الإنابةَ إلى طاعتِه، والرجوعَ إلى ما يُرضِيه عنهم، لِيُنِيبُوا إليه، ويرجعوا إلى طاعتِه والانتهاءِ إلى أمرِه ونهيه. «إنَّ اللهَ هُوَ التوابُ الرحيم»، يقولُ: إنَّ اللهَ هو الوَهَّابُ لعبادِه الإنابةَ إلى طاعتِه، الموفِّقُ مَنْ أحَبَّ توفيقه منهم لما يُرْضِيه عنه. «الرحيمُ»، بهم، أنْ يُعاقِبَهُمْ بعد التوبةِ، أو يخذلَ مَنْ أرادَ منهم التوبةَ والإنابةَ ولا يتوب عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه: للمؤمنينَ، مُعَرِّفَهُمْ سبيلَ النجاةِ من عقابِهِ، والخلاصِ من أليمِ عذابه: «يا أيها الذين آمنوا»، باللهِ ورسوله. «اتَّقُوا الله»، وراقِبُوهُ، بأداءِ فرائِضه، وتَجَنُّبِ حُدُودِه، «وكُونُوا»، في الدنيا، من أهلِ ولايةِ اللهِ وطاعتِه، تكونوا في الآخرة «مع الصادقينَ»، في الجنةِ. يعني: مَعَ مَنْ صَدَقَ اللهَ الإيمانَ به، فحقَّقَ قولَهُ بِفِعْلِهِ، ولم يكن من أهلِ النفاقِ فيه، الذينَ يُكَذِّبُ قِيلَهُمْ فِعْلُهُم.

وإنما معنى الكلام: وكُونُوا مع الصادقينَ في الآخرةِ باتقاءِ اللهِ في الدنيا، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٧٠].

وإنما قلنا: ذلك معنى الكلام، لأنَّ كَوْنَ المنافِقِ مع المؤمنينَ غيرُ نافِعِه بأيِّ وجوهِ الكَوْنِ كانَ مَعَهُمْ، إنْ لم يكنْ عاملاً عَمَلَهُمْ. وإذا عَمِلَ عَمَلَهُم فهو

مِنْهُمْ، وإذا كان منهم، كان وجْهُ الكلامِ أنْ يقالَ: «اتَّقُوا الله وكُونُوا مع الصادقين»، ولتوجيهِ الكلام إلى ما وَجَّهْنَا من تأويلِه، فَسَّرَ ذلكَ مَنْ فَسَّرَهُ من أهلِ التأويلِ بأنْ قال: معناه: وكُونُوا مع أبي بكرٍ وعمر، أو: معَ النبيِّ ﷺ والمهاجرينَ، رحمةُ الله عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لم يكن لأهلِ المدينةِ، مدينةِ رسولِ الله ﷺ. «ومَنْ حَوْلَهُمْ من الأعرابِ»، سُكَّان البوادي، الذين تَخلَّفُوا عن رسولِ الله ﷺ في غزوةِ تبوك، وهُمْ من أهلِ الإيمانِ به، أنْ يَتخَلَّفُوا في أهاليهم ولا دار لهم، ولا أنْ يَرْغَبُوا بأنفسِهم عن نفسِه في صُحْبَتِه في سَفَرِه والجهاد معه، ومعاونته على ما يُعَانِيه في غَزْوِه ذلك. يقولُ: إنه لم يكن لهم هذا. «بأنَّهُمْ»، من أجلِ أنهم، وبسببِ أنهم «لا يُصِيبُهُمْ»، في سفرهم إذا كانوا معه «ظَمَأٌ»، وهو العَطَشُ، «ولا نَصَبٌ»، يقولُ: ولا تَعَبٌ، «ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ الله»، يعني: ولا مجاعة في إقامةِ دِينِ اللهِ ونُصْرَتِه، وهَدْمِ مَنَار الكُفْرِ، «ولا يَطَأُونَ مَوْطِئاً»، يعني: أرضاً، يقولُ: ولا يطأون أرضاً. «يَغِيظُ الكُفَّارَ»، وَطْؤُهُمْ إياها، «ولا ينالون من عَدُوٍّ نيلاً»، يقولُ: ولا يُصِيبونَ من عَدُوِّ الله وعَدُوِّهم شيئاً في أموالهم وأنفسِهم وأولادهم - إلَّا كَتَبَ الله لهم بذلك كُلِّهِ، ثوابَ عَمَلٍ صالحٍ قد ارْتَضَاهُ. «إنَّ الله لا يُضِيعُ أجرَ المحسنينَ»، يقولُ: إنَّ الله لا يَدَعُ محسناً من

خَلْقِه أَحْسَنَ في عملِه فأطاعَهُ فيما أَمَرَهُ، وانتهى عما نهاه عنه، أنْ يُجازيه على إحسانِه، ويُثِيبه على صالحِ عَمَلِه. فلذلك كتبَ لمن فعلَ ذلك من أهلِ المدينةِ ومَنْ حَوْلَهُمْ من الأعرابِ ما ذكر في هذه الآية، الثوابَ على كُلِّ ما فعلَ، فلم يُضَيِّعْ له أجرَ فِعْلِه ذلك.

وقد اختلفَ أهلُ التأويلِ في حُكْمِ هذه الآية.

فقال بعضهم: هي مُحْكَمَةٌ، وإنما كان ذلك لرسولِ الله ﷺ خاصةً، لم يكن لأحدٍ أنْ يتخلَّفَ إذا غزا خِلافَهُ فيقعد عنه، إلا مَنْ كان ذا عُذْرٍ. فأما غيره من الأئمةِ والولاةِ، فإنَّ لِمَنْ شاءَ من المؤمنينَ أنْ يتخلَّفَ خِلافَهُ، إذا لم يكن بالمسلمينَ إليه ضرورةٌ.

وقال آخرون هذه الآية: نَزَلَتْ وفي أهلِ الإسلامِ قِلَّةٌ، فلما كَثُرُوا نَسَخَهَا اللهُ، وأباحَ التخلُّفَ لمن شاء فقال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

والصوابُ من القول في ذلك عندي: أنَّ اللهَ عَنَى بها الذينَ وَصَفَهم بقولِه: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٩٠]. ثم قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «ما كانَ لأهلِ المدينةِ»، الذين تَخَلَّفُوا عن رسولِ الله، ولا لِمَنْ حَوْلَهم من الأعراب الذين قَعَدُوا عن الجهادِ معه، أنْ يَتَخَلَّفُوا خِلافَهُ، ولا يَرْغَبُوا بأنفسِهم عن نفسِه. وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ كان نَدَبَ في غزوته تلك كُلَّ مَنْ أطاقَ النهوضَ معه إلى الشخوص، إلاَّ مَنْ أَذِنَ له، أو أَمَرَهُ بالمقامِ بعده. فلم يَكُنْ لمن قَدرَ على الشخوصِ التخلُّفُ. فَعَدَّدَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مَنْ تَخَلَّفَ منهم، فأظهرَ نِفاقَ مَنْ كان تَخَلُّفُه منهم نِفاقاً، وعُذْرَ مَنْ كان تَخَلُّفُه لعُذْرٍ، وتابَ على مَنْ كان تَخَلُّفُه تفريطاً من غيرِ شَكٍّ ولا ارتيابٍ في أمرِ الله، إذْ تابَ مِنْ خَطَأ ما كانَ منه من الفِعْلِ. فأما التَّخَلُّفُ عنه في حالِ استغنائه، فلم يكن

محظوراً، إذا لم يكن عن كراهةٍ منه ﷺ ذلك. وكذلك حُكْمُ المسلمينَ اليومَ إزاءَ إمامِهم. فليس بفرضٍ على جميعهم النهوضُ معه، إلا في حالِ حاجتِه إليهم، لِمَا لابُدَّ للإسلامِ وأهلِه من حُضورِهم واجتماعهم واستنهاضه إياهم، فيلزمهم حينئذٍ طاعته.

وإذا كانَ ذلك معنى الآية، لم تَكُنْ إحدى الآيتين اللتين ذكرنا ناسخةً للأخرى، إذْ لم تكن إحداهما نافيةً حُكْمَ الأخرى من كُلِّ وُجُوهِه، ولا جاءَ خَبَرٌ يُوجِّهُ الحُجَّةَ بأنَّ إحداهما ناسخةٌ للأخرى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ذلكَ بأنَّهُمْ لا يُصِيبُهم ظَمَأٌ»، وسائرُ ما ذكر، «ولا يَنالُونَ من عَدُوٍّ نيلاً»، «ولا ينفقونَ نَفَقَةً صغيرةً ولا كبيرةً»، في سبيلِ الله، «ولا يقطعون»، مع رسولِ الله في غَزْوِه «وادياً» إلا كُتِبَ لهم أجرُ عَمَلِهم ذلكَ، جزاءً لهم عليه، كأحسن ما يَجْزِيهم على أحسنِ أعمالِهم التي كانوا يعملونها وهم مُقِيمونَ في منازلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يَكُنْ المؤمنونَ لِيَنْفُروا جَميعاً.

ثم اختلفَ أهلُ التأويلِ في المعنى الذي عَنَاهُ اللهُ بهذه الآية، وما «النفر»، الذي كَرِهَهُ لجميعِ المؤمنين؟

وأوْلى الأقـوالِ في تأويلِ ذلـك بالصـوابِ أنْ يُقالَ: تأويلُه: وما كانَ المؤمنـونَ لينفـروا جميعـاً ويتركوا رسولَ الله وحده، وأنَّ الله نَهى بهذهِ الآية المؤمنينَ به أنْ يخرجوا في غزوٍ وجهادٍ وغير ذلك من أمورهم، ويَدَعُوا رسولَ الله ﷺ وحيداً. ولكن عليهم إذا سَرَّى رسولُ الله ﷺ سريةً، أنْ ينفرَ معها مِنْ كُلِّ قبيلةٍ من قبائلِ العرب ـ وهي الفرقة «طائفةٌ»، وذلك من الواحدِ إلى ما بَلَغَ من العددِ، كما قال الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة»، يقولُ: فَهلَّا نَفَرَ من كُلِّ فرقةٍ منهم طائفة؟

وإنما قلنا: هذا القولُ أوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه حظر التخلفَ خِلافَ رسولِ الله ﷺ على المؤمنينَ به من أهلِ المدينةِ مدينةِ الرسولِ ﷺ ومن الأعرابِ، لغيرِ عذرٍ يُعْذَرُونَ به، إذا خَرَجَ رسولُ الله لغزوٍ وجهادِ عدوٍّ قبل هذه الآية بقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْإِعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾، ثم عَقَّبَ ذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وما كان المؤمنونَ لينفرُوا كافةً»، فكان معلوماً بذلك ـ إذْ كانَ قد عَرَّفَهُمْ في الآيةِ التي قَبْلَها اللازمَ لهم من فَرْضِ النَّفْرِ، والمباحَ لهم من تَرْكِه في حالِ غزوِ رسـولِ الله ﷺ، وشُخُوصِه عن مدينتهِ لجهادِ عدوٍّ، وأعْلَمَهُمْ أنه لا يَسَعُهم التخلُّفُ خِلافه إلا لِعُذْرٍ، بعد استنهاضِه بعضَهم وتَخْلِيفهُ بعضَهم ـ أنْ يكونَ عَقِيبَ تعـريفِهم ذلـك، تعـريفُهم الواجبَ عليهم عند مقامِ رسولِ الله ﷺ بمـدينتـه، وإشخـاص غيرِه عنهـا، كمـا كانَ الابتداءُ بتعريفِهم الواجبَ عند شخوصِه وتخليفه بعضَهم.

وأما قوله: «ليتفَقَّهُوا في الدينِ وليُنْذِرُوا قومَهم إذا رَجَعُوا إليهم»، فإنَّ أوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: ليتفقه الطائفةُ النافرةُ بما تُعَاينُ من نَصْرِ الله أهلَ دِينِه وأصحابَ رسولِه، على أهلِ عداوتِه والكُفْرِ به، فيفقه بذلك من مُعاينته حقيقةَ علم أمرِ الإسلامِ وظهورِه على الأديان، مَنْ لم يكن فَقِهَهُ،

ولينـذروا قومَهم فَيُحَـذِّرُوهم أنْ ينزلَ بهم من بأسِ اللهِ مِثْل الذي نَزَلَ بمن شاهدوا وعاينوا مِمَّنْ ظفرَ بهم المسلمونَ من أهلِ الشرك - إذا هُمْ رَجَعُوا إليهم من غَزْوِهم - «لعلهم يحذرون»، يقولُ: لَعَلَّ قومهم، إذا هُمْ حَذَّرُوهم ما عَايَنُوا من ذلك، يَحْذَرُونَ فيؤمنونَ باللهِ وَرسوله، حَذَراً أنْ ينزلَ بهم ما نَزَلَ بالذين أُخْبِرُوا خَبَرَهم.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ بالصوابِ، لأن «النفر» قد بَيَّنا فيما مضى، أنه إذا كان مطلقاً بغير صلةٍ بشيءٍ، أنَّ الأغلبَ من استعمالِ العربِ إياه في الجهادِ والغزوِ. فإذا كان ذلكَ هو الأغلب من المعاني فيه، وكانَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قال: «فلولا نَفَـرَ من كُلِّ فرقةٍ منهم طائفـة ليتفقهـوا في الـدين»، علم أنَّ قوله: «ليتفقهوا»، إنما هو شَرْطٌ للنفر لا لغيرِه، إذْ كان يَلِيه دونَ غيرِه من الكلام.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: للمؤمنينَ به وبـرسوله: يا أيها الذينَ صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، قَاتِلُوا مَنْ وَلِيَكُمْ من الكفارِ دونَ مَنْ بَعُدَ منهم. يقول لهم: ابدأوا بقتـالِ الأقـربِ فالأقربِ إليكم داراً، دونَ الأبعدِ فالأبعدِ. وكان الذينَ يَلُونَ المخـاطبينَ بهذهِ الآيةِ يومئذٍ، الروم، لأنهم كانوا سكانَ الشأم يومئذٍ والشأمُ كانت أقربَ إلى المدينةِ من العراقِ. فأما بَعْدَ أنْ فتحَ اللهُ على المؤمنينَ البلادَ، فإنَّ الفَـرْضَ على أهلِ كُلِّ ناحية، قتالُ مَنْ وَلِيَهُمْ من الأعداءِ دونَ الأبعدِ منهم، ما لم يضطرّ إليهم أهل ناحيةٍ أُخرى من نواحي بلادِ الإسلامِ. فإنِ اضْطُرُّوا إليهم، لَزِمَهُمْ عَوْنُهم ونصرهم، لأنَّ المسلمينَ يَدٌ على مَنْ سِواهم.

ولِصِحَّـةِ كونِ ذلكَ كذلكَ، تأوَّلَ كُلُّ مَنْ تأوَّلَ هذه الآيةَ، أنَّ معناها إيجاب الفرضِ على أهلِ كُلِّ ناحيةٍ قتالَ مَنْ وَلِيَهُمْ من الأعداء.

وأما قوله: «ولْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً»، فإنَّ معناه: ولْيَجدْ هؤلاءِ الكفارُ الذينَ تُقَاتِلونهم «فيكم»، أي: منكم شِدَّةً عليهم، «واعلموا أنَّ الله مع المتقين»، يقول: وأيْقِنُوا، عندَ قِتالكم إياهم، أنَّ الله معكم، وهو نَاصِرُكُمْ عليهم، فإنِ اتَّقَيْتُم الله وخِفْتُمُوه بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصِيهِ، فإنَّ الله ناصِرُ مَنْ اتَّقَاهُ ومُعِينُهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا أنزلَ اللهُ سورةً من سورِ القرآن على نبيه محمدٍ ﷺ، فمن هؤلاءِ المنافقينَ الذين ذَكَرَهُمُ اللهُ في هذه السورةِ مَنْ يقول: أيها الناسُ، أيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه السورةُ إيماناً؟ يقولُ: تَصْدِيقاً باللهِ وبآياته. يقول الله: «فأمَّا الذين آمنوا»، من الذينَ قِيلَ لهم ذلك، «فزادتهم»، السورةُ التي أُنْزِلَتْ «إيماناً»، وهم يَفْرَحُونَ بما أعطاهم اللهُ من الإيمانِ واليقين.

فإنْ قال قائل: أَوَ لَيْسَ «الإيمانُ»، في كلامِ العربِ، التصديق والإقرار؟

قيل: بلى!

فإنْ قيل: فكيف زَادَتْهُم السورةُ تَصْدِيقاً وإقراراً؟

قيل: زادتهم إيماناً حين نَزَلَتْ، لأنهم قبلَ أنْ تنزلَ السورةُ لم يكن لَزِمَهُمْ فَرْضُ الإقرارِ بها والعملِ بها بعَيْنِهَا، إلاَّ في جملةِ إيمانِهم بأنَّ كُلَّ ما جاءهم به نَبِيُّهم ﷺ من عِنْدِ الله فَحَقٌّ. فلما أنزلَ اللهُ السورةَ لَزِمَهُم فَرْضُ الإقرارِ بأنها بعينها من عندِ الله، وَوَجَبَ عليهم فرضُ الإيمانِ بما فيها من أحكامِ الله

وحدودِه وفرائضِه، فكانَ ذلكَ هو الزيادةُ التي زَادَتْهُمْ نزول السورةِ حين نزلت من الإيمانِ والتصديقِ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأمَّا الذينَ في قُلوبهم مَرَضٌ»، نِفَاقٌ وشَكٌّ في دِينِ الله، فإنَّ السورةَ التي أُنْزِلَتْ «زَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهم»، وذلك أنهم شَكُّوا في أنها من عندِ الله، فلم يؤمنوا بها ولم يُصَدِّقُوا، فكانَ ذلك زيادة شكٍّ حادثةٍ في تنزيلِ الله، لَزِمَهُمْ الإيمانُ به عليهم، بل ارتابوا بذلك، فكان ذلك زيادة نَتْنٍ من أفعالِهم، إلى ما سَلَفَ منهم نظيره من النَّتْنِ والنفاق. وذلك معنى قوله: «فزادتهم رِجْساً إلى رجسهم»، «وماتوا»، يعني: هؤلاءِ المنافقينَ أنهم هَلَكُوا، «وهم كافرون»، يعني: وهم كافرونَ باللهِ وآياته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾

تأويل الكلام: أَوَ لا يَرَى هؤلاءِ المنافقونَ أنَّ الله يَخْتَبِرُهُمْ في كُلِّ عامٍ مرةً أو مرتين، بمعنى أنه يختبرهم في بعضِ الأعوامِ مرةً، وفي بعضِها مرتين، «ثم لا يتوبون»، يقولُ: ثم هُمْ مع البلاءِ الذي يحلُّ بهم من الله، والاختبارِ الذي يَعْرِضُ لهم، لا يُنِيبُونَ من نِفاقِهم، ولا يَتُوبُونَ من كُفْرِهم، ولا هُمْ يَتَذَكَّرُونَ بما يَرَوْنَ من حُجَجِ الله ويُعَايِنُونَ من آياتِه، فَيَتَّعِظُوا بها، ولكنهم مُصِرُّونَ على نفاقِهم؟

واختلف أهلُ التأويلِ في معنى «الفتنة» التي ذكر الله في هذا الموضع أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ يُفْتَنُونَ بها.

فقال بعضهم: ذلك اختبارُ الله إيَّاهُمْ بالقَحْطِ والشِدَّة.

وقال آخرون: بل معناه: أنهم يُختبرونَ بالغزوِ والجهادِ.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحةِ أنْ يُقالَ: إنَّ الله عَجَّبَ عِبادَهُ المؤمنينَ من هؤلاءِ المنافقينَ، ووبَّخَ المنافقينَ في أنفسهم بقلَّةِ تَذَكُّرِهم، وسَوءِ تَنَبُّهِهِمْ لمواعظِ الله التي يَعظُهُمْ بها. وجائزٌ أنْ تكونَ تلك المواعظُ الشدائدَ التي يُنْزِلُهَا بهم من الجوعِ والقحطِ ـ وجائزٌ أنْ تكونَ ما يريهم من نصرة رسوله على أهل الكفر به ويرزقُهُ من اظهار كلمته على كلمتهم ـ وجائز أن تكون ما يظهر للمسلمين من نِفاقِهم وخُبْثِ سرائـرهم، برُكُونِهم إلى ما يَسمعونَ من أراجيفِ المشركينَ برسولِ الله ﷺ وأصحـابـهِ ـ ولا خبـرَ يُوجِبُ صِحَّةَ بعضٍ ذلـك دونَ بعضٍ، من الـوجـه الـذي يَجبُ التسليمُ له. ولا قولَ في ذلك أوْلى بالصوابِ من التسليمِ لظاهرِ قولِ الله وهو: أَوَ لَا يَرَوْنَ أنهم يُخْتَبَرُونَ في كُلِّ عامٍ مرةً أو مرتين، بما يكونُ زاجراً لهم، ثم لا يَنْزَجِرُونَ ولا يَتَّعِظُونَ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإذا ما أُنزلَتْ سورةٌ»، من القرآنِ فيها عيبُ هؤلاءِ المنافقينَ الذين وَصَفَ جَلَّ ثَناؤُهُ صِفَتَهُم في هذه السورةِ، وهُمْ عندَ رسولِ الله ﷺ. «نَـظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ»، فتناظروا. «هل يَرَاكُمْ من أحدٍ»، إنْ تَكَلَّمْتُمْ أو تناجيتم بمعايبِ القومِ يخبرهم به، ثم قاموا فانصرفوا من عندِ رسولِ

الله ﷺ، ولم يَسْتَمِعُوا قراءةَ السورةِ التي فيها مَعَايبهم. ثم ابتدأ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قولَهُ: «صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُم»، فقال: صَرَفَ اللهُ عن الخيرِ والتوفيقِ والإِيمانِ باللهِ ورسولهِ قُلوبَ هؤلاءِ المنافقينَ. «ذلكَ بأنَّهُمْ قومٌ لا يفقهون»، يقول: فَعَلَ اللهُ بهم هذا الخذلانَ، وصَرَفَ قلوبهم عن الخيراتِ، مِنْ أجلِ أنهم قومٌ لا يفقهونَ عن الله مواعِظَهُ، استكباراً، ونفاقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للعرب: لقد جاءكم، أيها القومُ، رسولُ الله إليكم. «من أنفُسِكُمْ»، تَعْرِفُونَهُ، لا مِنْ غيركم فَتَتَّهِمُوه على أنفسِكم في النصيحة لكم. «عَـزيزٌ عليهِ ما عَنِتُّم» أي: عزيز عليه عنتكم وهـو دخـول المشقـةِ عليهم والمكـروهِ والأذى. «حـريصٌ عليكم»، يقـولُ: حريصٌ على هُدَى ضُلَّالِكُمْ وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق. «بالمؤمنينَ رؤوفٌ»، أي: رفيقٌ «رحيم».

وأما قوله: «عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: ما ضَلَلْتُمْ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: عزيزٌ عليه عَنَتُ مُؤْمِنِكُمْ.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب، القولُ الأول، وذلك أنَّ الله عَمَّ بالخبرِ عن نبيِّ الله أنه عزيزٌ عليه ما عَنَتَ قَوْمَهُ، ولم يخصص أهلَ الإيمانِ به. فكانَ ﷺ كما جاءَ الخبرُ من اللهِ به، عزيزٌ عليه عَنَتُ جَمْعِهم.

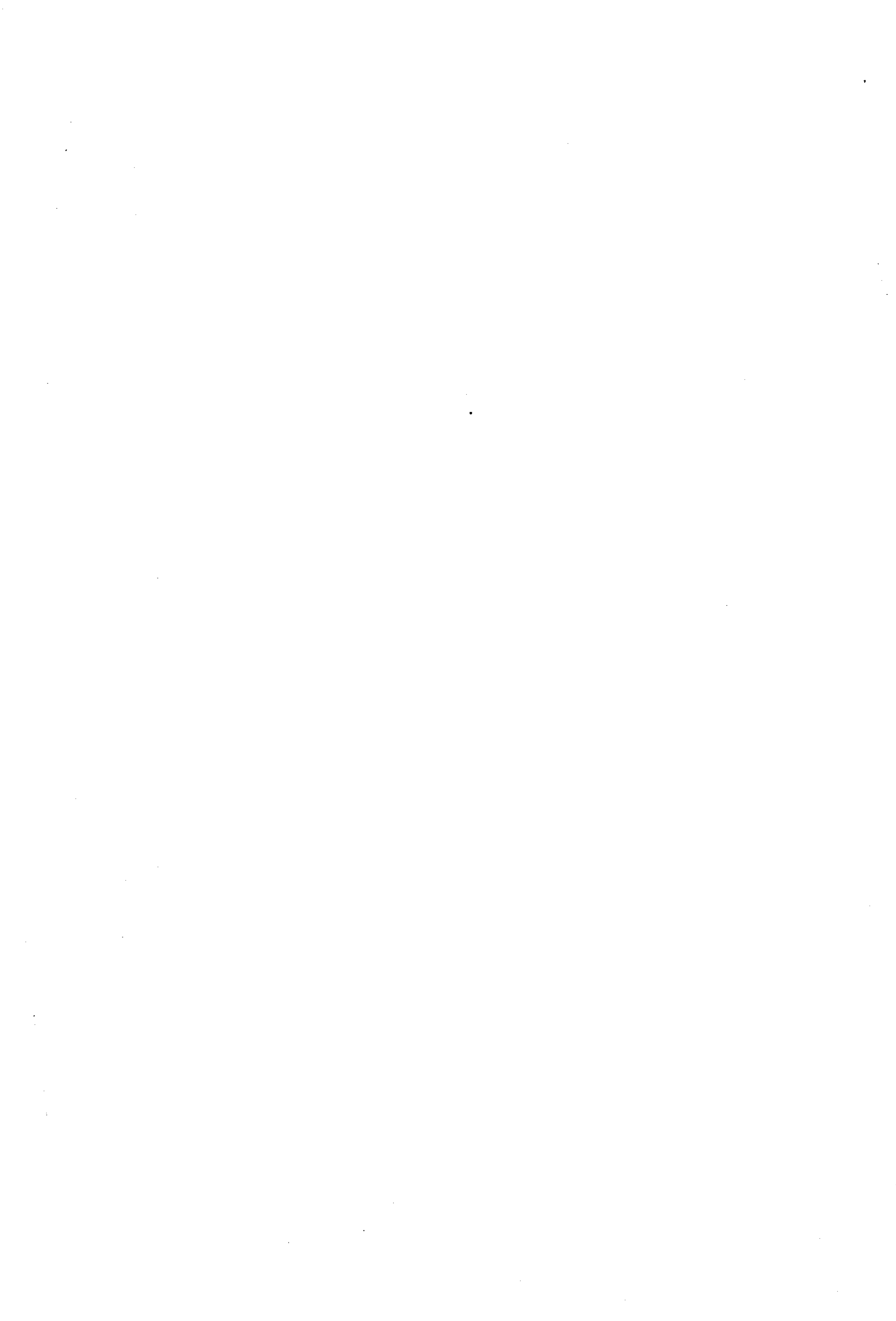
فإنْ قال قائلٌ: وكيف يجوزُ أنْ يُوصَفَ ﷺ بأنه كان عزيزاً عليه عَنَتُ جميعِهم، وهو يقتلُ كُفَّارَهم، ويَسْبي ذَرَارِيهُمْ، ويَسْلبهم أموالَهم؟

قيل: إنَّ إسلامَهم، لو كانوا أسلموا، كان أَحَبَّ إليه من إقامَتِهم على كُفْرِهم وتكذيبهم إياهُ، حتى يَسْتَحِقُّوا ذلكَ من الله وإنما وَصَفَهُ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بأنه عزيزٌ عليه عَنَتُهم، لأنه كانَ عزيزاً عليه أنْ يأتوا ما يُعْنِتُهم، وذلك أن يَضِلُّوا فيستوجبوا العَنَتَ من الله بالقتلِ والسبي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ تَوَلَّى، يا محمدُ، هؤلاءِ الذينَ جِئْتَهم بالحقِّ من عند رَبِّكَ من قومكَ، فأدْبَرُوا عنكَ ولم يَقْبَلُوا ما أَتَيْتَهُمْ به من النصيحةِ في الله، وما دَعَوْتَهُمْ إليه من النُّورِ والهدى. «فَقُلْ حَسْبِيَ الله»، يَكْفِيني ربي. «لا إلهَ إلا هُوَ»، لا معبودَ سِوَاهُ. «عليه توكلتُ»، وبه وَثِقتُ، وعلى عَوْنِهِ اتَّكَلْتُ، وإليه وإلى نَصْرِهِ استندتُ، فإنه نَاصري ومُعِيني على مَنْ خالفني وتولَّى عني منكم ومن غيركم من الناس. «وهو رَبُّ العرشِ العظيم»، الذي يملكُ كُلَّ ما دونَهُ، والملوكُ كُلّهم مماليكُه وعبيده.

وإنما عنى بوصْفِه جَلَّ ثَنَاؤُهُ نفسَهُ بأنه «رَبُّ العرشِ العظيم»، الخبرَ عن جميعِ ما دُونَهُ أنهم عبيدُه، وفي مُلْكِه وسُلْطَانِه، لأنَّ «العرش العظيم»، إنما كان يكـون للملوكِ، فَوَصَفَ نفسَـهُ بأنه «ذُو العرش» دونَ سائرِ خَلْقِه، وأنه الملكُ العظيمُ دونَ غيرِه، وأنَّ مَنْ دُونَهُ في سلطانه ومُلْكِهِ، جارٍ عليه حُكْمُه وقضاؤه.



تفسير سورة يونس



بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الٓر

اختلفَ أهلُ التأويل في ذلك:

فقال بعضهم تأويله: أنا الله أرَى.

وقال آخرون: هي حروفٌ من اسمِ الله الذي هو «الرحمن».

وقال آخرون: هي اسمٌ من أسماء القرآن.

وقد ذكرنا اختلافَ الناس، وما إليه ذَهَبَ كُلُّ قائلٍ في الذي قال فيه، وما الصوابُ لدينا من القولِ في ذلك في نظيره، وذلك في أول «سورة البقرة»، فأغنى ذلك عن إعادتهِ في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

(يعني): «هـذه آياتُ القرآن»، ووجَّهَ معنى «تلك» إلى معنى «هذه»، و«الآياتُ»، الأعلامُ - و«الكتابُ»، اسمٌ من أسماءِ القرآن.

ومعنى «الحكيم»، في هذا الموضع، «المُحْكَمُ»، صرف «مُفْعَل» إلى «فعيل»، كما قيل: «عذاب أليم»، بمعنى مؤلم.

فمعناه إذاً: تلك آياتُ الكتاب المُحْكَم، الذي أحكمه الله وبَيَّنَهُ لعبادِهِ، كما قال جَلَّ ثناؤهُ: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أكان عَجَباً للناسِ إيحاؤُنا القرآنَ على رجلٍ منهم، بإنذارِهم عِقابَ الله على معاصيه، كأنهم لم يعلموا أنَّ الله قَدْ أوحى مِنْ قَبْلِه إلى مِثْلِه من البشرِ، فتعجَّبوا من وَحْيِنَا إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: أما كان عَجَباً للناسِ أنْ أوحينا إلى رجلٍ منهم: أنْ أَنْذِرِ الناسَ، وأنْ بَشِّرِ الذين آمنوا بالله ورسوله: «أنَّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ»، عَطْفٌ على «أنذر».

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «قدم صدق».

فقال بعضهم: معناه: أنَّ لهم أجراً حسناً بما قَدَّمُوا من صالحِ الأعمال.

وقال آخرون: معناه: أنَّ لهم سابقَ صِدْقٍ في اللوحِ المحفوظ، من السعادة.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنَّ محمداً ﷺ شفيعٌ لهم، قَدَمَ صدق.

وأَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: معناه: أنَّ لهم أعمالاً صالحةً عند الله، يستوجبون بها منه الثوابَ.

وذلك أنه مَحْكِيٌّ عن العرب: «هؤلاءِ أَهْلُ القَدَم في الإسلام»، أي: هؤلاء الـذين قَدَّمُوا فيه خيْراً، فكان لهم فيه تقديم. ويقال: «له عندي قَدَمُ

صِدْقٍ، وقَدَمُ سوء»، وذلك ما قدَّم إليه من خير أو شر.

فتأويلُ الكلام إذاً: وبَشِّرِ الذين آمنوا أنَّ لهم تَقْدِمةَ خيرٍ من الأعمالِ الصالحةِ عند ربِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

تأويلُ الكلام: أكان للناس عَجَباً أنْ أوحينا إلى رجلٍ منهم: أنْ أنذرِ الناسَ، وبَشِّرِ الذين آمنوا أنَّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ عند ربهم؟ فلما أتاهم بوحي الله وَتَلاهُ عليهم، قال المُنْكِرُونَ توحيدَ الله ورسالةَ رسولِه: إنَّ هذا الذي جاءنا به محمدٌ لَسِحْرٌ[1] مُبين: أي: يبينُ لكم عنه أنه مُبْطِلٌ فيما يَدَّعيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ ربكم الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ، ولا تنبغي العبادةُ إلا له، هو الذي خلقَ السمواتِ السبع والأرضينَ السبع في ستةِ أيامٍ، وانفرد بِخَلْقِهما بغيرِ شريكٍ ولا ظَهيرٍ، ثم استوى على عرشه مُدَبِّراً للأمور، وقاضياً في خَلْقِه ما أحبَّ، لا يضادُّه في قضائه أحدٌ، ولا يتعقبُ تدبيره مُتَعَقِّبٌ، ولا يدخل أمورَهُ خَلَلٌ. «ما مِنْ شفيعٍ إلا من بعدِ إذنه»، يقول: لا يشفعُ عنده شافعٌ يومَ القيامة في أحدٍ، إلَّا من بعد أنْ يأذَنَ في الشفاعة. «ذَلِكُمُ الله

(١) لأن الساحر يأتي بالسحر، ولذلك قرأها بعضهم «لَسِحْرٌ مُبين».

رَبُّكم»، يقول جَلَّ جلاله: هذا الذي هذه صِفَتُه، سيِّدُكم ومَوْلَاكُم، لا مَنْ لايسمعُ ولا يُبْصِرُ ولا يدبِّرُ ولا يقضي من الآلهة والأوثان. «فاعبدوه»، يقول: فاعبـدوا رَبَّكم الـذي هذه صفتـه، وأخلصـوا له العبـادةَ، وأفردوا له الألوهةَ والربوبيةَ، بالذِلَّةِ منكم له، دونَ أوثانِكم وسائرِ ما تُشركون معه في العبادة. «أفلا تَذَكَّرُون»، يقول: أفلا تَتَّعِظُونَ وتَعتبرونَ بهذه الآياتِ والحججِ، فَتُنِيبُونَ إلى الإذعانِ بتوحيدِ ربكم وإفرادِهِ بالعبادة، وتخلعونَ الأندادَ وتبرأون منها؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إلى رَبِّكُم الذي صفته ما وصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ في الآية قبل هذه، معادُكم، أيها الناسُ، يومَ القيامة جميعاً. «وعد الله حقًّا» فأخرجَ «وعد الله» مصدراً من قوله: «إليه مرجعكم»، لأنه فيه معنى «الوعد»، ومعناه: يَعِدُكُمُ الله أنْ يُحْيِيكم بعد مَمَاتِكم وَعْداً حقًّا، فلذلك نَصَبَ «وعدَ الله حقًّا». «إنَّهُ يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعيده»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إن رَبَّكم يبدأُ إنشاءَ الخلق وإحداثَهُ وإيجاده. «ثم يعيده»، يقول: ثم يُعِيدُه فيوجده حيًّا كهيئته يومَ ابتدأَهُ، بعد فنائهِ وبَلَائه.

وقوله: «ليجزيَ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ بالقسط»، يقول: ثم يعيده من بعـد مماتهِ كهيئتِهِ قبلَ مماتهِ عند بَعْثِه من قبره. «ليجزيَ الذين آمنوا»، يقول: لِيُثِيبَ مَنْ صَدَّقَ الله ورسولَهُ، وعملوا ما أمرهم الله به من الأعمالِ، واجتنبوا ما نهاهم عنه، على أعمالهم الحَسَنةِ. «بالقسطِ»، يقول: ليجزيهم على الحَسَنِ من أعمالهم التي عَمِلُوها في الدنيا الحَسَنَ من الثواب، والصالحَ

من الجزاءِ في الآخرة ـ وذلك هو «القِسط»، و«القسط»، العدلُ والإنصاف.

وقوله: «والذين كفروا لهم شَرَابٌ من حميم»، فإنه جَلَّ ثناؤُهُ ابتدأ الخبرَ عما أَعَدَّ الله للذين كفروا من العذاب، وفيه معنى العطفِ على الأول. لأنه تعالى ذِكْرُهُ عَمَّ بالخبر عن معادِ جميعِهم، كُفَّارِهم ومؤمنيهم، إليه. ثم أخبر أنَّ إعادَتهم ليجزيَ كُلَّ فريقٍ بما عملَ، المحسنَ منهم بالإحسانِ، والمسيءَ بالإساءةِ. ولكن لما كان قد تَقَدَّمَ الخبرُ المستأنَفُ عما أعدَّ للذين كفروا من العـذاب، ما يدلُّ سامـعَ ذلك على المرادِ، ابتدأ الخبرَ، والمعنيُّ العطفُ، فقال: والذين جَحَدُوا الله ورسولَهُ وكَذَّبوا بآيات الله «لهم شراب» في جهنم «من حميم»، وذلك شرابٌ قد أُغْلِيَ واشتدَّ حَرُّهُ، حتى إنه فيما ذُكِرَ عن النبي ﷺ ليتسـاقطُ من أحـدِهم حين يدنيه منـه فروةُ رأسِه[1]، وكما وصفه جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقـولـه: «عـذاب أليم»، يقـول: ولهم مع ذلك عذابٌ مُوجع، سوى الشرابِ من الحميم، بما كانوا يكفرونَ بالله ورسولِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ ربكم الله الذي خلق السمواتِ والأرض. «هو الذي جعل الشمسَ ضياء»، بالنهار، «والقمرَ نُوراً»، بالليل. ومعنى ذلك: هو

(١) يشير إلى حديث أبي سعيد الخدري بهذا المعنى، وهو من رواية درّاج أبي السمح عن أبي الهيثم عنه، وهو إسناد ضعيف أخرجه المؤلف وابن ماجة (٧٤٧٣)، والحاكم ٥٠١/٢، والبيهقي (٥٥٠)، والترمذي (٢٥٨١) و(٣٣٢٢) وغيرهم. وفي الباب عن أبي أُمامة عند الترمذي (٢٥٨٣)، وأحمد: ٥/٢٦٥، ونعيم بن حماد في زوائد الزهد (٣١٤) ولا يثبت أيضاً.

الذي أضاءَ الشمسَ وأنارَ القمرَ، «وقَدَّرَهُ منازلَ»، يقول: قَضاهُ فَسوَّاهُ منازلَ، لا يجاوزها ولا يَقْصُرُ دُونَها، على حالٍ واحدةٍ أبداً.

وقوله: «لتعلموا عَدَدَ السنينَ والحِساب»، يقول: وقَدَّرَ ذلك منازلَ «لتعلموا»، أنتم أيها الناسُ «عَدَدَ السنين»، دخولَ ما يدخلُ منها، أو انقضاءَ ما يُسْتَقْبَلُ منها، وحسابها، يقول: وحسابَ أوقاتِ السنين، وعددَ أيامها، وحسابَ ساعاتِ أيامها. «ما خَلَقَ الله ذلك إلا بالحق»، يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ: لم يخلق الله الشمسَ والقمر ومنازلهما إلا بالحق. يقول الحق تعالى ذِكْرُهُ: خَلَقْتُ ذلك كُلَّهُ بحقٍّ وحدي، بغيرِ عونٍ ولا شريك. «يُفَصِّلُ الآياتِ»، يقول: يُبَيِّنُ الحجج والأدلة. «لقومٍ يعلمون»، إذا تدبروها، حقيقةَ وحدانية الله، وصحةَ ما يَدْعُوهم إليه محمدٌ ﷺ، من خَلْعِ الأندادِ، والبراءةِ من الأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مُنَبِّهاً عبادَهُ على موضع الدَّلالةِ على ربوبيته، وأنه خالقُ كُلِّ ما دونه: إنَّ في اعتقابِ الليلِ النهارَ، واعتقابِ النهار الليلَ، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وفيما خَلَقَ الله في السموات من الشمسِ والقمرِ والنجوم، وفي الأرضِ من عجائبِ الخَلْقِ الدالةِ على أنَّ لها صانعاً ليس كمثله شيءٌ. «لآياتٍ»، يقول: لأَدِلَّةً وحُجَجاً وأعلاماً واضحةً. «لقومٍ يتقون» الله، فيخافونَ وعيدَهُ، ويخشونَ عِقابَهُ على إخلاصِ العبادةِ لربهم.

فإن قالَ قائلٌ: أوَ لا دلالة فيما خَلَقَ الله في السموات والأرض على صانعه إلا لمن اتقى الله؟

قيل: في ذلك الدلالةُ الواضحةُ على صانعه لِكُلِّ مَنْ صحَّت فِطْرته، وبَرِئَ من العاهاتِ قَلْبُه، ولم يقصد بذلك الخبرَ عن أنَّ فيه الدلالةَ لمن كان قد أشعرَ نَفْسَهُ تقوى الله، وإنما معناه: إن في ذلك لآياتٍ لمن اتَّقى عقابَ الله، فلم يحمله هواه على خلاف ما وضحَ له من الحَقِّ، لأنَّ ذلك يدلُّ كُلَّ ذي فطرةٍ صحيحةٍ على أنَّ له مدبِّراً يستحقُّ عليه الإذعان له بالعبودةِ، دونَ ما سواه من الآلهةِ والأنداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الذين لا يخافون لقاءَنا يومَ القيامة، فهم لذلك مُكَذِّبُون بالثوابِ والعقابِ، متنافسونَ في زَيْنِ الدنيا وزخارفها، راضُون بها عِوَضاً من الآخرة، مطمئنينَ إليها ساكنينَ ـ والذين هُمْ عن آياتِ الله ـ وهي أدِلَّته على وحدانيتهِ، وحُجَجه على عبادِه، في إخلاصِ العبادةِ له. «غافلون»، مُعْرِضُونَ عنها لاهُونَ، لا يتأمَّلونها تأمُّلَ ناصحٍ لنفسه، فيعلموا بها حقيقةَ ما دلَّتهم عليه، ويعرفوا بها بُطُولَ ما هُمْ عليه مقيمون. «أولئك مأواهُم النار»، يقول: جَلَّ ثناؤُهُ: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم. «مأواهم»، مصيرهم إلى النار نارِ جهنم في الآخرة. «بما كانوا يكسبون»، في الدنيا من الآثامِ والأجْرام، ويجْترحون من السيئات.

والعربُ تقول: «فلانٌ لا يرجو فلاناً»، إذا كان لا يخافه، ومنه قولُ الله جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، إنَّ الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، «وعملوا الصالحات»، وذلك العمل بطاعةِ الله والانتهاء إلى أمره. «يَهْدِيهم رَبُّهم بإيمانِهم»، يقول: يُرْشِدُهُم رَبُّهم بإيمانِهم به، إلى الجنة.

وقوله: «تجري من تهتهم الأنهار»، يقول: تجري من تحتِ هؤلاء المؤمنين الذين وصفَ جَلَّ ثناؤُهُ صفتهم، أنهارُ الجنة. «في جنات النعيم»، يقول: في بساتين النعيم، الذي نعَّم الله به أهلَ طاعتِهِ والإيمانِ به.

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف قيل: «تجري من تحتهم الأنهار»، وإنما وصف جَلَّ ثناؤُهُ أنهارَ الجنةِ في سائرِ القرآن أنها تجري تحتَ الجنات؟ وكيف يمكن الأنهار أنْ تجري من تحتهم. إلا أنْ يكونوا فوقَ أرضها والأنهارُ تجري من تحت أرضها؟ وليس ذلك من صفةِ أنهارِ الجنة، لأنَّ صفتها أنها تجري على وجه الأرض في غير أخاديد؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلافِ ما إليه ذهبتَ، وإنما معنى ذلك: تجري من دونهم الأنهارُ إلى ما بين أيديهم في بساتين النَّعيم، وذلك نظير قولِ الله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. ومعلوم أنه لم يجعل «السَّري» تحتها وهي عليه قاعدة إذ كان «السري»، هو الجدولُ، وإنما عَنَى به: جعلَ دونَها بين يديها، وكما قال جَلَّ ثناؤُهُ مخبراً عن قيل فرعون، ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنُهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، بمعنى: من دوني، بين يديّ.

وأمـا قوله: «دَعْوَاهُمْ فيها سُبْحَانَكَ اللهم»، فإنَّ معناه: دعاؤهم فيها: سبحانك اللهم.

وأما قوله: «سبحانك اللهم»، فإنَّ معناه: تنزيهاً لك، يا رب، مما أضافَ إليكَ أهلُ الشركِ بكَ، من الكذبِ عليكَ والفِرْية.

«وتَحِيَّتُهم»، يقـول: وتحيةُ بعضِهم بعضـاً «فيها سلام»، أي: سَلِمْتَ وأمِنْتَ مما ابتُلِيَ به أهلُ النارِ.

وقـولـه: «وآخـر دعـواهم»، يقـول: وآخرُ دُعَائِهم «أنِ الحمدُ لله رَبِّ العالمين»، يقول: وآخرُ دعائهم أن يقولوا: «الحمدُ لله رَبِّ العالمين»، ولذلك خففت «أن»، ولم تشددّ، لأنه أُريدَ بها الحكاية.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو يُعَجِّلُ الله للناسِ إجابةَ دُعائِهم في الشرِّ، وذلك فيما عليهم مضرّة في نفسٍ أو مال. «استعجالَهُمْ بالخيرِ»، يقول: كاستعجالِه لهم في الخير بالإجابةِ إذا دَعَوْهُ به. «لَقُضِيَ إليهم أجَلُهم»، يقول: لَهَلَكُوا، وعُجِّلَ لهم الموتُ، وهو «الأجل».

«فنذر الذين لا يرجون لقاءنا»، يقول: فَنَدَعُ الذين لا يخافونَ عقابنا، ولا يُوقِنـونَ بالبعثِ ولا بالنشور «في طغيانهم»، يقول: في تَمَرُّدِهم وعُتُوِّهم «يعمهون»، يعني: يترددون.

وإنمـا أخبـر جَلَّ ثنـاؤُهُ عن هؤلاءِ الكَفَرةِ بالبعثِ بما أخبر به عنهم، من

طغيانهم وترددهم فيه عند تعجيلِه إجابةَ دعائهم في الشرِّ لو استجاب لهم، أن ذلك كان يدعوهم إلى التقرُّبِ إلى الوثنِ الذي يُشْرِكُ به أحَدُهم، أو يضيفُ ذلك إلى أنه من فِعْلِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا أصابَ الإنسانَ الشِدَّة والجهد «دَعَانا لجنبه»، يقول: استغاثَ بنا في كَشْفِ ذلك عنه. «لجنبه»، يعني: مُضْطجِعاً لجنبه، «أو قاعداً أو قائماً»، بالحالِ التي يكونُ بها عند نزولِ ذلك الضُرِّ به. «فلما كشفنا عنه ضُرَّهُ»، يقول: فلما فَرَّجْنَا عنه الجهدَ الذي أصابه، «مَرَّ كأنْ لم يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ»، يقول: استمرَّ على طريقتِه الأولى قبل أنْ يصيبه الضر، ونسيَ ما كانَ فيه من الجهدِ والبلاءِ أو تناساه، وتركَ الشُّكْرَ لربهِ الذي فَرَّجَ عنه ما كانَ قد نزلَ به، من البلاءِ حين استعاذَ به، وعاد للشرك ودَعوى الآلهةِ والأوثانِ أرباباً معه. يقول تعالى ذِكْرُهُ: «كذلك زُيِّنَ للمسرفينَ ما كانوا يعملون»، يقول: كما زُيِّنَ لهذا الإنسان الذي وصفنا صِفَتَهُ، استمرارَهُ على كُفْرِه بعد كشفِ الله عنه ما كانَ فيه من الضُرِّ، كذلك زُيِّنَ للذين أسرفوا في الكَذِبِ على الله وعلى أنبيائه، فتجاوزوا في القول فيهم إلى غيرِ ما أذن الله لهم به، ما كانوا يعملون من معاصي الله والشرك به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أهلكنا الأمَمَ التي كذبت رُسُلَ الله من قبلكم، أيها المشركونَ بربهم. «لَمَّا ظَلَمُوا»، يقول: لما أَشْرَكُوا وخالفوا أمرَ الله ونهيه. «وجاءتهم رُسُلهم»، من عندِ الله. «بالبينات»، وهي الآياتُ والحججُ التي تُبينُ عن صِدْق مَنْ جاء بها. ومعنى الكلام: وجاءتهم رُسُلهم بالآياتِ البينات أنها حَقٌّ. «وما كانوا ليؤمنوا»، يقول: فلم تَكُنْ هذه الأممُ التي أهلكناها ليؤمنوا برسلهم ويُصَدِّقُوهم إلى ما دَعَوْهُمْ إليه من توحيدِ الله وإخلاصِ العبادةِ له. «وكذلك نجزي القومَ المجرمين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما أهلكنا هذه القرونَ من قبلكم، أيها المشركونَ، بظُلْمِهم أنفسَهم، وتكذيبهم رُسُلَهم، وردِّهم نصيحتَهم، كذلكَ أفعلُ بكم فأُهْلِكُكُمْ كما أهلكتُهم بتكذيبكم رسولكم محمداً ﷺ، وظُلْمِكُم أنفسَكُمْ بِشِرْكِكُمْ بربكم، إنْ أنتم لم تُنِيبُوا وتتوبوا إلى الله من شرككم، فإنَّ من ثوابِ الكافرِ بي على كفره عندي، أنْ أُهْلِكَهُ بسَخَطي في الدنيا، وأوردهُ النار في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم جعلناكم، أيها الناسُ، خلائفَ من بعد هؤلاءِ القرونِ الذين أهلكناهم لما ظَلَمُوا، تَخْلُفُونَهم في الأرضِ، وتكونونَ فيها بَعْدَهُم. «لِنَنْظُرَ كيفَ تعملون»، يقول: لينظرَ ربُّكم أين عَمَلُكُم من عملِ مَنْ هلك من قبلكم من الأممِ بذنوبهم وكفرهم بربهم، تَحْتَذُونَ مِثالَهم فيه، فتستحقونَ من العقابِ ما استحقوا، أمْ تخالفون سبيلَهم فتؤمنونَ بالله ورسولِه وتقِرُّونَ بالبعثِ بعد المماتِ، فتستحقون من رَبِّكُم الثوابَ الجزيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا قُرِئَ على هؤلاءِ المشركينَ آياتُ كتابِ الله الذي أنزلناهَ إليكَ، يا محمد. «بيِّناتٍ»، واضحاتٍ، على الحق دالَّاتٍ. «قال الذين لا يرجـون لقاءنا»، يقول: قال الذين لا يخافونَ عِقَابَنا، ولا يُوْقِنُونَ بالمَعَادِ إلينا، ولا يُصَدِّقُونَ بالبعث، لكَ. «ٱئْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْهُ»، يقول: أو غَيِّره. «قُلْ» لهم، يا محمد. «ما يكونُ لي أنْ أبدله من تلقاء نفسي»، أي: من عندي.

والتبـديلُ الذي سألوه، فيما ذكر، أن يُحَوِّلَ آيةَ الوعيدِ آيةَ وَعْدٍ، وآيةَ الوعد وعيداً، والحرامَ حلالاً، والحلالَ حراماً. فأمر الله نبيَّه ﷺ أن يخبرهم أنَّ ذلكَ ليس إليه، وأنَّ ذلك إلى مَنْ لا يُرَدُّ حُكْمُه، ولا يُتَعقَّبُ قضاؤه، وإنما هو رسولٌ مُبَلِّغٌ ومأمور مُتَّبع.

وقوله: «إنْ أَتَّبِعُ إلا ما يُوحى إليّ»، يقول: قُلْ لهم: ما أتبع في كل ما آمركم به، أيها القومُ، وأنهاكم عنه، إلا ما يُنْزِلُه إليَّ ربي، ويأمرني به. «إني أخـافُ إنْ عصيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيم»، يقول: إني أخشى من الله إنْ خالفتُ أمره، وغيَّرتُ أحكامَ كتابِه، وبَدَّلْتُ وَحيه، فعصيته بذلك، عذابَ يومٍ عظيمٍ هَوْلُه، وذلك: يومَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعةٍ عما أرضعت وتَضعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترى الناسَ سُكارَى وما هُمْ بسكارى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه، مُعَرِّفَهُ الحجةَ على هؤلاءِ المشركين الذين قالوا له: «ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْهُ». «قُلْ» لهم، يا محمدُ. «لو شاءَ الله ما تَلَوْتُه عليكم»، أي: ما تلوتُ هذا القرآنَ عليكم، أيها الناسُ، بأن كان لا ينزله عليَّ فيأمرني بتلاوتهِ عليكم، «ولا أَدْرَاكُمْ به»، يقول: ولا أَعْلَمَكُمْ به «فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله»، يقول: فقد مكثتُ فيكم أربعينَ سنة من قبلِ أنْ أتلوَهُ عليكم، ومن قبل أنْ يُوحِيه إليَّ ربي. «أفلا تعقلون»، أني لو كنتُ مُنْتَحِلاً ما ليسَ لي من القولِ، كنتُ قد انتحلته في أيّامِ شبابي وحَداثتي، وقبلَ الوقتِ الذي تَلَوْتُه عليكم؟ فقد كان لي اليوم، لو لم يُوحَ إليَّ وأُوْمَر بتلاوتهِ عليكم، مندوحةٌ عن مُعَادَاتِكم، ومُتَّسَعٌ، في الحال التي كنتُ بها منكم قبل أنْ يُوحَى إليَّ وأُومَر بتلاوتهِ عليكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قل لهؤلاء المشركينَ الذين نسبوكَ فيما جئتهم به من عند ربِّكَ إلى الكذبِ: أيُّ خَلْقٍ أشَدُّ تعدِّياً، وأوضع لقِيلِه في غير موضِعِه، مِمَّن اختلقَ على الله كذباً، وافترى عليه باطلاً. «أو كَذَّبَ بآياتهِ»، يعني: بِحُجَجِه ورُسُلِه وآياتِ كتابه؟ يقول له جَلَّ ثناؤُهُ: قل لهم: ليس الـذي أضفتمـوني إليه بأعجبَ من كَذِبكُم على رَبِّكم، وافتـرائكم عليه، وتكذيبكم بآياته. «إنه لايفلح المجرمون»، يقول: إنه لا ينجحُ الذين اجترموا الكُفْرَ في الدنيا يومَ القيامة، إذا لَقُوا رَبَّهُم، ولا ينالونَ الفلاحَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا

يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويعبُد هؤلاءِ المشركونَ الذينَ وصفتُ لكَ، يا محمدُ صِفَتَهم، من دونِ الله الذي لا يضرهم شيئاً ولا ينفعهم، في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك هو الآلهةُ والأصنامُ التي كانوا يعبدونها. «ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله»، يعني: أنهم كانوا يعبدونها رجاءَ شَفَاعتها عندَ الله. قال الله لنبيه محمدٍ ﷺ. «قل» لهم. «أتُنَبِّئُونَ الله بما لا يعلمُ في السموات ولا في الأرض»، يقول: أتُخبرون الله بما لا يكونُ في السمواتِ ولا في الأرض؟ وذلكَ أنَّ الآلهةَ لا تشفعُ لهم عند الله في السمواتِ ولا في الأرض. وكان المشركون يزعمونَ أنها تشفعُ لهم عند الله، فقال الله لنبيه ﷺ: قُلْ لهم: أتخبرون الله أنَّ ما لايشفعُ في السموات ولا في الأرض يشفعُ لكم فيها؟ وذلكَ باطلٌ لا تعلم حقيقته وصحته، بل يعلمُ الله أنَّ ذلك خلاف ما تقولونَ، وأنها لا تشفعُ لأحدٍ، ولا تنفعُ ولا تضر. «سُبْحَانَهُ وتعالى عما يُشْرِكُون»، يقول: تنزيهاً لله وعلوًّا عما يفعلُه هؤلاءِ المشركون، من إشراكِهم في عبادته ما لايَضُرُّ ولا ينفع، وافترائِهم عليه الكذب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما كان الناسُ إلا أهلَ دينٍ واحدٍ وملةٍ واحدة، فاختلفوا في دينهم، فافترقت بهم السُّبُلُ في ذلك. «ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ من ربك»، يقول: ولولا أنه سَبَقَ من الله أنه لايهلكُ قوماً إلا بعد انقضاءِ آجالِهم. «لَقُضِيَ بينهم فيما فيه يختلفون»، يقول: لقضيَ بينهم بأنْ يُهْلِكَ أهلَ الباطلِ منهم، ويُنَجِّي أهلَ الحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويقول هؤلاء المشركون: هَلاَّ أُنْزِلَ على محمدٍ آيةٌ من ربه، يقول: عَلَمٌ ودليلٌ نعلمُ به أنَّ محمداً مُحِقٌّ فيما يقول؟ قال الله له: «فقل»، يا محمدُ، «إنما الغيبُ لله»، أي: لا يُعْلَمُ أحدٌ يفعلُ ذلك إلا هُوَ جَلَّ ثناؤُهُ، لأنه لا يَعْلَمُ الغيبَ - وهو السرُّ والخفيُّ من الأمور إلا الله. فانتظروا، أيها القومُ، قضاءَ الله بيننا، بتعجيلِ عقوبتِهِ للمُبْطِلِ منا، وإظهارِهِ المُحِقَّ عليه، إني معكم مِمَّنْ ينتظرُ ذلك. ففعل جَلَّ ثناؤُهُ، فقضى بينهم وبينه بأنْ قتلهم يومَ بَدْرٍ بالسيف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا رزقنا المشركينَ بالله فَرَجاً بعد كَرْبٍ، ورخاءً بعد شدَّةٍ أصابتهم.

وقيل: عَنَى به المطرَ بعد القحطِ، و«الضراء»، هي الشدة، و«الرحمة»، هي الفَرَج. يقول: «إذا لَهُمْ مَكْرٌ في آياتنا»، استهزاءٌ وتكذيبٌ.

وقوله: «قُل الله أسرعُ مكراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قل»، لهؤلاءِ المشركينَ المستهزئين من حُجَجِنا وأدِلَّتِنا، يا محمدُ «الله أسرعُ مكراً»، أي: أسرعُ مِحَالاً بكم، واستدراجاً لكم وعقوبةً، منكم، من المكرِ في آياتِ الله.

«إنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبونَ ما تَمْكُرون»، يقول: إنَّ حَفَظَتَنَا الذين نُرْسِلُهم

إليكم، أيها الناسُ، يكتبونَ عليكم ما تمكرونَ في آياتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله الذي يسيركم، أيها الناسُ، في البَرِّ على الظهر، وفي البحر في الفُلْكِ. «حتى إذا كنتم في الفلك»، أي: السفن. «وجَرَيْنَ بهم»، يعني: وجرتِ الفُلْكُ بالناسِ. «بريحٍ طيبة»، في البحر. «وفرِحُوا بها»، يعني: وفَرِحَ ركبانُ الفلك بالريحِ الطيبةِ التي يسيرون بها.

و«الهاء» في قوله: «بها»، عائدةٌ على «الريح الطيبة».

«جاءتها ريحٌ عاصف»، يقول: جاءت الفُلْكَ ريحٌ عاصف، وهي الشديدة.

«وجاءهم الموجُ من كُلِّ مكان»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجاء ركبانَ السفينةِ الموجُ من كُلِّ مكان. «وظَنُّوا أنهم أُحِيطَ بهم»، يقول: وظَنُّوا أنَّ الهلاكَ قد أحاطَ بهم وأحدق. «دَعَوُا الله مُخْلِصينَ له الدِّينَ»، يقول: أخلصوا الدعاءَ لله هنالك، دونَ أوثانِهم وآلهتِهم، وكان مَفْزَعُهم حينئذٍ إلى الله دونها.

«لَئِنْ أنْجَيْتَنَا»، من هذه الشدةِ التي نحنُ فيها. «لَنَكُونَنَّ من الشاكرين»، لكَ على نِعَمِكَ، وتخليصكَ إيّانا مما نحنُ فيه، بإخلاصنا العبادةَ لك، وإفراد الطاعةِ دونَ الآلهةِ والأنداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظَنُّوا في البحرِ أنهم أُحِيطَ بهم، من الجهدِ الذي كانوا فيه، أَخْلَفُوا الله ما وَعَدُوه، وبغوا في الأرض، فتجاوزُوا فيها إلى غيرِ ما أذن الله لهم فيه، من الكفرِ به، والعمل بمعاصيه على ظهرها. يقولُ الله: يا أيها الناسُ، إنما عتداؤكم الذي تعتدونه على أنفسِكم، وإياهَا تَظلمون. وهذا الذي أنتم فيه. «متاع الحياة الدنيا»، يقول: ذلك بلاغٌ تبلغونَ به عاجلِ دُنياكم.

وقوله: «ثم إلينا مرجعكم»، يقول: ثم إلينا بعد ذلك مَعَادُكم ومصيركم، وذلك بعد الممات. «فَنُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون»، يقول: فَنُخْبِرُكُم يومَ القيامة بما كنتم تعملونَ في الدنيا من معاصي الله، ونُجَازِيكم على أعمالِكم التي سلفت منكم في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنما مَثَلُ ما تُباهُونَ في الدنيا وتفاخرونَ به من زِينتها وأموالها، مع ما قَدْ وُكِّلَ بذلك من التكديرِ والتنغيصِ، وزوالهِ بالفناءِ والموتِ،

كَمَثَلِ ماءٍ أنزلناه من السماء، يقول: كمطرٍ أرسلناهُ من السماءِ إلى الأرض «فاختلطَ به نباتُ الأرض»، يقول: فنبتَ بذلك المطرِ أنواعٌ من النباتِ، مختلطٌ بعضها ببعض.

وقوله: «حتى إذا أخذتِ الأرضُ زُخْرُفَها»، يعني: ظهر حُسْنُهَا وبهاؤُها «وازَّيَّنَتْ»، يقول: وتَزَيَّنَتْ. «وظَنَّ أهلُها»، يعني: أهلُ الأرض «أنهم قادرون عليها»، يعني: على ما أنبتت.

وخرج الخبرُ عن «الأرض» والمعنى للنبات، إذ كان مفهوماً بالخطاب ما عُنِيَ به.

وقوله: «أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً»، يقول: جاء الأرضَ «أَمْرُنَا»، يعني: قضاؤنا بهلاكِ ما عليها من النباتِ ـ إما ليلاً وإما نهاراً ـ «فجعلناها»، يقول: فجعلنا ما عليها. «حصيداً»، يعني: مقطوعةً مقلوعةً من أصولها.

«كَأَنْ لم تَغْنَ بالأمس»، يقول: كأنْ لم تَكُنْ تلك الزروعُ والنباتُ على ظهرِ الأرض نابتة قائمةً على الأرضِ قبلَ ذلك بالأمس.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «كذلك نُفَصِّلُ الآيات لقومٍ يتفكرون»، يقول: كما بَيَّنَّا لكم، أيها الناسُ، مَثَلَ الدنيا وعَرَّفْنَاكُم حُكْمَها وأمرها، كذلك نُبين حُجَجَنَا وأدِلَّتنا لِمَنْ تَفَكَّر واعتبر ونظر. وخَصَّ به أهلَ الفكر، لأنهم أهلُ التمييزِ بين الأمورِ، والفحصِ عن حقائقِ ما يعرضُ من الشُّبَه في الصدور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لعباده: أيهَا الناسُ، لا تطلبوا الدنيا وزينَتها، فإنَّ مصيرَها إلى فناءٍ وزوالٍ، كما مصيرُ النباتِ الذي ضربه الله لها مثلاً، إلى هلاكٍ

وبَوَارٍ، ولكن اطلبوا الآخرةَ الباقيةَ، ولها فاعملوا، وما عندَ الله فالتمسوا بطاعته، فإنَّ الله يدعوكم إلى داره، وهي جَنَّاتُه التي أعَدَّها لأوليائِه، تَسْلَمُوا من الهمومِ والأحزانِ فيها، وتأْمَنُوا من فناءِ ما فيها من النَّعيمِ والكرامةِ التي أعدَّها لمن دخلها، وهو يهدي مَنْ يشاء من خَلْقِه فيوفِّقُهُ لإصابةِ الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله جَلَّ ثناؤُهُ سبباً للوصول إلى رضاه، وطريقاً لمن ركبه وسلك فيه إلى جِنانه وكرامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: للذين أحسنوا عبادَةَ الله في الدنيا من خَلْقِه، فأطاعوه فيما أمر ونَهَى، «الحسنى».

ثم اختلف أهـلُ التـأويل في معنى «الحسنى»، و«الـزيادة». اللتين وَعَدَهُمَا المحسنينَ من خَلْقِه.

فقال بعضهم: «الحسنى»، هي الجنةُ، جعلها الله للمحسنينَ من خلقه جزاء، و«الزيادة عليها»، النظرُ إلى الله.

وقال آخرون في «الزيادة»: غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب.

وقـال آخرون: «الحسنى»، واحدةٌ من الحسنات بواحدة، و«الزيادة»، التضعيفُ إلى تمام العشر.

وقال آخرون: «الحسنى» حسنة مثل الحسنة، و«الزيادة»، زيادةُ مغفرة من الله ورضوان.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تبارك وتعالى وَعَد المحسنينَ من عبادِه على إحسانِهم الحسنى، أنْ يجزيهم على طاعتهم إيَّاهُ الجنةَ، وأنْ تبيض وجوههم، ووعَدَهُمْ مع الحسنى الزيادة عليها، ومن الزيادةِ

على إدخالهم الجنةَ أنْ يُكرمهم بالنظرِ إليه. وأنْ يُعطيهم غُرفاً من لآلئ، وأنْ يزيدَهُمْ غفراناً ورضواناً، كُلُّ ذلك من زياداتِ عطاءِ الله إياهم على الحسنى التي جعلهـا الله لأهـلِ جناته. وعَمَّ ربُّنا جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وزيادة»، الزيادات على «الحسنى»، فلم يخصصْ منها شيئاً دون شيء، وغير مُسْتَنْكَرٍ من فضل الله أنْ يجمعَ ذلك لهم، بل ذلك كله مجموعٌ لهم إنْ شاء الله. فأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ. أن يُعَمَّ، كما عَمَّهُ عَزَّ ذِكْرُه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾

يعني جَلَّ ثنـاؤُهُ بقـولـه: «ولا يَرهقُ وجـوههم قتر ولا ذِلة»، لا يغشى وجوههم كآبةٌ، ولا كسوفٌ، حتى تصيرَ من الحُزن كأنما علاها قترٌ. «ولا ذلة»، ولا هوان. «أولئك أصحابُ الجنة»، يقول: هؤلاء الذين وصفتُ صِفَتهم، هم أهلُ الجنة وسكانها، ومَنْ هو فيها. «هم فيها خالدون»، يقول: هم فيها ماكثون أبداً لا تَبِيد، فيخافُوا زوالَ نَعيمهم، ولا هُمْ بِمُخْرَجِينَ، فتتنغَّصَ عليهم لَذَّتُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين عملوا السيئاتِ في الدنيا، فعصوا الله فيها، وكفـروا به وبـرسوله. «جزاءُ سيئةٍ»، من عملهِ السيِّء الذي عمله في الدنيا. «بِمِثْلِهَـا»، من عقابِ الله في الآخرة. «وتَرْهَقُهم ذِلَّةٌ»، يقول: وتَغْشَاهُمْ ذلةٌ وهوانٌ، بعقابِ الله إياهم. «ما لهم من الله من عاصم»، يقول: ما لهم من

الله من مانعٍ يمنعهم، إذا عاقبهم، يحولُ بينه وبينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كأنما أُلْبِسَتْ وجوهُ هؤلاء الذين كسبوا السيئات. «قِطَعاً من الليل»، وهي جمع «قطعة».

(يعني): كأنما أُغشِيَت وَجْهَ كُلِّ إنسانٍ منهم قطعةٌ من سوادِ الليل، ثم جمع ذلك فقيل: «كأنما أغشِيتْ وجوهُهم قِطَعاً»، من سواد، إذ جُمِع «الوجه».

وقوله: «أولئك أصحابُ النار»، يقول: هؤلاء الذين وصفتُ لك صفتهم، أهلُ النار الذين هم أهلُها. «هم فيها خالدون»، يقول: هم فيها ماكثون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويوم نجمعُ الخَلْقَ لموقفِ الحساب جميعاً، ثم نقولُ حينئذٍ للذين أشركوا بالله الآلهةَ والأندادَ «مكانَكم»، أي: امْكُثُوا مكانَكم، وقِفُوا في موضعكم، أنتم، أيها المشركون، وشُركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دونِ الله من الآلهةِ والأوثانِ. «فزَيَّلْنا بينهم»، يقول: فَفرَّقْنَا بين المشركين بالله وما أشركوهُ به.

«وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون»، وذلك حين تَبَرَّأَ الذين اتَّبعوا من الذين اتُّبِعوا ورأوا العذابَ وتقطَّعت بهم الأسبابُ، لما قيل للمشركين: «اتَّبِعُوا

ما كُنتم تَعبدونَ من دونِ الله»، ونُصِبَتْ لهم آلِهَتهُم، قالوا: «كنا نعبد هؤلاء»!، فقالتِ الآلهةُ لهم: «ما كنتم إيَّانا تعبدون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾

ويقول تعالى ذِكْرُهُ: مُخْبِراً عن قِيلِ شركاءِ المشركينَ من الآلهةِ والأوثانِ لهم يومَ القيامة، إذْ قال المشركون بالله لها: إيَّاكم كُنَّا نعبد «كفى بالله شهيداً بيننا وبينكم»، أي إنها تقولُ: حَسْبُنَا الله شاهداً بيننا وبينكم، أيها المشركون، فإنه قد علم أنَّا ما علمنا ما تقولون: «إنَّا كنا عن عبادتكم لغافلين»، يقول: ما كنا عن عبادتكم إيانا دون الله إلا غافلين، لا نشعر به ولا نعلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

اختلفت القَـرَأَةُ في قراءةِ قولـه: ﴿هُنَـالِـكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ﴾، بالباء، بمعنى: عند ذلك تختبرُ كُلُّ نفسٍ ما قدمت من خيرٍ أو شرٍّ.

وقـرأ ذلـك جماعةٌ من أهلِ الكوفةِ وبعض أهلِ الحجاز: ﴿تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ﴾، بالتاء.

واختلفَ قارئو ذلك كذلك في تأويله.

فقال بعضُهم: معناه وتأويله: هنالك تتبع كُلُّ نفسٍ ما قَدَّمتْ في الدنيا لذلك اليوم.

وقال بعضهم: بل معناه: يتلو كِتابَ حسناتِه وسيئاتِه، يعني يقرأ، كما قال

جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ [الإسراء:١٣].

وقال آخرون: «تَتْلو» تُعاين.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما أئمةٌ من القَرَأة، وهما متقاربتا المعنى. وذلك أنَّ من تبع في الآخرة ما أسلفَ من العمل في الدنيا، هجم به على مَوْرده، فيخبر هنالك ما أسلفَ من صالحٍ أو سيءٍ في الدنيا، وإنَّ مَنْ خَبَر ما أسلفَ في الدنيا من أعمالِه في الآخرة، فإنما يخبرُ بعد مصيره إلى حيثُ أحَلَّهُ ما قدم في الدنيا من عمله، فهو في كلتا الحالتين مُتَّبع ما أسلفَ من عَمَلِه، مختبرٌ له. فبأيَّتِهمَا قرأ القارئُ، كما وصفنا، فمصيبٌ الصوابَ في ذلك.

وأما قوله: «ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق»، فإنه يقولُ: ورجعَ هؤلاءِ المشركون يومئذٍ إلى الله الذي هو ربُّهم ومالِكُهم، الحقّ لا شَكَّ فيه، دونَ ما كانوا يزعمون أنهم لهم أربابٌ من الآلهةِ والأنداد. «وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون»، يقول: وبَطلَ عنهم ما كانوا يَتَخَرَّصُونَ من الفِرْيةِ والكَذِبِ على الله، بدعواهم أوثانهم أنها لله شركاء، وأنها تُقَرِّبُهم منه زُلْفَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركين بالله الأوثانَ والأصنامَ. «مَنْ يرزقكم من السماء»، الغيثَ والقَطْرَ، ويُطْلِعُ لكم شمسَها، ويُغْطِشُ ليلَها، ويُخْرِجُ ضُحَاها - ومن الأرضِ، أقواتَكم وغذاءَكُم الذي يُنْبتُه لكم، وثمار أشجارها. «أمْ مَنْ يملكُ السمعَ والأبصار»، يقول: أم

من ذا الذي يملكُ أسماعَكم وأبصارَكم التي تسمعونَ بها: أنْ يزيدَ في قواها، أو يَسْلِبكُمُوها، فَيَجْعَلكُمْ صُمًّا، وأبصاركم التي تبصرون بها: أنْ يُضيئَها لكم وينيرها، أو يذهبَ بنورها، فيجعلكم عُمْياً لا تُبصرون. «ومَنْ يخرجُ الحَيَّ من الميت»، يقول: ومن يخرج الشيءَ الحَيَّ من الميت. «ويخرجَ الميتَ من الحَيِّ»، يقول: ويخرج الشيءَ الميتَ من الحيّ.

«ومَنْ يُدَبِّرُ الأمرَ»، وقل لهم: مَنْ يُدَبِّرُ أمرَ السماءِ والأرضِ وما فيهن، وأمرَكم وأمرَ الخلق؟ «فسيقولون الله»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فسوف يُجيبُونكَ بأنْ يقولوا: الذي يفعلُ ذلك كله الله. «فَقُلْ أفلا تتقون»، يقول: أَفَلا تخافونَ عقابَ الله على شِرْكِكُمْ وادِّعائكم ربًّا غيرَ مَنْ هذه الصفةُ صفتُه، وعبادَتِكُمْ معه مَنْ لا يرزقكم شيئاً، ولا يملكُ لكم ضرًّا ولا نفعاً، ولا يفعل فعلاً؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لخلقه: أيها الناسُ، فهذا الذي يفعلُ هذه الأفعال، فيرزقكم من السماء والأرض، ويملكُ السمعَ والأبصار، ويُخرجُ الحيَّ من الميتِ والميتَ من الحيِّ، ويدبرُ الأمر. «الله ربُّكمُ الحقُّ»، ولا شَكَّ فيه. «فماذا بعدَ الحقِّ إلا الضلال»، يقول: فأي شيء سوى الحق إلا الضلال، وهو الجور عن قَصْدِ السبيل؟ يقول: فإذا كان الحقُّ هو ذا، فادِّعاؤُكم غيرَه إلهاً وربًّا، هو الضلالُ والذهابُ عن الحَقِّ لاشك فيه. «فأنَّى تصرفون»، يقول: فأيَّ وجهٍ عن الهدى والحق تُصرفون، وسواهما تسلكون، وأنتم مُقِرُّونَ بأن الذي تُصْرَفون عنه هو الحق؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما قد صُرِف هؤلاء المشركون عن الحقِّ إلى الضلالِ «كذلك حَقَّتْ كلمةُ ربك»، يقول: وَجَبَ عليهم قضاؤُه وحكمه في السابق من علمه. «على الذين فسقوا»، فَخَرجُوا من طاعةِ ربهم إلى معصيته وكفروا به «أنهم لا يؤمنون»، يقول: لا يُصَدِّقُونَ بوحدانيةِ الله ولا بنبوةِ نبيهِ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ. «هل من شركائكم»، يعني: من الآلهةِ والأوثان. «مَنْ يبدأُ الخَلْقَ ثم يعيده»، يقول: مَنْ يُنْشِئُ خَلْقَ شيءٍ من غيرِ أصلٍ، فيحدث خلقَه ابتداءً.

«ثم يعيده»، يقول: ثم يُفْنِيه بعد إنشائِه، ثم يعيده كهيئتِه قبلَ أنْ يفنيَهُ، فإنهم لا يقدرون على دعوى ذلك لها. وفي ذلك الحجةُ القاطعةُ والدِّلالة الواضحةُ على أنهم في دَعْواهم أنها أربابٌ، وهي لله في العبادة شركاء، كاذبون مفترون. فَقُلْ لهم حينئذٍ، يا محمد: الله يبدأُ الخَلْقَ فَيُنْشِئُه من غير شيءٍ، ويُحْدِثُه من غيرِ أصلٍ، ثم يُفنيه إذا شاء، ثم يُعِيدُه، إذا أراد كهيئته قبلَ الفناء. «فأنَّى تُؤْفَكُون»، يقول: فأيِّ وجهٍ عن قصد السبيلِ وطريقِ الرُّشد تُصْرَفون وتُقْلَبُون؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ

يَهِدِّيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركين. «هل من شركائكم»، الذين تَدْعُونَ من دونِ الله، وذلك آلهتُهم وأوثانُهم. «مَنْ يهدي إلى الحق»، يقول: مَنْ يُرشِدُ ضالاً من ضلالته إلى قصدِ السبيل، ويسدِّد جائراً عن الهدى إلى واضحِ الطريقِ المستقيم؟ فإنهم لا يقدرون أنْ يَدَّعُوا أنَّ آلهتَهُمْ وأوثانَهم تُرشد ضالاً أو تهدي جائراً. وذلك أنهم إن ادَّعوا ذلك لها، أكْذَبَتْهُم المشاهَدَةُ، وأبانَ عجزَها عن ذلك الاختبارُ بالمعاينة. فإذا قالوا: «لا»، وأقرُّوا بذلك فقل لهم: فالله يهدي الضالَّ عن الهدى إلى الحق. «أفمن يهدي»، أيها القومُ، ضالاً إلى الحقِّ، وجائراً عن الرُّشْدِ إلى الرشد. أَحَقُّ أنْ يُتَّبَعَ»، إلى ما يدعو إليه. «أمْ مَنْ لا يَهِدِّي إلا أنْ يُهدى»؟

وقوله: «فما لكم كيف تحكمون»، ألا تعلمونَ أنَّ مَنْ يهدي إلى الحق أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ من الذي لايهتدي إلى شيء، إلا أنْ يَهديه إليه هَادٍ غيره، فتتركوا اتِّبـاعَ مَنْ لا يهتدي إلى شيء وعبادته، وتتبعوا مَنْ يهديكم في ظلماتِ البر والبحر، وتُخلِصُوا له العبادةَ فَتُفْرِدُوه بها وحدَهُ، دونَ ما تشركونه فيها من آلهتكم وأوثانكم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يتبعُ أكثرُ هؤلاء المشركبن إلا ظناً، يقول: إلا ما لا عِلْمَ لهم بحقيقتِه وصِحَّتِه، بل هُمْ منه في شكٍّ وريبة «إنَّ الظنَّ لا يُغني من الحَقِّ شيئاً»، يقول: إنَّ الشك لا يغني من اليقين شيئاً، ولا يقومُ في شيء

مقامَه، ولا ينتفع به حيث يُحتاج إلى اليقين. «إنَّ الله عليمٌ بما يفعلون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله ذُو علمٍ بما يفعلُ هؤلاء المشركون، من اتباعهم الظن، وتَكْذِيبهم الحَقَّ اليقين، وهو لهم بالمرصاد، حيث لا يُغني عنهم ظَنّهم من الله شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾



يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما ينبغي لهذا القرآنِ أنْ يُفْتَرى من دونِ الله، يقول: ما ينبغي له أنْ يتخرَّصَهُ أحدٌ من عندِ غيرِ الله. وذلك نظير قوله: ﴿وَمَا كانَ لِنَبيٍّ أَنْ يُغَلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]، بمعنى: ما ينبغي لنبيٍّ أنْ يغلَّه أصحابُه.

وإنما هذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ، أنَّ هذا القرآنَ من عنده، أنزله إلى محمدٍ عبده، وتكذيبٌ منه للمشركينَ الذين قالوا: «هو شِعرٌ وكَهانة»، والذين قالوا: «إنما يَتعَلَّمُهُ محمدٌ من يحنّس الروميّ».

يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: ما كان هذا القرآن لِيَخْتَلِقَهُ أحدٌ من عندِ غيرِ الله، لأنَّ ذلك لايقدرُ عليه أحدٌ من الخَلْقِ «ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولكنه من عندِ الله، أنزله مُصَدِّقاً لما بين يديه، أي: لما قبله من الكتبِ التي أنزلت على أنبياءِ الله، كالتوراةِ والإنجيلِ وغيرهما من كُتُبِ الله التي أنزلها على أنبيائه. «وتفصيل الكتاب»، يقول: وتبيان الكتابِ الذي كتبه الله على أمةِ محمدٍ ﷺ، وفرائضه التي فَرَضَها عليهم في السابقِ من عِلْمِه. «لا ريبَ فيه»، يقـول: لا شَكَّ فيه أنـه تصديقُ الذي بين يديه من الكتابِ وتفصيل الكتاب، من عندِ رَبِّ العالمين، لا افتراءٌ من عند غيرِه ولا اختلاقٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أم يقول هؤلاء المشركون: افترى محمدٌ هذ القرآنَ من نفسه فاختلقَهُ وافتعله؟ قُلْ يا محمد لهم: إنْ كانَ كما تقولون إني اخْتَلَقْتُه وافتريته، فإنكم مثلي من العَرب، ولساني مثل لسانكم، وكلامي مثل كلامكم، فَجِيئُوا بسورةٍ مثل هذا القرآن.

«وادْعُـوا مَنِ استطعتم من دونِ الله»، يقول: وادْعُوا، أيها المشركونَ، على أنْ يأتوا بسورةٍ مثلها مَنْ قدرتم أنْ تدعوا على ذلك من أوليائكم وشركائكم «من دون الله»، يقول: من عندِ غيرِ الله، فأجمِعُوا على ذلك واجتهدوا، فإنكم لا تستطيعون أنْ تأتوا بسورةٍ مثله أبداً.

وقـولـه: «إنْ كنتم صادقين»، يقول: إن كنتم صادقين في أنَّ محمداً افتراه، فَأْتُوا بسورةٍ مثله من جميع مَنْ يُعِينُكُمْ على الإتيانِ بها. فإنْ لم تفعلوا ذلك، فلا شَكَّ أنكم كَذَبَةٌ في زعمكم أنَّ محمداً افتراه، لأنَّ محمداً لن يَعْدُوَ أنْ يكـونَ بشـراً مثلكم، فإذا عجزَ الجميعُ من الخَلْقِ أنْ يأتوا بسورةٍ مِثْلِه، فالواحدُ منهم عن أنْ يأتي بجميعهِ أعجز.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما بهؤلاءِ المشركينَ، يا محمدُ، تكذيبَكَ ولكن بهم التكذيبُ بما لم يُحِيطُوا بعلمه مِمَّا أنزلَ الله عليكَ في هذا القرآن، مِنْ وَعِيدِهم على كُفْرِهم بربهم. «ولَمَّا يَأْتِهم تأويلُه»، يقول: ولم يَأْتِهم بَعْدُ بيانُ ما يؤولُ

إليه ذلك الوعيدُ الذي تَوَعَّدَهُمُ الله في هذا القرآن. «كذلكَ كَذَّبَ الذين من قَبْلِهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما كَذَّبَ هؤلاء المشركون، يا محمدُ، بوعيدِ الله، كذلك كَذَّبَ الأممُ التي خلَتْ قَبْلَهُمْ بوعيدِ الله إياهم على تكذيبهم رُسُلَهُمْ وكفرهم بربهم. «فـانظُرْ كيفَ كان عاقبةُ الظالمين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فانظر، يا محمدُ، كيف كان عُقْبى كُفْرِ مَنْ كفرَ بالله، أَلَمْ نُهلك بعضَهم بالـرَّجفـةِ، وبعضَهم بالخَسْفِ، وبعضهم بالغَرَقِ؟ يقول: فإنَّ عاقبةَ هؤلاء الذين يُكَذِّبُونَكَ ويجحدون بآياتي من كفارِ قومك، كالتي كانت عاقبة مَنْ قَبْلَهُمْ من كَفَرَةِ الأممِ، إنْ لم يُنِيبُوا من كفرهم، ويسارعوا إلى التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومِنْ قومكَ، . يا محمدُ، من قريشُ، مَنْ سوفَ يؤمنُ به يقـول: مَنْ سوف يُصَـدِّقُ بالقرآنِ ويقرُّ أبداً. «وربك أَعْلَمُ بالمفسدينَ»، يقول: والله أعلمُ بالمكذِّبينَ به منهم، الذين لا يصدقون به أبداً، من كل أحدٍ، لا يَخْفَى عليه، وهو مِنْ وراءِ عقابه. فأما مَنْ كتبتُ له أنه يؤمنُ به منهم، فإني سأتوبُ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ لنبيه محمـدٍ ﷺ: وإنْ كَذَّبَكَ، يا محمدُ، هؤلاء المشركون، ورَدُّوا عليكَ ما جئتهم به من عند ربك، فقل لهم: أيها القومُ، لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم، لا يضـرُّني عملكم، ولا يضـركم

عملي، وإنما يُجازَى كُلُّ عاملٍ بعمله. «أنتم بريئون مما أعمل»، لا تُؤْخَذُونَ بجريرته. «وأنا بريءٌ مما تعملون»، لا أُوخَذُ بجريرةِ عملِكم. وهذا كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١-٣].

وقيل: إنَّ هذه الآية منسوخة، نَسَخَها الجهادُ والأمرُ بالقتال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ومِنْ هؤلاءِ المشركينَ مَنْ يستمعونَ إلى قولك. «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ولو كانوا لا يعقلون»، يقول: أفأنتَ تخلقُ لهم السمعَ، ولو كانوا لا سمع لهم يعقلون به، أم أنا؟

وإنما هذا إعلامٌ من الله عبادَهُ أنْ التوفيقَ للإيمانِ به بيده لا إلى أحدٍ سواه. يقول لنبيهِ محمدٍ ﷺ: كما أنك لا تقدرُ أنْ تُسْمِعَ، يا محمدُ، مَنْ سَلَبْتُهُ السمعَ، فكذلك لا تَقْدِرُ أنْ تُفْهِمَ أمري ونهيي قلباً سَلَبْتُه فَهْمَ ذلك، لأني ختمتُ عليه أنه لا يؤمن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن هؤلاء المشركين، مشركي قومِك، مَنْ ينظرُ إليك، يا محمدُ، ويرى أعلامَكَ وحُجَجكَ على نُبُوَّتِكَ، ولكن الله قد سَلَبَهُ التوفيقَ فلا يهتدي، ولا تقدر أنْ تهديه، كما لا تقدرُ أنْ تُحْدِثَ للأعمى بصراً يهتدي به. «أفأنت تَهدي العُمْيَ ولو كانوا لايبصرون»، يقول: أفأنتَ يا محمدُ،

تحدث لهؤلاء الذين ينظرونَ إليكَ وإلى أدِلَّتِكَ وحججِك، فلا يُوَفَّقُونَ للتصديقِ بكَ أبصاراً، لو كانوا عُمْياً يهتدون بها ويبصرون؟ فكما أنكَ لا تُطيقُ ذلك ولا تقـدرُ عليه ولا غيرك، ولا يقدرُ عليه أحدٌ سواي، فكذلك لا تقدرُ على أنْ تُبَصِّرهم سبيلَ الرشاد أنت ولا أحدٌ غيري، لأنَّ ذلك بيدي وإليَّ.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ تسليةٌ لنبيهِ ﷺ عن جماعةٍ مِمَّنْ كَفَرَ به من قومِه وأدبرَ عنه فكذب، وتعزيةٌ له عنهم، وأمرٌ برفعِ طَمَعِهِ من إنابتهم إلى الإيمانِ بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله لا يفعلُ بخلْقِهِ ما لا يستحقون منه، لا يُعَاقِبُهم إلَّا بمعصيتهم إيَّاهُ، ولا يعذبهم إلا بكفرهم به. «ولكن الناس»، يقول: ولكن الناسَ هم الذين يظلمونَ أَنْفُسَهم، باجترامِهم ما يورثها غضبَ الله وسخطه.

وإنما هذا إعلامٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ والمؤمنين به، أنه لم يسلُبْ هؤلاءِ الذين أخبر جَلَّ ثناؤُهُ عنهم أنهم لا يؤمنونَ الإيمانَ ابتداءً منه بغير جرمٍ سَلَفَ منهم - وإخبارٌ أنه إنما سلبهم ذلك باستحقاقٍ منهم سَلْبَهُ، لذنوبٍ اكتسبوها، فَحَقَّ عليهم قولُ رَبِّهم، وطَبَعَ على قلوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويوم نَحْشُرُ هؤلاءِ المشركينَ فنجمعهم في موقفِ الحساب، كأنهم كانوا قبلَ ذلك لم يَلْبَثُوا إلا ساعةً من نهارٍ يتعارفونَ فيما بينهم، ثم انقطعت المعرفةُ، وانقضت تلك الساعةُ ـ يقولُ الله: «قد خسر الذين كَذَّبُوا بلقاءِ الله وما كانوا مهتدين»، قد غُبِنَ الذين جَحَدُوا ثوابَ الله وعِقَابَهُ حظوظَهم من الخيرِ وهلكوا. «وما كانوا مهتدين»، يقول: وما كانوا موفَّقينَ لإصابةِ الرشد مما فعلوا من تكذيبهم بلقاءِ الله، لأنه أَكْسَبَهُمْ ذلكَ ما لا قِبَلَ لهم به من عذابِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ وإمَّا نُرِينَّكَ، يا محمدُ، في حياتكَ بعضَ الذي نَعِدُ هؤلاء المشركينَ من قومكَ من العذابِ. «أو نتوفينك»، قبل أنْ نُريكَ ذلك فيهم. «فإلينا مَرْجِعُهم»، يقول: فمصيرُهم بكلِّ حالٍ إلينا، ومُنْقَلَبُهم. «ثم الله شهيدٌ على ما يفعلون»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ثم أنا شاهدٌ على أفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، وأنا عالِمٌ بها لا يَخْفَى عليَّ شيءٌ منها، وأنا مُجَازِيهم بها عند مصيرِهم إليَّ ومرجعهم، جزاءَهم الذي يستحقُّونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولكلِّ أمةٍ خَلَتْ قبلكم، أيها الناسُ، رسولٌ أرسلتُه إليهم، كما أرسلتُ محمداً إليكم يدعون مَنْ أرسلتُهم إليهم إلى دِينِ الله وطاعته. «فإذا جاء رسولهم»، يعني: في الآخرة.

وقوله: «قُضِيَ بينهم بالقسط»، يقول: قضي حينئذٍ بينهم بالعدل. «وهم لايظلمون»، مَن جزاءِ أعمالهم شيئاً، ولنْ يُجازي المحسن بإحسانِه. والمسيءُ من أهل الإيمان، إما أنْ يعاقبه الله، وإما أن يعفوَ عنه. والكافرُ، يُخَلَّدُ في النار. فذلك قضاءُ الله بينهم بالعدلِ، وذلك لا شكَّ عَدْلٌ لا ظلمٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ: ويقولُ هؤلاء المشركون من قومَك، يا محمدُ. «متى هذا الوعدُ»، الذي تَعِدُنا أنه يأتينا من عندِ الله، وذلك قيام الساعة. «إن كنتم صادقين»، أنتَ ومَن تَبِعَكَ، فيما تَعِدُونَنَا به من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قل»، يا محمدُ، لِمُسْتَعْجِلِيكَ وعيدَ الله، القائلينَ لك: متى يأتينا الوعدُ الذي تَعِدُنا «إنْ كنتم صادقين»؟. «لا أملكُ لنفسي»، أيها القوم، أي: لا أقدرُ لها على ضُرٍّ ولا نفعٍ في دنيا ولا دِين. «إلا ما شاء الله»، أنْ أَمْلكَهُ، فأجلبه إليها بإذنه. يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ ﷺ: قل لهم: فإذْ كنتُ لا أقدرُ على ذلك إلا بإذنِهِ، فأنا عن القُدْرةِ على الوصولِ إلى عِلْمِ الغيبِ ومعرفةِ قيامِ الساعةِ، أعجزُ وأعجز، إلا بمشيئتِه وإذنِه لي في ذلك. «لكلِّ أمةٍ أجلٌ»، يقول: لكل قومٍ ميقاتٌ لانقضاءِ مُدَّتِهم وأجلهم، فإذا جاء وقتُ أجلهم وفنـاءِ أعمارهم. «لا يستأخرون»، عنه، «ساعة»، فَيُمْهَلُونَ ويُؤَخَّرُونَ، «ولا

يستقدمون»، قبلَ ذلك، لأنَّ الله قضى أنْ لا يتقدمَ ذلك قبلَ الحينِ الذي قدَّره وقضاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ من قومكَ: أرأيتم إنْ أتاكم عذابُ الله بَيَاتاً، يقول: ليلاً أو نهاراً، وجاءت الساعةُ وقامتِ القيامةُ، أتقدرون على دفعِ ذلك عن أنفسكم؟ يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: ماذا يستعجلُ من نزولِ العذاب، المجرمونَ الذين كفروا بالله، وهم الصَّالون بحرِّهِ دونَ غيرهم، ثم لا يقدرون على دَفْعِه عن أنفسهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أهنالك إذا وقعَ عذابُ الله بكم أيها المشركون. «آمنتم به»، يقول: صَدَّقتم به في حالٍ لا ينفعكم فيها التصديقُ، وقيل لكم حينئذٍ: آلآنَ تُصَدِّقُون به، وقد كنتم قبلَ الآن به تستعجلون، وأنتم بنزولِه مُكَذِّبُون؟ فذوقوا الآنَ ما كنتم به تكذِّبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ثم قيل للذين ظلموا»، أنفسهم، بكفرهم بالله.

«ذُوقوا عذابَ الخُلْدِ»، تَجرَّعُوا عذابَ الله الدائم لكم أبداً، الذي لا فناءَ له ولا زوالَ. «هل تُجْزَوْنَ إلا بما كنتم تكسبون»، يقول: يقال لهم: فانظروا هل تُجْزَوْنَ، أي: هل تُثَابُونَ. «إلا بما كنتم تكسبون»، يقول: إلا بما كنتم تعملون في حياتكم قبل مماتكم من معاصي الله؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويستخبركَ هؤلاءِ المشركونَ من قومكَ، يا محمدُ، فيقولون لك: أَحَقٌّ ما تقولُ، وما تَعِدُنَا به من عذابِ الله في الدار الآخرة جزاءً على ما كنا نكسِبُ من معاصي الله في الدنيا؟ قُلْ لهم يا محمد: «إي وربِّي إنه لَحَقٌّ»، لا شَكَّ فيه، وما أنتم بمعجزي الله إذا أراد ذلك بكم، بهربٍ، أو امتناعٍ، بل أنتم في قَبْضَتِه وسُلْطانِه ومُلْكِه، إذا أراد فِعْلَ ذلك بكم، فاتَّقُوا الله في أنفسكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو أنَّ لكلِّ نَفْسٍ كفرتْ بالله ـ و«ظُلْمُهَا»، في هذا الموضع، عبادَتُها غيرَ مَنْ تستحقُّ عبادَتُهُ، وتَرْكُهَا طاعةَ مَنْ يجبُ عليها طاعتُه ـ «ما في الأرض»، من قليلٍ أو كثير. «لافتدَت به»، يقول: لافتدتْ بذلك كُلِّه من عذابِ الله إذا عايَنَتْهُ وقوله: «وأَسَرُّوا الندامةَ لما رأوا العذاب»، يقول: وأَخْفَتْ رؤساءُ هؤلاءِ المشركينَ من وُضَعَائِهم وسِفْلَتِهم الندامةَ، حين أَبْصَرُوا

عذابَ الله قد أحاطَ بهم، وأيقنوا أنه واقعٌ بهم. «وقُضِيَ بينهم بالقسط»، يقول: وقَضَى الله يومئذٍ بين الأتباع والرؤساءِ منهم بالعدلِ. «وهم لا يظلمون»، وذلك أنه لا يعاقِبُ أحداً منهم إلا بجريرته، ولا يأخذهُ بذنب أحدٍ، ولا يعذِّبُ إلا مَنْ قد أعذر إليه في الدنيا وأنذر وتابع عليه الحجج.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٥﴾

يقول جل ذِكْرُهُ: ألا إنَّ كُلَّ ما في السمواتِ وكُلَّ ما في الأرضِ من شيءٍ، لله مِلْكٌ، لا شيءَ فيه لأحدٍ سواه. يقول: فليسَ لهذا الكافر بالله يومئذٍ شيءٌ يملكه فيفتدي به من عذابِ ربِّهِ، وإنما الأشياء كلها للذي إليه عقابه. ولو كانت له الأشياءُ التي هي في الأرض، ثم افتدى بها، لم يقبل منه بدلاً من عذابه، فيصرف بها عنه العذاب، فكيف وهو لا شيءَ له يفتدي به منه، وقد حَقَّ عليه عذابُ الله؟ يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «ألا إنَّ وعدَ الله حق»، يعني: أنَّ عذابَهُ الذي أوعدَ هؤلاء المشركين على كُفْرِهم، حَقٌّ، فلا عليهم أن لا يستعجلوا به، فإنه بهم واقعٌ لا شك. «ولكن أكثرهم لايعلمون»، يقول: ولكنَّ أكثرَ هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقةَ وقوعِ ذلك بهم، فهم من أجلِ جهلهم به مُكَذِّبُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾



يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله هو المحيي المميتُ، لا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ ما أرادَ فِعْله من إحياءِ هؤلاء المشركين إذا أراد إحياءَهم بعد مماتهم، ولا إماتتهم

إذا أراد ذلك، وهم إليه يصيرونَ بعد مماتهم، فيعاينون ما كانوا به مكذبين من وعيدِ الله وعقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لخلقه: «يا أيها الناسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم»، يعني: ذكرى تُذَكِّرُكُمْ عِقابَ الله وتُخَوِّفُكم وعيدَهُ. «مِنْ رَبِّكم»، يقول: من عند ربكم، لم يختلقها محمدٌ ﷺ، ولم يَفْتعِلْها أحدٌ، فتقولوا: لا نأمن أنْ تكونَ لا صحة لها. وإنما يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ القرآن، وهو الموعظةُ من الله.

وقوله: «وشِفاءٌ لما في الصدور»، يقول: ودواءٌ لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهلَ الجهال، فيبرئُ به داءَهُم، ويهدي به من خَلْقِه مَنْ أراد هدايته به. «وهُدى»، يقول: وهو بيانٌ لحلالِ الله وحرامه، ودليلٌ على طاعتهِ ومعصيتهِ. «ورحمة»، يرحمُ بها مَنْ شاء من خَلْقِه، فينقذُه به من الضلالةِ إلى الهدى، وينجيه من الهلاكِ والردى. وجعله تبارك وتعالى رحمةً للمؤمنين به دونَ الكافرين به، لأنَّ مَنْ كفرَ به فهو عليه عمًى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفرِ به الخلودُ في لظًى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاء المكذِّبينَ بك وبما أُنزلَ إليكَ من عندِ رَبِّكَ. «بفضل الله»، أيها الناسُ، الذي تَفضَّلَ به عليكم، وهو الإسلامُ، فَبَيَّنَهُ لكم، ودعاكم إليه. «وبرحمته»، التي رَحِمَكُمْ

بها، فأنزلها إليكم، فعلَّمَكُمْ ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبَصَّرَكُمْ بها معالِمَ دِينكم، وذلك القرآنُ. «فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون»، يقول: فإنَّ الإسلامَ الذي دعاهم إليه، والقرآن الذي أنزله عليهم، خيرٌ مما يجمعون من حُطَامِ الدنيا وأموالها وكنوزها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاء المشركينَ. «أرأيتم» أيها الناسُ. «ما أنزلَ الله لكم من رِزْقٍ»، يقول: ما خَلَقَ الله لكم من الرزق فخَوَّلكُمُوهُ، وذلك ما تتغذون به من الأطعمةِ. «فجعلتم منه حراماً وحلالاً»، يقول: فَحَلَّلْتُمْ بعضَ ذلك لأنفسكم، وحَرَّمْتُم بعضَه عليها، وذلك كتحريمهم ما كانوا يحرِّمونه من حُروثهم التي كانوا يجعلونها لأوثانهم، كما وصفهم الله به فقال: ﴿وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هذا لله بِزَعْمِهِمْ وهَذا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

ومِن الأنعام ما كانوا يُحَرِّمُونَهُ بالتَّبْحِيرِ والتَّسييبِ ونحو ذلك، مما قَدَّمْنَاهُ فيما مَضَى من كتابنا هذا.

يقول الله لنبيه محمد ﷺ: «قل»، ، يا محمدُ، «آلله أَذِنَ لكم»، بأن تُحَرِّمُوا ما حَرَّمتم منه، «أم على الله تفترون»، أي: تقولون الباطل وتكذبونِ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما ظَنُّ هؤلاء الذين يتخرَّصُونَ على الله الكذبَ، فَيُضِيفُونَ إليه تحريم ما لم يحرِّمْهُ عليهم من الأرزاقِ والأقواتِ التي جعلها الله لهم غذاءً، أنَّ الله فاعلٌ بهم يومَ القيامة بكذبهم وفِرْيَتِهم عليه؟ أيحسَبُونَ أنه يصفحُ عنهم ويغفر؟ كلاَّ، بل يصليهم سعيراً خالدين فيها أبداً. «إن الله لَذُو فضلٍ على الناس»، يقول: إنَّ الله لذو تَفَضُّلٍ على خَلْقِه، بتركهِ معاجلَةَ مَنِ افترى عليه الكذبَ بالعقوبةِ في الدنيا، وإمهاله إياهُ إلى ورودِه عليه في القيامة. «ولكن أكثرهم لا يشكرون»، يقول: ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكرونه على تفضُّله عليهم بذلك، وبغيرِه من سائرِ نعمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: «وما تكون»، يا محمدُ. «في شأنٍ»، يعني: في عملٍ من الأعمال. «وما تتلو منه من قرآنٍ»، يقول: وما تقرأ من كتابِ الله من قرآنٍ. «ولا تعملونَ من عملٍ»، يقول: ولا تَعملون من عمل، أيها الناسُ، من خيرٍ أو شر. «إلا كُنَّا عليكم شهوداً»، يقول: إلا ونحنُ شهودٌ لأعمالِكم وشؤونكم. إذ تعملونها وتأخذون فيها.

وإنما اخترنا القولَ الذي اخترناه فيه، لأنه تعالى ذِكْرُهُ أخبر أنه لا يعملُ عبادُه عملاً إلا كان شاهدَه، ثم وصلَ ذلك بقوله: «إذ تُفِيضُونَ فيه»، فكان معلوماً أنَّ قوله: «إذ تفيضون فيه»، إنما هو خبرٌ منه عن وقتِ عملِ العاملينَ أنه له شاهدٌ - لا عن وَقْتِ تلاوةِ النبيِّ ﷺ القرآن، لأنَّ ذلك لو كان خبراً عن

شهودِه تعالى ذِكْرُهُ وقتَ إفاضةِ القومِ في القرآن، لكانت القراءة بالياء: «إذ يفيضون فيه»، خبراً منه عن المكذبين فيه.

فإنْ قال قائل: ليس ذلك خبراً عن المكذبين، ولكنه خطابٌ للنبيِّ ﷺ، أنه شاهده إذْ تلا القرآن.

فإن ذلك لو كان كذلك، لكان التنزيلُ: «إذ تفِيضُ فيه»، لأنَّ النبيَّ ﷺ واحدٌ لا جَمْع، كما قال: «وما تتلو منه من قرآن»، فأفردَهُ بالخطابِ ـ ولكن ذلك في ابتدائه خطابَه ﷺ بالإفرادِ، ثم عَوْده إلى إخراجِ الخطابِ على الجمع، نظير قوله: ﴿يَا أَيُّها النَّبيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، وذلك أن قوله: «إذا طلقتم النساء»، دليلاً واضحاً على صَرْفِه الخطابَ إلى جماعةِ المسلمينَ مع النبيِّ ﷺ مع جماعةِ الناس غيره، لأنه ابتدأ خطابه، ثم صَرفَ الخطابَ إلى جماعةِ الناس والنبي ﷺ فيهم.

وخبرٌ عن أنه لا يعملُ أحدٌ من عبادِه عملاً إلا وهو له شاهِدٌ، يحصي عليه ويَعْلَمُه كما قال: «وما يَعْزُبُ عن رَبِّكَ»، ، يا محمدُ، عَمَلُ خَلْقِه، ولا يذهب عليه عِلْمُ شيءٍ حيثُ كانَ من أرضٍ أو سماء.

وأصله من «عزوب الرجل عن أهله في ماشيته»، وذلك غَيْبَتُه عنهم فيها. يقال منه: «عَزَبَ الرَّجلُ عن أهله يَعْزُبُ ويَعْزِبُ».

وقوله: «من مثقال ذرة»، يعني: من زِنَةِ نملةٍ صغيرة.

يحكى عن العرب: «خُذْ هذا، فإنه أخَفُّ مثقالاً من ذاك»، أي: أخَفُّ وزناً.

و«الذّرة» واحدة: «الذّر»، و«الذر»، صغار النمل.

وذلك خبَرٌ عن أنه لا يَخْفَى عليه جَلَّ جلالُه أصغر الأشياءِ وإنْ خَفَّ في الوزن كُلَّ الخِفَّةِ، ومقاديرُ ذلك ومبلغه، ولا أكْبَرُهَا وإنْ عَظُمَ وثَقُلَ وَزْنُه، وكم

مبلغ ذلك. يقول تعالى ذِكْرُهُ لخلْقِه: فليكن عَمَلُكم، أيها الناسُ، فيما يُرْضِي ربَّكم عنكم، فإنَّا شهودٌ لأعمالكم، لايَخْفَى علينا شيءٌ منها، ونحن مُحْصُوها ومجازُوكم بها.

وقوله: «إلا في كتاب»، يقول: وما ذاكَ كله إلَّا في كتابٍ عند الله. «مبين»، عن حقيقةِ خَبَرِ الله لمن نَظَرَ فيه، أنه لا شيءَ كان أو يكون إلا قد أحصاهُ الله جَلَّ ثناؤُهُ فيه، وأنه لا يعزُبُ عن الله عِلْمُ شيءٍ من خلقه حيثُ كان من سمائِه وأرضه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألا إنَّ أنصارَ الله لا خوفٌ عليهم في الآخرةِ من عقابِ الله، لأنَّ الله رضي عنهم فآمنَهُمْ من عقابه - ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

و«الأولياء»، جمعُ «ولي»، وهو النصيرُ، و«وليُّ الله»، هو مَنْ كان بالصفةِ التي وصفه الله بها، وهو الذي آمنَ واتَّقى، كما قال الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الذين صدقوا الله ورسوله وما جاء به من عند الله، وكانوا يتَّقون الله بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه.

وقوله: «الذين آمنوا»، من نعت «الأولياء»، ومعنى الكلام: أَلَا إنَّ أولياءَ الله الذين آمنوا وكانوا يتقون، لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: البشرى من الله في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة، لأولياءِ الله الذين آمنوا وكانوا يتقون.

ثم اختلف أهلُ التأويل في «البشرى»، التي بَشَّرَ الله بها هؤلاءِ القوم، ما هي؟ وما صفتها؟

فقال بعضهم: هي الرؤيا الصالحة يراها الرجلُ المسلمُ أو تُرَى له، وفي الآخرة الجنة.

وقال آخرون: هي بشارةٌ يُبَشَّرُ بها المؤمنُ في الدنيا عند الموت.

وأولى الأقوال في تأويلِ ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أخبرَ أنَّ لأوليائِه المتقينَ، البشرى في الحياةِ الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا، الرؤيا الصالحةُ يَراها المسلمُ أو تُرَى له، ومنها بُشْرَى الملائكة إياهُ عندَ خروجِ نفسه برحمة الله ومنها بشرى الله إياهُ ما وَعَدَهُ في كتابه وعلى لسانِ رسوله ﷺ من الثوابِ الجزيل، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ الآية، [البقرة: ٢٥].

وكل هذه المعاني من بُشرى الله إياه في الحياة الدنيا، بَشَّرَهُ بها، ولم يخصص الله من ذلك معنًى دونَ معنى، فذلك مما عَمَّهُ جَلَّ ثناؤُهُ: أنَّ «لهم البشرى في الحياة الدنيا»، وأما في الآخرة فالجنة.

وأما قوله: ؛ «لا تبديلَ لكلماتِ الله»، فإنَّ معناه: أنَّ الله لا خُلْفَ لوعده، ولا تغييرَ لقولِه عما قال، ولكنه يُمْضي لخلقِه مواعيدَه ويُنْجِزُهَا لهم.

وقوله: «ذلك هو الفوز العظيم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذه البشرى في

الحياةِ الدنيا وفي الآخرة. «وهي الفوزُ العظيم»، يعني الظفر بالحاجةِ والطَّلبة والنجاة من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لا يَحْزُنْكَ، يا محمدُ، قولُ هؤلاء المشركين في ربهم ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثانَ والأصنامَ، فإنَّ العزةَ لله جميعاً، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإنَّ الله هو المنفردُ بعزة الدنيا والآخرة، لا شريكَ له فيها، وهو المنتقمُ من هؤلاء المشركينَ القائلينَ فيه من القولِ الباطلِ ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامِه منهم أحدٌ، لأنه لا يُعَازُّه شيء. «هو السميعُ العليم»، يقول: وهو ذُو السمعِ لما يقولون من الفِرْيةِ والكَذِبِ عليه، وذو عِلْمٍ بما يُضْمِرُونَهُ في أنفسهم ويعلنونه مُحْصًى ذلك عليهم كله، وهو لهم بالمرصاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألا إنَّ لله، يا محمدُ، كُلُّ مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرض، ملكاً وعبيداً، لا مالكَ لشيءٍ من ذلك سواه. يقول: فكيف يكون إلهاً معبوداً مَنْ يعبُده هؤلاء المشركون من الأوثانِ والأصنام، وهي لله ملكٌ، وإنما العبادةُ للمالِك دونَ المملوكِ، وللربِّ دونَ المربوب؟. «وما يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ من دونِ الله شركاء»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وأيُّ شيءٍ يتبع مَنْ يدعو من دون الله ـ

يعني: غيرَ الله وسواه - شركاء. ومعنى الكلام: أيُّ شيءٍ يتبع مَنْ يقول لله شركاء في سلطانِهِ ومُلْكِه كاذباً، والله المنفردُ بملكِ كُلِّ شيءٍ في سماءٍ كانَ أو أرض؟ «إنْ يتبعون إلا الظنَّ»، يقول: ما يتبعون في قِيلهم ذلك ودعواهم إلا الظنَّ، يقول: إلا الشكَّ لا اليقين. «وإنْ هُمْ إلَّا يخرصون»، يقول: وإنْ هُمْ إلا يتقوَّلُونَ الباطلَ تظنِّياً وتَخَرُّصاً للإفكِ، عن غير علمٍ منهم بما يقولون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ رَبَّكم، أيها الناسُ، الذي استوجب عليكم العبادَة، هو الربُّ الذي جعلَ لكم الليلَ وفصله من النهار، لتسكنُوا فيه مما كنتم فيه في نهاركم من التَّعبِ والنَّصَب، وتهدأوا فيه من التصرفِ والحركةِ للمعاشِ، والعَناءِ الذي كنتم فيه بالنهار. «والنهارَ مُبْصِراً»، يقول: وجعَلَ النهارَ مبصراً، فأضافَ «الإبصار» إلى «النهار»، وإنما يُبْصَرُ فيه، وليس «النهار» مما يُبْصِرُ. ولكنْ لَمَّا كان مفهوماً في كلامِ العرب معناه، خاطَبهم بما في لغتهم وكلامهم.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فهذا الذي يفعلُ ذلك، هو رَبُّكم الذي خَلَقكم وما تعبدونَ، لا ما لاينفعُ ولا يضرُّ ولا يفعلُ شيئاً.

وقوله: «إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في اختلاف حالِ الليلِ والنهار وحالِ أهلهما فيهما، دلالةً وحججًا على أنَّ الذي له العبادةُ خالصاً بغيرِ شريكٍ، هو الذي خَلَقَ الليلَ والنهارَ، وخالفَ بينهما بأنْ جعلَ هذا للخلق سكناً، وهذا لهم معاشاً، دون مَنْ لا يخلقُ ولا يفعلُ شيئاً، ولا يضرُّ ولا ينفع.

وقال: «لقوم يسمعون»، لأنَّ المرادَ منه: الذين يسمعونَ هذه الحججَ ويتفكَّرُونَ فيها، فيعتبرون بها وَيَتَّعِظُونَ. ولم يُرِدْ به: الذين يسمعونَ بآذانهم، ثم يُعْرِضُونَ عن عِبَرِه وعِظاتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: قال هؤلاء المشركون بالله من قومك، يا محمد: «اتخذ الله ولداً»، وذلك قولهم: «الملائكةُ بناتُ الله»، يقول الله مُنَزِّهاً نفسَهُ عَمَّا قالوا وافتروا عليه من ذلك: «سبحانَ الله»، تنزيهاً لله عما قالوا وادَّعوا على رَبِّهم. «هو الغني»، يقول: الله غنيٌّ عن خَلْقِه جميعاً، فلا حاجةَ به إلى ولدٍ، لأنَّ الولدَ إنما يَطْلُبه مَنْ يطلبه، ليكون عَوْناً له في حياته، وذِكْراً له بعد وفاته، والله عن كُلِّ ذلك غنيٌّ، فلا حاجةَ به إلى مُعينٍ يُعينه على تدبيره، ولا يبيدُ فيكون به حاجة إلى خَلَفٍ بَعْدَهُ. «له ما في السمواتِ وما في الأرض، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لله ما في السمواتِ وما في الأرض مِلْكاً، والملائكةُ عباده وملكه، فيكف يكون عبدُ الرجلِ وملكه له ولداً؟ يقول: أفلا تعقلونَ، أيها القومُ خطأَ ما تقولون؟. «إنْ عندكم من سلطانٍ بهذا»، يقول: ما عِنْدَكُمْ، أيها القومُ، بما تقـولـونَ وتَـدَّعُونَ من أنَّ الملائكةَ بنات الله، من حجةٍ تحتجُّونَ بها - وهي السلطانُ - أتقولون على الله قولاً لا تعلمونَ حقيقتَهُ وصحته، وتُضِيفُونَ إليه ما لا يجوزُ إضافتُه إليه، جهلاً منكم بما تقولون، بغيرِ حجةٍ ولا برهان؟

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ

﴿ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهم. «إن الذين يفترون على الله الكذب»، فيقولون عليه الباطلَ، ويَدَّعُونَ له وَلَداً. «لا يفلحون»، يقول: لا يَبْقَوْنَ في الدنيا، ولكنْ لهم مَتَاعٌ في الدنيا يُمَتَّعُونَ به، وبلاغٌ يتبلَّغُونَ به إلى الأجلِ الذي كُتِب فناؤهم فيه. «ثم إلينا مرجعهم»، يقول: ثم إذا انقضى أجَلُهم الذي كتب لهم، إلينا مصيرهم ومنقلبهم. «ثم نُذِيقهم العَذابَ الشديد»، وذلك إصلاؤُهم جهنمَ. «بما كانوا يكفرون» بالله في الدنيا، فيُكَذِّبُونَ رُسُلَهُ، ويجحدونَ آياته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «واتْلُ»، على هؤلاءِ المشركينَ الذين قالوا: «اتَّخَذَ الله ولداً» من قومكَ. «نبأ نوحٍ»، يقول: خبرَ نوحٍ. «إذْ قال لقومه يا قوكِ إنْ كان كَبُرَ عليكم مقامي»، يقول: إنْ كانَ عَظُمَ عليكم مقامي بين أظهركم وشَقَّ عليكم، «تذكيري بآياتِ الله»، يقول: ووعظي إياكم بحججِ الله، وتنبيهي إياكم على ذلك. «فعلى الله توكلتُ»، يقول: إنْ كان شَقَّ عليكم مقامي بين أظهركم، وتذكيري بآياتِ الله، فعزمتم على قتلي أو طردي من بين أظهركم، فَعَلَى الله اتِّكالي وبه ثقتي، وهو سَنَدي وظهري. «فأجْمِعُوا أمركم»، يقول: فأعِدُّوا أمْرَكُم، واعزموا على ما تَنْوُونَ عليه في أمري.

وقوله: «ثم لا يَكُنْ أمرُكُم عليكم غُمَّةً»، يقول: ثم لا يكنْ أمركم عليكم مُلْتبساً مُشْكِلاً مُبْهَماً.

واختلفَ أهلُ المعرفة بكلامِ العرب في معنى قوله: «ثم اقضوا إليَّ».

فقال بعضهم: معناه: امضُوا إليَّ، كما يقال: «قد قضى فلان»، يراد: قد مات ومَضَى.

وقال آخرون منهم: بل معناه: ثم افْرغُوا إليّ. وقالوا: «القضاء»، الفَراغُ، و«القضاء» من ذلك. قالوا: وكأنَّ «قضى دينه» من ذلك، إنما هو فَرَغ منه.

وقوله: «ولا تُنْظِرُونِ»، يقول: ولا تُؤَخِّرون.

وإنما هذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ، عن قولِ نبيهِ نوحٍ عليه السلام لقومه: إنه بنُصرةِ الله له عليهم واثِقٌ، ومن كَيْدِهم وبوائقهم غير خائفٍ ـ وإعلامٌ منه لهم أنَّ آلهتهم لا تضرُّ ولا تنفع. يقول لهم: أمْضُوا ما تُحَدِّثُون أنفسَكُمْ به فيَّ، على عَزْمٍ منكم صحيح، واستعينوا مع مَنْ شَايَعَكُمْ عليَّ بآلهتكم التي تَدْعُونَ من دون الله، ولا تُؤَخِّرُوا ذلكَ، فإني قد توكلتُ على الله، وأنا به واثقٌ أنكم لا تَضُروني إلا أنْ يشاءَ ربي.

وهذا، وإنْ كان خبراً من الله تعالى عن نوح، فإنه حَثٌّ من الله لنبيهِ محمدٍ ﷺ على التأسي به، وتعريفٌ منه سبيلَ الرشاد فيما قلَّده من الرسالةِ والبلاغ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قيلِ نبيه نوحٍ عليه السلام لقومه: «فإنْ توليتم»، أيها القومُ، عني بعد دعائي إياكم، وتبليغِ رسالةِ ربي إليكم، مُدْبِرينَ، فأعرضتم عَمَّا دَعَوْتُكم إليه من الحقِّ، والإقرارِ بتوحيدِ الله، وإخلاصِ العبادةِ له، وتركِ إشراكِ الآلهةِ في عبادته، فتضييعٌ منكم وتفريطٌ في واجبِ حَقِّ الله عليكم، لا بسببٍ من قِبَلي، فإني لم أسألكم على ما دَعَوْتُكم إليه أجراً، ولا عِوَضاً أعتاضُه منكم بإجابتكم إيايَ إلى ما دَعَوْتُكم إليه من الحقِّ والهدى، ولا طلبتُ منكم عليه ثواباً ولا جزاءاً. «إنْ أجريَ إلا على الله»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: إن جزائي وأجر عملي وثوابه إلا على ربي، لا عليكم، أيها القومُ، ولا على غيركم. «وأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المسلمين»، وأمرني ربي أنْ أكونَ من المُذْعِنينَ له بالطاعةِ، المنقادينَ لأمرِهِ ونهيه، المتذللينَ له. ومن أجلِ ذلك أدعوكم إليه، وبأمرِهِ آمركم بتركِ عبادةِ الأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَكَذَّبَ نوحاً قَوْمُهُ فيما أخبرهم به عن الله من الرسالةِ والوحي. «فنجيناهُ ومَنْ معه»، مِمَّنْ حملَ معه «في الفلك»، يعني: في السفينة. «وجعلناهم خلائِفَ»، يقول: وجعلنا الذين نجينا مع نوحٍ في السفينة، خلائفَ في الأرضِ من قومِهِ الذين كَذَّبُوه - بعد أنْ أغرقنا الذين كَذَّبُوا بآياتنا، - يعني: حُجَجِنَا وأدِلَّتنا على توحيدِنا ورسالةِ رسولنا نوح. يقولُ الله لنبيه محمد ﷺ «فانظر»، يا محمد. «كيف كان عاقبةُ المنذَرِينَ»، وهم الذين أنذرهم نوحٌ عقابَ الله على تكذيبهم إياه وعبادتهم الأصنام. يقول له جَلَّ

ثناؤُهُ: انظر ماذا أعقبهم تَكْذِيبُهم رسولَهم، فإنَّ عاقبةَ مَنْ كذَّبك من قومكَ إنْ تمادوا في كُفْرهم وطغيانهم على ربهم، نحو الذي كان من عاقبةِ قومِ نوحٍ حين كذبوه. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فيلحذروا أنْ يحلَّ بهم مثل الذي حَلَّ بهم، إنْ لم يتوبوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ 

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم بعثنا من بعدِ نوحٍ رُسُلاً إلى قومهم، فأتوهم ببيِّناتٍ من الحجج والأدلَّةِ على صِدْقِهم، وأنهم لله رُسُلٌ، وأنَّ ما يدعونهم إليه حقٌّ. «فما كانوا ليؤمنوا بما كَذَّبُوا به من قَبْلُ»، يقول: فما كانوا ليصدِّقُوا بما جاءتهم به رُسُلهم، بما كذب به قومُ نوحٍ ومَنْ قبلَهم من الأممِ الخالية من قبلهم. «كذلك نطبعُ على قلوبِ المعتدين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما طبعنا على قلوبِ أولئك فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبَلُونَ من أنبياءِ الله نصيحَتهم، ولا يستجيبون لدعائهم إيَّاهُمْ إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوبِ واكتسبوا من الآثامِ، كذلك نطبعُ على قلوبِ مَن اعتدى على رَبِّه فتجاوزَ ما أمره به من توحيدِه، وخالفَ ما دعاهم إليه رُسُلُهم من طاعتِه، عقوبةً لهم على معصيتهم ربَّهم من هؤلاء الآخرين من بعدهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلناهم من بعد

نوحٍ إلى قومهم، موسى وهرون ابني عمران، إلى فرعونِ مِصْرَ ومَلَئِه، يعني: وأشراف قومِه وسادتهم. «بآياتنا»، يقول: بأدِلَّتنا على حقيقةِ ما دَعَوْهُمْ إليه من الإذعانِ لله بالعُبُودةِ، والإقرارِ لهما بالرسالة. «فاستكبروا»، يقول: فاستكبروا عن الإقرارِ بما دَعَاهم إليه موسى وهرون. «وكانوا قوماً مجرمين»، يعني: آثمينَ بربِّهم، بِكُفْرِهم بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فلما جاءهم الحَقُّ من عندنا»، يعني: فلما جاءهم بيانُ ما دَعَاهُمْ إليه موسى وهرون، وذلك الحجج التي جاءهم بها، وهي الحق الذي جاءهم من عند الله. «قالوا إنَّ هذا لسحرٌ مبين» ـ يعنون أنه يبينُ لمن رآه وعـايَنَـهُ أنه سِحْرٌ لا حقيقةَ له. «قال موسى»، لهم: «أتقولون للحَقِّ لما جاءكم»، من عندِ الله، «أَسِحْرٌ هذا»؟

وقوله: «ولا يفلحُ الساحرون»، يقول: ولا ينجحُ الساحرونَ ولا يَبقوْن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال فرعونُ ومَلَؤُهُ لموسى: «أَجِئْتَنَا لتلفتنا»، يقول: لِتَصْرِفَنَا وَتَلْوِينَا. «عَمَّا وجدنا عليه آباءنا»، من قَبْلِ مجيئِكَ، من الدين.

وقوله: «وتكونَ لكما الكبرياءُ في الأرض»، يعني: العَظَمة.

وقوله: «وما نحنُ لكما بمؤمنين»، يقول: «وما نحنُ لكما»، يا موسى وهرون. «بمؤمنين»، يعني: بمقرِّينَ بأنكما رسولان أُرْسِلْتُما إلينا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال فرعونُ لقومه: ائتوني بكلِّ مَنْ يَسْحَرُ من السحرةِ، عليم بالسحر. «فلما جاء السَّحَرَةُ»، فرعونَ. «قال موسى ألقوا ما أنتم ملقون»، من حِبالِكم وعِصِيِّكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما ألقوا ما هم مُلْقُوه، قال لهم موسى: ما جئتم به السحر.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ الحجازِ والعراق: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾، على وجهِ الخبرِ من موسى عن الذي جاءت به سَحَرَةُ فرعون، أنه سحرٌ. كأنَّ معنى الكلام على تأويلهم: قال موسى: الذي جِئْتُم به، أيها السحرةُ، هو السحرُ. ثم أخبرهُمْ أن الله سَيُبْطِلُه فقال: «إنَّ الله سيبطله»، يقول: سيذهبُ به. فذهب به تعالى ذِكْرُهُ، بأنْ سَلَّطَ عليه عصا موسى قد حَوَّلها ثعباناً يتلقَّفُه، حتى لم يبقَ منه شيءٌ. «إنَّ الله لا يصلحُ عملَ المفسدين»، يعني: إنه لا يصلحُ عملَ من سَعَى في أرضِ الله بما يكرهه، وعملَ فيها بمعاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مُخْبِراً عن موسى أنه قالَ للسحَرةِ: «ويُحِقُّ الله الحق»، يقول: ويُثَبِّتُ الله الحق الذي جِئْتُكم به من عنده، فَيُعْلِيه على باطِلكم ويُصَحِّحُه. «بكلماته»، يعني: بأمره. «ولو كره المجرمون»، يعني: الذين اكتسبوا الإثمَ بربِّهم، بمعصيتهم إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلم يؤمن لموسى، مع ما أتاهم به من الحججِ والأدلّة. «إلَّا ذريةٌ من قومه»، خائفينَ من فرعون، ومَلَئِهم.

و«الذرية»، في هذا الموضع، أُرِيدَ بها ذُرِّيّة مَن أُرسلَ إليه موسى من بني إسرائيل، فهلكوا قبل أنْ يُقِرُّوا بنبوَّتِهِ لطولِ الزمان، فأدركت ذريتهم، فآمَنَ منهم من ذَكَرَ الله، بموسى.

وأما قوله: «على خوفٍ من فرعون»، فإنه يعني على حالِ خوفٍ ممن آمنَ من ذريةِ قومِ موسى بموسى؛ فتأويلُ الكلام: فما آمن لموسى إلا ذريةٌ من قومه، من بني إسرائيل، وهم خائفونَ من فرعونَ ومَلَئِهم أنْ يفتنوهم.

وأما قوله: «وملئهم»، فإنَّ «الملأ» الأشراف. وتأويلُ الكلام: على خوفٍ من فرعونَ ومن أشرافِهم.

وقوله: «أنْ يَفْتِنَهُمْ»، يقول: كان إيمانُ مَنْ آمنَ من ذريةِ قومِ موسى على خوفٍ من فرعون. «أنْ يفتنهم» بالعذابِ، فيصدهم عن دِينهم، ويحملهم على الرجوعِ عن إيمانِهم والكفرِ بالله.

وقوله: «وإنَّ فرعونَ لعالٍ في الأرض»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنَّ فرعونَ لجبّارٌ مستكبرٌ على الله في أرضه. «وإنه لمن المسرفين»، وإنه لمن المتجاوزينَ الحقَّ إلى الباطلِ، وذلك كُفْرُه بالله، وتَرْكُه الإيمانَ به، وجحودهُ وحدانيةَ الله، وادِّعاؤه لنفسهِ الألوهةَ، وسفكُه الدماء بغير حِلّها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مخبراً عن قِيلِ موسى نبيِّه لقومِه: يا قوم إنْ كنتم أقررتم بوحدانيةِ الله، وصدَّقْتُمْ بربوبيتِهِ. «فعليه تَوَكَّلُوا»، يقول: فَبِهِ فَثِقُوا، ولأمره فَسَلِّمُوا، فإنه لن يخذلَ وليَّهُ، ولن يُسْلِمَ مَنْ تَوَكَّلَ عليه. «إنْ كنتم مسلمين»، يقول: إنْ كنتم مذعنينَ لله بالطاعة، فعليه توكلوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فقال قوم موسى لموسى: «على الله توكلنا»، أي: به وَثِقْنَا، وإليه فَوَّضنا أمرنا.

وقوله: «رَبَّنَا لا تجعلنا فتنةً للقومِ الظالمين»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ، مخبراً عن قومِ موسى: أنهم دَعَوْا رَبَّهم فقالوا: يا ربنا، لا تختبرْ هؤلاءِ القوم الكافرينَ ولا تَمْتَحِنْهُم بنا! يعنون قومَ فرعون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ


يقول تعالى ذِكْرُهُ: ونَجِّنا، يا رَبَّنا، برحمتكَ، فخلِّصْنا من أيدي القوم الكافرين، قوم فرعون، لأنهم كانوا يستعبدونَهُمْ ويستعملونهم في الأشياء القَذِرة من خدمتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن اتَّخِذا لقومكما بمصرَ بيوتاً، «واجعلوا بيوتكم قبلةً»، يقول: واجعلوا بيوتكم مَساجدَ تُصلُّونَ فيها.

«وأقيموا الصلاة»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأدُّوا الصلاةَ المفروضةَ بحدودها في أوقاتها.

وقوله: «وبَشِّرِ المؤمنين»، يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه عليه السلام: وبَشر مُقِيمي الصلاة، المُطيعي الله، يا محمد، المؤمنينَ، بالثوابِ الجزيل منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال موسى: يا ربَّنا، إنك أعطيتَ فرعونَ وكُبَراءَ قومه وأشرافَهم، وهم «الملأ» «زينة»، من متاع الدنيا وأثاثها. و«أموالاً» من أعيانِ

الذهب والفضة. «في الحياة الدنيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عن سبيلك»، يقول موسى لربه: رَبَّنا، أعطيتَهُمْ ما أعطيتهم من ذلك، لِيُضلُّوا عن سبيلك عبادَك عقوبة منكَ.

وقوله: «ربنا اطمسْ على أموالهم واشْدُدْ على قلوبهم»، هذا دعاءٌ من موسى، دعا الله على فرعونَ ومَلَئِهِ أنْ يغيِّر أموالهم عن هيئتها، ويُبدلها إلى غير الحالِ التي هي بها، وذلك نحو قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧]، يعني به: من قبل أن نغيرها عن هيئتها التي هي بها.

وأما قوله: «واشدد على قلوبهم»، فإنه يعني: واطبعْ عليها حتى لا تَلِينَ ولا تنشرح بالإيمان.

وأما قوله: «فلا يؤمنوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليم»، فإنَّ معناه: فلا يُصَدِّقُوا بتوحيدِ الله ويُقِرُّوا بوحدانيته، حتى يروا العذابَ الموجع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله عن إجابتهِ لموسى ﷺ وهرون دُعَاءَهُمَا على فرعونَ وأشرافِ قومهِ وأموالهم. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال الله لهما: «قد أُجيبت دعوتكما» في فرعون ومَلَئه وأموالهم.

وأما قوله: «فاستقيما»، فإنه أمرٌ من الله تعالى لموسى وهرون بالاستقامةِ والثباتِ على أمرهما، من دعاءِ فرعونَ وقومهِ إلى الإجابةِ إلى توحيدِ الله وطاعته، إلى أنْ يأتيهم عقابُ الله الذي أخبرهما أنه أَجَابَهما فيه.

وقوله: «ولا تَتَّبِعَانِّ سبيلَ الذين لا يعلمون»، يقول: ولا تسلكانِّ طريقَ

الذين يجهلونَ حقيقةَ وعْدي، فتستعجلانِ قضائي، فإن وَعْدي لا خُلْف له، وإنَّ وعيدي نازلٌ بفرعون، وعذابي واقعٌ به وبقومه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقطعنا ببني إسرائيلَ البحرَ حتى جاوزُوه. «فأتبعهم فرعون»، يقول: فتَبعهم فرعونُ وجنودُه.

«بغياً» على موسى وهـرون ومَنْ معهمـا من قومهما من بني إسرائيل. «وعدْواً»، يقول: واعتداءً عليهم.

وقد روي عن بعضهم أنه كان يقرأ: ﴿بَغْياً وَعُدُوًّا﴾، وهو أيضاً مصدر من قولهم: «عَدَا يَعدُو عُدُوًّا»، مثل: «علا يعلو عُلُوًّا».

«حتى إذا أدركه الغرق»، يقول: حتى إذا أحاطَ به الغَرقُ. وفي الكلامِ متروك، قد تُركَ ذِكْرُه لدلالَةِ ما ظهرَ من الكلامِ عليه، وذلك: «فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً» فيه «فغرَّقْناهُ» «حتى إذا أدركه الغرق».

وقـولـه: «قال آمنتُ أنه لا إله إلاَّ الذي آمنتْ به بنو إسرائيلَ وأنا من المسلمين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيل فرعون حين أشفى على الغرق، وأيقن بالهلكَةِ: «آمنتُ»، يقول: أقررتُ أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بَنُو إسرائيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مُعَرِّفاً فرعونَ قُبْحَ صَنيعِه أيَّامَ حياته، وإساءته إلى نفسهِ أيامَ صحته، بتماديهِ في طغيانه، ومعصيته رَبَّهُ، حين فَزِعَ إليه في حالِ حلولِ سَخَطِه به، ونزولِ عقابه، مستجيراً به من عذابهِ الواقع به، لما ناداهُ وقد عَلتْهُ أمواجُ البحرِ، وغشيته كُرَبُ الموتِ، «آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» له، المُنْقَادينَ بالذلةِ له، المعترفينَ بالعبوديةِ ـ الآن، تُقِرُّ لله بالعبوديةِ، وتستسلمُ له بالذِلَّةِ، وتخلصُ له الأُلوهةَ، وقد عَصَيْتَهُ قبلَ نزولِ نقمته بك، فأسْخَطْتَهُ على نفسكَ، وكنتَ من المفسدينَ في الأرض، الصادِّين عن سبيله؟ فهلاَّ وأنتَ في مَهَلٍ، وبابُ التوبةِ لك منفتحٌ، أقررتَ بما أنتَ به الآنَ مُقِرٌّ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لفرعونَ: اليوم نَجْعَلُكَ على نَجْوةٍ[1] من الأرضِ ببدنكَ، ينظر إليك هالكاً مَنْ كَذَّبَ بهلاكِكَ. «لتكونَ لمن خلفك آية»، يقول: لمن بَعْدَكَ من الناسِ عبرةً يعتبرونَ بك، فينزجرون عن معصيةِ الله، والكفر به والسعي في أرضه بالفساد.

وقوله: «وإنَّ كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وإنَّ كثيراً من الناسِ عن آياتنا»، يعني: عن حُجَجِنَا وأدِلَّتنا على أنَّ العبادةَ والأُلوهةَ لنا خالصةٌ. «لغافلون»، يقول: لَسَاهُون، لا يتفكَّرُونَ فيها، ولا يعتبرونَ بها.

(١) النجوة: الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أنزلنا بني إسرائيلَ منازلَ صِدْق.

وقوله: «ورزقناهم من الطيبات»، يقول: ورزقنا بني إسرائيلَ من حلالِ الرزقِ ـ وهو «الطيب».

وقوله: «فما اختلفوا حتى جاءهم العلم»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فما اختلفَ هؤلاءِ الذين فعلنا بهم هذا الفعلَ من بني إسرائيلَ، حتى جاءهم ما كانوا به عالمين. وذلك أنهم كانوا قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ محمدٌ النبيّ ﷺ مجمعينَ على نُبُوَّةِ محمدٍ والإقرارِ به وبمبعثه، غير مختلفينَ فيه بالنعتِ الذي كانوا يَجِدُونَهُ مكتوباً عندهم، فلما جاءهم ما عَرَفُوا كفر به بعضُهم وآمنَ به بعضُهم، والمؤمنونَ به منهم كانوا عدداً قليلاً. فذلك قوله: فما اختلفوا حتى جاءهم المعلومُ الذي كانوا يعلمونه نبيًّا لله ـ فوضع «العلم» مكان «المعلوم».

وقوله: «إنَّ ربك يقضي بينهم يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختلفون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ ربَّكَ، يا محمدُ، يقضي بين المختلفينَ من بني إسرائيلَ فيكَ يومَ القيامة، فيما كانوا فيه من أمري في الدنيا يختلفون، بأن يُدْخِلَ المكذبينَ بكَ منهم النارَ، والمؤمنينَ بك منهم الجنةَ، فذلك قضاؤه يومئذٍ فيما كانوا فيه يختلفون من أمرِ محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فإنْ كنت، يا محمدُ، في شَكٍّ من حقيقةِ ما اخترناكَ فأنزلنا إليك، من أنَّ بني إسرائيلَ لم يختلفوا في نُبُوَّتِكَ قبل أنْ تُبْعَثَ رسولاً إلى خَلْقِه، لأنهم يجدونكَ عندهم مكتوباً، ويعرفونكَ بالصفةِ التي أنتَ بها موصوفٌ في كتابهم في التوراة والإنجيل «فاسألِ الذين يقرأونَ الكتابَ من قبلك»، من أهلِ التوراة والإنجيل، كعبدِ الله بنِ سلام ونحوه، من أهلِ الصِّدْقِ والإيمانِ بكَ منهم، دونَ أهلِ الكذبِ والكفرِ بك منهم.

فإنْ قال قائل: أَوَ كان رسول الله ﷺ في شَكٍّ من خبر الله أنه حقٌّ يقين، حتى قيل له: «فإنْ كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليك فاسألِ الذين يقرأونَ الكتابَ من قبلك»؟

قيل: لا.

فإن قال: فما وجهُ مخرجِ هذا الكلامِ، إذنْ، إنْ كان الأمرُ على ما وصفتَ؟

قيل: قد بَيَّنا في غير موضعٍ من كتابنا هذا، استجازةَ العربِ قولَ القائلِ منهم لمملوكه: «إنْ كنتَ مملوكي فانته إلى أمري»، والعبدُ المأمورُ بذلك لا يشكّ سيدُه القائلُ له ذلكَ أنه عَبْدُه. كذلك قولُ الرجلِ منهم لابنه: «إنْ كنت ابني فبرَّني»، وهو لايشكُّ في ابنِه أنه ابنه ـ وأنَّ ذلك من كلامِهم صحيحٌ مستفيضٌ فيهم، وذكرنا ذلك بشواهدِه، وأنَّ منه قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ الله يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله﴾ [المائدة: ١١٦]، وقد علم جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ عيسى لم يقل ذلك. وهذا من ذلك، لم يكن ﷺ شاكاً في حقيقةِ خبرِ الله وصحته، والله تعالى ذِكْرُهُ بذلك من أمره كان عالماً، ولكنه جَلَّ ثناؤُهُ خاطبه خطاب قومه بعضهم بعضاً، إذْ كان القرآن بلسانهم نزل.

وأما قوله: «لقد جاءك الحَقُّ من ربك» الآية، فهو خبرٌ من الله مبتدأ.

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: أقسم لقد جاءك الحَقُّ اليقينُ من الخبرِ بأنكَ لله رسولٌ، وأنَّ هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صِحَّةَ ذلك، ويجدون نَعْتَكَ عندهم في كتبهم. «فلا تَكُونَنَّ»، يقول: فلا تكونَنَّ من الشاكين في صحـة ذلك وحقيقته.

ولو قال قائل: إنَّ هذه الآيةَ خُوطِبَ بها النبيُّ ﷺ، والمرادُ بها بعضُ مَنْ لم يكن صحَّتْ بَصِيرتُه بنبوته ﷺ، ممن كان قد أظهر الإيمانَ بلسانِه، تنبيهاً له على موضعِ تعرُّفِ حقيقةِ أمره الذي يزيلُ اللَّبْس عن قَلْبه، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الأحزاب: ١]، كان قولاً غيرَ مدفوعةٍ صِحَّتُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ: ولا تكونن، يا محمدُ، من الذين كَذَّبُوا بحججِ الله وأدلته، فتكون مِمَّنْ غُبِنَ حَظَّه، وباعَ رحمةَ الله ورضاه، بسَخَطِه وعقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الذين وجبتْ عليهم، يا محمدُ، «كلمةُ ربك»، هي لَعْنَتُه إياهم بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، فَثَبتتْ عليهم.

وقوله: «لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية»، يقول: لا يُصَدِّقُونَ بحججِ الله، ولا يقرُّون بوحدانيةِ رَبِّهم، ولا بأنكَ لله رسولٌ. «ولو جاءتهم كُلُّ آية»، وموعظة وعبرة، فَعَاينُوها، حتى يعاينوا العذابَ الأليم، كما لم يؤمن فرعونُ ومَلَؤه إذْ حقَّت عليهم كلمةُ ربِّك حتى عاينوا العذابَ الأليم، فحينئذٍ قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، حين لم ينفعه قِيْلُه، فكـذلـك هؤلاء الـذين حَقَّتْ عليهم كلمـةُ رَبِّكَ من قومكَ من عَبَدَةِ الأوثانِ وغيرهم، لا يؤمنونَ بك فيتبعونكَ، إلا في الحين الذي لا ينفعهم إيمانهم.

القَـوْلُ في تَأْويل قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَهلَّا كانت قَرْية آمنت؟

ومعنى الكلام: فما كانت قريةٌ آمنتْ عند معاينتها العذابَ، ونزول سَخَطِ الله بها، بعصيانِها ربَّها واستحقاقِها عقابَهُ، فَنَفَعَها إيمانُها ذلك في ذلك الوقت، كما لم ينفع فرعونَ إيمانُه حين أدركَهُ الغَرَقُ بعد تمادِيه في غيِّه، واستحقاقه سَخَطَ الله بمعصيتِه - إلَّا قومَ يُونُسَ، فإنهم بعد نزولِ العقوبةِ وحلولِ السخطِ بهم. فاستثنى الله قومَ يونس من أهلِ القرى الذين لم ينفعهم إيمانُهم بعد نزولِ العـذابِ بسـاحتهم، وأخرجهم منهم، وأخبرَ خَلْقَهُ أنه نفعهم إيمانُهم خاصَّةً من بين سائرِ الأممِ غيرهم.

وقوله: «لما آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخِزْيَ في الحياة الدنيا»، يقول: لما صَدَّقُوا رسولَهم، وأقروا بما جاءهم به، بعد ما أظلَّهم العذابُ وغشيهم أمْرُ الله ونـزلَ بهم البلاءُ، كشفنا عنهم عَذَابَ الهوانِ والذلِّ في حياتِهم الدنيا.

«ومَتَّعْنَاهُمْ إلى حين»، يقول: وأخَّرْنَا في آجالهم ولم نُعاجِلهم بالعقوبةِ، وتركناهم في الدنيا يستمتعون فيها بآجالِهم إلى حِينِ مماتِهم، ووقت فناء أعمارِهم التي قَضَيْتُ فَنَاءها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: «ولو شاء»، يا محمدُ، «رَبُّكَ لآمنَ من في الأرضِ كُلُّهم جميعاً»، بكَ، فصدَّقوكَ أنك لي رسولُ، وأنَّ ما جِئتهم به وما تَدْعُوهم إليه من توحيدِ الله وإخلاصِ العُبودةِ له، حقٌّ، ولكن لا يشاء ذلك، لأنه قد سَبَقَ من قضاءِ الله قبل أنْ يبعثكَ رسولاً أنه لا يؤمنُ بك، ولا يَتَّبِعك فَيُصَدِّقَكَ بما بَعَثَكَ الله به من الهدى والنور، إلا مَنْ سبقتْ له السعادةُ في الكتاب الأوَّلِ قبل أنْ تُخْلَقَ السمواتُ والأرض وما فيهن. وهؤلاء الذين عَجبُوا من صِدْق إيحائنا إليكَ هذا القرآنَ لِتُنْذِرَ به مَنْ أمرتُكَ بإنذارِه، ممَّنْ قد سَبَقَ له عندي أنهم لا يؤمنونَ بكَ في الكتاب السابق.

وقوله: «أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيِّه محمد ﷺ: إنه لَنْ يُصَدِّقَكَ، يا محمدُ، ولن يَتَّبِعَكَ ويُقِرَّ بما جئتَ به إلا مَنْ شاء رَبُّكَ أنْ يصدّقك، لا بإكراهكَ إياهُ، ولا بحرصكَ على ذلك. «أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين» لك، مُصَدِّقينَ على ما جِئْتَهُمْ به من عند رَبّكَ؟ يقول له جَلَّ ثناؤُهُ: فاصدَعْ بما تُؤْمَر، وأعْرِضْ عن المشركينَ الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّكَ أنَّهم لا يؤمنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: وما كانَ لنفسٍ خَلَقْتُها، من سبيلٍ إلى تصديقِكَ، يا محمدُ، إلَّا بأنْ آذَنَ لها في ذلك، فلا تجهدنَّ نفسك في طَلَبِ هداها، وبَلِّغْها وعيدَ الله، وعَرِّفْهَا ما أمرَكَ رَبُّكَ بتعريفها، ثم خَلِّها، فإنَّ هُدَاها بيدِ خالقها.

وأما قوله: «ويجعلُ الرِّجْسَ على الذين لا يعقلون»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله يهدي مَنْ يشاء من خَلْقِه للإيمانِ بكَ، يا محمدُ، ويأذَنُ له في تصديقكَ فيُصَدِّقُكَ، ويَتَّبِعُكَ، ويُقِرُّ بما جئتَ به من عند ربك. «ويجعل الرجس»، وهو العذابُ وغضبُ الله. «على الذين لا يعقلون»، يعني: الذين لا يعقلون عن الله حُجَجَهُ ومواعِظَهُ وآياته التي دلَّ بها جَلَّ ثناؤُهُ على نبوَّةِ محمدٍ ﷺ، وحقيقة ما دَعَاهم إليه من توحيد الله، وخَلْعِ الأنداد والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ١٠١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ من قومك، السَّائليكَ الآياتِ على صِحَّةِ ما تَدْعُوهم إليه من توحيدِ الله، وخلعِ الأندادِ والأوثانِ: انظروا، أيها القومُ، ماذا في السمواتِ من الآياتِ الدّالةِ على حقيقةِ ما أدعوكم إليه من توحيدِ الله، من شمسها وقمرها، واختلافِ ليلها ونهارِها، ونزولِ الغيثِ بأرزاقِ العبادِ من سحابها - وفي الأرضِ من جبالها، وتصدُّعها بنباتها وأقواتِ أهلها، وسائرِ صنوفِ عجائبها، فإنَّ في ذلك لكم إنْ عقلتم وتَدَبَّرْتُمْ عظةً ومعتبراً ودلالةً على أنَّ ذلك من فعل مَنْ لا يجوزُ أنْ يكونَ له في مُلْكه شريكٌ، ولا له على تدبيرِه وحِفْظِه ظهيرٌ - يُغْنيكم عَمَّا سِواهُ من الآيات.

يقـول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «وما تُغني الآياتُ والنذر عن قوم لا يؤمنون»، يقول: وما تُغني الحججُ والعِبَرُ والرسلُ المنذرةُ عبادَ الله عقابَهُ، عن قوم قد سَبَقَ لهم من الله الشقاءُ، وقَضَى لهم في أُمِّ الكتاب أنهم من أهل النار، لا يؤمنونَ بشيءٍ من ذلك ولا يُصَدِّقُونَ به، ولو جاءتهم كُلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذابَ الأليم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ، مُحَذِّراً مشركي قومِه من حلولِ عاجـلِ نِقَمِـه بساحتهم نحوَ الذي حَلَّ بنظرائهم من قبلهم من سائرِ الأممِ الخالية من قبلهم، السالكة في تكذيبِ رُسُلِ الله وجحودِ توحيدِ ربِّهم سبيلَهم: فهل ينتظر، يا محمدُ، هؤلاء المشركونَ من قومِكَ، المكذِّبونَ بما جئتهم به من عند الله، إلا يوماً يُعَايِنُون فيه من عذابِ الله مِثْلَ أيامِ أسلافِهم الذين كانوا على مِثْلِ الذي هُمْ عليه من الشِّرْكِ والتكذيب، الذين مضوا قبلهم فخَلَوْا من قومِ نوحٍ وعاد وثمود؟ قُلْ لهم، يا محمدُ، إنْ كانوا ذلك ينتظرون: فانتظروا عِقابَ الله إياكم، ونزولَ سَخَطِه بكم، إنِّي من المنتظرينَ هلاكَكُم وبَوارَكُم بالعقوبةِ التي تَحلُّ بكم من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ من قومك: انتظروا مِثْلَ أيامِ الذين خَلَوْا من قَبْلِكم من الأممِ السالفةِ الذين هَلَكُوا بعذابِ الله،

فإنَّ ذلك إذا جاء لم يُهْلَكْ به سِواهم ومَنْ على مِثْلِ الذي هُمْ عليه من تكذيبك، ثم نُنَجِّي هناك رسولَنا محمداً ﷺ ومَنْ آمنَ به وصَدَّقَهُ واتبعه على دينه، كما فعلنا قبلَ ذلك برُسلنا الذين أهلكنا أممهم، فأنجيناهم ومَنْ آمَن به معهم من عذابنا حين حَقَّ على أممهم. «كذلك حقًّا علينا نُنْجي المؤمنين»، يقول: كما فعلنا بالماضين من رُسُلِنَا فأنْجَيْنَاهَا والمؤمنينَ معها وأهلكنا أُمَمَهَا، كذلك نفعلُ بكَ، يا محمدُ، وبالمؤمنينَ، فننجيكَ ونُنَجِّي المؤمنينَ بك، حقًّا علينا غير شك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ، قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ من قومكَ الذين عَجبُوا أنْ أوحيتُ إليك: إنْ كنتم في شكٍ، أيها الناسُ، من دِيني الذي أدعوكُمْ إليه، فلم تعلموا أنه حقٌّ من عند الله، فإني لا أعبدُ الذين تعبدونَ من دونِ الله، من الآلهةِ والأوثانِ التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عَنِّي شيئاً، فتشكُّوا في صحته.

وهذا تعريضٌ ولحنٌ من الكلامِ لطيفٌ[1]، وإنما معنى الكلام: إنْ كنتم في شكٍ من دِيني، فلا ينبغي لكم أن تَشُكُّوا فيه، وإنما ينبغي لكم أنْ تَشُكُّوا في الذي أنتم عليه من عبادةِ الأصنامِ التي لا تعقلُ شيئاً، ولا تَضُرُّ ولا تنفع. فأما دِيني فلا ينبغي لكم أنْ تشكُّوا فيه، لأني أعبدُ الله الذي يقبضُ الخَلْقَ فَيُمِيتُهم إذا شاء، وينفعهم ويضرُّهم إنْ شاء. وذلك أنَّ عبادَة مَنْ كان كذلك،

---

(١) اللحن: التعريض والإيماء دون التصريح.

لا يستنكِرُهَا ذُو فطرةٍ صحيحة. وأما عبادةُ الأوثان، فينكرها كُلُّ ذي لبٍّ وعقلٍ صحيح.

وقـوله: «ولكنْ أعبدُ الله الذي يتوفاكم»، يقول: ولكنْ أعبدُ الله الذي يقبضُ أرواحَكُم فيميتكم عند آجالكم. «وأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المؤمنين»، يقول: وهو الذي أمرني أنْ أكونَ من المُصَدِّقينَ بما جاءني من عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المؤمنين». «وأنْ أَقِمْ»، و«أنْ» الثانية عطفٌ على «أن» الأولى.

ويعني بقـوله: «أقم وجهكَ للدين»، أَقِمْ نفسكَ على دِينِ الإسلامِ، «حنيفاً» مستقيماً عليه، غير مُعْوَجٍّ عنه إلى يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ، ولا عبادةِ وَثَن. «ولا تَكُونَنَّ من المشركين»، يقول: ولا تكونن مِمَّنْ يشركُ في عبادة رَبِّه الآلهةَ والأندادَ، فتكونَ من الهالكين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تَدْعُ، يا محمدُ، من دونِ معبودك وخالِقكَ شيئاً لا يَنْفَعُكَ في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دينٍ ولا دنيا، يعني بذلك الآلهةَ والأصنام. يقول: لا تَعْبُدْهَا راجياً نَفْعَهَا أو خائفاً ضرَّها، فإنها لا تنفعُ ولا تضـر. «فـإنْ فعلتَ»، ذلـك، فَدَعَـوْتَهَـا من دونِ الله. «فـإنـك إذاً من الظالمين»، يقول: من المشركينَ بالله الظالمي أنفُسِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: وإنْ يُصِبْكَ الله، يا محمدُ، بِشِدَّةٍ أو بلاءٍ، فلا كاشفَ لذلك إلاَّ ربُّكَ الذي أصابكَ به، دونَ ما يعبدُه هؤلاء المشركونَ من الآلهةِ والأندادِ. «وإنْ يُرِدْكَ بخيرٍ»، يقول: وإنْ يردك رَبُّكَ برخاءٍ أو نعمةٍ وعافية وسرور. «فلا رَادَّ لفضلِهِ»، يقول: فلا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يحولَ بينكَ وبين ذلك، ولا يَرُدَّكَ عنه، ولا يَحْرِمكَهُ، لأنه الذي بيده السَّرَّاءُ والضرَّاءُ، دونَ الآلهةِ والأوثان، ودونَ ما سواه. «يُصيبُ به مَنْ يشاء»، يقول: يُصيبُ رَبُّكَ، يا محمدُ، بالرخاءِ والبلاءِ والسراءِ والضراءِ، مَنْ يشاء ويريد. «من عباده وهو الغفورُ»، لذنوبِ مَنْ تابَ وأنابَ من عبادِه من كُفْره وشِرْكِه إلى الإيمانِ به وطاعته. «الرحيم»، بِمَنْ آمنَ به منهم وأطاعه، أنْ يعذبه بعد التوبة والإنابة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ «قل»، يا محمدُ، للناس. «يا أيها الناسُ قد جاءكم الحَقُّ من رَبِّكم»، يعني: كتاب الله، فيه بيانُ كُلِّ ما بالناسِ إليه حاجةٌ من أمرِ دينهم. «فمن اهتدى»، يقول: فَمَنِ استقامَ فَسَلَكَ سبيلَ الحق، وصَدَّقَ بما جاء من عندِ الله من البيانِ، «فإنما يهتدي لنفسه»، يقول: فإنما يستقيمُ على الهدى ويسلك قصدَ السبيلِ لنفسه، فإيَّاها يبغي الخيرَ بفعله ذلك لا غيرها. «ومَنْ ضَلَّ»، يقول: ومن اعْوَجَّ عن الحَقِّ الذي أتاه من عند

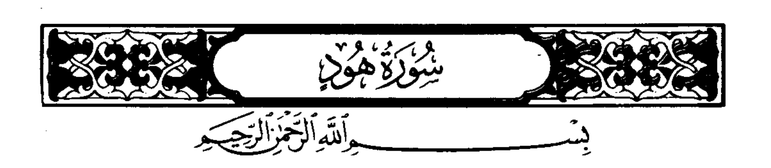
الله، وخالفَ دينَهُ وما بَعثَ به محمداً والكتابَ الذي أنزله عليه. «فإنما يَضِلُّ عليها»، يقول: فإنَّ ضلالَهُ ذلك إنما يجني به على نفسه، لا على غيرها، لأنه لا يُؤْخَذُ بذلك غيرها، ولا يُورِدُ بضلالِه ذلك المهالكَ سوى نفسِه، ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى. «وما أنا عليكم بوكيل»، يقول: وما أنا عليكم بِمُسَلَّطٍ على تقويمِكُمْ، وإنما أمركم إلى الله، وهو الذي يقوّم مَنْ يشاء منكم، وإنما أنا رسولٌ مُبَلِّغٌ أُبَلِّغُكُم ما أُرسِلْتُ به إليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واتَّبِعْ، يا محمدُ، وحيَ الله الذي يُوحيه إليكَ، وتنزيلَهُ الذي ينزله عليكَ، فاعملْ به، واصبرْ على ما أصابكَ في الله من مشركي قومك من الأذى والمكاره، وعلى ما نَالكَ منهم، حتى يقضي الله فيهم وفيكَ أَمْرَهُ بفعلٍ فاصلٍ. «وهو خيرُ الحاكمين»، يقول: وهو خَيرُ القاضينَ وأعدلُ الفاصلين. فَحَكَمَ جَلَّ ثناؤُهُ بينه وبينهم يوم بَدْرٍ، وقتلهم بالسيفِ، وأمرَ نَبيَّهُ ﷺ فِيمَنْ بقيَ منهم أنْ يسلك بهم سبيلَ مَنْ أهلك منهم، أو يتوبوا ويُنيبوا إلى طاعته.

تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ





القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالى ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾:

قد ذكرنا اختلافَ أهلِ التأويلِ في تأويل قوله: «الر»، والصواب من القولِ في ذلك عندنا بما أَغْنَى عن إعادتِه في هذا الموضع[1].

وقوله: «كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه»، يعني: هذا الكتابُ الذي أنزلَهُ الله على نبيهِ محمدٍ ﷺ، وهو القرآن.

وأما قوله: «أُحكمتْ آياته ثم فُصِّلَتْ»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: تأويله: أُحكمتْ آياتُه بالأمرِ والنهي، ثم فُصِّلَتْ بالثَّوابِ والعقاب.

وقال آخرون: معنى ذلك: «أُحكمت آياته»، من الباطلِ. «ثم فُصِّلَتْ»، فَبَيَّنَ منها الحلالَ والحرام.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: أَحْكَمَ اللهُ آياتِه من الدَّخَلِ والخَلَل والباطلِ، ثم فَصَّلها بالأمرِ والنهي.

وذلك أنَّ «إحكامَ الشيءِ»، إصلاحه وإتقانه، و«إحكامُ آياتِ القرآن»، إحكامُها من خَلَلٍ يكونُ فيها، أو باطلٍ يقدرُ ذُو زَيغٍ أنْ يطعنَ فيها من قِبَله.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

وأما «تفصيل آياته»، فإنه تمييزُ بعضِها من بعضٍ، بالبيانِ عَمَّا فيها من حلالٍ وحرام، وأمرٍ ونهي.

وكان بعضُ المفسرين يُفَسِّرُ قوله: «فُصِّلَتْ»، بمعنى: فُسِّرَتْ، وذلك نحو الذي قلنا فيه من القولِ.

وأما قوله: «من لَدُنْ حكيمٍ خبير»، فإنَّ معناه: «حكيم»، بتدبيرِ الأشياء وتقديرها. «خبير» بما تؤولُ إليه عواقبُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾



يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم فُصِّلَتْ بأنْ لا تَعْبُدُوا إلاَّ الله وحده لا شريكَ له، وتخلعوا الآلهةَ والأندادَ. ثم قال تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، للناسِ. «إنَّني لكم»، من عندِ الله «نذيرٌ» يُنذِرُكُمْ عِقَابَهُ على معاصيهِ وعبادةِ الأصنام. «وبشير»، يُبَشِّرُكُمْ بالجزيلِ من الثوابِ على طاعته وإخلاصِ العبادةِ والأُلوهَةِ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم فُصِّلَتْ آياتُه، بأنْ لا تعبدوا إلاَّ الله، وبأن استغفروا رَبَّكم. ويعني بقوله: «وأنِ استغفرُوا ربكم»، وأنِ اعملوا، أيها الناسُ، من الأعمالِ ما يُرْضي رَبَّكم عنكم، فيستر عليكم عظيمَ ذنوبكم التي ركبتموها بعبادَتِكُم الأوثانَ والأصنامَ، وإشراككم الآلهةَ والأندادَ في عبادتِه.

وقوله: «ثم تُوبوا إليه»، يقول: ثم ارجعوا إلى رَبِّكم بإخلاصِ العبادةِ له، دونَ ما سواه من سائرِ ما تعبدونَ من دونه، بعد خَلْعِكم الأندادَ، وبراءتكم من عبادتها، ولذلك قيل: «وأنِ استغفروا رَبَّكُم ثم توبوا إليه»، ولم يقل: «وتوبوا إليه»، لأنَّ «التوبةَ» معناها الرجوع إلى العملِ بطاعةِ الله، و«الاستغفار»، استغفارٌ من الشِّرْكِ الذي كانوا عليه مقيمينَ. والعملُ لله لا يكونُ عملاً له، إلا بعد تَرْكِ الشركِ به، فأما الشرك فإنَّ عمله لا يكون إلا للشيطان، فلذلك أمرهم الله تعالى ذِكْرُهُ بالتوبةِ إليه بعد الاستغفارِ من الشركِ، لأنَّ أهلَ الشركِ كانوا يَرَون أنهم يُطِيعون الله بكثيرٍ من أفعالهم، وهم على شِرْكِهم مقيمون.

وقوله: «يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمشركينَ الذين خاطبهم بهذه الآيات: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بَسَطَ عليكم من الدنيا، ورَزَقكم من زِينتِها، وأنسأَ لكم في آجالِكُمْ إلى الوقتِ الذي قضى فيه عليكم الموت.

وأما قوله: «ويُؤْتِ كُلَّ ذي فَضْلٍ فضله»، فإنه يعني: يُثِيبُ كُلَّ مَنْ تفضَّل بفضل مالهِ أو قوتهِ أو معروفهِ على غيرِه، مُحْتَسِباً بذلك، مُريداً به وجهَ الله أجزلَ ثوابه وفضله في الآخرة.

وقوله: «وإنْ تَوَلَّوْا فإني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبير»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ أعرضوا عما دَعَوْتهم إليه، من إخلاصِ العبادةِ لله، وتركِ عبادةِ الآلهةِ، وامتنعوا عن الاستغفارِ لله والتوبةِ إليه، فأدبروا مُوَلِّينَ عن ذلك. «فإني»، أيها القومُ، «أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبير»، شأنُه، عظيمٍ هَوْلُه، وذلك يوم تُجْزَى كُلُّ نفسٍ بما كسبت وهم لا يُظْلَمُون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾



يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إلى الله»، أيها القومُ، مآبُكم ومصيركم، فاحذروا عقابَهُ إنْ توليتم عَمَّا أدعوكُمْ إليه من التوبةِ إليه من عبادتكم الآلهةَ والأصنامَ، فإنه مُخَلِّدُكُم نارَ جهنم إنْ هلكتم على شِرْكِكُمْ قبلَ التوبةِ إليه. «وهو على كُلِّ شيءٍ قدير»، يقول: وهو على إحيائكم بعد مماتكم، وعقابكم على إشراككم به الأوثانَ، وغير ذلك مما أرادَ بكم وبغيركم قادرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾



يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ألا إنهم يثنون صدورهم»، يَحْنون صدورَهُم ويُكِنُّونها.

وكانوا يفعلون ذلك جهلاً منهم بالله أنه يَخْفَى عليه ما تُضْمِرُهُ نُفوسُهم، أو تَنَاجَوْهُ بينهم. فأخبرهم جَلَّ ثناؤُهُ أنه لا يَخْفَى عليه سِرُّ أمورهم وعلانيتها على أيِّ حالٍ كانـوا: تَغَشَّـوْا بالثياب، أو ظَهَرُوا بالبَرَاز[1]، فقال: «ألا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثيابهم»، يعني: يَتَغَشَّوْنَ ثيابهم، يتغطونها ويلبسون.

«يعلم ما يُسِرُّونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: يعلمُ ما يُسِرُّ هؤلاء الجَهَلَةُ بربهم، الـظانُّـون أنَّ الله يَخْفَى عليه ما أضمرته صُدُورهم إذا حَنَوْهَا على ما فيها، وثنـوهـا، ومـا تَنَـاجَوْهُ بينهم فأخفوه. «وما يعلنون»، سواءٌ عنده سرائرُ عبادِه

(١) البراز: الفضاء البعيد الواسع، ليس فيه شجر ولا ستر.

وعلانيتهم. «إنه عليمٌ بذاتِ الصدور»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله ذُو عِلْمٍ بكلِّ ما أخْفَتْهُ صدورُ خَلْقِه، من إيمانٍ وكُفْرٍ، وحَقٍّ وباطل، وخيرٍ وشر، وما تَسْتَجِنُّهُ مما لم تُجِنَّه بعدُ. فاحذروا أنْ يَطَّلِعَ عليكم رَبُّكم وأنتم مُضْمِرُونَ في صُدُورِكم الشَّكَّ في شيءٍ من توحيدِه، أو أمرِه أو نهيِهِ، أو فيما ألزمكم الإيمانَ به والتصديقَ، فَتَهْلِكُوا باعتقادِكم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وما مِنْ دابَّةٍ في الأرض إلا على الله رِزْقُها»، وما تدبُّ دابَّةٌ في الأرض إلا ومن الله رِزْقُها الذي يَصِلُ إليها، هو بِهِ مُتَكَفِّلٌ، وذلك قُوتها وغِذاؤُها وما بِهِ عَيْشُها.

وقوله: «ويَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا»، حيثُ تستقرُّ فيه، وذلك مأواها الذي تأوي إليه ليلاً أو نهاراً. «ومستودعها» الموضع الذي يودعها، إما بموتِها، فيه، أو دَفْنِهَا.

ويعني بقوله: «كُلٌّ في كتابٍ مبين»، مُبَيِّنٍ عَدَدَ كُلِّ دابةٍ، ومَبْلَغَ أرزاقها، وقَدْرَ قرارها في مستقرِّها، ومُدَّةَ لبثها في مستودعها. كُلُّ ذلك في كتابٍ عند الله مُثْبَتٍ مكتوب. «مبين»، يُبَيِّنُ لمن قَرَأَهُ أنَّ ذلك مثبتٌ مكتوبٌ قبل أنْ يخلقها ويوجدها.

وهذا إخبارٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ الذين كانوا يَثْنُونَ صُدورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا منه، أنه قد عَلِمَ الأشياءَ كُلَّها وأثبتها في كتابٍ عنده قبلَ أنْ يخلقَها ويُوجِدَهَا.

يقول لهم تعالى ذِكْرُهُ: فمن كان قد عَلِمَ ذلك منهم قبل أن يُوجِدَهُمْ، فكيفَ يَخْفَى عليه ما تنطوي عليه نفوسُهم إذا ثَنَوْا به صُدورَهُم، واستَغْشَوْا عليه ثيابهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله الذي إليه مَرْجِعُكم، أيها الناسُ، جميعاً «هو الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام»، يقول: أفيعجزُ مَنْ خَلَقَ ذلك من غير شيءٍ، أنْ يُعِيدكُمْ أحياءً بعد أنْ يُمِيتَكم؟

وقوله: «وكان عرشُه على الماء»، يقول: وكان عرشه على الماء قبل أنْ يَخْلقَ السمواتِ والأرض وما فيهن.

وقوله: «ليبلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحسنُ عملاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهو الذي خلقَ السمواتِ والأرض، أيها الناسُ، وخلقكم في ستةِ أيام «ليبلوكم»، يقول: لِيَخْتَبِرَكُمْ. «أيكم أحسن عملاً»، يقول: أيكم أحسنُ له طاعةً.

وقوله: «ولئن قلتَ إنكم مبعوثونَ من بعدِ الموتِ ليقُولَنَّ الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ولَئِنْ قُلتَ لهؤلاء المشركينَ من قومكَ: إنكم مبعوثونَ أحياءً من بعد مماتِكم! فتلوتَ عليهم بذلك تنزيلي ووحيي «ليقولن إنْ هذا إلا سِحْرٌ مبين»، أي: ما هذا الذي تَتْلُوهُ علينا مما تقولُ، إلا سحرٌ مبينٌ لسامعِه عن حقيقتِه أنه سحرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئن أَخَّرْنَا عن هؤلاءِ المشركينَ من قومكَ، يا

محمدُ، العذابَ فلم نُعَجِّلْهُ لهم، وأنْسأْنَا في آجالهم «إلى أمةٍ معدودة»، ووقتٍ محدود، وسنينَ معلومة.

وأصل «الأمة» ما قد بَيَّنَّا فيما مضى من كتابنا هذا، أنها الجماعةُ من الناسِ تجتمعُ على مذهبٍ ودين، ثم تُستعملُ في معانٍ كثيرة ترجع إلى معنى الأصل الذي ذكرتُ. وإنما قيل للسنين «المعدودة» والحِين، في هذا الموضع ونحوه: «أمة»، لأنَّ فيها تكونُ الأمة.

وإنما معنى الكلام: ولئن أَخَّرْنَا عنهم العذابَ إلى مجيء أمةٍ وانقراضِ أُخرى قَبْلَها.

وقوله: «ليقولُنَّ ما يَحْبِسُه»، يقول: «ليقولن»، هؤلاء المشركون «ما يحبسه»، أيُّ شيءٍ يمنعهُ من تعجيلِ العذابِ الذي يَتوَعَّدُنَا به؟ تكذيباً منهم به، وظَنًّا منهم أنَّ ذلك إنَّما أُخِّرَ عنهم لكذبِ المتوعِّد.

وقوله: «أَلَا يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ، تحقيقاً لوعيدِه، وتصحيحاً لخبرِه: «ألا يومَ يأتيهم»، العذابُ الذي يُكَذِّبُونَ به. «ليس مصروفاً عنهم»، يقول: ليس يَصْرِفُه عنهم صارِفٌ، ولا يدفعه عنهم دافعٌ، ولكنه يحلُّ بهم فيهلكهم. «وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون»، يقول: ونَزَلَ بهم وأصابَهم الذي كانوا يسخرون من عذابِ الله. وكان استهزاؤهُم به الذي ذَكَرَهُ الله، قِيلُهُمْ قبلَ نزوله. «ما يحبسه»، و«هَلَّا تأتينا به»؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئنْ أذَقنا الإنسان منّا رخاءً وسَعَةً في الرزقِ والعيش، فبسطنا عليه من الدنيا وهي «الرحمة» التي ذكرها الله تعالى ذِكْرُهُ في هذا

الموضع. «ثم نزعناها منه»، يقول: ثم سَلَبْنَاهُ ذلك، فأصابته مصائبُ أجاحَتْهُ فذهبتْ به. «إنه لَيؤُسٌ كَفُور»، يقول: يظل قَنِطاً من رحمةِ الله، آيساً من الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئنْ نحن بسطنا للإنسانِ في دنياه، ورزقناه رخاءً في عيشه، ووسَّعْنَا عليه في رزقه، وذلك هي النّعم التي قال الله جَلَّ ثناؤُهُ: «ولئن أذقناه نعماء». وقوله: «بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ»، يقول: بعد ضيقٍ من العيش كان فيه، وعسرةٍ كان يعالجها. «ليقولنَّ ذَهبَ السيئاتُ عني»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ليقولنَّ عند ذلك: ذهبَ الضيقُ والعسرةُ عني، وزالتِ الشدائدُ والمكاره. «إنه لَفَرِحٌ فَخُور»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الإنسانَ لَفَرِحٌ بالنعم.

ثم استثنى جَلَّ ثناؤُهُ من الإنسان الذي وَصَفَهُ بهاتين الصفتين: «الذين صَبَرُوا وعملوا الصالحاتِ»، وإنما جازَ استثناؤُهم منه، لأنَّ «الإنسانَ»، بمعنى الجنس، ومعنى الجمع، وهو كقوله: ﴿وَالْعَصْرِ * إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣]، فقال تعالى ذِكْرُهُ: «إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات»، فإنهم إنْ تَأْتِهم شِدَّةٌ من الدنيا وعسرةٌ فيها، لم يَثْنِهِمْ ذلك عن طاعةِ الله، ولكنهم صبروا لأمره وقضائه. فإنْ نالوا فيها رخاءً وسَعَةً، شكروهُ وأدَّوْا حُقوقَهُ بما آتاهم منها. يقول الله: «أولئك لهم مغفرةٌ»، يغفرها لهم، ولا يَفْضَحُهم بها في مَعَادِهم. «وأجرٌ كبير»، يقول: ولهم من الله مع مغفرةِ ذنوبِهم، ثوابٌ على أعمالهم الصالحةِ التي عملوها في دار الدنيا، جزيلٌ، وجزاءٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فَلَعَلَّكَ، يا محمدُ، تَارِكٌ بعضَ ما يُوحي إليكَ رَبُّكَ أنْ تُبَلِّغَهُ مَنْ أمرَكَ بتبليغِه ذلك، وضائقٌ بما يُوحي إليك صدرُكَ، فلا تبلغه إياهم، مخافةَ أنْ يقولوا: «لولا أُنزلَ عليه كَنْزٌ أو جاءَ معه مَلَكٌ»، له مُصَدِّقٌ بأنه لله رسولٌ! يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَبَلِّغْهُمْ ما أوحيتُه إليكَ، فإنك إنما أنتَ نذيرٌ تُنْذرهُمْ عِقابي، وتُحَذِّرهُمْ بأسي على كفرهم بي، وإنما الآياتُ التي يسألونَكَهَا عندي وفي سلطاني، أُنْزِلُهَا إذا شِئْتُ، وليسَ عليك، إلا البلاغُ والإنذارُ. «والله على كُلِّ شيءٍ وكيل»، يقول: والله القَيِّمُ بكلِّ شيء، وبيدِه تدبيرُه، فانْفُذْ لما أَمَرْتُكَ به، ولا تمنعكَ مسألتهم إياكَ الآياتِ من تبليغِهم وَحْيي، والنفوذ لأمري.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: كفاكَ حجةً على حقيقةِ ما أتَيْتَهُمْ به، ودلالةً على صحةِ نبوَّتِكَ، هذا القرآنُ، من سائرِ الآياتِ غيره، إذْ كانت الآياتُ إنما تكون لمن أُعطيها دلالةً على صِدْقِهِ، لعجز جميعِ الخَلْقِ عن أنْ يأتوا بمثلها. وهذا القرآنُ، جميعُ الخَلْقِ عَجَزَةٌ عن أنْ يأتوا بمثله، وإنْ هم قالوا «افتريته»، أي: اخْتَلَقْتَهُ وتكذَّبْتَهُ.

ودلَّ على أنَّ معنى الكلامِ ما ذكرنا، قوله: «أم يقولون افتراهُ» إلى آخرِ الآية. ويعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أم يقولون افتراه»، أي: أيقولون افتراه؟

فقل لهم يَأْتُوا بعشر سُورٍ مثل هذا القرآن. «مُفْتَرَياتٍ»، يعني: مُفْتَعَلاتٍ مُخْتَلَقَاتٍ، إنْ كان ما أَتيتكُم به من هذا القرآن مفترىً، وليس بآيةٍ معجزةٍ كسائرِ ما سُئِلْتُه من الآياتِ، كالكنز الذي قُلْتُمْ هَلَّا أُنزلَ عليه؟ أو المَلَكِ الذي قلتم: هَلَّا جاء معه نذيراً له مُصَدِّقاً؟ فإنكم قومي، وأنتم من أهلِ لساني، وأنا رجلٌ منكم، ومحالٌ أنْ أقدرَ أخلق وحدي مئةَ سورةٍ وأربعَ عشرة سورة، ولا تقدروا بأجْمَعِكُمْ أن تَفْتَروا وتختلقُوا عشرَ سورٍ مِثْلهَا، ولا سيما إذا استعنتم في ذلك بمن شئتم من الخَلْقِ.

يقول جَلَّ ثناؤُهُ، قل لهم: وادْعُوا مَنِ استطعتم أنْ تدعوهم من دون الله ـ يعني سوى الله ـ لافتراءِ ذلك واختلاقِه من الآلهة. فإنْ أنتم لم تقدروا على أنْ تفتروا عشرَ سورٍ مثله، فقد تَبيَّنَ لكم أنكم كَذَبةٌ في قولكم: «افتراهُ»، وصَحَّتْ عندكم حقيقةُ ما أتيتُكمْ به أنه من عندِ الله. ولم يكن لكم أنْ تَتَخَيَّرُوا الآياتِ على رَبِّكم، وقد جاءكم من الحُجَّةِ على حقيقةِ ما تكذبونَ به أنه من عندِ الله، مثل الذي تسألونَ من الحجة، وترغبونَ أنكم تصدِّقونَ بمجيئها.

وقوله: «إن كنتم صادقين»، لقوله: «فَأْتُوا بعشر سورٍ مثله»، وإنما هو: قُلْ فأتوا بعشر سورٍ مِثْلِه مُفْتَرياتٍ، إنْ كنتم صادقين أنَّ هذا القرآنَ افتراهُ محمدٌ وادْعُوا مَنِ استطعتم من دون الله على ذلك، من الآلهةِ والأنداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ: فإن لم يستجبْ لَكُمْ مَنْ تَدْعُونَ من دونِ الله إلى أنْ يأتوا بعشرِ سورٍ مثلِ هذا القرآنِ مُفترياتٍ، ولم تُطِيقُوا أنتم وهُمْ أنْ تأتوا بذلك، فاعْلَمُوا وأيقِنُوا أنه إنما أُنزلَ

من السماء على محمد ﷺ بعلمِ الله وإذنه، وأنَّ محمداً لم يَفْتَرِه، ولا يقدرُ أنْ يفتريه. «وأنْ لا إلهَ إلاّ هُوَ»، يقول: وأيقِنُوا أيضاً أنْ لا معبودَ يستحقُّ الألوهةَ على الخلقِ إلا الله الذي له الخَلْقُ والأمر، فاخلعوا الأندادَ والآلهةَ، وأفردوا له العبادةَ.

وقد قيل إن قوله: «فإنْ لم يَستجيبُوا لكم»، خِطابٌ من الله لنبيه، كأنه قال: فإنْ لم يستجبْ لكَ هؤلاء الكفار، يا محمدُ، فاعلموا، أيها المشركونَ، أنَّما أُنزلَ بعلمِ الله ـ وذلك تأويلٌ بعيدٌ من المفهوم.

وقولـه: «فهل أنتم مسلمون»، يقول: فهل أنتم مُذْعِنُونَ لله بالطاعةِ، ومُخْلِصُونَ له العبادةَ، بعد ثبوتِ الحجةِ عليكم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ١٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: مَنْ كان يُريدُ بعملِه الحياةَ الدنيا، وإيَّاها وَزِينتها يطلبُ به، نُوَفِّ إليهم أُجورَ أعمالِهم فيها وثوابها. «وهم فيها»، يقول: وهُمْ في الدنيا «لا يُبْخَسون»، يقول: لا يُنْقَصُونَ أجْرَها، ولكنهم يُوَفَّوْنَهُ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين ذكرتُ أنَّا نُوفِّيهم أجورَ أعمالِهم في الـدنيا. «ليس لهم في الآخرةِ إلا النارُ»، يَصْلَوْنَها «وحَبِطَ ما صنعوا فيها»، يقـول: وذهبَ ما عَمِلُوا في الـدنيا. «وباطلٌ ما كانوا يعملون»، لأنهم كانوا يعملونَ لغيرِ الله، فأبطله الله وأحبطَ عامِلَهُ أَجْرَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: «أَفَمَنْ كان على بَيِّنةٍ من رَبِّه»، قد بَيَّنَ له دينه، فَتَبَيَّنَهُ. «ويَتْلُوهُ شاهدٌ منه»، هو جِبْريل.

وأما قوله: «إماماً»، فإنه نَصبٌ على القطع[1] من «كتاب موسى»، وقوله: «ورحمة»، عطفٌ على «الإمام»، كأنه قيل: ومِنْ قَبْلِه كتابُ موسى إماماً لبني إسرائيل يَأْتَمُّونَ به، ورحمةً من الله تلاه على موسى.

وفي الكلام محذوفٌ، قد تركَ ذِكْرُه اكتفاءً بدلالةِ ما ذكر عليه منه، وهو: «أفمنْ كان على بينـةٍ من رَبِّه ويتلوهُ شاهدٌ منه ومِنْ قَبْلِه كتابُ موسى إماماً ورحمـةً»، «كَمَنْ هو في الضلالةِ مترددٌ لا يهتدي لرشدٍ، ولا يعرفُ حقًّا من باطلٍ، ولا يطلبُ بعملِه إلا الحياةَ الدنيا وزينتها». وذلك نظير قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. والدليلُ على حقيقة ما قلنا في ذلك أنَّ ذلكَ عقيبَ قوله: «مَنْ كان يريدُ الحياة الدنيا»، الآية، ثم قيل: أَهَذا خيرٌ، أَمَّنْ كان على بَيِّنةٍ من ربه؟

وقوله: «أولئك يؤمنون به»، يقول: هؤلاء الذين ذكرتُ، يُصَدِّقُونَ ويُقِرُّونَ به، إنْ كفرَ به هؤلاء المشركونَ الذين يقولون: إنَّ محمداً افتراه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٧﴾

---

(١) القطع: الحال.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ يَكْفُرْ بهذا القرآنِ، فيجحد أنه من عندِ الله. «من الأحزاب»، وهم المُتَحَزِّبة على مِلَلِهم. «فالنارُ مَوْعِدُه»، أنه يصيرُ إليها في الآخرةِ بتكذيبه. يقولُ الله لنبيه محمدٍ ﷺ: «فلا تَكُ في مِرْيةٍ منه»، يقول: فلا تَكُ في شكٍ منه، من أنَّ مَوْعِدَ مَنْ كفرَ بالقرآنِ من الأحزابِ النارُ، وأنَّ هذا القرآنَ الذي أنزلناه إليك من عند الله.

ثم ابتدأ جَلَّ ثناؤُهُ الخبرَ عن القرآنِ فقال: إنَّ هذا القرآنَ الذي أنزلناهُ إليك، يا محمدُ، الحقُّ من رَبِّكَ لا شكَّ فيه، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يُصَدِّقُونَ بأن ذلك كذلك.

فإن قال قائل: أوَ كان النبيُّ ﷺ في شَكٍّ من أنَّ القرآنَ من عندِ الله، وأنه حَقٌّ، حتى قيل له: «فلا تَكُ في مِرْيةٍ منه»؟

قيل: هذا نظيرُ قولـه: ﴿فَـإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّـا أَنْـزَلْنَـا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وقد بَيَّنَّا ذلك هناك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأيُّ الناسِ أشَدُّ تعذيباً مِمَّنْ اختلقَ على الله كَذِباً فكذبَ عليه؟. «أولئك يُعْرضُونَ على رَبِّهم ويقول الأشهادُ هؤلاء الذين كَذَبُوا على ربهم» يُعْرضُونَ يومَ القيامةِ على رَبِّهم، فيسألهم عما كانوا في دار الدنيا يعملون.

وقـولـه: «ويقـولُ الأشهـادُ»، يعني: الملائكةُ والأنبياءُ الذين شَهِدُوهم وحَفِظُوا عليهم ما كانوا يَعملونَ، وهم جمع «شاهد»، مثل «الأصحاب»، الذي

هو جمع «صاحب». «هؤلاء الذين كَذَبُوا على رَبِّهم»، يقول: شَهِدَ هؤلاء الأشهادُ في الآخرةِ، على هؤلاء المفترينَ على الله في الدنيا، فيقولون: هؤلاء الذين كَذَبُوا في الدنيا على رَبِّهم. يقول الله: «ألا لعنةُ الله على الظالمين»، يقول: ألَا غَضَبُ الله على المعتدينَ الذين كفرُوا بربّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألا لعنةُ الله على الظَّالمينَ الذين يَصُدُّونَ الناسَ عن الإيمانِ به، والإقرارِ له بالعبودةِ، وإخلاصِ العبادةِ له دونَ الآلهةِ والأندادِ، من مشركي قريش، وهم الذين كانوا يفتنون عن الإسلامِ مَنْ دخلَ فيه. «ويَبْغُونَها عِوَجاً»، يقول: ويَلتمسونَ سبيلَ الله، وهو الإسلامُ الذي دَعَا الناسَ إليه محمدٌ، يقول: زَيْغاً ومَيْلاً عن الاستقامةِ. «وهم بالآخرة هم كافرون»، يقول: وهم بالبعثِ بعدَ المماتِ، مع صَدِّهم عن سبيلِ الله، وبغيهم إياها عوجاً «كافرون»، يقول: هم جاحدونَ ذلك منكرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أولئك لم يكونوا مُعْجزينَ في الأرضِ»، هؤلاء الذينَ وصفَ جَلَّ ثناؤُهُ أنهم يَصُدُّونَ عن سبيلِ الله، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: إنهم لم يكونوا بالذين يُعْجِزونَ رَبَّهم بهربهم منه في الأرضِ إذا أرادَ عِقابهم والانتقامَ منهم، ولكنهم في قَبْضَتِه وملكِه، لا يمتنعونَ منه إذا أرادَهُمْ، ولايفوتونه

هَرَباً إذا طلبهم. «وما كان لهم من دونِ الله من أولياء»، يقول: ولم يكن لهؤلاء المشركينَ إذا أرادَ عِقَابَهُمْ من دونِ الله، أنصارٌ ينصرونَهُم من الله، ويَحُولُونَ بينهم وبينه إذا هو عَذَّبَهُمْ، وقد كانتِ لهم في الدنيا مَنْعَةٌ يمتنعونَ بها مِمَّنْ أرادَهم من الناسِ بسوءٍ، وقوله: «يُضَاعَف لَهُمُ العذابُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يُزادُ في عذابهم، فَيُجْعَلُ لهم مكان الواحد اثنان.

وقوله: «ما كانوا يَستطيعونَ السمعَ وما كانوا يُبْصِرُون»، ذلكَ وصَفَ الله به هؤلاء المشركينَ، أنه قد خَتَمَ على سَمْعِهم وأبصارهم، وأنهم لا يسمعونَ الحقَّ، ولا يُبصرونَ حُججَ الله، سَمَاعَ مُنْتَفِعٍ، ولا إبصارَ مهتدٍ، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين، عن استعمالِ جوارِحهم في طاعةِ الله، وقد كانت لهم أسماعٌ وأبصار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذينَ هذه صِفَتُهم، هُمُ الذين غَبَنُوا أنفسَهُم حُظوظَها من رحمةِ الله. «وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون»، وَبَطَلَ كَذِبُهم وإفْكُهم وفِرْيَتُهم على الله، بادِّعائِهم له شركاءَ، فسلكَ ما كانوا يدعونه إلهاً من دونِ الله غيرَ مَسْلَكِهم، وأخذَ طريقاً غيرَ طريقِهم، فضَلَّ عنهم، لأنه سلكَ بهم إلى جهنمَ، وصارتْ آلهتُهم عَدَماً لا شيء، لأنها كانتْ في الدنيا حجارةً أو خشباً أو نحاساً ـ أو كان لله وليًّا فسلكَ به إلى الجنة. وذلك أيضاً غير مَسْلَكِهم، وذلك أيضاً ضلالٌ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: حقًّا إنَّ هؤلاءِ القوم الذين هذه صِفَتُهم في الدنيا وفي الآخرة هم الأخسرونَ الذين قد باعوا منازلهم من الجِنانِ، بمنازلِ أهلِ الجنة من النارِ، وذلك هو الخسرانُ المبين.

وقد بَيَّنّا فيما مضى أنَّ معنى قولهم: «جرَمتُ»، كسبتُ الذنبَ، و«جرمته»، وأنَّ العربَ كَثُرَ استعمالُها إياهُ في مواضع الأيمان، وفي مواضع «لابُدَّ»، كقولهم: «لا جَرَمَ أنك ذاهبٌ»، بمعنى: «لابُدَّ»، حتى استعملوا ذلك في مواضعِ التحقيق، فقالوا: «لَا جَرَمَ لَتَقُومَنَّ»، بمعنى: حَقًّا لتقومن[1]. فمعنى الكلام: لا مَنْعَ عن أنَّهم، ولا صَدَّ عن أنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وعملوا في الدنيا بطاعة الله. «وأَخْبَتُوا إلى ربهم».

واختلف أهلُ التأويل في معنى «الإخبات»:

فقال بعضهم: معنى ذلك: وأَنَابُوا إلى رَبِّهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: وخَافُوا.

وقال آخرون: معناه: اطْمَأَنُّوا.

وقال آخرون: معنى ذلك: خَشَعُوا.

وهذه الأقوالُ متقاربةُ المعاني، وإنْ اختلفتْ ألفاظها، لأنَّ الإِنابةَ إلى الله من خوفِ الله، ومن الخشوعِ والتواضعِ لله بالطاعةِ، والطمأنينة إليه من

(١) انظر معاني القرآن للفرَّاء: ٢/٨-٩ فهذه المعاني فيه.

الخشوع له، غير أنَّ نَفْسَ «الإخباتِ»، عند العربِ: الخشوع والتواضع.

وقوله: «أولئك أصحابُ الجنةِ هم فيها خالدون»، يقول: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم، هم سكـانُ الجنةِ الذين لا يخرجُونَ عنها، ولا يموتونَ فيها، ولكنهم فيها لابثُون إلى غيرِ نهاية.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَثَلُ فريقي الكفرِ والإيمانِ، كَمثلِ الأعمى الذي لا يرى بعينه شيئاً، والأصمّ الذي لا يسمعُ شيئاً، فذلك فريقُ الكفرِ لا يبصرُ الحَقَّ فيتبعه ويعمل به، لشغله بكفرِهِ باللهِ، وغَلَبَةِ خذلانِ اللهِ عليه، لا يسمعُ داعيَ اللهِ إلى الرشاد، فيجيبه إلى الهدى فيهتدي به، فهو مقيمٌ في ضلالته، يتردَّدُ في حيرته. والسميع والبصير فذلك فريق الإيمان، أبصرَ حججَ الله، وأقَرَّ بما دَلَّتْ عليه من توحيدِ الله، والبراءة من الآلهةِ والأندادِ، ونبوةِ الأنبياءِ عليهِمُ السلام، وسمعَ داعيَ الله فأجابَهُ، وعملَ بطاعةِ الله.

يقـول تعالى: «هل يستويان مَثَلًا»، يقول: هل يستوي هذانِ الفريقانِ على اختلافِ حَالَتَيْهِمَا في أنفسهما عندكم، أيها الناسُ؟ فإنهما لا يستويانِ عندكم، فكذلك حالُ الكافرِ والمؤمنِ لا يستويان عندَ الله. «أفلا تَذَكَّرُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: أفلا تعتبرونَ، أيها الناسُ، وتتفكَّرُونَ، فتعلموا حقيقةَ اختلافِ أمريهما، فتنزجِرُوا عما أنتم عليه من الضلالِ إلى الهدى، ومن الكفرِ إلى الإيمانِ؟

فالأعمى والأصم، والبصير والسميع، في اللفظ أربعـــة، وفي المعنى اثنان. ولذلك قيل: «هل يستويانِ مثلاً».

وقيل: «كالأعمى والأصم»، والمعنى: كالأعمى الأصمِّ. وكذلك قيل:

«والبصير والسميع»، والمعنى: البصير السميع، كقولِ القائلِ: «قام الظريفُ والعاقلُ»، وهو ينعت بذلك شخصاً واحداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومِه: إني لكم، أيها القومُ، نَذيرٌ من الله، أُنذركُمْ بأسَه على كُفْرِكُمْ به، فآمنوا به وأطيعوا أمره.

ويعني بقوله: «مبين»، يُبَيِّنُ لكم عمَّا أُرسِلَ به إليكم من أمرِ الله ونَهيِهِ.

ويعني بقَوله: «أنْ لا تعبدُوا إلا الله»، أي اتركُوا عبادةَ الآلهةِ والأوثانِ، وإشراكَهَا في عبادَتِه، وأفْرِدُوا الله بالتوحيدِ، وأخْلِصُوا له العبادةَ، فإنه لا شريكَ له في خَلْقِه.

وقوله: «إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ أليم»، يقول: إني، أيها القومُ، إنْ لم تخصُّوا الله بالعبـادةِ، وتُفْـرِدُوه بالتوحيدِ، وتَخْلَعُوا ما دونَهُ من الأندادِ والأوثان ـ أخافُ عليكم من الله عذابَ يومٍ مؤلمٍ عِقَابُه وعذابُه لمن عُذِّبَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فقال الكُبَرَاءُ من قومِ نوحٍ وأشرافِهم ـ وهم «الملأ» ـ الذين كَفَرُوا بالله وجَحَدُوا نبوَّةَ نبيهم نوحٍ عليه السلام. «ما نراك»، يا نوحُ، «إلا بشراً مثلنا»، يَعْنُونَ بذلك: أنه آدميٌّ مِثْلُهم في الخَلْق والصُّورةِ والجِنْس،

كأنهم كانوا مُنكرينَ أنْ يكونَ الله يرسلُ من البشرِ رسولاً إلى خَلْقِه.

وقوله: «وما نَراكَ اتَّبعك إلَّا الذين هم أراذِلُنَا بادِيَ الرأي»، يقول: وما نراك اتبعكَ إلا الذين هم سِفْلَتُنَا من الناسِ، دونَ الكُبراءِ والأشرافِ، فيما نرى ويظهر لنا.

وقوله: «وما نَرى لكم علينا من فَضْلٍ»، يقول: وما نَتَبَيَّنُ لكم علينا من فضلٍ نِلْتُموهُ بمخالفتكم إيانا في عبادةِ الأوثانِ، إلى عبادةِ الله وإخلاصِ العُبودةِ له، فنتبعكم طَلَبَ ذلك الفضلِ، وابتغاءَ ما أَصَبْتُموه بخلافِكم إيانا. «بل نَظُنُّكُمْ كاذبين».

وهذا خطاب منهم لنوحٍ عليه السلام، وذلك أنهم إنما كَذَّبوا نوحاً دونَ أتباعِه، لأنَّ أتباعَهُ لم يكونوا رُسلاً. وأخرج الخطابَ وهو واحدٌ مخرجَ خطابِ الجميع، كما قيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١].

. وتأويلُ الكلام: بل نَظُنُّكَ، يا نوحُ، في دَعْوَاكَ أنَّ الله ابتعثك إلينا رسولاً، كاذباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مُخْبِراً عن قِيلِ نوحٍ لقومِهِ إذْ كَذَّبوه، ورَدُّوا عليه ما جاءهم به من عندِ الله من النصيحة: «يا قومِ أرأيتم إنْ كنتُ على بينةٍ من ربي»، على عِلْمٍ ومعرفةٍ وبيانٍ من الله لي ما يلزمني له، ويجبُ عليَّ من إخلاصِ العبادةِ له، وتركِ إشراكِ الأوثانِ معه فيها. «وآتاني رحمةً من عنده»، يقول: ورزقني منه التوفيقَ والنبوَّةَ والحِكْمةَ، فآمنتُ به وأطَعْتُه فيما أمرني ونهاني. «فعُمِّيَتْ عليكم».

وهذه الكلمة مما حَوَّلَتِ العربُ الفعلَ عن مَوْضِعه. وذلك أنَّ الإنسانَ هو الذي يَعْمَى عن إبصارِ الحقِّ، إذْ يَعْمَى عن إبصارِه. و«الحق»، لا يُوصَفُ بالعَمَى، إلا على الاستعمالِ الذي قد جرى به الكلامُ. وهو في جوازه لاستعمالِ العربِ إياه، نظيرُ قولهم: «دخل الخاتم في يدي، والخفُّ في رِجلي»، ومعلومٌ أنَّ الرِّجْلَ هي التي تدخلُ في الخفِّ، والإصبع في الخاتمِ، ولكنهم استعملوا ذلك كذلك، لما كان معلوماً المرادُ فيه.

وقوله: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأنتم لها كارهون»، يقول: أَنَأخُذُكُمْ بالدخولِ في الإسلامِ، وقد عَمَّاهُ الله عليكم. «وأنتم لها كارهون»، يقول: وأنتم لإلْزَامِناكُمُوهَا. «كارهون»، يقول: لا نفعلُ ذلك، ولكن نَكِلُ أَمْرَكُمْ إلى الله، حتى يكونَ هو الذي يقضي في أمركم ما يرى ويشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

وهذا أيضاً خَبَرٌ من الله عن قِيلِ نوحٍ لقومه، أنه قال لهم: يا قومِ لا أسألكم على نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى توحيدِ الله وإخلاصِ العبادةِ له، مالاً، أجراً على ذلك، فَتَتَّهِمُوني في نصيحتي، وتظنون أنَّ فِعلى ذلك طلبُ عَرَضٍ من أعراضِ الدنيا. «إنْ أجريَ إلَّا على الله»، يقول: ما ثوابُ نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى ما أدْعُوكُمْ إليه، إلَّا على الله، فإنه هو الذي يجازيني ويثيبني عليه. «وما أنا بطاردِ الذينَ آمنوا»، وما أنا بمقصٍ مَنْ آمنَ بالله، وأقَرَّ بوحدانيتِه، وخَلَعَ الأوثانَ وتبرأ منها، بأن لم يكونوا من عِلْيَتِكُمْ وأشرافِكُمْ. «إنهم ملاقو ربهم»، يقول: إنَّ هؤلاء الذين تسألوني طَرْدَهُمْ، صائرونَ إلى الله، والله سائِلُهم عَمَّا كانوا في الدنيا يعملون، لا عن شَرَفِهم وحَسَبِهم.

وقوله: «ولكني أراكم قوماً تجهلون»، يقول: ولكني، أيها القومُ، أراكم قوماً تجهلونَ الواجبَ عليكم من حَقِّ الله، واللازم لكم من فرائضِه. ولذلك من جَهْلِكُمْ سألتموني أنْ أطردَ الذين آمنوا بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول: ويا قوم مَنْ يَنْصُرني فيمنعني من الله، إنْ هو عاقبني على طردي المؤمنينَ الموحِّدينَ الله، إنْ طَردتُهم؟ «أفلا تَذَكَّرُونَ»، يقول: أفلا تتفكرونَ فيما تقولونَ، فتعلمونَ خَطأهُ، فَتَنْتَهُوا عنه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

وقوله: «ولا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله»، عطفٌ علي قوله: «ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً».

ومعنى الكلام: «ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً»، «ولا أقولُ لكم عندي خزائنُ الله»، التي لا يُفْنِيها شيءٌ، فأدعوكم إلى اتباعي عليها، ولا أعلمُ أيضاً الغيبَ - يعني: ما خَفِيَ من سرائر العباد، فإنَّ ذلك لا يعلمهُ إلا الله - فأدَّعي الربوبيةَ، وأدعوكم إلى عبادتي. ولا أقولُ أيضاً: إني مَلَكٌ من الملائكةِ أُرسلتُ إليكم، فأكون كاذباً في دعوايَ ذلك، بل أنا بَشَرٌ مثلكم كما تقولونَ، أُمرتُ بدعائكم إلى الله، وقد أبْلغتُكُمْ ما أُرسلتُ به إليكم. «ولا أقولُ للذين تَزْدَري أعينُكم لَنْ يُؤْتيهُم الله خيراً»، يقول: ولا أقولُ للذين اتبعوني وآمنوا بالله

ووحّـدُوه، الذي تَسْتَحْقِرُهُمْ أعينُكم، وقلتم: إنهم أراذلُكم. «لن يؤتيهُم الله خيراً»، وذلـك الإيمانُ بالله. «الله أعلمُ بما في أنفسهم»، يقول: الله أعلمُ بضمائرِ صُدُورهم، واعتقادِ قلوبهم، وهو وليُّ أمْرِهم في ذلك، وإنما لي منهم ما ظهرَ وبَدَا، وقد أظهرُوا الإيمانَ بالله واتبعوني، فلا أطردهم ولا أستحلُّ ذلك. «إني إذاً لمن الظالمين»، يقول: إنِّي إنْ قلتُ لهؤلاء الذين أظهروا الإيمانَ بالله وتصـديقي: «لن يؤتيهم الله خيراً»، وقضيتُ على سرائرهم بخلافِ ما أبْدَتْهُ ألسنتهم لِي، على غيرِ علمٍ منِّي بما في نفوسهم، وطردتهم بفعلي ذلك، لَمِنَ الفاعلينَ ما ليسَ لهم فِعْلُه، المعتدينَ ما أمرهم الله به، وذلك هو «الظلم».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: قال قومُ نوحٍ لنوحٍ عليه السلام: قد خَاصَمْتَنا فأكثـرتَ خُصـومتنـا، فَأْتِنَـا بمـا تعدنا من العذاب، إنْ كنتَ من الصادقين في عِدَاتِك ودَعْواكَ أنكَ لله رسولٌ. يعني بذلك: أنه لَنْ يقدرَ على شيءٍ من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٤ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ا

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال نوحٌ لقومِه، حين استعجلوهُ العذابَ: يا قومِ، ليسَ الذي تستعجلونَ من العذابِ إليَّ، إنما ذلك إلى الله لا إلى غيره، هو الذي يأتيكم به إنْ شاء. «وما أنتم بمعجزين»، يقول: ولستم إذا أرادَ تعذيبكم. بِمُعْجِزِيه. أي: بفائتيه هرباً منه. لأنكم حيثُ كنتم في مُلْكِه وسُلطانِه وقُدْرتِه.

حُكْمُـهُ عليكم جَارٍ. «ولا ينفعكم نُصحي»، يقـول: ولا ينفعكم تحـذيري عقوبتَهُ، ونزول سطوتِه بكم على كُفْرِكم به. «إنْ أردتُ أنْ أنصحَ لكم»، في تحـذيري إياكـم ذلـك، لأنَّ نُصحـي لا ينفعكم، لأنكم لا تَقْبَلُونَـه. «إنْ كان الله يُريدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ»، يقول: إنْ كان الله يريدُ أنْ يهلككم بعذابه. «هو رَبُّكم وإليه تُرجعون»، يقول: وإليه تُرَدُّونَ بعدَ الهلاك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أيقولُ، يا محمدُ، هؤلاء المشركونَ من قومكَ: افترى محمـدٌ هذا القـرآن؟ وهـذا الخبرُ عن نوحٍ؟ قُلْ لهم: إنِ افتريتُه فَتَخَرَّصْتُه واخْتَلَقْتُـه. «فعليَّ إجرامي»، يقول: فعليَّ إثمي في افترائي ما افتريتُ على رَبِّي، ودونَكم، لا تُؤَاخَذُونَ بذنبي ولا إثمي. ولا أُؤَاخَذُ بذنبكم. «وأنا بريءٌ مما تُجْرِمُون»، يقول: وأنا بريءٌ مما تذنبون وتأثَمُون بربكم. من افترائِكم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأوحَى الله إلى نوحٍ، لَمَّا حَقَّ على قومِه القولُ، وأظلَّهم أمرُ الله: أنه لَنْ يُؤمِنَ، يا نوحُ، بالله فيوحِّده، ويتبعكَ على ما تَدْعُوه إليه. «من قومكَ إلاَّ مَنْ قَدْ آمنَ»، فَصَدَّقَ بذلك واتَّبَعَكَ. «فلا تبتئس»، يقول: فلا تَسْتَكِنْ ولا تَحْزَنْ. «بما كانوا يفعلون»، فإني مُهْلِكُهم، ومُنْقِذُكَ منهم ومَنِ

اتَّبعكَ. وأوحى الله ذلك إليه، بعدما دَعَا عليهم نوحٌ بالهلاكِ فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ٣٧﴾

قال أبو جعفر.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأوحي إليه أنه لنْ يؤمنَ من قومكَ إلا مَنْ قد آمن، وأنِ «اصنع الفلك»، وهو السفينةُ.

وقوله: «بأعيننا»، يقول: بعينِ الله ووحيهِ كما يأمركَ.

وقوله: «ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغْرَقُون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تسألني في العفوِ عن هؤلاءِ الذين ظَلَمُوا أنفسهم من قومك، فأكسبوها تَعَدِّياً منهم عليها بكفرهم بالله ـ الهلاكَ بالغرق، إنهم مُغْرَقُونَ بالطوفان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويصنعُ نوحُ السفينةَ، وكلما مَرَّ عليه جماعةٌ من كُبَراءِ قومهِ. «سَخِرُوا منه»، يقول: هَزِئوا من نوحٍ، ويقولون له: أتَحَوَّلْتَ نَجَّاراً بعد النبوَّةِ، وتعمل السفينة في البر؟ فيقول لهم نوحٌ: إنْ تَسْخَرُوا منا»، إنْ تَهْزَأوا منا اليومَ، فإنَّا نهزأُ منكم في الآخرة، كما تهزأونَ منا في الدنيا. «فسوف تعلمونَ»، إذا عاينتم عذابَ الله، مَنِ الذي كان إلى نفسه مُسِيئاً مِنَّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مخبراً عن قِيلِ نوحٍ لقومه: «فسوف تعلمون»، أيها القومُ، إذا جاءَ أمرُ الله، مَن الهالكُ، «مَنْ يأتيه عذابٌ يُخْزيه»، يقول: الذي يأتيه عذابُ الله مِنَّا ومنكم يُهينُه ويُذِلُّه. «ويَحِلُّ عليه عذابٌ مقيم»، يقول: ويَنزلُ به في الآخرة، مع ذلك، عذابٌ دائمٌ لا انقطاعَ له، مقيمٌ عليه أبداً.

وقوله: «حتى إذا جاء أمْرُنَا»، يقول: «ويصنعُ نوحُ الفُلْكَ»، «حتى إذا جاء أمرنا»، الذي وعدناه أنْ يجيءَ قومَهُ، من الطوفانِ الذي يُغْرِقُهم.

وقوله: «وفار التنور»، اختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: انبجسَ الماءُ من وجهِ الأرضِ. «وفار التنور»، وهو وجهُ الأرضِ.

وقال آخرون: هو تنويرُ الصبح، من قولهم: «نوَّرَ الصبح تنويراً».

وقال آخرون: معنى ذلك: وفارَ أعلى الأرضِ وأشرفُ مكانٍ فيها بالماء. وقال: «التنور»، أشرفُ الأرض.

وقال آخرون: هو التنور الذي يُخْتَبزُ فيه.

وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: «التنور»، قولُ مَنْ قال: «هو التنور الذي يُخْبَزُ فيه»، لأنَّ ذلك هو المعروفُ من كلامِ العرب. وكلامُ الله لا يُوجَّه إلا إلى الأغلبِ الأشهرِ من معانيه عند العرب، إلا أنْ تقومَ حجَّةٌ على شيءٍ

منه بخلافِ ذلك، فيسلم لها. وذلك أنه جَلَّ ثناؤُهُ إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامِهم معنى مَا خاطبهم به.

«قلنا»، لنوحٍ حينَ جاء عذابنا قومه الذي وَعَدْنَا نُوحاً أنْ نُعَذِّبهم به، وفار التنورُ الذي جعلنا فورَانه بالماءِ آيةَ مجيء عَذَابنَا بيننا وبينَهُ لهلاكِ قومِه. «احملْ فيها»، يعني: في الفُلْكِ. «من كُلٍّ زوجينِ اثنين»، يقول: من كُلِّ ذَكَرٍ وأنثى.

وقوله: «وأهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عليه القولُ»، يقول: واحملْ أهلكَ أيضاً في الفُلْكِ، يعني بـ«الأهل»، ولده ونساءه وأزواجه. «إلا مَنْ سَبَقَ عليه القول»، يقول: إلا مَنْ قُلْتُ فيهم: إني مُهْلِكُه مع مَنْ أُهْلِكُ مِنْ قومكَ.

ثم اختلفوا في الذي استثناهُ الله من أهله.

فقال بعضهم: هو بعضُ نساءِ نوحٍ.

وقال آخرون: بل هو ابنه الذي غرق.

وقوله: «ومَنْ آمن»، يقول: واحملْ معَهم مَنْ صَدَّقَكَ واتَّبعكَ من قومكَ.

يقول الله: «وما آمنَ معه إلا قليلٌ»، يقول: وما أقَرَّ بوحدانيةِ الله مع نوحٍ من قومه إلاَّ قليل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال نوحُ: اركبوا في الفُلْكِ، «بسم الله مجراها ومرساها».

ومعنى قوله: «مجراها»، مَسِيرُها، «ومرساها»، وَقْفُهَا، من: وقَفَها الله وأرساها.

وقوله: «إنَّ ربي لغفورٌ رَحيم»، يقول: إنَّ ربي لساترٌ ذنوبَ مَنْ تابَ وأنابَ إليه، رحيمٌ بهم أنْ يُعذِّبهم بعدَ التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وهي تجري بهم»، والفُلْكُ تجري بنوحٍ ومَنْ معه فيها. «في موجٍ كالجبالِ ونادى نوحُ ابنه»، يام. «وكان في مَعْزِلٍ»، عنه، لم يركب معه الفُلْكَ. «يا بني اركبْ معنا»، الفُلْكَ. «ولا تكن مع الكافرين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال ابنُ نوحٍ، لَمَّا دَعَاهُ نوحُ إلى أن يركبَ معه السفينةَ، خوفاً عليه من الغرق: «سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء»، يقول: سأصيرُ إلى جبلٍ أتحصَّنُ به من الماء، فيمنعني منه أن يغرقني.

ويعني بقوله: «يعصمني»، يمنعني، مثل «عصام القربة»، الذي يُشَدُّ به رأسُهَا، فيمنعُ الماءَ أنْ يسيلَ منها.

وقوله: «لا عاصمَ اليومَ من أمرِ الله إلَّا من رحم»، يقول: لا مانعَ اليومَ من أمرِ الله الذي قد نزلَ بالخَلْقِ من الغرقِ والهلاكِ، إلا مَنْ رَحِمْنا فأنقذنا منه، فإنه الذي يمنعُ مَنْ يشاء من خَلْقِه ويعصم.

وقوله: «و حالَ بينهما الموجُ فكان من المُغْرَقينَ»، يقول: وحالَ بين نوحٍ وابنه موجُ الماء فغرق، فكان مِمَّنْ أهلكه بالغرقِ من قوم نوحٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: وقال الله للأرضِ، بعد ما تناهَى أمرُه في هلاكِ قومِ نوحٍ بما أهلكهم به من الغرق: «يا أرضُ ابلعي ماءك»، أي: تَشَرَّبي.

«ويا سماءُ أقلعي»، يقول: أقلعي عن المطر، أمسكي. «وغِيضَ الماءُ»، ذَهبتْ به الأرضُ ونَشِفتهُ، «وقُضِيَ الأمرُ»، يقول: قُضِي أمرُ الله، فمضى بهلاكِ قومِ نوحٍ. «واستوت على الجُوديِّ»، يعني: الفُلْك «استوت»، أرستْ. «على الجوديِّ»، وهو جَبَلٌ، فيما ذُكِرَ، بناحيةِ الموصل أو الجزيرة[1].

«وقيل بُعْداً للقومِ الظالمين»، يقول: قالَ الله: أَبْعَدَ الله القومَ الظالمينَ الذين كَفَرُوا بالله من قومِ نوح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالَى ذِكْرُهُ: ونادى نوحٌ رَبَّهُ فقال: ربِّ إنكَ وَعدْتَنِي أنْ تُنَجِّيَني من الغـرقِ والهلاكِ وأهلي، وقد هلكَ ابني، وابني مِنْ اهلي. «وإنَّ وَعْدَكَ الحقُّ»، الذي لا خُلْفَ له. «وأنتَ أحكمُ الحاكمين»، بالحقِّ، فاحكُمْ لي بأنْ

---

(١) يعني: جزيرة ابن عمر، بين دجلة والفرات، والموصل منها.

تَفي لي بما وعدتني، من أنْ تُنَجِّي لي أهلي، وترجع إليَّ ابني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: قال الله: يا نوحُ إنَّ الذي غرقته فأهلكته الذي تذكر أنه من أهلكَ، ليسَ من أهلكَ الذي وَعَدْتُكَ أنْ أُنجيهم، لأنه كانَ لدينك مُخالفاً، وبي كافِراً.

وأما قوله: «إنه عمل غير صالح»، فإنه يعني: إنَّ سؤالكَ إيايَ ما تسألنيهِ في ابنكَ ـ المخالفِ دِينَكَ، الموالي أهلَ الشركِ بي، من النجاةِ من الهلاكِ، وقد مَضَتْ إجابتي إياكَ في دعائك: «لَا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرينَ ديَّاراً»، ما قد مَضَى، من غيرِ استثناءِ أحدٍ منهم. عملٌ غير صالح، لأنَّه مسألةٌ منك إليَّ أنْ لا أفعلَ ما قد تقدَّمَ مني القولُ بأني أفعلُه، في إجابتي مسألتكَ إيايَ فِعْله. فلذلك هو «العملُ غيرُ الصالحِ».

وقوله: «فلا تسألنِ ما ليسَ لك به عِلْمٌ»، نهيٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ نبيَّهُ نوحاً أنْ يسألَهُ أسبابَ أفعالِه التي قد طَوى عِلْمَها عنه وعن غيرِه من البشر. يقول له تعالى ذِكْرُهُ: إني. يا نوحُ، قد أخبرتكَ عن سؤالكَ سببَ إهلاكي ابنكَ الذي أهلكتُه فلا تسألنِ بعدها عما قد طَويتُ عِلْمه عنكَ من أسبابِ أفعالي، ليسَ لكَ به عِلْمٌ. «إني أَعِظُكَ أنْ تكونَ من الجاهلين»، في مسألتكَ أيايَ عن ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ

لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً نبيَّه محمداً ﷺ، عن إنابةِ نوحٍ عليه السلام بالتوبةِ إليه من زَلَّتِه، في مسألتِه التي سألَها ربَّه في ابنه: «قال رَبِّ إني أعوذُ بك»، أي: أستجيرُ بكَ أنْ أتكلَّفَ مسألَتَك ما ليسَ لي به عِلْمٌ، مما قد استأثرتَ بعلمِه، وطويتَ عِلْمَهُ عن خَلْقِكَ، فاغفرْ لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني، وإنْ أنتَ لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك. «أكُنْ من الخاسرين»، يقول: من الذين غبنوا أنفسهم حُظُوظَها وهلكوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا نوحُ، اهْبطْ من الفُلْكِ إلى الأرضِ. «بسلامٍ منا»، يقول: بأمْنٍ منا أنتَ ومَنْ معكَ، من إهلاكِنَا. «وبركاتٍ عليك»، يقول: وببركاتٍ عليك. «وعلى أُممٍ مِمَّنْ معكَ»، يقول: وعلى قرونٍ تجيءُ من ذريةِ مَنْ معكَ من ولدك. فهؤلاء المؤمنونَ من ذريةِ نوحٍ الذين سَبَقَتْ لهم من الله السعادةُ، وباركَ عليهم قبلَ أنْ يخلقهم في بطونِ أمهاتهم وأصلابِ آبائهم. ثم أخبر تعالى ذِكْرُهُ نوحاً عَمَّا هو فاعلٌ بأهلِ الشقاءِ من ذرِّيته، فقال له: «وأُممٌ»، يقول: وقرونٌ وجماعةٌ. «سنمتعهم» في الحياةِ الدنيا، يقول: نَرْزُقُهم فيها ما يَتَمَتَّعُونَ به، إلى أن يبلغوا آجالهم. «ثم يَمَسُّهم منا عذابٌ أليم»، يقول: ثم نُذيقُهم إذا وَرَدُوا علينا عذاباً مؤلماً موجعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: هذه القصة التي أنبأْتُكَ بها من قصةِ نوحٍ وخَبَرِه وخبرِ قومه. «من أنباءِ الغيبِ»، يقول: هي من أخبارِ الغيب التي لم تشهدها فتعلمها. «نُوحِيهَا إليكَ»، يقول: نُوحيها إليكَ نحنُ، فَنُعَرِّفُكَهَا. «ما كنتَ تَعْلَمُهَا أنتَ ولا قومُكَ من قَبْلِ هذا» الوحي الذي نُوحيهِ إليكَ. «فاصبر»، على القيامِ بأمرِ الله وتبليغِ رسالته، وما تَلْقَى من مشركي قومكَ، كما صبرَ نوحٌ. «إنَّ العاقبةَ للمتقين»، يقول: إنَّ الخيرَ من عواقب الأمور لمن اتَّقَى الله، فأدَّى فرائِضَهُ، واجتنبَ معاصيه، فَهُمُ الفائزونَ بما يُؤَمِّلُونَ من النعيمِ في الآخرة، والظفرِ في الدنيا بالطلبة، كما كانت عاقبةُ نوحٍ إذْ صبرَ لأمرِ الله، أنْ نَجَّاهُ من الهلكةِ مع مَنْ آمنَ به، وأعطاهُ في الآخرة ما أعطاهُ من الكرامةِ، وغَرَّقَ المكذبينَ به فأهلكهم جميعهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأرسلنا إلى قومِ عادٍ أخاهم هوداً، فقال لهم: «يا قومِ اعبـدُوا الله»، وحدَهُ لا شريكَ له، دونَ ما تعبدونَ من دونِهِ من الآلهةِ والأوثانِ. «ما لكم من إلهٍ غيره»، يقول: ليسَ لكم معبودٌ يستحقُّ العبادةَ عليكم غيره، فأخْلِصُوا له العبادةَ، وأفردوه بالألوهةِ. «إنْ أنتم إلا مفترون»، يقول: ما أنتم، في إشـراككم معـه الآلهة والأوثانَ، إلا أهل فِرْيَةٍ مكذبون، تختلقونَ الباطلَ، لأنه لا إلهَ سِواهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مُخْبِراً عن قِيلِ هودٍ لقومِه: يا قومِ لا أسألكم على ما أدعُوكُمْ إليه من إخلاصِ العبادةِ لله وخلعِ الأوثان والبراءةِ منها، جزاءً وثواباً. «إنْ أجريَ إلا على الذي فطرني»، يقول: إنْ ثوابي وجزائي على نصيحتي لكم ودعائكم إلى الله، إلَّا على الذي خلقني. «أفلا تعقلون»، يقول: أفلا تعقلون أنّي لو كنتُ أبتغي بدعايتكم إلى الله غيرَ النصيحةِ لكم، وطَلَبِ الحظ لكم في الدنيا والآخرة، لالتمستُ منكم على ذلك بعضَ أعراضِ الدنيا، وطلبتُ منكم الأجرَ والثواب؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ هودٍ لقومِه: «ويا قوم استغفروا ربكم»، يقول: آمِنُوا به حتى يغفرَ لكم ذنوبَكم.

و«الاستغفار»، هو الإيمانُ بالله في هذا الموضع، لأنَّ هوداً ﷺ إنما دعا قومَهُ إلى توحيدِ الله ليغفر لهم ذنوبهم، كما قال نوحٌ لقومِه: ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [نوح: ٣-٤].

وقوله: «ثم تُوبُوا إليه»، يقول: ثم توبوا إلى الله من سالفِ ذُنوبكم وعبادَتِكُمْ غيرَهُ، بعد الإيمانِ به. «يُرْسِلِ السماءَ عليكم مدراراً»، يقول: فإنكم إنْ آمنتم بالله وتُبْتُمْ من كُفْرِكم به، أرسلَ قَطْرَ السماءِ عليكم، يدرُّ لكم الغيثَ في وقتِ حاجتكم إليه، وتَحْيَا بلادكُمْ من الجَدْبِ والقَحط.

وأما قوله: «ويَزِدْكُمْ قُوةً إلى قوتكم»، فهو: ويزدكم شِدَّةً إلى شدتكم.

وقوله: «ولا تتولوا مجرمين»، يقول: ولا تُدْبِرُوا عما أَدْعُوكُمْ إليه من توحيدِ الله، والبراءةِ من الأوثانِ والأصنام. «مجرمين»، يعني: كافرين بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قومُ هودٍ لهود: يا هودُ، ما أتيتنا ببيانٍ ولا برهانٍ على ما تقولُ، فَنُسَلِّمَ لكَ ونُقِرَّ بأنكَ صادقٌ فيما تدعونا إليه من توحيدِ الله، والإقرارِ بنبوتك. «وما نحنُ بتاركي آلهتنا»، يقول: وما نحنُ بتاركي آلهتنا، يعني: لقولِكَ أو مِنْ أجلِ قولِكَ. «وما نحنُ لك بمؤمنين»، يقول: قالوا: وما نحنُ لك بما تَدَّعي من النبوةِ والرسالةِ من الله إلينا، بمصدِّقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾

وهذا خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن قولِ قومِ هود: أنهم قالوا له، إذْ نَصحَ لهم، ودَعَاهم إلى توحيدِ الله وتصديقه، وخَلْعِ الأوثانِ والبراءةِ منها: لا نتركُ عبادةَ آلهتنا، وما نقولُ إلا أنَّ الذي حَملكَ على ذَمِّها والنهي عن عبادتها، أنه أصابكَ منها خَبَلٌ من جنون. فقال هود لهم: إني أُشْهِدُ الله على نفسي، وأُشْهِدُكُمْ أيضاً، أيها القومُ، أني بريءٌ مما تشركونَ في عبادةِ الله من آلهتكم وأوثانكم من دونه. «فَكِيدُوني جميعاً»، يقول: فاحتالوا أنتم جميعاً وآلهتكم في ضُرِّي ومكروهي. «ثم لا تُنْظِرون»، يقول: ثم لا تُؤَخِّروا ذلك، فانظرُوا هل تَنالُونني أنتم وهم بما زعمتم أنَّ آلهتكم نالتني به من السوء؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

يقـول: إني على الله الـذي هو مالكي ومالككم، والقيّمُ على جميع خَلْقِه، توكلتُ من أنْ تُصيبوني، أنتم وغيركم من الخَلْقِ بسوء، فإنه ليس من شيءٍ يَدُبُّ على الأرضِ، إلا والله مالِكُه، وهو في قَبْضَتِه وسلطانه. ذليلٌ له خاضعٌ.

فإنْ قال قائـل: وكيف قيل: «هـو آخِـذٌ بنـاصيتهـا»، فَخَصَّ بالأخـذِ «الناصية»، دونَ سائرِ أماكنِ الجسد.

قيل: لأنَّ العـربَ كانت تستعمـل ذلـك في وصفها مَنْ وَصَفَتْهُ بالذلةِ والخضوع، فتقول: «ما ناصيةُ فلانٍ إلّا بيدِ فلان»، أي: إنه له مطيع، يصرفهُ كيف شاء. وكانوا إذا أَسَرُوا الأسيرَ فأرادوا إطلاقَهُ والمنَّ عليه، جَزُّوا ناصيتَهُ، ليعتدُّوا بذلك عليه فخراً عند المفاخرة. فخاطبهم الله بما يعرفون في كلامهم، والمعنى ما ذكرت.

وقـولـه: «إنَّ ربي على صراطٍ مستقيم»، يقـول: إنَّ ربي على طريقِ الحقِّ، يجازي المحسنَ من خَلْقِه بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، لا يظلمُ أحداً منهم شيئاً، ولا يقبلُ منهم إلا الإسلامَ والإيمان به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ هود لقومه: «فإنْ تَوَلَّوا»، يقول: فإنْ أدبـروا مُعْـرضينَ عَمَّـا أدعوهُمْ إليه من توحيدِ الله وتركِ عبادةِ الأوثان. «فقد أبلغتُكُم»، أيها القومُ. «ما أُرسِلْتُ به إليكم»، وما على الرَّسولِ إلا البلاغ. «ويستخلفُ ربي قومـاً غيركم»، يُهْلِكُكُمْ ربي، ثم يستبـدل ربي منكم قوماً

غيركم، يُوَحِّدونَهُ ويُخلِصُونَ له العبادةَ. «ولا تضرونه شيئاً»، يقول: ولا تَقْدِرُونَ له على ضُرٍّ إذا أراد هلاكَكُمْ، أو أهلككم.

«إن ربي على كل شيءٍ حفيظ»، يقول: إن ربي على جميعِ خَلْقِه ذو حِفْظٍ وعِلْم. يقول: هو الذي يحفظني من أنْ تنالوني بسوء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما جاءَ قومَ هودٍ عذابُنا، نَجَّيْنَا منه هوداً والذينَ آمنوا بالله معه. «برحمةٍ منا»، يعني: بفضلٍ منه عليهم ونعمة. «ونَجَّيناهُمْ من عذابٍ غليظ»، يقول: نجيناهم أيضاً من عذابٍ غليظٍ يومَ القيامة، كما نجيناهم في الدنيا من السخطةِ التي أنزلتُهَا بعاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهؤلاء الذين أحللنا بهم نِقْمَتنا وعَذابنا، عادٌ، جَحَدُوا بأدلةِ الله وحججه، وعَصَوا رُسُلَهُ الذين أرسلهم إليهم للدعاءِ إلى توحيدِه واتباعِ أمره. «واتبعوا أمرَ كُلِّ جبارٍ عنيد»، يعني: كُلَّ مستكبرٍ على الله، حَائدٍ عن الحق، لا يُذعن له ولا يقبله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ۝٦٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: وأتبع عادُ قومُ هود في هذه الدنيا غضباً من الله، وسخطةً يومَ القيامة مثلها، لعنةً إلى اللعنةِ التي سَلَفَتْ لهم من الله في الدنيا. «ألا إنَّ عاداً كفروا ربهم ألا بُعْداً لعادٍ قومِ هود»، يقول: أبْعَدَهُمُ الله من الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأرسلنا إلى ثمودَ أخاهُمْ صالحاً فقال لهم: يا قومِ، اعبدُوا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأخلِصُوا له العبادةَ دونَ ما سواه من الآلهةِ، فما لكم من إلهٍ غيره يستوجبُ عليكم العبادةَ، ولا تجوزُ الألوهةُ إلَّا له. «هو أنشأكم من الأرض»، يقول: هو ابتدأ خَلْقَكُمْ من الأرض.

وإنما قال ذلك، لأنه خَلَقَ آدمَ من الأرضِ، فخرج الخطابُ لهم، إذ كان ذلك فعله بمن هم منه.

«واستعمـركم فيهـا»، يقول: وجَعَلَكم عُمَّاراً فيها، فكان المعنى فيه: أَسْكَنَكُمْ فيها أيامَ حياتكم.

وقوله: «فاستغفروه»، يقول: اعملوا عملاً يكون سبباً لسترِ الله عليكم ذنوبَكُم، وذلك الإيمانُ به، وإخلاصُ العبادةِ له دونَ ما سواه، واتباعُ رسولِه صالح. «ثم توبوا إليه»، يقول: ثم اتركوا من الأعمالِ ما يكرهه رَبُّكم، إلى ما يَرْضَاهُ ويحبه. «إنَّ ربي قريبٌ مجيب»، يقول: إنَّ ربي قريبٌ ممن أخلصَ له العبادةَ ورغبَ إليه في التوبة، مجيبٌ له إذا دعاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت ثمودُ لصالح نبيِّهم: «يا صالحُ قد كُنْتَ فينا مَرْجُوًّا»، أي: كنا نرجُو أنْ تكونَ فينا سيداً قبلَ هذا القولِ الذي قلته لنا، من أنه ما لنا من إلهٍ غيرُ الله. «أتنهانا أنْ نَعْبُدَ ما يعبدُ آباؤنا»، يقول: أتنهانا أنْ نعبدَ الألهةَ التي كانت آباؤنا تعبدها. «وإننا لفي شكٍّ مما تدعونَا إليه مريب»، يعنون أنهم لا يعلمونَ صِحَّةَ ما يَدْعُوهم إليه من توحيدِ الله، وأنَّ الألوهةَ لا تكونُ إلَّا لهُ خالصاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال صالح لقومِهِ من ثمود: «يا قومِ أرأيتم إنْ كنتُ على بينةٍ من ربي»، يقول: إنْ كنتُ على برهانٍ وبيانٍ من الله قد علمته وأيقنته. «وآتاني منه رحمةً»، يقول: وآتاني منه النبوةَ والحكمةَ والإسلامَ. «فمن ينصرني من الله إنْ عصيتُه»، يقول: فمن الذي يدفعُ عنِّي عقابه إذا عاقبني إنْ أنا عَصَيْتُه، فيخلِّصَني منه. «فما تَزِيدُونَني»، بِعُذْرِكُم الذي تعتذرُون به، مِنْ أنكم تعبدونَ ما كان يعبدُ آباؤكم. «غيرَ تخسيرٍ»، لكم يُخسركم حُظوظَكم من رحمةِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ

ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ صالحٍ لقومِه من ثمود، إذْ قالوا له: «وإننا لفي شكٍ مما تَدْعُونَا إليه مريب»، وسألوه الآيةَ على ما دعاهم إليه: «يا قومِ هذه ناقةُ الله لكم آيةً»، يقول: حُجَّةً وعلامةً ودلالةً على حقيقةِ ما أدعوكم إليه. «فذروها تأكُلْ في أرضِ الله»، فليس عليكم رِزْقُها ولا مُؤْونَتها. «ولا تمسوها بسوء»، يقول: لا تَقْتُلُوها ولا تَنَالُوها بعقْرٍ. «فيأخذكم عذابٌ قريب»، يقول: فإنكم إنْ تَمَسُّوهَا بسوءٍ، يأخذكم عذابٌ من الله غير بعيدٍ فيهلككم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فعقرتْ ثمودُ ناقةَ الله، وفي الكلام محذوفٌ قد تُرِكَ ذكرُه، استغناءً بدلالةِ الظاهرِ عليه، وهو: «فَكَذَّبُوه»، «فعقروها»، فقال لهم صالح: «تمتَّعوا في داركم ثلاثةَ أيام»، يقول: استمتعوا في دارِ الدنيا بحياتكم ثلاثةَ أيام. «ذلك وَعْدٌ غيرُ مكذوب»، يقول: هذا الأجلُ الذي أجَّلتُكم، وَعْدٌ من الله، وَعَدَكُمْ بانقضائه الهلاكَ ونزولَ العذاب بكم. «غير مكذوب»، يقول: لم يكذبكم فيه مَنْ أعْلَمَكُمْ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما جاء ثمودَ عذابُنا. «نَجَّيْنَا صالحاً والذينَ آمنوا

معه برحمةٍ منا»، يقول: بنعمةٍ وفضلٍ من الله. «ومن خِزْيِ يومئذٍ»، يقول: ونجيناهم من هوانِ ذلكَ اليوم، وذلِّه بذلكَ العذاب. «إن ربك هو القويُّ»، في بَطْشِه، إذا بطشَ بشيءٍ أهلكَهُ، كما أهلكَ ثمود حين بطَش بها. «العزيز»، فلا يَغْلِبهُ غالبٌ، ولا يقهره قاهِرٌ، بل يغلبُ كُلَّ شيءٍ ويقهره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأصابَ الذين فعلوا ما لم يَكُنْ لهم فِعْلُه، من عَقْرِ ناقـةِ الله وكفـرهم به. «الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين»، قد جَثَّمَتْهُمُ المنايا، وتركتهم خُموداً بأفنيتهم.

«كأن لم يَغْنَوْا فيها»، يقول: كأنْ لم يعيشوا فيها، ولم يعمروا بها.

وقوله: «ألا إنَّ ثمود كفروا ربهم»، يقول: ألا إنَّ ثمود كفروا بآياتِ ربهم فَجَحَدُوها. «ألا بُعْداً لثمود»، يقول: ألا أَبْعَدَ الله ثمود! لنزولِ العذابِ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ولقد جاءت رسلنا»، من الملائكة، وهم فيما ذكر، كانوا جبْريلَ ومَلَكينِ آخَرين، وقيل: إنَّ الملكين الآخرين كانا ميكائيلَ وإسرافيلَ معه. «إبراهيمَ»، يعني: إبراهيمَ خليلَ الله. «بالبشرى»، يعني: بالبشارة.

واختلفوا في تلك البشارة التي أتوه بها.

فقال بعضهم: هي البشارة بإسحاق.

وقال بعضهم: هي البشارة بهلاكِ قومِ لوط.

«قالوا سلاماً»، يقول: فَسَلَّمُوا عليه سلاماً.

ونصب «سلاماً» بإعمال «قالوا»: فيه، كأنه قيل: قالوا قولاً وسلَّمُوا تسليماً.

«قال سلامٌ»، يقول: قال إبراهيمُ لهم: سلامٌ فرفع «سلامٌ»، بمعنى: عليكمُ السلامُ أو بمعنى: سلامٌ منكم.

وقوله: «فما لبِثَ أنْ جاء بعجلٍ حنيذ» وأصله «محنوذٌ»، صرف من «مفعول» إلى «فعيل».

وقد اختلف أهلُ العربية في معناه، فقال بعضهم: المحنوذ، المَشْوِيُّ. وقال آخرون: كل ما انشوَى في الأرض، إذا خَدَدتَ له فيه، فدفَنْتَهُ وغَمَمته، فهو «الحنيذُ» و«المَحْنوذ».

وأما أهلُ التأويلِ، فإنهم قالوا في معناه: بعجلٍ نضيج، والمشوي الذي يقطرُ ماؤه.

وهذه الأقوال التي ذكرناها عن أهلِ العربية وأهلِ التفسير، متقارباتُ المعاني بعضها من بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما رأى إبراهيمُ أيديَهم لا تصلُ إلى العجلِ الذي أتاهم به، والطعام الذي قَدَّمَ إليهم، نَكِرَهُمْ. وذلك أنه لما قدم طعامه ﷺ

إليهم، فيما ذكر، كَفُّوا عن أكْلِه، لأنهم لم يكونوا مِمَّنْ يأكُله. وكانَ إمساكُهم عن أكله، عند إبراهيم، وهُمْ ضِيفَانُه، مستنكراً. ولم تكن بينهم معرفةٌ، وراعَهُ أمرهم، وأوجسَ في نفسه منهم خِيفةً.

وقوله: «وأوجس منهم خيفة»، يقول: أحَسَّ في نَفسه منهم خِيفةً وأضمرها.

«قالوا لا تخف»، يقول: قالت الملائكةُ، لما رأتْ ما بإبراهيمَ من الخوفِ منهم: لا تَخَفْ منا وكُنْ آمناً، فإنَّا ملائكةُ ربِّكَ. «أُرْسِلْنَا إلى قومِ لوط».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ

قال أبو جعفر.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وامرأته»، سارَة بنت هاران بن ناحور بن ساروج بن راعو بن فالغ، وهي ابنةُ عَمِّ إبراهيمَ. «قائمةٌ»، قيل: كانت قائمةً من وراءِ السترِ تسمعُ كلامَ الرسلِ وكلامَ إبراهيمَ عليه السلام. وقيل: كانت قائمةً تخدُم الرسلَ، وإبراهيم جالسٌ مع الرسل.

وقوله: «فضحكت»، اختلفَ أهلُ التأويل في معنى قوله: «فضحكت»، وفي السبب الذي من أجله ضحكت.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال معنى قوله: «فضحكت»، فعجبتْ من غفلةِ قومِ لوطٍ عمَّا قد أحاطَ بهم من عذابِ الله وغفلتهم عنه.

وإنما قلنا هذا القول أوْلى بالصواب، لأنه ذكر عَقيب قولهم لإبراهيم: «لاتَخَفْ إنا أُرسلنا إلى قومِ لوط». فإذا كان ذلك كذلك، وكان لا وجهَ

للضحكِ والتَّعَجُّبِ من قولهم لإبراهيم: «لا تخف»، كان الضحكُ والتعجبُ إنما هو من أمرِ قومِ لوط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ



يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَبَشَّرْنَا سارَة، أمرأةَ إبراهيمَ، ثواباً مِنَّا لها على نَكيرها وعَجَبها من فِعْلِ قومِ لوط، «بإسحق»، ولداً لها. «ومِنْ وراءِ إسحقَ يعقوب»، يقول: ومِنْ خَلْفِ إسحقَ يعقوب، من ابنها إسحق.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامةُ قـرأة العراق والحجاز: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبُ﴾، برفع «يعقوب»، ويعيد ابتداء الكلام بقوله: «ومن وراء إسحق يعقوب». وذلك، وإنْ كان خبراً مبتدأ، ففيه دلالةٌ على معنى التبشير.

وقرأه بعض قَرَأَةِ أهلِ الكوفة والشام، ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾، نَصباً.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي، قراءةُ من قرأه رفعاً، لأن ذلك هو الكلام المعروف من كلامِ العرب، والذي لا يتناكره أهلُ العلم بالعربية، وما عليه قَرَأَةُ الأمصار. فأما النَّصب فيه، فإنَّ له وجهاً، غير أنِّي لا أحبُّ القراءةَ به، لأنَّ كتابَ الله نزل بأفصحِ ألسُنِ العرب، والذي هو أوْلى بالعلمِ بالذي نزلَ به من الفصاحة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ

وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت سارَة لما بُشِّرتْ بإسحق أنَّها تلد، تَعَجُّباً مما قيلَ لها من ذلك، إذْ كانت قد بلغت السِنَّ التي لا يَلِدُ مَنْ كان قد بلغَها من الرجال والنساء.

«يا ويلتا»، وهي كلمةٌ تقولها العربُ عند التعجبِ من الشيءِ، والاستنكارِ للشيءِ. فيقولون عند التعجبِ: «وَيلُ أمهٌ رجلاً ما أرْجَله»!

وقوله: «ءَأَلِدُ وأنا عجوز»، يقول: أنَّى يكونُ لي ولد. «وأنا عجوز وهذا بعلي شيْخاً».

و«البعل»، في هذا الموضع، الزوج. وسُمِّيَ بذلك، لأنه قَيِّمُ أمْرِهَا، كما سَمّوا مالكَ الشيءِ «بعله»، وكما قالوا للنخلِ التي تَستغني بماءِ السماءِ عن سقي ماء الأنهـار والعيون «البَعْل»، لأنَّ مالكَ الشيء القيِّمُ به؛ والنخل البعلُ، بماءِ السَماءِ حياتُهُ.

وقوله: «إنَّ هذا لشيءٌ عجيب»، يقول: إنَّ كونَ الولدِ من مثلي ومثلِ بعلي، على السنِّ التي بها نحنُ، لشيءٌ عجيبٌ. «قالوا أتعجبينَ من أمر الله»، يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: قالت الرُّسُلُ لها: أتعجبينَ من أمرٍ أمرَ الله به أنْ يكونَ، وقضاءٍ قَضَاهُ الله فيكِ وفي بَعْلكِ.

وقوله: «رحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهل البيت»، يقول: رحمةُ الله وسعادته لكم أهلَ بيتِ إبراهيمَ، وجعلت «الألف واللام»، خلفاً من الإضافةِ.

وقوله: «إنه حَميدٌ مجيد»، يقول: إنَّ الله محمودٌ في تَفَضُّلِه عليكم بما تفضل به من النعمِ عليكم وعلى سائرِ خَلْقِه. «مجيد»، يقول: ذُو مَجْدٍ ومَدْحٍ وَثَناء كريم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما ذهبَ عن إبراهيمَ الخوفُ الذي أوجسه في نفسه من رُسُلِنَا، حين رأى أيديَهُم لا تصلُ إلى طعامه، وأمِنَ أنْ يكونَ قُصِدَ في نفسه وأهلِه بسوء. «وجاءته البشرى»، بإسحقَ، ظَلَّ «يجادلنا في قومِ لوط»، يقول: يخاصمنا، أي: يجادلُ رسلنا على وجهِ المحاجَّةِ لهم.

وقوله: «إنَّ إبراهيم لحليمٌ أوَّاهٌ مُنيب»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ إبراهيمَ لبطيءُ الغَضبِ، مُتَذَلِّلٌ لربهِ، خاشعٌ له، منقادٌ لأمرِه. «مُنيب»، رَجَّاعٌ إلى طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قولِ رُسُلِه لإبراهيمَ: «يا إبراهيمُ أعْرِضْ عن هذا»، وذلك قِيلُهم له حين جَادلهم في قومِ لوط، فقالوا: دَعْ عنك الجدالَ في أمرهم والخصومةَ فيه، فإنه «قد جاء أمرُ رَبِّكَ»، يقول: قد جاء أمرُ رَبِّكَ بعذابهم. وحقَّ عليهم كلمةُ العذاب، ومضى فيهم بهلاكِهم القضاءُ. «وإنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردود»، يقول: وإنَّ قومَ لوطٍ، نازلٌ بهم عذابٌ من الله غير مدفُوع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما جاءت ملائكتنا لوطاً، ساءَهُ مَجيئُهم، وهو «فعل» من «السوء». «وضاقَ بهم»، بمجيئهم. «ذَرْعاً»، يقول: وضاقتْ نَفْسُه غمًّا بمجيئهم. وذلك أنه لم يكن يعلمُ أنهم رُسُلُ الله في حال ما ساءه مجيئهم، وعلم من قومِه ما هُمْ عليه من إتيانِهم الفاحشةَ، وخَافَ عليهم، فضاقَ من أجل ذلك بمجيئهم ذَرعاً، وعلم أنه سيحتاجُ إلى المدافعةِ عن أضيافِه، ولذلك قال: «هذا يومٌ عَصيب»، أي: هذا يوم شديد شَرُّهُ، عظيمٌ بلاؤُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجاءَ لوطاً قومُهُ يستحثُّونَ إليه، يُرْعَدُونَ مع سرعةِ المشي، مما بهم من طَلَبِ الفاحشة.

وقوله: «ومِنْ قَبْلُ كانوا يعملون السيئاتِ»، يقول: من قبل مجيئهم إلى لوط، كانوا يأتون الرجالَ في أدبارهم.

وقوله: «قال يا قوم هؤلاء بناتي»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال لوطٌ لقومِه لما جاؤوه يُرَاوِدُونَهُ عن ضَيْفِه: هؤلاء يا قوم بناتي ـ يعني نساء أمته ـ فانْكِحُوهُنَّ، فَهُنَّ أطهرُ لكم.

وقـوله: «فاتقوا الله ولا تُخْزُونِ في ضيفي»، يقول: فاخشوا الله، أيها النـاسُ، واحـذروا عِقَـابَهُ، في إتيانكم الفاحشةَ التي تأتونها وتطلبونها. «ولا تخزونِ في ضيفي»، يقول: ولا تُذِلُّوني، بأنْ تركبوا مني في ضيفي ما يَكرهونَ أنْ تَرْكَبُوه منهم.

و«الضيف» في لفظِ واحدٍ في هذا الموضع، بمعنى الجمع. والعربُ تسمي الواحدَ والجمعَ «ضيفاً»، بلفظِ واحدٍ. كما قالوا: «رَجُلٌ عَدْل، وقوم عَدْل».

وقوله: «أليس منكم رجلٌ رشيد»، يقول: أليس منكم رجل ذُو رُشْدٍ، ينهى مَنْ أراد ركوبَ الفاحشةِ من ضيفي، فيحول بينهم وبين ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قومُ لوطٍ للوط: «لقد علمتَ»، يا لوطُ. «ما لنا في بناتك من حَقٍّ»، لأنهن لَسْنَ لنا أزواجاً.

وقـوله: «وإنكَ لَتعلمُ ما نُريد»، يقول: قالوا: وإنك يا لوط لتعلمُ أنَّ حاجتنا في غيرِ بناتكَ، وأنَّ الذي نُريد هو ما تَنْهَانَا عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال لوطٌ لقومِه، حين أبوا إلا المُضِيَّ لما قد جَاؤُوا له من طلبِ الفاحشة، وأيِسَ من أنْ يَستجيبُوا له إلى شيءٍ مما عرض عليهم: «لو أنَّ لي بكم قُوةً»، بأنصارٍ تَنْصُرني عليكم، وأعوانٍ تُعينني. «أو آوي إلى رُكنٍ شديد»، يقول: أو أنضمَّ إلى عشيرةٍ مانعةٍ تمنعني منكم، لحلتُ بينكم وبين ما جِئتُمْ تُريدونـه منِّي في أضيافي ـ وحـذف جواب «لو» لدلالة الكلام عليه، وأن معناه مفهوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت الملائكةُ للوط، لما قالَ لوطٌ لقومه: «لو أنَّ لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديد»، ورأوا ما لقي من الكَرْبِ بسببهم منهم: «يا لوطُ إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ»، أُرسِلْنَا لإهلاكِهم، وإنهم لن يَصِلُوا إليكَ وإلى ضيفكَ بمكروهٍ، فَهَوِّنْ عليكَ الأمرَ. «فَأَسْرِ بأهلكَ بِقِطْعٍ من الليل»، يقول: فاخرجْ من بين أظهرهم أنتَ وأهلكَ ببقيةٍ من الليل.

وقوله: «إنه مصيبُهَا ما أصابهم»، يقول: إنه مصيب امرأتكَ ما أصابَ قومكَ من العذابِ. «إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبحُ»، يقول: إنَّ موعدَ قومكَ الهلاك الصبح. فاستبطأ ذلكَ منهم لوطٌ وقال لهم: بل عَجِّلُوا لهم الهلاكَ! فقالوا: «أليسَ الصبحُ بقريب»؟ أي: عند الصبح نزولُ العذابِ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما جاء أَمْرُنَا بالعذابِ، وقضاؤُنَا فيهم بالهلاك. «جعلنا عاليها»، يعني: عاليَ قريتهم. «سافلها وأمطرنا عليها»، يقول: وأرسلنا عليها. «حجارةً من سجيل»، وهي حجارةٌ من طين، وبذلك وَصَفَهَا الله في كتابه في موضع، وذلك قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٣-٣٤].

وقوله: «منضود»، من نعت «سجيل»، لا من نعتِ «الحجارة»، وإنما أمطر القوم حجارة من طين، صفة ذلك الطين أنه نُضِدَ بعضُه إلى بعض، فصُيِّر حجارةً، ولم يُمْطَرُوا الطينَ، موصوفاً بأنه تتابع على القوم بمجيئه.

وأما قوله: «مسوّمة عند ربك»، فإنه يقول: معلمة عند الله، أعلمها الله، و«المسوّمة» من نعت «الحجارة»، ولذلك نصبت على النعت.

وأما قوله: «وما هي من الظالمينَ ببعيدٍ»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُهُ، متهدداً مشركي قريش: وما هذه الحجارةُ التي أُمطِرتها على قوم ِلوطٍ، من مشركي قومك، يا محمد، ببعيدٍ أن يمطروها، إنْ لم يتوبوا من شركهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأرسلنا إلى وَلَدِ مَدْيَنَ أخاهم شعيباً، فلما أتاهم قال: «يا قوم ِاعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره»، يقول: أطيعوه، وتَذَلَّلوا له بالطاعةِ لما أمركم به ونهاكم عنه. «ما لكم من إلهٍ غيره»، يقول: ما لكم من معبودٍ سواه يستحقُّ عليكم العبادةَ غيرُه. «ولا تَنْقصُوا المكيالَ والميزان»، يقول: ولا تنقصوا الناسَ حقوقهم في مكيالكم وميزانكم. «إني أراكم بخير».

واختلف أهلُ التأويل في «الخير»، الذي أخبرَ الله عن شعيب أنه قال لمدينَ إنه يراهم به.

فقال بعضهم: كان ذلك رُخْص السعرِ، وحَذرهم غلاءه.

وقال آخرون: عَنَى بذلك: إنِّي أرى لكم مالاً وزينةً من زينِ الدنيا.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصواب، ما أخبرَ الله عن شعيبٍ أنه قال لقومِه، وذلك قوله: «إني أراكم بخير»، يعني: بخيرِ الدنيا. وقد يدخلُ في خيرِ الدنيا، المالُ، وزينةُ الحياةِ الدنيا، ورخص السعر ـ ولا دلالةَ على أنه عَنَى بقِيله ذلك بعض خيراتِ الدنيا دونَ بعضٍ، فذلك على كل معاني خيراتِ الدنيا التي ذكر أهلُ العلمِ أنهم كانوا أُوتُوها.

وإنما قال ذلك شعيب، لأنَّ قومَهُ كانوا في سَعَةٍ من عيشهم، ورُخْصٍ من أسعارهم، كثيرة أموالهم، فقال لهم: لا تنقصُوا الناسَ حقوقَهم في مكاييلكم وموازينكم، فقد وَسَّعَ الله عليكم رزقكم. «وإني أخافُ عليكم»، بمخالفتكم أمرَ الله، وبَخْسكم الناسَ أموالهم في مكاييلكم وموازينكم. «عذابَ يومٍ مُحيط»، يقول: أنْ ينزلَ بكم عذابُ يومٍ محيط بكم عذابه. فجعل «المحيط» نعتاً لليوم، وهو من نعت «العذاب»، إذْ كان مفهوماً معناه، وكان العذابُ في اليوم، فصار كقولهم: «بعض جُبَّتك محترقة».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ شعيبٍ لقومه: أوفوا الناسَ الكيلَ والميزان. «بالقسطِ»، يقول: بالعدلِ، وذلك بأن تُوفوا أهلَ الحقوق التي هي مما يُكالُ أو يُوزَنُ حقوقَهم، على ما وَجَبَ لهم من التمامِ، بغيرِ بَخْسٍ ولا نقص.

وقوله: «ولا تَبْخَسُوا الناسَ أشياءهم»، يقول: ولا تنقصوا الناسَ حُقوقَهم التي يجبُ عليكم أنْ تُوفوهُمْ كيلاً أو وزناً أو غيرَ ذلك.

وقوله: «ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين»، يقول: ولا تسيروا في الأرضِ تعملون فيها بمعاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝٨٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «بقيةُ الله خيرٌ لكم»، ما أبقاهُ الله لكم، بعد أنْ تُوفوا الناسَ حُقوقَهم بالمكيالِ والميزانِ بالقسطِ، فأحلّه لكم، خيرٌ لكم من الـذي يبقى لكم ببخسكم الناسَ من حقوقهم بالمكيالِ والميزان. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم مُصَدِّقينَ بوعدِ الله ووعيدِه، وحلالِه وحرامه.

وإنما اخترتُ في تأويلِ ذلك القولَ الذي اخترته، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ إنما تقدم إليهم بالنهي عن بَخْسِ الناسِ أشياءَهُمْ في المكيال والميزان، وإلى تركِ التطفيفِ في الكيلِ والبخسِ في الميزان دعاهم شعيب، فتعقيبُ ذلك بالخبرِ عَمَّا لهم من الحظِّ في الوفاء في الدنيا والآخرة، أولى مع أن قوله: «بقية»، إنما هي مصدر من قولِ القائل: «بَقِيَتْ بقيةٌ من كذا»، فلا وجهَ لتوجيهِ معنى ذلك إلا إلى: بقيةُ الله التي أبقاها لكم، مما لكم بعد وفائِكم الناسَ حُقـوقَهم، خيرٌ لكم من بقيتكم من الحـرامِ، الـذي يبقى لكم من ظُلْمِكُم الناسَ، ببخسكم إياهم في الكيلِ والوزن.

وقـوله: «وما أنا عليكم بحفيظ»، يقول: وما أنا عليكم، أيها الناسُ، برقيبٍ أرقبكم عند كَيْلِكم ووَزْنِكُم، هل تُوفون الناسَ حُقوقهم، أم تظلمونهم؟ وإنما عليَّ أنْ أبلغكم رسالةَ ربِّي، فقد أبلغتكُمُوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قومُ شعيبٍ: يا شعيبُ، أصَلاتُكَ تأمُرُكَ أنْ نتركَ

عبادةَ ما يعبدُ آباؤنا من الأوثانِ والأصنامِ. «أو أنْ نفعلَ في أموالنا ما نشاء»، من كسرِ الدراهم وقَطْعِهَا، وبخسِ الناسِ في الكيلِ والوزنِ. «إنك لأنتَ الحليمُ»، وهو الذي لا يَحْمِلُه الغضبُ أنْ يفعلَ ما لم يكن ليفعله في حالِ الرِّضى. «الرشيد»، يعني: رشيدَ الأمرِ في أمرِه إياهم أنْ يتركُوا عبادةَ الأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال شعيبٌ لقومِه: يا قومِ، أرأيتم إنْ كنتُ على بيانٍ وبرهانٍ من ربِّي فيما أدعوكم إليه من عبادةِ الله، والبراءةِ من عبادةِ الأوثانِ والأصنامِ، وفيما أنهاكم عنه من إفسادِ المال. «ورزقني منه رزقاً حسناً»، يعني: حلالاً طيِّباً. «وما أُريدُ أنْ أُخالِفَكُمْ إلى ما أنهاكم عنه»، يقول: وما أريدُ أنْ أنهاكم عن أمرٍ، ثم أفعلُ خِلَافَهُ، بَلْ لا أفعلُ إلا ما آمركم به، ولا أنتهي إلَّا عما أنهاكم عنه.

«إنْ أُريدُ إلَّا الإصلاحَ»، يقول: ما أُريدُ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، إلَّا إصلاحكم وإصلاحَ أمركم. «ما استطعتُ»، يقول: ما قدرتُ على إصلاحِه، لئلا ينالكم من الله عقوبةٌ مُنَكِّلةٌ، بخلافكم أمْرَهُ، ومعصيَتِكُمْ رسولَهُ.

«وما توفيقي إلا بالله»، يقول: وما إصابتي الحَقَّ في محاولتي إصلاحَكُمْ وإصلاح أمركم، إلا بالله، فإنه هو المُعِينُ على ذلك، إلَّا يُعِنِّي عليه لم أُصِبِ الحَقَّ فيه.

وقوله: «عليه توكلتُ»، يقول: إلى الله أُفَوِّضُ أمري، فإنَّ به ثقتي، وعليه اعتمادي في أموري.

وقوله: «وإليه أُنيب»، وإليه أُقبِلُ بالطاعةِ، وأرجِعُ بالتوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ شعيبٍ لقومه: «ويا قوم لا يجرمنكم شِقاقي»، يقول: لا يَحْمِلَنَّكُمْ عداوتي وبُغْضِي، وفراق الدينِ الذي أنا عليه، على الإصرارِ على ما أنتم عليه من الكفرِ بالله، وعبادةِ الأوثان، وبَخْسِ الناسِ في المكيالِ والميزان، وتركِ الإنابةِ والتوبةِ، فيصيبكم. «مِثْلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ»، من الغرقِ. «أو قومَ هود»، من العذابِ. «أو قوم صالح»، من الرَّجفةِ. «وما قومُ لوطٍ»، الذين ائتفكت بهم الأرضُ. «منكم ببعيد»، هَلَاكُهم، أفلا تتَّعِظُونَ به، وتعتبرون؟ يقول: فاعتبروا بهؤلاء، واحْذَرُوا أنْ يُصِيبكم بشقاقي مِثْلُ الذي أصابهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ شعيبٍ لقومه: «استغفروا ربكم»، أيها القومُ، من ذُنوبكم بينَكُمْ وبينَ ربِّكم التي أنتم عليها مُقيمون، من عبادةِ الآلهةِ والأصنامِ، وبَخْسِ الناسِ حقوقَهم في المكاييلِ والموازين. «ثم تُوبوا إليه»، يقول: ثم ارجعوا إلى طاعتِه، والانتهاءِ إلى أمره ونهيه. «إنَّ ربي رحيم»، يقول: هو رحيمٌ بمن تابَ وأنابَ إليه، أنْ يُعَذِّبَهُ بعد التوبةِ. «ودودٌ»، يقول: ذُو مَحَبَّةٍ لمن أنابَ وتابَ إليه، يودُّه ويحبُّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قومُ شعيبٍ لشعيب: «يا شعيبُ ما نَفْقَهُ كثيراً مما تقول»، أي: ما نعلمُ حقيقةَ كثيرٍ مما تقولُ وتُخْبِرُنا به. «وإنا لنراكَ فينا ضعيفا»

ذُكِر أنه كان ضريراً، فلذلك قالوا له: «إنا لنراكَ فينا ضعيفاً».

وقوله: «ولولا رَهْطُكَ لرجمناكَ»، يقول: يقولون: ولولا أنك في عشيرتكَ وقومكَ. «لرجمناكَ»، يعنون: لسَبَبْنَاكَ. وقال بعضهم: معناه: لقَتَلْنَاكَ.

وقوله: «وما أنتَ علينا بعزيز»، يعنون: ما أنتَ مِمَّنْ يكرُم علينا، فَيَعْظُمُ علينا إذلالُه وهَوانُه، بل ذلك علينا هَيِّنٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال شعيب لقومه: يا قومِ، أعَزَّزْتُمْ قومَكم، فكانوا أعزَّ عليكم من الله، واسْتَخْفَفْتُمْ بربِّكم، فجعلتموه خلفَ ظهوركم، لا تأتمرونَ لأمرِه، ولا تخافونَ عقابَهُ ولا تعظِّمُونَهُ حَقَّ عظَمته؟

يُقالُ للرجل إذا لم يَقْضِ حاجةَ الرجل: «نَبَذ حاجَتَهُ وراءَ ظهرِه»، أي: تركها لا يلتفتُ إليها. وإذا قَضاها قيل: جعلَها أمامَهُ، ونُصْبَ عينيه»، ويقال: «ظَهَرتَ بحاجتي» و«جعلتها ظِهْرِيَّة»، أي خلف ظهرك.

وقوله: «إنَّ ربي بما تعملون محيط»، يقول: إنَّ ربي محيطٌ عِلْمُه بعملكم، فلا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، وهو مُجازِيكم على جميعه عاجلاً وآجلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مُخبراً عن قِيلِ شعيبٍ لقومه: «ويا قومِ اعملوا على مكانتكم»، يقول: على تمكنكم.

يقـال منـه: «الـرجلُ يعملُ على مَكينَتِه، ومَكِنتِه»، أي: على اتِّئادِه، «ومَكُن الرجلُ يمكُنُ مكناً ومَكانةً ومَكاناً».

وكان بعضُ أهلِ التأويلِ يقول في معنى قوله: «على مكانتكم»، على منازِلكم.

فمعنى الكـلام إذاً: ويا قومِ اعملُوا على تَمَكُّنِكُمْ من العمـلِ الذي تَعملونَهُ، إنِّي عاملٌ على تؤدةٍ من العملِ الذي أعمله. «سوف تعلمون»، أيُّنا الجاني على نفسِه، والمخطِىء عليها، والمصيبُ في فعله المحسنُ إلى نفسِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ نبيِّهِ شعيب لقومه: «الذي يأتيه مِنَّا ومنكم، أيها القومُ. «عذابٌ يُخْزِيه»، يقول: يُذِلُّه ويُهينُه.

«ومَنْ هو كاذِبٌ»، يقول: ويُخزي أيضاً الذي هو كاذبٌ في قِيلِه وخَبَرِه مِنَّا ومنكم. «وارتقبوا»، أي: انتظروا وتفقدوا، من «الرِّقْبة».

وقـولـه: «إني معكم رَقيبٌ»، يقول: إنِّي أيضاً ذو رِقْبة لذلكَ العذابِ معكم، وناظرٌ إليه، بمَنْ هو نازلٌ منا ومنكم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، ولما جاء قضاؤنا في قومِ شعيبٍ، بعذابنا. «نَجَّيْنَا شُعيباً»، رسولنا، والذينَ آمنوا به فَصَدَّقُوه على ما جاءهم به من عندِ رَبِّهم، مع شعيبٍ من عذابنا الذي بَعَثْنَا على قومِه. «برحمةٍ منا»، له ولِمَنْ آمنَ به واتَّبَعَهُ على ما جاءهم به من عنـدِ ربهم، وأخذتِ الذين ظَلَمُوا صيحةٌ من السماءِ أَخْمَدَتْهُمْ، فأهلكتهم بكُفْرِهم بربِّهم. وقِيلَ إنَّ جبريلَ عليه السلام صاحَ بهم صَيحةً أخرجتْ أرواحهم من أجسامِهم. «فأصبحوا في ديارهم جاثمين»، على رُكَبِهم، وصَرْعى بأفنيتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كأن لم يَعِشْ قومُ شعيبٍ الذين أهلكَهم الله بعذابِهِ، حين أصبحوا جاثمينَ في ديارهم قبلَ ذلك، ولم يَغْنَوْا.

من قولهم: «غنيتُ بمكانِ كذا»، إذا أقمتُ به.

وقوله: «ألا بُعْداً لمدين كما بعدت ثمود»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألا أَبْعَدَ الله مَدْيَنَ من رحمتِه، بإحلالِ نقمتِه بهم. «كما بَعِدَتْ ثمود»، يقول: كما بعدت من قَبْلِهم ثمودُ من رحمتِه، بإنزالِ سَخَطِه بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ

﴿مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أرسلنا موسى بأدِلَّتِنا على توحيدنا، وحجةٍ تُبينُ لمن عَايَنَهَا وتأمَّلَهَا بقلبٍ صحيحٍ، أنها تدلُّ على توحيدِ الله، وكذبَ كُلِّ مَن ادَّعى الربوبيةَ دونه، وبُطُولِ قولِ مَنْ أشركَ معه في الأُلوهيةِ غيرَهُ. «إلى فرعون وملئه»، يعني: إلى أشرافِ جُنْدِه وتُبَّاعه. «فاتبعوا أمرَ فرعون»، يقول: فَكَذَّبَ فرعون ومَلَؤُه موسى، وجَحَدُوا وحدانيةَ الله، وأبَوْا قَبُولَ ما أتاهم به موسى من عندِ الله، واتَّبَعَ ملأُ فرعونَ أمرَ فرعون دونَ أمرِ الله، وأطاعوه في تكذيب موسى، وردِّ ما جاءهم به من عندِ الله عليه - يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: «وما أمرُ فرعونَ برشيدٍ»، يعني: أنه لا يُرْشِدُ أمرُ فرعون مَنْ قَبِلَهُ منه، في تكذيب موسى، إلى خيرٍ، ولا يَهديه إلى صلاحٍ، بل يُورِدُه نارَ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «يَقْدُمُ» فرعونُ، «قومَهُ يومَ القيامة»، يَقُودُهم، فيمضي بهم إلى النارِ، حتى يُورِدَهُمُوها، ويُصْلِيهم سَعِيرَهَا. «وبئس الوِرْدُ»، يقول: وبئس الورد الذي يَرِدُونَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأتبعهم الله في هذه - يعني في هذه الدنيا - مع العذابِ الذي عَجَّلَهُ لهم فيها، من الغَرَقِ في البحر، لعنتَهُ. «ويومَ القيامة»، يقول: وفي يوم القيامة أيضاً يلعنون لعنةً أخرى.

وقوله: «بِئْسَ الرِّفْدُ المرفود»، يقول: بئس العَوْنُ المُعان، اللعنةُ المزيدةُ فيها أخرى مِثْلُها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: هذا القَصَصُ الذي ذَكَرْنَاهُ لكَ في هذه السورة، والنبأُ الذي أنبأناكَهُ فيها، من أخبارِ القرى التي أهلكنا أهلها بكفرِهم بالله، وتكذيبِهم رُسُلَهُ. «نَقُصُّهُ عليكَ»، فنخبركَ به. «منها قائم»، يقول: منها قائم بُنْيَانُه، بائدٌ أهْلُهُ هالك، ومنها قائمٌ بنيانه عامرٌ، ومنها حصيدٌ بنيانه، خرابٌ مُتَدَاعٍ، قد تَعَفَّى أثرُه دارسٌ.

من قولهم: «زرع حصيد»، إذا كان قد اسْتُؤْصِلَ قطعه، وإنما هو «محصود»، ولكنه صُرِفَ إلى «فعيل»، كما قد بَيَّنَّا في نظائره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما عاقبنَا أهلَ هذه القرى التي اقتصصنا نَبأَهَا عليكَ، يا محمدُ، بغيرِ استحقاقٍ منهم عقوبتنا، فنكون بذلك قد وضعنا عُقُوبَتَنَاهُمْ في غير موضعها. «ولكن ظلموا أنفسهم»، يقول: ولكنهم أوجبوا لأنفسِهم بمعصيتِهم الله وكُفْرِهم به، عقوبتَهُ وعَذَابَهُ، فأحَلُّوا بها ما لم يكن لهم أنْ يحلوه بها، وأوجبوا لها ما لم يَكُنْ لهم أن يوجبوه لها. «فما أَغْنَتْ عنهم آلهتهم التي يَدْعُونَ من دونِ الله من شيء»، يقول: فما دَفَعَتْ عنهم آلهتهم التي يدعونها

من دونِ الله، ويَدْعُونَا أرباباً، من عقابِ الله وعذابه إذا أَحَلَّهُ بهم ربُّهم من شيء، ولا ردتْ عنهم شيئاً منه. «لما جاءَ أمرُ رَبِّكَ»، يا محمدُ، يقول: لما جاء قضاءُ رَبِّكَ بعذابهم، فحقَّ عليهم عقابه، ونزل بهم سَخَطه. «وما زادوهم غير تتبيب»، يقول: وما زادتهم آلهتُهم، عند مجيءِ أمرِ رَبِّكَ هؤلاء المشركين بعقابِ الله، غير تخسيرٍ وتدمير وإهلاك.

وهذا الخبرُ من الله تعالى ذِكْرُهُ، وإنْ كان خبراً عَمَّنْ مَضَى من الأممِ قبلنا، فإنه وعيدٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ لنا، أيتها الأمة، أنَّا إنْ سلكنا سبيلَ الأممِ قبلَنا في الخلاف عليه وعلى رسوله، سلك بنا سبيلهم في العقُوبة ـ وإعلامٌ منه لنا أنه لايظلمُ أحداً من خلقه، وأنَّ العبادَ هُم الذين يظلمون أنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكما أخذتُ، أيها الناسُ، أهلَ هذه القرى التي اقتصصتُ عليكَ نبأَ أَهْلِهَا بما أخذتهم به من العذابِ، على خِلافِهم أمري، وتكذيبهم رسلي، وجُحودِهم آياتي، فكذلك أَخْذِي القرَى وأهلها إذا أخذتُهم بعقابي، وهم ظَلَمَةٌ لأنفسهم بكفرهم بالله، وإشراكهم به غيره، وتكذيبهم رسله. «إنَّ أخْذَهُ أليم»، يقول: إنَّ أخذَ ربكم بالعقابِ مَنْ أخذه. «أليم»، يقول: مُوجعٌ. «شديد» الإيجاع.

وهذا من الله تحذيرٌ لهذه الأمة، أنْ يسلكوا في معصيتهِ طريقَ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ الفاجرة، فيحلَّ بهم ما حَلَّ بهم من المثُلات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ١٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في أَخْذِنا مَنْ أخذنا من أهلِ القرى التي اقتصصنا خَبَرَهَا عليكم، أيها الناسُ. «لآية»، يقول: لعبرةً وعِظَةً - لمن خافَ عقابَ الله وعذابَهُ في الآخرة من عبادِه، وحجةً عليه لربه، وزاجراً يزجره عن أنْ يعصي الله ويخالفه فيما أمره ونهاه.

وقوله: «ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا اليوم يعني يوم القيامة. «يومٌ مجموعٌ له الناس»، يقول: يحشرُ الله له الناسَ من قُبورِهم، فيجمعهم فيه للجزاءِ والثوابِ والعقاب. «وذلكَ يومٌ مشهود»، يقول: وهو يومٌ تَشهدُه الخلائقُ، لا يتخلَّفُ منهم أحدٌ، فينتقمُ حينئذٍ مِمَّنْ عَصَى الله وخالفَ أمره وكذَّبَ رُسُلَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ١٠٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: وما نؤخِّرُ يومَ القيامةِ عنكم أنْ نَجِيئَكُمْ به إلّا لأن يُقْضَى، فقضى له أجـلاً فعدَّهُ وأحصَاه، فلا يأتي إلا لأجله ذلك، لا يتقدمُ مجيئهُ قبلَ ذلك ولا يتأخر.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يوم يأتي يوم القيامة، أيها الناسُ، وتقوم الساعة، لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بإذنِ رَبِّها.

وقيل: «لا تَكَلَّمُ»، وإنمـا هي: «لا تتكلم»، فحذفَ إحدى التاءين، اجتزاءً بدلالةِ الباقية منهما عليها.

وقوله: «فمنهم شقيٌّ وسعيد»، يقول: فمن هذه النفوس التي لا تكلمُ يومَ القيامة إلا بإذنِ ربها، شقيٌّ وسعيد ـ وعاد على «النفس»، وهي في اللفظ واحدة، بذكرِ الجميعِ في قوله: «فمنهم شقي وسعيد».

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فأما الذين شَقُوا ففي النارِ لهم فيها زفيرٌ»، وهو أوَّلُ نُهاقِ الحمارِ وشبهه. «وشهيق»، وهو آخر نهيقه إذا رَدَّدَهُ في الجوفِ عند فراغه من نُهاقه.

وقوله: «خالدين فيها»، لابثينَ فيها. ويعني بقوله: «ما دامت السموات والأرض»، أبـداً. وذلك أنَّ العربَ إذا أرادت أنْ تَصِفَ الشيءَ بالدوامِ أبداً قالت: «هذا دائمٌ دوام السمواتِ والأرض»، بمعنى أنه دائم أبداً. والمعنى في ذلك: خالدين فيها أبداً.

ثم قال: «إلا ما شاءَرَبُّكَ»، واختلفَ أهلُ العلم والتأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: هذا استثناءٌ استثناهُ الله في أهلِ التوحيدِ، أنه يُخْرِجُهم من النارِ إذا شاء بعد أنْ أدخلهم النار.

وقال آخرون: الاستثناءُ في هذه الآية في أهل التوحيد ـ إلا أنهم قالوا: معنى قوله: «إلا ما شاء ربك»، إلا أنْ يشاء رَبُّكَ أنْ يتجاوزَ عنهم فلا يدخلهم النار ـ ووجَّهُوا الاستثناءَ إلى أنه من قوله: «فأما الذين شَقُوا ففي النار»، «إلا ما شاءَ ربك»، لا من «الخلود».

وقال آخرون: عَنَى بذلك أهلَ النار وكُلَّ مَنْ دخلها.

وقال آخرون: أخبرنا الله بمشيئتِه لأهلِ الجنة، فَعَرَّفَنا معنى ثُنْياه بقوله: «عطاءً غير مجذوذ»، أنها في الزيادة على مقدارِ مدةِ السمواتِ والأرض. قال: ولم يخبرنا بمشيئتِه في أهلِ النار. وجائزٌ أن تكونَ مشيئتُه في الزيادة، وجائزٌ أنْ تكونَ في النقصان.

وأَوْلى هذه الأقوالِ بالصوابِ قولُ مَنْ قال: إنَّ ذلك استثناء في أهلِ التوحيد من أهلِ الكبائر، أنه يدخلهم النارَ خالدينَ فيها أبداً، إلا ما شاءَ من تركهم فيها أقلَّ من ذلك، ثم يُخرجُهم فيدخِلُهم الجنةَ، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أوعدَ أهلَ الشركِ به الخلودَ في النار، فغير جائزٍ أنْ يكون استثناءً في أهلِ الشركِ.

وقوله: «إنَّ رَبَّكَ فَعّال لما يريد»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ، لا يمنعهُ مانعٌ من فِعْلِ ما أرادَ فِعْلَهُ بِمَنْ عَصاهُ وخالفَ أمره، من الانتقامِ منه، ولكنه يفعل ما يشاء فِعْلَهُ، فَيَمضي فيهم وفي من شاء من خَلْقِه فعله وقضاؤه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

وتأويل ذلك: وأما الذين سُعِدُوا برحمةِ الله فهم في الجنةِ خالدينَ فيها ما دامتِ السموات والأرض، يقول: أبداً. «إلَّا ما شاء ربك»، من قدر مُكْثِهم في النار من لَدُنْ دَخلُوها إلى أنْ أُدْخِلُوا الجنة.

وأما قوله: «عطاء غير مجذوذ»، فإنه يعني: عطاءً من الله غيرَ مقطوعٍ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ١٠٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فلا تَكُ في شكٍ، يا محمدُ، مما يَعبدُ هؤلاء المشركونَ من قومكَ من الآلهةِ والأصنام، أنه ضلالٌ وباطلٌ، وأنه بالله شركٌ. «ما يعبدُ هؤلاء إلا كما يعبدُ آباؤهم من قَبْلُ»، يقول: إلا كعبادةِ آبائِهم، من قبل عبادتِهم لها. يُخبر تعالى ذِكْرُهُ أنهم لم يعبدُوا ما عبدوا من الأوثانِ، إلا اتباعاً منهم منهاجَ آبائهم، واقتفاءً منهم آثارهم في عِبادَتِهِمُوها، لا عن أمرِ الله إياهم بذلك، ولا بحجةٍ تَبَيَّنُوهَا توجبُ عليهم عبادتها.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤُهُ نبيَّه ما هو فاعلٌ بهم لعبادَتِهم ذلكَ، فقال جَلَّ ثناؤُهُ: «وإنا لَمُوَفُّوهم نصيبَهم غيرَ منقوصٍ»، يعني: حَظَّهم مما وعدتهم أن أُوَفِّيهُمُوه من خيرٍ أو شرٍ. «غير منقوص»، يقول: لا أنقصهم مما وَعَدْتُهم، بَلْ أُتَمِّمُ ذلك لهم على التمام والكمال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ١١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مسلِّياً نبيَّه في تكذيبِ مشركي قومِه إياه فيما أتاهم به من عندِ الله، بفعل بني إسرائيلَ بموسى فيما أتاهم به من عندِ الله. يقول له تعالى ذِكْرُهُ: ولا يَحْزُنْكَ، يا محمدُ، تكذيبُ هؤلاء المشركينَ لك، وامْضِ لما أمرَكَ به ربُّكَ من تبليغِ رسالتِه، فإنَّ الذي يفعلُ بك هؤلاء، من ردِّ ما جِئْتَهُمْ به عليك من النَّصيحة، من فِعْلِ ضُرَبَائهم من الأممِ قَبْلَهُمْ، وسنَّةٌ من سُننهم.

ثم أخبره جَلَّ ثناؤُهُ بما فعل قومُ موسى به فقال: «ولقد آتينا موسى الكتابَ»، يعني التوراة، كما آتيناكَ الفرقانَ، فاختلفَ في ذلك الكتابِ قومُ موسى، فكذَّب به بعضُهم وصَدَّقَ به بعضهم، كما قد فعلَ قومُكَ بالفرقانِ، من تصديقِ بعضٍ به، وتكذيبِ بعض. «ولولا كلمةٌ سبقتْ من رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولولا كلمةٌ سبقت، يا محمدُ، من ربك بأنه لا يعجِّلُ على خَلْقِه بالعذاب، ولكن يتأنَّى حتى يبلغَ الكتابُ أجله. «لقضيَ بينهم»، يقول: لقضي بين المُكَذِّبِ منهم به والمصدِّقِ، بإهلاكِ الله المكذبَ به منهم، وإنجائِه المصدقَ به. «وإنهم لفي شكٍ منه مريب»، يقول: وإنَّ المكذبينَ به منهم، لفي شك من حقيقتِه أنه من عندِ الله. «مريب»، يقول: يُرِيْبُهم، فلا يدرون أحقٌّ هو أم باطلٌ؟ ولكنهم فيه ممترون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١١﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته جماعة من أهلِ المدينة والكوفة: ﴿وَإِنَّ﴾ مشددة ﴿كُلًّا لَمَّا﴾ مشددة.

وقد قرأ ذلك بعضُ قرأةِ الكوفيين: ﴿وَإِنْ كُلًّا﴾، بتخفيفِ «إنْ» ونصبِ ﴿كلًّا لَمَّا﴾، مشددة.

وقرأ ذلك بعض المدنيين بتخفيف: ﴿إِنْ﴾ ونصب ﴿كُلًّا﴾، وتخفيف ﴿لَمَا﴾.

وقرأ ذلك بعضُ أهلِ الحجاز والبصرة: ﴿وَإِنَّ﴾ مشددة ﴿كُلًّا لَمَا﴾، مخففة ـ ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾.

وأصحُّ هذه القراءاتِ مخرجاً على كلامِ العرب المستفيض فيهم، قراءة من قرأ: ﴿وَإِنَّ﴾ بتشديدِ نُونِها ﴿كُلًّا لَمَا﴾ بتخفيف «ما» ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾ بمعنى: وإنَّ كُلَّ هؤلاء الذين قَصَصنا عليكَ، يا محمدُ، قَصَصَهم في هذه السورة، لَمَنْ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أعمالهم، بالصالحِ منها بالجزيلِ من الثوابِ، وبالطالحِ منها بالشديدِ من العقابِ، فتكون «ما» بمعنى «مَن»، واللام التي فيها جواباً لـ«إنّ»، واللام في قوله: «ليوفينهم»، لام قسم.

وقوله: «إنه بما يعملون خبير»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ ربكَ بما يعملُ هؤلاء المشركونَ بالله من قومكَ، يا محمدُ، «خبير»، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من عملهم، بل يخبرُ ذلك كله ويَعْلَمُه ويحيطُ به، حتى يجازيهم على جميعِ ذلك جزاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فاستقمْ أنتَ، يا محمدُ، على أمرِ رَبِّكَ، والدِّينِ الذي ابتعثكَ به، والدعاء إليه كما أمركَ رَبُّكَ. «ومَنْ تابَ معك»، يقول: ومَنْ رجعَ معكَ إلى طاعةِ الله، والعملِ بما أمره به رَبُّه من بعدِ كُفْرِه. «ولا تطغوا»، يقول: ولا تعدُوا أمْرَهُ إلى ما نَهاكُمْ عنه. «إنه بما تعملون بصير»، يقول: إنَّ رَبَّكم، أيها الناسُ، بما تعملونَ من الأعمالِ كلِّها، طاعتها ومعصيتها. «بصير»، ذُو علمٍ بها، لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو لجميعها مُبْصِرٌ. يقول تعالى ذِكْرُهُ: فاتقوا الله، أيها الناسُ، أنْ يطَّلعَ عليكم رَبُّكم وأنتم عاملون بخلافِ أمرِه، فإنه ذُو علمٍ بما تعملون، وهو لكم بالمرصاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ

ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تميلوا، أيها الناسُ، إلى قولِ هؤلاء الذين كفروا بالله، فَتَقْبَلُوا منهم وتَرْضوا أعمالَهم. «فَتَمَسَّكُمُ النار»، بِفِعْلِكم ذلك، وما لكم من دونِ الله من ناصرٍ ينصركم ووليٍّ يليكم. «ثم لا تُنصرون»، يقول: فإنكم إنْ فعلتم ذلك، لم ينصركم الله، بل يُخَلِّيكم من نُصْرَتِه، ويسلِّط عليكم عدوَّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «وأقم الصلاة»، يا محمدُ، ، يعني: صَلِّ «طرفي النهار»، يعني: الغداةَ والعشيَّ.

واختلف أهلُ التأويل في التي عُنيت بهذه الآية من صَلواتِ العشيِّ، بعد إجماعِ جميعهم على أنَّ التي عُنيت من صَلاة الغداةِ، الفجرُ.

فقال بعضهم: عُنيت بذلك صلاةُ الظُّهرِ والعصرِ. قالوا: وهما من صلاةِ العشيّ.

وقال آخرون: بل عنى بها صلاة المغرب.

وقال بعضهم: بل عنى بطرفي النهار، الظهر والعصر، وبقوله: «زلفاً من الليل»، المغرب والعشاء والصبح.

وأَوْلى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: «هي صلاة المغرب».

وإنما قلنا: «هو أولى بالصواب»، لإجماعِ الجميعِ على أنَّ صلاةَ أحدِ

الطرفين من ذلك صلاة الفجر، وهي تصلى قبل طُلوعِ الشمس. فالواجبُ، إذْ كان ذلك من جميعهم إجماعاً، أنْ تكونَ صلاةُ الطرفِ الآخر المغرب، لأنها تُصَلَّى بعد غُروب الشمسِ. ولو كان واجباً أنْ يكون مراداً بصلاةِ أحدِ الطرفينِ قبلَ غروبِ الشمس، وَجَبَ أنْ يكون مراداً بصلاةِ الطرفِ الآخر بعدَ طلوعها. وذلك ما لا نعلمُ قائلاً قالَهُ، إلاَّ مَنْ قال: «عنى بذلك صلاة الظهر والعصر». وذلـك قولٌ لا يُخِيلُ فسـاده[1]، لأنهمـا إلى أنْ يكـونا جميعاً من صلاةِ أحدِ الطرفين، أقربُ منهما إلى أنْ يكونا من صلاةِ طرفي النهار. وذلك أنَّ «الظهر» لا شَكَّ أنها تُصَلَّى بعد مُضِيِّ نصفِ النهارِ في النصف الثاني منه، فمحالٌ أنْ تكونَ من طرفِ النهار الأول، وهي في طرفه الآخر.

فإذا كانَ لا قائلَ مِنْ أهلِ العلم يقول: «عنى بصلاة طرف النهار الأول صلاةً بعد طلوعِ الشمس»، وَجَبَ أنْ يكونَ غير جائزٍ أنْ يُقالَ: «عنى بصلاة طرف النهار الآخر صلاةً قبل غروبها».

وإذا كان ذلك كذلك، صَحَّ ما قلنا في ذلك من القولِ، وفسدَ ما خالفه.

وأما قوله: «وزُلَفاً من الليل»، فإنه يعني: ساعاتٍ من الليل.

وقوله: «إنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئات»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الإنابةَ إلى طاعةِ الله والعمل بما يُرضِيه، يُذْهِبُ آثامَ معصيةِ الله، ويكفِّرُ الذنوبَ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في «الحسنات» التي عنى الله في هذا الموضع، اللاتي يُذْهِبْنَ السيئات.

فقال بعضهم: هُنَّ الصلواتُ الخمسُ المكتوبات.

وقال آخرون: هن قول: «سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا الله، والله أكبر».

(١) يعني: لايُشْكِلُ فساده، وشيء مخيل: مُشْكِلٌ.

وأوْلى التأويلين بالصواب في ذلك، قولُ مَنْ قال في ذلك: «هُنَّ الصلواتُ الخمس»، لصحةِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ وتواتُرِهَا عنه أنه قال: «مَثَلُ الصلواتِ الخمس مَثَلُ نَهْرٍ جَارٍ عَلَى بابِ أحَدِكم، ينغمسُ فيه كُلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ، فماذا يُبقينَ من دَرَنه؟»[1]، وأنَّ ذلك في سياق أمرِ الله بإقامةِ الصلوات، والوعدُ على إقامتها الجزيلَ من الثوابِ عَقيبها، أوْلى من الوعدِ على ما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ من صالحاتِ سائرِ الأعمال، إذا خُصَّ بالقصدِ بذلك بعضٌ دون بعض.

وقوله: «ذلك ذِكْرى للذاكرين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي أوعدتُ عليه من الركونِ إلى الظلم، وتهددتُ فيه، والذي وعدتُ فيه من إقامةِ الصلوات اللواتي يُذهبنَ السيئاتِ، تذكرةٌ ذَكَّرْتُ بها قوماً يذكُرونَ وَعْدَ الله، فيرجُون ثوابَهُ ووعيدَهُ، فيخافون عقابه، لا مَنْ قد طبع على قلبه، فلا يُجيبُ داعياً، ولا يسمع زاجراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ 

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واصبرْ، يا محمدُ، على ما تَلْقَى من مشركي قومكَ من الاذى في الله والمكروه، رجاءَ جزيلِ ثوابِ الله على ذلك، فإنَّ الله لا يُضِيعُ ثوابَ عمل مَنْ أحسنَ فأطاعَ الله واتبع أمره، فيذهب به، بل يوفِّرهُ أحوجَ ما يكون إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ

---

(١) أخرجه البخاري(٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة باختلاف لفظي. ومسلم (٦٦٨)من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري.

﴿بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَهَلَّا كان من القرون الذين قَصَصْتُ عليكَ نبأَهُمْ في هذه السورة، الذين أهلكتُهم بمعصيتِهم إيَّايَ، وكُفْرِهم برسلي. «مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بقية»، يقول: ذَوُو بقيةٍ من الفَهْمِ والعقل، يعتبرون مواعظَ الله ويتدبرون حُجَجَهُ، فيعرفونَ ما لهم في الإيمانِ بالله، وما عليهم في الكفرِ به. «يَنْهَوْنَ عن الفسادِ في الأرض»، يقول: ينهون أهلَ المعاصي عن معاصيهم، وأهلَ الكفرِ بالله عن كُفْرِهم به، في أرضه. «إلَّا قليلاً ممن أنجينا منهم»، يقول: لم يكن من القرونِ من قبلكم أُولُو بقيةٍ ينهونَ عن الفسادِ في الأرض، إلَّا يسيراً، فإنهم كانوا ينهون عن الفسادِ في الأرض، فَنَجَّاهُم الله من عذابه، حين أخَذَ مَنْ كان مقيماً على الكفرِ بالله عذابُه - وهم أتباعُ الأنبياء والرسل.

وقوله: «واتَّبَعَ الذين ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فيه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «واتبع الذين ظلموا»، أنفسهم، فكفروا بالله «ما أترفوا فيه».

وكأنَّ هؤلاء وجَّهوا تأويلَ الكلامِ: واتبع الذين ظلموا الشيءَ الذي أَنْظَرَهُمْ فيه ربُّهم من نعيمِ الدنيا ولذاتها، إيثاراً له على عملِ الآخرةِ وما يُنَجِّيهم من عذابِ الله.

وقال آخرون: معنى ذلك: واتَّبَعَ الذين ظلموا ما تَجَبَّرُوا فيه من المُلْكِ، وعتَوْا عن أمرِ الله.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ: أخبر أنَّ الذين ظلموا أنفسهم من كُلِّ أمةٍ سلفت، فكفروا بالله، اتبعوا ما أُنْظِرُوا فيه من لَذَّاتِ الدنيا، فاستكبروا وكفروا بالله، واتبعوا ما أُنْظِرُوا فيه من لذاتِ الدنيا، فاستكبروا عن أمرِ الله، وتجبَّرُوا وصَدُّوا عن سبيله.

وذلك أن «المُتْرَفَ»، في كلام العرب، هو المُنَعَّمُ الذي قد غُذِّي باللذات.

وقوله: «وكانوا مجرمين»، يقول: وكانوا مكتسبي الكفر بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما كان رَبُّكَ، يا محمدُ، ليهلك القرى التي أهلكها، التي قَصَّ عليكَ نبأَهَا، ظُلماً وأهلُها مُصلحونَ في أعمالهم، غير مسيئين، فيكون إهلاكُه إياهم مع إصلاحِهم في أعمالهم وطاعتهم ربَّهم، ظلماً. ولكنَّهُ أهلكَهَا بكفرِ أهلِها بالله، وتمادِيهم في غيِّهم، وتكذيبهم رُسُلهم، وركوبهم السيئات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو شاء رَبُّكَ، يا محمدُ، لجعلَ الناسَ كلهم جماعةً واحدةً، على مِلَّةٍ واحدة، ودينٍ واحد.

وقوله: «ولا يزالون مختلفين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا يزالُ النَّاسُ مختلفينَ «إلَّا مَنْ رحمَ رَبُّك».

ثم اختلف أهلُ التأويل في «الاختلاف» الذي وصفَ الله الناسَ أنهم لا يزالونَ به.

فقال بعضهم: هو الاختلافُ في الأديان ـ فتأويلُ ذلك على مذهبِ هؤلاء ولا يزالُ الناس مختلفينَ على أديانٍ شتى، من بين يهوديٍّ ونصرانيٍّ ومجوسي ونحو ذلك. وقال قائلو هذه المقالة: استثنى الله من ذلك مَنْ رَحِمَهُمْ، وهم أهلُ الإيمان.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا يزالونَ مختلفينَ في الرزقِ، فهذا فقيرٌ وهذا غنيٌّ.

وقال بعضهم: مختلفينَ في المغفرةِ والرحمةِ، أو كما قال.

وأوْلى الأقوالِ في تأويلِ ذلك بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: «ولا يزالُ الناس مختلفينَ في أديانهم وأهوائهم على أديانٍ ومِلَلٍ وأهواءٍ شتى، إلا مَنْ رحمَ ربك، فآمنَ بالله وصَدَّقَ رُسُلَهُ، فإنهم لا يختلفونَ في توحيدِ الله، وتصديقِ رُسُلِه، وما جاءهم من عند الله».

وإنما قلت: ذلك أوْلى بالصوابِ في تأويلِ ذلك، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أتبع ذلك قوله: «وتَمَّتْ كلمةُ رَبِّكَ لأملأنَّ جهنمَ من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين»، ففي ذلك دليلٌ واضح أن الذي قبله من ذِكْرِ خبرِه عن اختلافِ الناس، إنما هو خبرٌ عن اختلافٍ مذمومٍ يُوجِبُ لهمُ النارَ. ولو كان خبراً عن اختلافِهم في الرزق، لم يُعَقِّبْ ذلك بالخبرِ عن عِقابهم وعَذابهم.

وأما قوله: «ولذلك خلقهم»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: وللاختلافِ خَلَقَهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وللرحمةِ خلقهم.

وأولى القولين في ذلك بالصواب، قولُ من قال: «وللاختلافِ بالشقاءِ والسعـادةِ خلقهم»، لأنَّ الله جَلَّ ذِكْرُهُ ذكرَ صِنفين من خَلْقِه: أحدهما أهل اختلافٍ وباطل، والآخر أهل حَقٍّ، ثم عَقَّبَ ذلك بقوله: «ولذلك خلقهم»،

فَعَمَّ بقوله: «ولذلك خلقهم»، صفة الصنفين، فأخبر عن كُلِّ فريقٍ منهما أنه مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له.

فإنْ قال قائلٌ: فإنْ كان تأويلُ ذلك كما ذكرتَ، فقد ينبغي أنْ يكونَ المختلفون غير مَلُومينَ على اختلافِهم، إذْ كان لذلك خَلَقَهُمْ رَبُّهم، وأنْ يكون المتمتِّعون هم الملومين؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلافِ ما إليه ذهبتَ، وإنما معنى الكلام: ولا يزالُ الناس مختلفينَ بالباطلِ من أديانِهم ومِلَلِهم، إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، فهداهُ للحق، ولعِلْمِه، وعلى عِلْمِه النافذِ فيهم قبلَ أنْ يخلقهم، أنه يكون فيهم المؤمنُ والكافرُ والشقيُّ والسعيد، خلقهم - فمعنى اللام في قوله: «ولذلك خلقهم»، بمعنى «على»، كقولك للرجل: «أكرمتُكَ على بِرِّكَ بي» و«أكرمتك لبرِّكَ بي».

وأما قوله: «وتمت كلمةُ رَبِّكَ لأملأنَّ جهنمَ من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين»، لعلمهِ السابق فيهم أنهم يستوجبونَ صلِيَّها بكُفْرِهم بالله، وخلافهم أمرَهُ.

وقوله: «وتَمَّتْ كلمةُ رَبِّكَ»، قَسَمٌ كقولِ القائل: «حلفي لأزورنَّكَ»، «وبَدا لي لآتِيَنَّكَ»، ولذلك تُلُقِّيَتْ بلامِ اليمين.

وقوله: «من الجنة»، وهي ما اجْتَنَّ عن أبصارِ بني آدم. «والناس»، يعني: وبني آدم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وكلاًّ نقصُّ عليك»، يا محمدُ. «من أنباءِ الرُّسُلِ»، الذين كانوا قَبْلَكَ. «ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ»، فلا تجزع من تكذيبِ مَنْ كَذَّبَكَ من قومِكَ، ورَدَّ عليكَ ما جِئْتَهُمْ به، ولا يَضِقْ صَدْرُكَ، فتترك بعضَ ما أنزلتُ إليك

من أجلِ أنْ قالوا: «لولا أُنزلَ عليه كنزٌ أو جاءَ معه مَلَك»؟ إذا علمتَ ما لقيَ مَنْ قبلك من رسلي من أممها.

وأما قوله: «وجاءك في هذه الحقُّ»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: وجاءك في هذه السورةِ الحَقُّ.

وقال آخرون: معنى ذلك: وجاءك في هذه الدنيا الحقّ.

وأَوْلى التأويلين بالصوابِ في تأويلِ ذلك، قولُ مَنْ قال: «وجاءك في هذه السورةِ الحقُّ»، لإجماعِ الحُجَّةِ من أهلِ التأويلِ على أنَّ ذلك تأويله.

فإن قال قائل: أو لم يجئ النبيَّ ﷺ الحقُّ من سُورِ القرآنِ إلَّا في هذه السورة، فيقال: وجاءكَ في هذه السورةِ الحق؟

قيل له: بلى، قد جاءه فيها كلّها.

فإن قال: فما وجه خصُوصِه إذاً في هذه السورة بقوله: «وجاءك في هذه الحق»؟

قيل: إنَّ معنى الكلام: وجاءكَ في هذه السورة الحقُّ، مع ما جاءكَ في سائرِ سورِ القرآن ـ أو: إلى ما جاءكَ من الحقِّ في سائرِ سُوَرِ القرآن ـ لا أنَّ معناه: وجاءك في هذه السورة الحق، دونَ سائرِ سورِ القرآن.

وقوله: «وموعظة»، يقول: وجاءك موعظةٌ تَعِظُ الجاهلينَ بالله، وتبينُ لهم عِبَرَهُ مِمَّنْ كَفَرَ به وكَذَّبَ رسله. «وذكرى للمؤمنين»، يقول: وتذكرة تُذَكِّرُ المؤمنينَ بالله ورسله، كي لا يغفلُوا عن الواجبِ لله عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: وقُلْ، يا محمدُ، للذين لا يصدِّقُونَكَ ولا يُقِرُّونَ بوحدانيةِ الله. «اعملوا على مكانتكم»، يقول: على هِينَتِكُمْ ما أنتم عامِلُوه، فإنَّا عاملونَ ما نحنُ عامِلُوه من الأعمالِ التي أمرنا الله بها، وانتظروا ما وعدكم الشيطانُ، فإنَّا منتظرونَ ما وَعَدَنا الله من حربكم ونصرتنا عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ولله، يا محمدُ، مُلْكُ كُلِّ ما غابَ عنك في السمواتِ والأرض فلم تَطَّلِعْ عليه ولم تَعْلَمْهُ، كُلُّ ذلك بيدِه وبعلمه، لا يَخْفَى عليه منه شيءٌ، وهو عالمٌ بما يعملهُ مشركُو قومكَ، وما إليه مصيرُ أمرِهم، من إقامةٍ على الشركِ، أو إقلاعٍ عنه وتوبة. «وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كُلُّه»، يقول: وإلى الله مَعَادُ كُلِّ عاملٍ وعمله، وهو مُجازٍ جميعهم بأعمالهم.

«فاعبده»، يقول: فاعبدْ رَبَّكَ، يا محمدُ. «وتوكَّلْ عليه»، يقول: وفوِّضْ أمركَ إليه، وثِقْ به وبكفايته، فإنه كافي مَنْ تَوكَّل عليه.

وقوله: «وما رَبُّكَ بغافلٍ عما تعملون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما رَبُّكَ، يا محمدُ، بساهٍ عَمَّا يعملُ هؤلاء المشركون من قومك، بل هو محيطٌ به، لا يعزبُ عنه شيءٌ منه، وهو لهم بالمرصادِ، فلا يَحْزُنْكَ إعراضُهم عنكَ، ولا تَكْذِيبُهم بما جئتهم به من الحقِّ، وامضِ لأمرِ رَبِّكَ، فإنك بأَعْيُنِنَا.



تفسير سورة يوسف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ



قد ذكرنا اختلافَ أهلِ التأويلِ في تأويلِ قولِه: «الٓر تلك آياتُ الكتاب»، والقولُ الذي نختارهُ في تأويلِ ذلك فيما مضى، بما أَغْنَى عن إعادتِه ههنا[1].

وأما قوله: «تلكَ آياتُ الكتابِ المبين»، فإنَّ معناه: هذه آياتُ الكتابِ المبين لِمَنْ تَلاهُ وتَدَبَّرَ ما فيه، من حلالِه وحرامِه ونهيه وسائر ما حَواهُ من صنوفِ معانيه، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أخبر أنه «مبين»، ولم يخصَّ إبانَتَهُ عن بعضِ ما فيه دونَ جميعِهِ. فذلكَ على جَمِيعِه، إذْ كان جميعهُ مبيناً عمَّا فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ



يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّا أنزلنا هذا الكتابَ المبينَ، قرآناً عربيًّا على العربِ، لأنَّ لسانَهم وكلامَهم عربيٌّ، فأنزلنا هذا الكتابَ بلسانِهم ليعقلوه ويفقهوا منه، وذلك قوله: «لعلكم تعقلون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

يقـول جَلَّ ثنـاؤُهُ لنبيهِ محمـدٍ ﷺ: «نحن نَقُصُّ عليك»، يا محمدُ، «أحسنَ القَصَص»، بوحينا إليكَ هذا القرآنَ، فنخبركَ فيه عن الأخبارِ الماضية، وأنباءِ الأممِ السالفة، والكتبِ التي أنزلناها في العصور الخالية. «وإنْ كنتَ من قَبْلِه لمن الغافلين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ كنتَ ، يا محمدُ، مِنْ قَبْلِ أنْ نُوحيه إليكَ، لَمِنَ الغافلينَ عن ذلك، لا تعلمه ولا شيئاً منه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنْ كنتَ يا محمدُ، لمن الغافلينَ عن نبـأ يوسفَ بن يعقـوب بن إسحق بن إبـراهيم، إذْ قال لأبيهِ يعقوب بن إسحق: «يا أبتِ إني رأيتُ أحدَ عشر كوكباً»، يقول: إني رأيتُ في منامي أحدَ عشر كوكباً.

وقيل: إنَّ رؤيا الأنبياءِ كانت وحياً.

وقولهُ: «والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين»، يقول: والشمس والقمر رأيتهم في منامي سجوداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

يقول جَلَّ ذِكْرُهُ: قال يعقوبُ لابنه يوسف: «يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رؤياكَ»، هذه، «على إخوتك»، فيحسدُوكَ «فيكيدوا لكَ كيداً»، يقول: فيبغوك الغوائلَ، ويناصِبُوكَ العداوةَ، ويُطِيعُوا فيكَ الشيطانَ. «إنَّ الشيطانَ للإنسانِ عدوٌّ مبين»، يقـول: إنَّ الشيطانَ لآدمَ وبَنِيه عدوٌّ، قد أبـانَ لهم عداوتَهُ وأظهرها. يقول:

فاحْـذَرِ الشيطانَ أنْ يُغْرِيَ إخوتَكَ بكَ بالحَسَدِ منهم لكَ، إنْ أنت قَصَصْتَ عليهم رؤياك.

وإنما قال يعقوبُ ذلك، لأنه قد كان تبيَّن له من إخوته قبلَ ذلك حسدًا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ يعقوبَ لابنهِ يوسفَ، لما قصَّ عليه رُؤْيَاهُ: «وكذلك يجتبيك رَبُّكَ»، وهكذا يَجْتَبيكَ رَبُّكَ. يقول: كما أراكَ رَبُّكَ الكواكبَ والشمسَ والقمرَ لك سُجوداً، فكذلك يَصْطَفيكَ رَبُّكَ.

وقوله: «ويُعَلِّمُكَ من تأويلِ الأحاديث»، يقول: ويعلمكَ رَبُّكَ من علم ما يؤولُ إليه أحاديثُ الناس، عما يرونه في منامهم. وذلك تعبيرُ الرؤيا.

وقوله: «ويُتِمُّ نعمتَهُ عليكَ»، باجتبائِهِ إياكَ، واختيارِه، وتعليمِه إياكَ تأويلَ الأحاديثِ. «وعلى آلِ يعقوبَ»، يقول: وعلى أهلِ دينِ يعقوبَ، ومِلَّتِه من ذُرِّيَتِه وغيرهم. «كما أَتَمَّهَا على أبويكَ من قَبْلُ إبراهيمَ واسحق»، باتِّخاذِه هذا خليلاً وتَنْجِيَتِه من النارِ، وفدية هذا بذبحٍ عظيم.

وقـولـه: «إنَّ ربـك عليم حكيم»، يقول: «إنَّ ربك عليم»، بمواضعِ الفَضْلِ ومَنْ هو أهلٌ للاجتباءِ والنعمةِ. «حكيم»، في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «لقد كانَ في يُوسُفَ وإخوته»، الأحدَ عشر. «آياتٌ»، يعني: عِبَرٌ وذِكْرٌ. «للسائلين»، يعني: السائلينَ عن أخبارِهم وقَصَصِهم. وإنما أراد جَلَّ ثناؤُهُ بذلك نَبِيَّهُ محمداً ﷺ.

وذلك أنه يقال: إنَّ الله تبارك وتعالى إنما أنزلَ هذه السورةَ على نبيهِ، يعلمه فيها ما لَقِيَ يوسفُ من أَدانيه وإِخْوَتِه من الحَسَدِ، مع تَكْرِمَةِ الله إياه، تسليةً له بذلك مما يَلْقَى من أدانيه وأقاربه من مشركي قريش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لقد كان في يوسفَ وإخوتِه آياتٌ لمن سألَ عن شأنهم، حين قال إخوةُ يوسف: «لَيُوسُفُ وأخوهُ»، من أُمِّهِ. «أَحَبُّ إلى أبينا منا ونحنُ عُصبة»، يقولون: ونحنُ جماعةٌ ذَوُو عَددٍ، أحدَ عشرَ رجلاً.

و«العصبة»، من الناس، هم عشرة فصاعداً، قيل: إلى خمسة عشرَ، ليس لها واحدٌ من لفظها، كالنَّفَرِ والرهط.

«إنَّ أبانا لفي ضلالٍ مبين»، يعنون: إنَّ أبانا يعقوب لفي خطأٍ من فعله، في إيثارِه يوسفَ وأخاهُ من أُمِّهِ علينا بالمحبةِ. ويعني بـ «المبين»: أنه خطأٌ يبينُ عن نفسه أنه خطأٌ لمن تَأَمَّلَهُ ونَظَرَ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ۝٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال إخوةُ يوسفَ بعضُهم لبعضٍ: اقْتُلُوا يوسفَ أو

اطْـرَحُوه في أرضٍ من الأرض، يعنون مكاناً من الأرضِ. «يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم»، يعنون: يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم من شُغلِه بيوسفَ، فإنه قد شَغَله عنّا، وصرف وَجْهَهُ عنَّا إليه. «وتكونُوا من بعده قوماً صالحين»، يعنون أنهم يتوبون من قَتْلِهم يوسفَ، وذَنْبِهم الـذي يَرْكَبُونَهُ فيه، فيكونون بتوبتِهم من قَتْلِه من بعدِ هلاكِ يوسف قوماً صالحين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال قائلٌ من إخوةِ يوسف: «لا تقتلوا يوسف».

وقوله: «وألقوه في غَيابَةِ الجُبِّ»، يقول: وألقوه في قَعْرِ الجبّ، حيث يَغيبُ خَبَرُهُ. والجبُّ: بئر.

وقـوله: «يَلْتَقِطْهُ بعضُ السيَّارة»، يقول: يأخذه بعضُ مارَّةِ الطريقِ من المسافرين. «إنْ كنتم فاعلين»، يقول: إن كنتم فاعلينَ ما أقولُ لكم. فذكر أنه التقطه بعضُ الأعراب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: قال إخوةُ يوسفَ، إذ تآمَرُوا بينهم، وأجمعوا على الفرقةِ بينه وبين والدِه يعقوب، لوالدهم يعقوب: «يا أبانَا ما لَكَ لا تأْمَنَّا على يُوسُفَ»، فتتـركهُ معنا إذا نحنُ خرجنا خارجَ المدينةِ إلى الصحراء. «ونحنُ له ناصحون»، نَحُوطُه ونَكْلَؤُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾

تأويل الكلام: أرسله معنا غداً نَلْهُو ونلعب وننعم وننشط في الصحراء، ونحنُ حافِظُوه من أنْ ينالَهُ شيءٌ يكرهه أو يؤذيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يعقوب لهم: إني ليحزنني أن تذهبوا به معكم إلى الصحراء، مخافةً عليه من الذئب أن يأكله، وأنتم عنه غافلون لا تشعرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إخوةُ يُوسُفَ لوالدهم يعقوب: لئن أكلَ يوسفَ الذئبُ في الصحراء، ونحنُ أحدَ عشرَ رجلاً معه نَحْفَظُه ـ وهم العصبة ـ «إنَّا إذاً لخاسرون»، يقول: إنا إذاً لَعَجَزَةٌ هالكون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥﴾

وفي الكلام متروكٌ حُذِفَ ذِكْرُه، اكتفاءً بما ظَهَرَ عما تُرِكَ، وهو: «فأرسله معهم». «فلما ذهبوا به وأجمعوا»، يقول: وأجمع رَأْيُهم، وعَزَمُوا على أن يجعلوه في «غيابة الجب».

وقـولـه: «وأوحينـا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمـرهم»، يقول: وأوحينا إلى يوسفَ، لتخبرنَّ إخوتكَ. «بأمرهم هذا»، يقول: بِفِعْلِهِم هذا الذي فعلوهُ بكَ. «وهم لا يشعرون»، يقول: وهم لا يعلمون ولا يَدْرُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وجاء إخوةُ يوسف أباهم، بعدما ألقوا يوسفَ في غَيابةِ الجُبِّ، عِشاءً يَبْكُونَ.

وقيل: : إنَّ معنى قوله: «نستبق»، نَنْتَضِلْ، من «السباق».

وقوله: «وما أنتَ بمؤمنٍ لنا»، يقولون: وما أنتَ بِمُصَدِّقنَا على قِيلِنَا: إنَّ يُوسُفَ أكَلَهُ الذئبُ، ولو كنا صادقين!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وجَاؤُوا على قميصِه بدَمٍ كَذِبٍ»، وسماه الله «كَذِباً»، لأنَّ الذين جاءوا بالقميصِ وهو فيه، كَذَبوا فقالوا ليعقوب: «هو دَمُ يوسفَ»، ولم يكن دَمه، وإنما كان دَمَ سَخْلةٍ[1]، فيما قيل.

فإنْ قال قائل: كيف قيل «بِدَمٍ كذب»، وقد علمتَ أنه كان دماً لا شَكَّ فيه، وإنْ لم يكن كانَ دَمَ يوسف؟

(١) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن، ذكراً كان أو أُنثى.

قيل: في ذلك من القول وجهان:

أحدهما: أنْ يكون قِيلَ «بِدَمٍ كَذِبٍ»، لأنه كُذِب فيه، كما يقال: «الليلة الهلالُ»، وكما قيل: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة:١٦]. وذلك قولٌ كانَ بعضُ نحويي البصرة يقوله.

والوجه الآخر: وهو أن يقال: هو مصدر بمعنى «مفعول». وتأويله: وجَاؤُوا على قميصِه بدمٍ مكذوب ـ كما يقال: «ما له عقل، ولا معقول» و«لا له جَلَد ولا له مَجْلود». والعرب تفعل ذلك كثيراً، تضع «مفعولاً»، في موضع المصدر، والمصدر في موضع «مفعول».

حَتَّى إذَا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظَامِهِ لَحْماً وَلاَ لِفُؤَادِهِ مَعْقولاَ

وذلك كان يقوله بعض نحويي الكوفة.

وقوله: «قال بَلْ سَوَّلَتْ لكم أنفسُكم أمراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يعقوبُ لبنيه الذين أخبروه أنَّ الذئبَ أكلَ يوسف، مُكَذِّباً لهم في خبرهم ذلك: ما الأمرُ كما تقولون: «بل سَوَّلَتْ لكم أنفسكم أمراً»، يقول: بل زَيَّنَتْ لكم أنفسكم أمراً في يوسف وحَسَّنَتْهُ، ففعلتموه.

وقوله: «فصبر جميل»، يقول: فصبري على ما فعلتم بي في أمر يوسف، صبرٌ جميل، أو: فهو صبر جميل.

وقوله: «والله المُسْتَعانُ على ما تَصِفُونَ»، يقول: والله أستعينُ على كفايتي شرَّ ما تَصِفُونَ من الكذب.

وقيل: إنَّ «الصبرَ الجميلَ»، هو الصبر الذي لا جَزَعَ فيه.

وقوله: «والله المستعان على ما تصفون»، أي على ما تكذبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجاءت مَارَّةُ الطريقِ من المسافرينَ. «فأرسلوا وارِدَهُمْ»، وهو الذي يَرِدُ المنهلَ والمنزلَ، و«وروده إياه»، مَصِيرُه إليه، ودخوله. «فأدلى دَلْوَهُ»، يقول: أرسلَ دلوه في البئر.

يقال: «أدليتُ الدلوَ في البئر»، إذا أرسلْتُهَا فيها، فإذا استقيت فيها قلت: «دلوْتُ أدْلُو دَلْواً».

وفي الكلامِ محذوف، استغني بدلالة ما ذُكِرَ عليه، فترك، وذلك: «فأدلى دلوه» فتعلق به يُوسف، فخرجَ، فقال المدلي: «يا بُشْرَى هذا غلامٌ».

واختلفوا في معنى قوله: «يا بشرى هذا غلام».

فقال بعضهم: ذلك تبشيرٌ من المُدَلِّي دَلْوَهُ أصحابَه، في إصابته يوسف، بأنه أصابَ عبداً.

وقال آخرون: بل ذلك اسمُ رجلٍ من السَّيَّارة بعينه، ناداهُ المدلي لما خرج يوسف من البئر متعلِّقاً بالحبل.

وأما قوله: «وأَسَرُّوهُ بِضاعة»، فإنه يعني: وأَسَرَّ واردُ القوم المُدَلِّي دلوَه ومَنْ معه من أصحابه، من رِفْقته السيارة، أمرَ يوسف أنهم اشتروه، خيفةً منهم أن يستشركوهم، وقالوا لهم: هو بضاعة أبضَعَها معنا أهلُ الماء، وذلك أنه عقيب الخبرِ عنه، فَلأَنْ يكونَ ما وَلِيَهُ من الخبرِ خبراً عنه، أشبهُ منْ أنْ يكونَ خبراً عَمَّنْ هو بالخبرِ عنه غيرُ متَّصِل.

وقوله: «والله عليم بما يعملون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله ذُو عِلْمٍ بما يعمله باعـةُ يوسفَ ومُشْتَرُوهُ في أمره، لا يَخْفَى عليه من ذلك شيءٌ، ولكنه

تركَ تغييرَ ذلك ليمضي فيه وفيهم حُكْمُه السابق في عِلْمِه، وليري إخوة يوسف ويوسف وأباه قُدْرَتَهُ فيه.

وهذا، وإنْ كان خبراً من الله تعالى ذِكْرُهُ عن يوسفَ نبيّه ﷺ، فإنه تذكيرٌ من الله نبيَّه محمداً ﷺ، وتسليةٌ منه له، عَمَّا كان يَلْقَى من أقربائِه وأنسبائِه المشركينَ من الأذى فيه. يقول: فاصبرْ، يا محمدُ، على ما نالكَ في الله، فإنِّي قادرٌ على تغييرِ ما ينالُكَ به هؤلاء المشركون، كما كنت قادراً على تغييرِ ما لقيَ يوسفُ من إخوته في حالِ ما كانوا يفعلون به ما فَعَلُوا، ولم يَكُنْ تَرْكي ذلك لهوانِ يوسف عليَّ، ولكن لماضي عِلْمي فيه وفي إخوته. فكذلك تركي تغييرَ ما ينالكَ به هؤلاء المشركون، لغيرِ هوانٍ بكَ عليَّ، ولكن لسابقِ علمي فيكَ وفيهم، ثم يصيرُ أمرُكَ وأمرهم إلى عُلوِّكَ عليهم، وإذعانِهم لكَ، كما صار أمرُ إخوة يوسف إلى الإذعانِ ليوسف بالسؤددِ عليهم، وعلوِّ يوسفَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وشَرَوْهُ»، به: وباعَ إخوةُ يُوسُفَ يوسفَ.

وقال آخرون: بل عنى بقوله: «وَشَرَوْهُ بثَمَنٍ بَخْسٍ»، السيرة أنهم باعوا يوسف بثمن بخس.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب. قولُ مَنْ قال: تأويل ذلك: «وشرَى إخوةُ يوسف يوسف بثمنٍ بَخْسٍ». وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أخبر عن الذين اشتروه أنهم أَسَرُّوا شِراءَ يوسفَ من أصحابِهم، خِيفة أنْ يستشركوهم، بادِّعائِهم أنَّه بضاعة. ولم يقولوا ذلك، إلا رغبةً فيه أن يخلُصَ لهم دونهم، واسترخاصاً لثمنه الذي ابتاعوه به، لأنهم ابتاعوه كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: «بثمن بخس». ولو

كان مُبْتَاعُوه من إخوتِه فيه من الزاهدين، لم يكن لِقِيلِهم لرفقائهم: «هو بضاعة»، معنى، ولا كان لشرائِهم إياهُ وهُمْ فيه من الزاهدين، وجهٌ إلا أن يكونوا كانوا مغلوباً على عقولهم، لأنه محالٌ أن يشتري صحيحُ العقلِ ما هو فيه زاهدٌ من غير إكراهِ مُكْرِهٍ له عليم، ثم يكذب في أمرِه الناسَ بأن يقول: «هو بضاعة لم أشتره»، مع زهده فيه. بل هذا القولُ من قول من هو بسلعته ضنين لنفاستها عنده، ولما يرجُو من نفيس الثمن لها وفضلِ الربح.

وأما قوله: «بخس»، فإنه يعني: نَقْص.

وهو مصدر من قولِ القائل: «بخستُ فلاناً حَقَّهُ»، إذا ظَلَمْتُه، يعني: ظلمه فنقصه عما يجبُ له من الوفاء: «أبخَسُه بَخْساً»، ومنه قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥]، وإنما أُرِيدَ: بثمنٍ مبخوسٍ منقوصٍ، فوضع «البخس»، وهو مصدر، مكان «مفعول»، كما قيل «بدم كذب»، وإنما هو: «بدمٍ مكذوبٍ فيه».

وأما قوله: «دراهمَ معدودة»، فإنه يعني عزَّ وجلَّ: أنهم باعوهُ بدراهمَ غير موزونة، ناقصة غير وافية، لِزُهْدِهم كانَ فيه.

وقوله: «وكانوا فيه من الزاهدين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان إخوةُ يوسف في يوسفَ من الزاهدينَ، لايعلمونَ كرامته على الله، ولا يعرفونَ منزلته عنده، فهم مع ذلك يُحِبُّونَ أن يحولوا بينه وبين والده، لِيَخْلُو لهم وَجْهُه منه، ويَقْطَعُوه عن القُرْبِ منه، لتكونَ المنافعُ التي كانت مصروفةً إلى يوسف دونهم، مصروفةً إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ

﴿فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وقال الذي اشترى يوسف من بائعِه بمصر. وذُكِرَ أنَّ اسمَهُ: «قطفير»، وهو العزيز، وكان على خزائنِ مصر.

«أكرمي مثواه»، يقول: أكرمي مَوْضِعَ مقامه، وذلك حيثُ يَثوي ويُقيم فيه.

وقوله: «عسى أنْ يَنْفَعَنا أو نَتَّخِذَهُ ولداً»، ذُكِرَ أنَّ مشتري يوسف قال هذا القولَ لامرأتِه، حين دفَعَهُ إليها، لأنه لم يكن له ولَدٌ، ولم يأتِ النساءَ فقال لها: أكرميه عسَى أنْ يكفينا بعضَ ما نعاني من أمورنا إذا فهم الأمورَ التي يُكَلَّفها وعرفها. «أو نتخذه ولداً»، يقول: أو نَتَبَنَّاهُ.

وقوله: «وَلِنُعَلِّمَهُ من تأويلِ الأحاديثِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكي نُعَلِّمَ يوسف من عبارة الرؤيا، مَكَنَّا له في الأرض.

وقوله: «وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض»، يقول عزَّ وجلَّ: وكما أنقذنا يوسفَ من أيدي إخوتِه وقد هَمُّوا بقتله، وأخرجناهُ من الجُبِّ بعدَ أنْ أُلقيَ فيه، فَصَيَّرنَـاهُ إلى الكـرامةِ الرفيعةِ عند عزيزِ مصرَ، كذلك مَكنَّا له في الأرضِ، فجعلناه على خزائنها.

وقوله: «والله غالِبٌ على أمره»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله مُسْتَوْلٍ على أمرِ يوسفَ، يَسُوسُه ويُدَبِّرُه ويَحُوطُه.

وقوله: «ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون»، يقول: ولكنَّ أكثرَ الناسِ الذين زهدوا في يوسف، فباعوه بثمنٍ خسيس، والذين صارَ بين أظهرهم من أهلِ مصر حين بِيعَ فيهم، لا يعلمونَ ما الله بيوسفَ صَانعٌ، وإليه يوسف من أمرِه صائرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما بلغ يوسف أَشُدَّهُ، يقول: ولما بلغ مُنْتَهى شِدَّتِه وقُوَّتِه في شبابه وحَدِّهِ ـ وذلك فيما بين ثماني عشرة سنة إلى ستين سنة، وقيل: إلى أربعين سنة ـ أعطيناهُ حينئذٍ الفَهْمَ والعلم.

وقوله: «وكذلكَ نَجزي المحسنين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكما جزيتُ يوسفَ فآتيتُه بطاعتِه إيّايَ الحكمَ والعلمَ، ومَكَّنْتُه في الأرضِ، واستنقذْتُهُ من أيدي إخوته الذين أرادوا قَتْلَهُ، كذلك نجزي مَنْ أحسنَ في عمله، فأطاعني في أمري، وانتهى عما نهيته عنه من معاصيّ.

وهذا، وإنْ كان مخرجُ ظاهرِه على كُلِّ مُحْسنٍ، فإنَّ المُرادَ به محمدٌ نبيُّ الله ﷺ. يقول له عزَّ وجلَّ: كما فعلتُ هذا بيوسفَ من بعدِ ما لقيَ من إخوته ما لقيَ، وقاسى من البلاءِ ما قاسى، فمكَّنْتُه في الأرضِ، ووطَّأتُ له في البلاد، فكذلك أفعلُ بكَ فأُنَجِّيكَ من مشركي قومكَ الذين يقصدونكَ بالعداوةِ، وأُمَكِّنُ لكَ في الأرض، وأُوتيكَ الحُكْمَ والعِلْمَ، لأنَّ ذلك جزائي أهلَ الإحسانِ في أمري ونهيي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وراودَتْ امرأةُ العزيز، وهي التي كان يوسف في بيتها [يوسفَ] عن نفسِه، أنْ يُواقِعَها.

وقـوله: «وغَلَّقتِ الأبوابَ»، يقول: وغلقت المرأةُ أبوابَ البيوتِ عليها وعلى يوسفَ، لما أرادتْ منه وراودته عليه، باباً بعدَ باب.

وقوله: «وقالت هَيْتَ لك»، بمعنى: هَلُمَّ لكَ، وادْنُ وتَقَرَّب.

وقوله قال: «معاذ الله»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال يوسفُ، إذْ دَعَتْهُ المرأةُ إلى نفسها، وقالتْ له: «هلم إليَّ»: أعتصمُ بالله من الذي تَدْعُونني إليه، وأستجيرُ به منه.

وقوله: «إنه رَبِّي أحسنَ مثواي»، يقول: إن صاحبكِ وزوجكِ سَيِّدي.

وقوله: «أحسنَ مَثْواي»، يقول: أحسنَ منزلتي، وأكرمني وائْتَمَنَنِي، فلا أَخُونُه.

وقوله: «إنه لا يُفلحُ الظالمون»، يقول: إنه لا يُدركُ البقاءَ ولا يَنْجَحُ من ظَلَم، فَفَعَلَ ما ليس له فِعْلُه. وهذا الذي تَدْعُونني إليه من الفجورِ، ظُلْمٌ وخيانةٌ لسيدي الذي ائتمنني على منزله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ذُكِرَ أنَّ امرأةَ العزيزِ لما هَمَّتْ بيوسفَ وأرادتْ مُراودَتَهُ، جعلتْ تَذْكُرُ له محاسنَ نَفْسِه، وتُشَوِّقُه إلى نفسها.

ومعنى «الهَمَّ بالشيء»، في كلام العرب: حديث المرءِ نفسَهُ بمواقعتِه ما لم يُوَاقِع.

فإنْ قال قائلٌ: وكيف يجوزُ أنْ يُوصَفَ يوسفُ بمثل هذا، وهو لله نبيٌّ؟

قيل: إنَّ أهلَ العلم اختلفوا في ذلك.

فقال بعضهم: كان مِمَّنْ ابتلي من الأنبياءِ بخطيئةٍ، فإنما ابتلاهُ الله بها، ليكونَ من الله عزَّ وجلَّ على وَجَلٍ إذا ذكرها، فيجد في طاعته إشفاقاً منها، ولا يَتَّكِلُ على سَعَةِ عَفوِ الله ورحمته.

وقال آخرون: بل ابتلاهُم الله بذلك، لِيُعَرِّفَهُم موضعَ نعمته عليهم، بصفحِه عنهم، وتَرْكِه عقوبتَهُ عليه في الآخرة.

وقال آخرون: بل ابتلاهم بذلك ليجعلهم أئمةً لأهلِ الذنوبِ في رَجاء رحمةِ الله، وتركِ الإياسِ من عَفْوِه عنهم إذا تابوا.

وأما آخرون مِمَّنْ خالفَ أقوالَ السلف، وتأَوَّلُوا القرآنَ بآرائهم، فإنهم قالوا في ذلك أقوالاً مختلفة.

فقال بعضهم: معناه: ولقد هَمَّت المرأةُ بيوسفَ، وهَمَّ بها يوسفُ أنْ يَضْرِبَهَا أو ينالَها بمكروهٍ لهمِّها به مما أرادته من المكروهِ، لولا أنَّ يوسفَ رأى برهانَ رَبِّه، وكفُّهُ ذلك عما هَمَّ به من أذاها، لا أنها ارتدَعَتْ من قِبَلِ نَفْسِهَا. قالوا: والشاهدُ على صِحَّةِ ذلك قولُه: «كذلك لنصرفَ عنه السُّوءَ والفحشاء». قالوا: فالسوء هُو ما كان هَمَّ به من أذاها، وهو غير «الفحشاء».

وقال آخرون منهم: معنى الكلام: ولقد هَمَّتْ به، فتناهى الخبرُ عنها، ثم ابتدىء الخبر عن يوسف فقيل: وهَمَّ بها يوسفُ لولا أنْ رأى برهانَ ربه، كأنهم وجَّهوا معنى الكلام إلى أنَّ يوسفَ لم يَهمَّ بها، وأنَّ الله إنما أخبرَ أنَّ يوسفَ لولا رؤيته برهانَ رَبِّه لهمَّ بها، ولكنه رأى برهانَ ربه فلم يَهمَّ بها، كما قيل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

ويفسد هذه القولين: أنَّ العربَ لا تقدم جوابَ «لولا» قَبْلَها، لا تقول:

«لقد قمتُ لولا زيد»، وهي تريد: «لولا زيد لقد قمت»، هذا مع خِلافِهِمَا[1] جميعَ أهلِ العلم بتأويلِ القرآن، الذين عنهم يُؤْخَذُ تأويلهُ.

وقالَ آخرون منهم: بَلْ قد همَّت المرأةُ بيوسفَ، وهَمَّ يوسفُ بالمرأة، غيرَ أنَّ هَمَّهُمَا كان تمييلاً منهما بين الفِعْلِ والتَّرْكِ، لا عزماً ولا إرادةً. قالوا: ولا حرجَ في حديثِ النفسِ، ولا في ذِكْرِ القلب، إذ لم يكن معهما عَزْمٌ ولا فِعْلٌ.

وأما «البرهان» الذي رآهُ يوسفُ، فتركَ من أجلِه مواقعةَ الخطيئةِ، فإنَّ أهلَ العِلْمِ مختلفونَ فيه.

فقال بعضهم: نُوديَ بالنَّهي عن مواقعةِ الخطيئة.

وقال آخرون: «البرهان»، الذي رأى يوسف فَكَفَّ عن مواقعةِ الخطيئةِ من أجله، صورةُ يعقوبَ عليهما السلام يَتَوَعَّدُه.

وقال آخرون: بل البرهان الذي رأى يوسف، ما أوعدَ الله عزَّ وجلَّ على الزِّنَا أهلَهُ.

وقال آخرون: بل رأى تمثالَ الملك.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أخبرَ عن هَمِّ يوسفَ وامرأةِ العزيز كُلّ واحدٍ منهما بصاحبِهِ، لولا أنْ رأى يوسفُ برهانَ رَبِّه، وذلك آيةٌ من الله زَجَرَتْهُ عن ركوبِ ما هَمَّ به يوسف من الفاحشةِ ـ وجائزٌ أن تكونَ تلك الآيةُ صورةَ يعقوب ـ وجائزٌ أنْ تكونَ صورة الملك ـ وجائزٌ أنْ يكون الوعيدُ في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا ـ ولا حُجَّةَ للعذرِ قاطعة بأيِّ ذلك [كان] من أيٍّ. والصوابُ أن يقالَ في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه.

---

(١) يعني: القولين السابقين.

وقوله: «كذلك لنصرفَ عنه السُّوءَ والفحشاء»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما أرَيْنَا يوسفَ برهاننا على الزجرِ عَمَّا هَمَّ به من الفاحشةِ، كذلك نُسَبِّبُ له في كلِّ ما عَرَضَ له من هَمٍّ يهمُّ به فيما لا يرضاه، ما يزجُره ويدفَعُه عنه، كي نصرفَ عنه ركوبَ ما حرَّمنا عليه، وإتيانَ الزنا، لِنُطَهِّرَهُ من دَنَسِ ذلِك.

وقوله: «إنه من عبادنا المُخْلَصِينَ»، اختلفت القَرأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأته عامة قَرأَةِ المدينة والكوفة: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، بفتح اللام من «المخلصين» بتأويل: إنَّ يوسفَ من عبادِنَا الذين أخلصْنَاهُمْ لأنفسنا، واخترناهم لنبوَّتِنَا ورسالتنا.

وقـرأ بعض قرأةِ البصرة: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾، بكسر اللام ـ بمعنى: إن يوسف من عبادنا الذين أخلَصُوا توحيدَنا وعبادتَنا، فلم يُشْرِكُوا بنا شيئاً. ولم يعبدُوا شيئاً غيرنا.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان قد قرأ بهما جماعةٌ كثيرةٌ من القَرَأَة، وهما متفقتا المعنى. وذلك أنَّ مَنْ أخلصَهُ الله لنفسه فاختاره، فهو مُخْلِصٌ لله التوحيدَ والعبادةَ، ومَنْ أخلصَ توحيدَ الله وعبادته فلم يُشْرِكْ بالله شيئاً، فهو ممن أخلصَهُ الله، فبأيتهما قرأَ القارئُ فهو للصوابِ مُصِيبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

يقـول جَلَّ ثناؤُهُ: واستبقَ يوسفُ وامرأةُ العزيزِ بابَ البيت، أما يوسفُ فَفِراراً من ركوبِ الفاحشةِ لما رأى برهانَ رَبِّه فزجره عنها، وأما المرأةُ فَطَلَبُها

ليوسفَ لتقضي حاجَتَها منه التي راودتْهُ عليها، فأدركته فتعلَّقَتْ بقميصه فَجَذَبَتْهُ إليها، مانعةً له من الخروجِ من البابِ، فَقَدَّتْهُ من دُبُرٍ ـ يعني شَقَّتْهُ من خلفٍ لا من قُدَّام، لأنَّ يوسفَ كان هو الهارب، وكانت هي الطالبة.

وقوله: «وألفيا سَيِّدَهَا لدى البابِ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وصادفا سيدها ـ وهو زوجُ المرأة ـ «لدى الباب»، يعني: عند الباب.

وقوله: «قالتْ ما جزاءُ مَنْ أرادَ بأهلكَ سُوءاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت امرأةُ العزيزِ لزوجها لما أَلْفَيَاهُ عند البابِ، فخافتْ أنْ يَتَّهِمَهَا بالفجورِ: ما ثوابُ رَجُلٍ أرادَ بامرأتكَ الزِّنَا إلاَّ أنْ يُسْجَنَ في السجنِ، أو إلاَّ عذاب أليم يقول: موجع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسف، لما قَذَفَتْهُ، امرأةُ العزيزِ بما قذفته من إرادتِه الفاحشةَ منها، مُكَذِّباً لها فيما قذفته به، ودفعاً لما نُسِبَ إليه: ما أنا راودتها عن نَفْسِها، بَلْ هي راودتني عن نفسي.

وقوله: «إنْ كان قميصُه قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهو من الكاذبين»، لأنَّ المطلوبَ إذا كان هارباً فإنما يُؤْتَى من قِبَلِ دُبُره، فكان معلوماً أنَّ الشقَّ لو كان من قُبُلٍ لم يكن هارباً مطلوباً، ولكن كانَ يكونُ طالباً مدفوعاً، وكان يكونُ ذلك شهادةً على كَذِبه.

وقوله: «فلما رأى قميصَهُ قُدَّ من دُبُرٍ»، خَبَرٌ عن زوجِ المرأةِ، وهو القائلُ لها: إنَّ هذا الفِعْلَ من كَيْدِكُنَّ ـ أي: صنيعكن: ، يعني من صنيعِ النساء. «إن كيدكن عظيم».

وقيل: إنه خَبَرٌ عن الشاهدِ أنه القائلُ ذلك[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

وهذا فيما ذُكِرَ عن ابنِ عباس، خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن قِيلِ الشاهد أنه قال للمرأة وليوسف.

يعني بقوله: «يوسف»، يا يوسفُ. «أعْرِضْ عن هذا»، يقول: أعرض عن ذِكْرِ ما كانَ منها إليكَ فيما راودَتْكَ عليه، فلا تَذْكُرْهُ لأحدٍ.

«إنكِ كُنتِ من الخاطئين»، يقول: إنكِ كنتِ من المذنبين في مُرَاودةِ يوسفَ عن نفسه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ

(١) هذه خلاصة رأي أبي جعفر بعد أن ذكر أقوال العلماء في ذلك واختلافهم في صفة هذا الشاهد بين أن يكون في المهد، أو صاحب لحية، أو من الحكماء، وساق أحاديث تدعم رأيه ١٩٠٩٩ ـ ١١١١٠، منها حديث ابن عباس، لكنه موقوف، وحديث أبي هريرة، وهو عنده ضعيف الإسناد جداً. لكن في الصحيحين: البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» فذكر عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، ولم يذكر الثالث، وقد استدل به العلامة محمود شاكر وكأنه ذكر فيه شاهد يوسف، مع أنه لم يذكره.

وفي بعض الأحاديث خارج الصحيحين اختلاف في هذا الثالث، فذكر بعضهم أنه شاهدُ يوسف، وفي المسألةِ من الخلاف ما ينبغي عدم الجزم به.

﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وتَحدَّث النساءُ بأمر يوسفَ وأمر امرأةِ العزيز في مدينة مصر، وشاعَ من أمرهما فيها ما كان فلم يَنْكَتِمْ، وقُلْنَ: «امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فتاها»، عَبْدَها. «عن نفسه».

وأما «العزيز» فإنه: «الملكُ» في كلام العرب.

وقوله: «قد شَغَفَها حُبًّا»، يقول: قد وَصَلَ حبُّ يوسفَ إلى شَغَافِ قلبها فدخلَ تَحْتَهُ، حتى غَلَبَ على قلبها.

و«شَغَاف القلب»، حِجَابُه وغِلافُه الذي هو فيه.

وقوله: «إنَّا لنراها في ضلالٍ مبين»، قلن: إنا لنرى أمرأةَ العزيزِ في مراودتها فَتَاها عن نفسه، وغَلَبة حُبِّه عليها، لفي خطأٍ من الفعل، وجَوْرٍ عن قَصْد السبيل. «مبين»، لِمَنْ تَأَمَّلَهُ وعلمه أنه ضلالٌ، وخطأٌ غير صوابٍ ولا سَداد. وإنما كان قيلُهُنَّ ما قُلْنَ من ذلك، وتحدُّثهنَّ به من شأنها وشأنِ يوسف، مَكْراً منهنَّ، فيما ذُكِرَ، لِتُرِيَهُنَّ يوسفَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما سمعت امرأةُ العزيزِ بمكرِ النسوةِ اللاتي قُلْنَ في المدينة ما ذكره الله عزَّ وجلَّ عنهن، أعدَّت لهن «مُتَّكَأً»، يعني: مجلساً للطعام، وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد

قال الله تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن امرأةِ العزيزِ والنسوةِ اللاتي تَحَدَّثْنَ بشأنها في المدينة: «وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ منهن سكيناً»، يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وأعطتْ كُلَّ واحدةٍ من النسوةِ اللاتي حَضَرْنَها، سِكِّيناً لتقطعَ به من الطعام ما تقطع به.

وفي هذه الكلمة بيانُ صحة ما قلنا واخترنا في قوله: «**واعتدت** لهن مُتَّكَأً». وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أخبرَ عن إيتاءِ امرأةِ العزيزِ النسوةَ السكاكينَ، وترك مالَهُ آتَتْهُنَّ السكاكينَ، إذْ كان معلوماً أنَّ السكاكينَ لا تُدْفَعُ إلى مَنْ دُعِيَ إلى مجلسٍ إلا لقطعِ ما يُؤْكَلُ، إذا قطع بها. فاستغنى بفَهْمِ السامعِ بِذِكْرِ إيتائِها صَوَاحِبَاتِهَا السكاكينَ، عن ذِكْرِ ماله آتتهن ذلك. فكذلك استغنى بذكرِ اعتدادها لَهُنَّ المتكأَ، عن ذِكْرِ ما يُعْتَدُّ له المتكأُ مما يحضر المجالس من الأطعمةِ والأشربةِ والفواكهِ وصنوفِ الالتهاء، لفهمِ السامعينَ بالمرادِ من ذلك، ودلالةِ قوله: «**وأعتدت** لهن متكأ»، عليه. فأما نَفْسُ «المتكأ»، فهو ما وَصَفْنَا خاصةً دونَ غيره.

وقوله: «وقالت اخْرُجْ عليهنَّ فلما رَأَيْنَهُ أكْبَرْنَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقالت امرأةُ العزيزِ ليوسفَ: «اخرج عليهن»، فخرجَ عليهن يوسفَ. «فلما رأينه أكبرنه»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فلما رأينَ يوسفَ أعْظَمْنَهُ وأجْلَلْنَهُ.

وقوله: «وقَطَّعْنَ أيديَهُنَّ»، اختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: أنهن حَزَزْنَ بالسكينَ في أيديهم، وهُنَّ يحسبن أنهن يقطعن الأترُجَّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهن قطعن أيديهم حتى أبَنَّهَا، وهُنَّ لا يَشْعُرْنَ.

والصواب من القول في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله أخبرَ عنهن أنهن قَطَّعنَ أيديهن وهُنَّ لا يشعرنَ لإعظامِ يوسفَ، وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك قطعاً بإبانةٍ ـ وجائزٌ

أنْ يكونَ كان قَطْعَ حَزٍّ وخَدْش ـ ولا قولَ في ذلك أصوب من التسليمِ لظاهرِ التنزيل.

وقوله: «وقُلْنَ حَاشَ لله»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأته عامة قرأة الكوفيين: ﴿حَاشَ لله﴾ بفتح الشين وحذف الياء.

وقرأه بعضُ البصريين، بإثبات الياء: ﴿حَاشَى لله﴾.

وكان بعضُ أهل العلم بكلامِ العربِ يزعمُ أنَّ لقولهنَّ: «حاشى لله»، موضعين في الكلام:

أحدهما: التنزيه.

والآخر: الاستثناء. وهو في هذا الموضع عندنا بمعنى التنزيه لله، كأنه قيل: مَعَاذَ الله.

وأما القول في قراءة ذلك. فإنه يقال: للقارئ الخيارُ في قراءته بأي القراءتين شاء، إنْ شاء بقراءةِ الكوفيين، وإنْ شاء بقراءة البصريين، وهو ﴿حَاشَ لله﴾ و﴿حَاشَى لله﴾، لأنهما قراءتان مشهورتان، ولغتانِ معروفتانِ بمعنى واحدٍ، وما عدا ذلك فلغاتٌ لا تجوزُ القراءةُ بها، لأنَّا لا نعلمُ قارئاً قرأ بها.

وقوله: «ما هذا بشراً»، يقول: قُلْنَ: «ما هذا بشراً»، لأنَّهُنَّ لم يَرَيْنَ في حُسْنِ صورته من البشرِ أحداً، فقلن: لو كانَ من البشرِ، لكان كبعضِ ما رأينا من صورةِ البشر، ولكنه من الملائكةِ لا من البشر.

وقوله: «إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ»، يقول: قُلْنَ: ما هذا إلا مَلَكٌ من الملائكة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت امرأةُ العزيزِ للنسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيديهن: فهذا الذي أصابَكُنَّ في رؤيتكن إياهُ، وفي نظرةٍ مِنْكُنَّ نَظَرْتُنَّ إليه ما أصابَكُنَّ من ذهابِ العقل وعُزوبِ الفهم[1] وَلَهاً، أَلِهتُنَّ[2] حتى قَطَّعْتُنَّ أيدِيَكُنَّ، هُوَ الذي لُمْتُنَّنِي في حُبِّيَ إياهُ، وشَغف فؤادي به، فَقُلْتُنَّ: قد شغفَ امرأةَ العزيزِ فَتَاها حُباً، إنَّا لنراها في ضلالٍ مبين! ثم أقَرَّتْ لهن بأنها قد رَاوَدَتْهُ عن نفسِه، وأنَّ الذي تَحَدَّثْنَ به عنها في أمره حَقٌّ، فقالت: «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم»، مما راودتُه عليه من ذلك.

وقوله: «ولئن لم يفعلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وليكوناً من الصاغرين»، تقول: ولئن لم يُطاوعني على ما أدْعُوهُ إليه من حاجتي إليه. «ليسجنن»، تقول: لَيُحْبَسَنَّ وليكونَنْ من أهلِ الصَّغارِ والذِلَّةِ بالحبسِ والسجنِ، ولأُهِينَنَّهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

وهذا الخبرُ من الله، يدلُّ على أنَّ امرأةَ العزيزِ قد عاودَتْ يوسفَ في المراودةِ عن نفسه، وتوعَّدتْهُ بالسِّجنِ والحبسِ إنْ لم يفعلْ ما دَعَتْهُ إليه، فاختارَ السجنَ على ما دعته إليه من ذلك، لأنها لو لم تكن عاودته وتوعَّدته بذلك،

---

(١) عزوب الفهم: ذهابُه.

(٢) أَلِهْتُنَّ: تَحَيَّرْتُنَّ.

كان مُحَالاً أنْ يقولَ: «ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يَدْعُونَني إليه»، وهو لا يُدْعَى إلى شيءٍ، ولا يُخَوَّفُ بحبسٍ.

وقوله: «وإلَّا تَصْرِفْ عني كيدهن أَصْبُ إليهن»، يقول: وإنْ لم تَدْفَعْ عني، يا رب، فِعْلهُنَّ الذي يفعلنَ بي، في مُرَاودَتهن إيايَ على أنفسهنَّ. «أَصْبُ إليهن»، يقول: أمِلْ إليهن، وأُتابِعهُنَّ على ما يُرِدْنَ مني ويهوَيْنَ.

وقوله: «وأَكُنْ من الجاهلين»، يقول: وأكن بصبوتي إليهن، من الذين جَهِلُوا حَقَّكَ، وخالفوا أمركَ ونَهْيَكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٤﴾

إنْ قالَ قائلٌ: وما وجهُ قوله: «فاستجابَ له رَبُّهُ»، ولا مسألةَ تقدَّمتْ من يوسفَ لربِّه، ولا دَعَا بصَرْفِ كيدهنَّ عنه، وإنما أُخبرَ ربَّه أنَّ السجنَ أحبُّ إليه من معصيته؟

قيل: إنَّ في إخباره بذلك شكايةً منه إلى ربه مما لقيَ منهنَّ، وفي قوله: «وإلَّا تَصْرِفْ عني كيدهن أصبُ إليهن»، معنى دعاءٍ ومسألة منه ربَّه صرفَ كيدهنَّ، ولذلك قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «فاستجابَ له رَبُّه»، وذلك كقولِ القائلِ لآخر: «إنْ لا تَزُرْني أُهِنْكَ»، فيجيبه الآخر: «إذن أزورَكَ»، لأن في قوله: «إنْ لا تزرني أهنك»، معنى الأمرِ بالزيارة.

وتأويل الكلام: فاستجابَ الله ليوسفَ دعاءَهُ، فصرفَ عنه ما أرادتْ منه امرأةُ العزيزِ وصَوَاحِبَاتُها من معصيةِ الله.

وقوله: «إنه هو السميع»، دعاءَ يوسف حين دعاه بصرفِ كيدِ النسوةِ عنه،

ودعاءَ كُلِّ داعٍ من خَلْقِه. «العليم»، بمطْلَبه وحاجتِه وما يُصْلِحُه، وبحاجةِ جميعِ خَلْقِه وما يُصْلحهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأَيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم بَدَا للعزيزِ، زوجِ المرأةِ التي راودَتْ يوسفَ عن نفسه.

وتلك «الآيات»، كانت قدَّ القميصِ من دُبُر، وخمشاً في الوجه، وقَطْعَ أيديهن.

وقوله: «لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حِين»، يقول: ليسجننه إلى الوقتِ الذي يرون فيه رَأْيَهُمْ.

وجعل الله ذلك الحبسَ ليوسفَ، فيما ذُكِرَ، عقوبةً له من هَمِّهِ بالمرأةِ، وكفارةً لخطيئته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزٗا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: ودخل مع يوسفَ السجنَ فتيان ـ فَدَلَّ بذلك على متروكٍ قد ترك من الكلام، وهو: «ثم بَدَا لهم من بعد ما رأوا الآياتِ ليسجننه حتى حين»، فسجنوه وأدخلوه السجن ـ ودخل معه فتيان، فاستغنَى بدليلِ قوله: «ودخل معه السجن فتيان»، على إدخالهم يوسفَ السجنَ، من ذكره.

وكان الفتيان، فيما ذُكِرَ، غلامين من غلمانِ ملكِ مصرَ الأكبر، أحدهما صاحبُ شرابِه، والآخرُ صاحبُ طعامِه.

وقوله: «قال أحدهما إنى أَراني أَعصرُ خمراً»، ذكر أنَّ يوسفَ صلوات الله عليه لما أُدخِلَ السجنَ، قال لمن فيه من المُحَبَّسين، وسألوهُ عن عمله: إني أعبُرُ الرؤيا: فقال أحدُ الفتيين اللذَيْنِ أُدْخلاَ معه السجنَ لصاحبه: تعالَ فَلْنُجَرِّبْهُ.

وَعَنَى بقـولـه: «أعصـر خمراً»، أي: أرى في نومي أني أعصرُ عنباً، وكذلك ذلك في قراءةِ ابن مسعود، فيما ذُكِرَ عنه.

وذُكِرَ أنَّ ذلك من لغة أهلِ عُمَان، وأنهم يُسَمونَ العنبَ خمراً.

وقوله: «وقال الآخَرُ إني أراني أحملُ فوقَ رأسي خبزاً تأكلُ الطيرُ منه نَبِّئْنا بتـأويله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال الآخرُ من الفَتيين: إني أراني في منامي أحمـل فوق رأسي خبـزاً، يقول: أحمل على رأسي - فوضعت «فوق» مكان «على». «تأكلُ الطيرُ منه»، يعني: من الخبز.

وقوله: «نَبِّئْنَا بتأويلِه»، يقول: أَخْبِرْنَا بما يؤولُ إليه ما أخبرناكَ أنَّا رأيناهُ في منامنا، ويرجع إليه.

وقـولـه: «إنَّـا نراكَ من المحسنين»، اختلفَ أهـلُ التـأويلِ في معنى «الإِحسان»، الذي وَصَفَ به الفتيان يوسف.

فقال بعضهم: هو أنه كان يعودُ مريضَهم، ويُعَزِّي حَزِينَهم، وإذا احتاجَ منهم إنسانٌ جَمَعَ له.

وقال آخرون: معناه: «إنا نراك من المحسنين»، إذا نَبَّأْتَنَا بتأويلِ رُؤيانا هذه.

فإنْ قال قائل: وما وجهُ الكلامِ إنْ كان الأمرُ إذاً كما قلتَ، وقد علمتَ أنَّ مسألتهما يوسفَ أنْ يُنَبِّئَهُمَا بتأويلِ رؤياهما، ليستْ من الخبَرِ عن صفتِه بأنه يعودُ المريضَ ويقومُ عليه، ويُحْسِنُ إلى مَن احتاجَ، في شيء. وإنما يقالُ للرجلِ «نبئنا بتأويلِ هذا فإنك عالم»، وهذا من المواضعِ التي تحسن بالوصفِ بالعلم، لا بغيره؟

قيل: إنَّ وجهَ ذلك أنهما قالا له: نبئنا بتأويلِ رؤيانا مُحْسِناً إلينا في إخبارِكَ إيَّانا بذلك، كما نراكَ تُحْسِنُ في سائرِ أفعالِكَ: «إنا نراك من المحسنين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفُ للفتَيين اللذَيْن استعبراهُ الرؤيا: «لا يأتيكما»، أيها الفتَيانِ، في منامكما. «طعام تُرْزَقَانِه إلَّا نبأتُكُمَا بتأويلِه»، في يَقْظَتِكُمَا. «قبل أنْ يأتيكما».

وقوله: «إني تركتُ مِلَّةَ قومٍ لا يؤمنونَ بالله»، يقول: إني بَرِئْتُ من ملةِ مَنْ لا يصدقُ بالله ويُقِرُّ بوحدانيتهِ. «وهم بالآخرةِ هُمْ كافرون»، يقول: وهُمْ مع تَرْكِهم الإيمانَ بوحدانيةِ الله، لا يُقِرُّونَ بالمَعَادِ والبعثِ، ولا بثوابٍ ولا عقاب.

ويعني بقوله: «بتأويلِه»، ما يؤولُ ويصيرُ ما رَأَيَا في مَنَامِهِمَا من الطعامِ الذي رأيا أنه أتاهُمَا فيه.

وقوله: «ذلكما مما عَلَّمني ربي»، يقول: هذا الذي أذكرُ أني أُعْلَمُه من تعبير الرؤيا، مما عَلَّمني ربي فعلمته.

فإنْ قال قائلٌ: ما وجهُ هذا الخبر ومعناه من يوسف؟ وأين جوابهُ الفَتَيين عما سألاهُ من تعبيرِ رؤياهما، مِنْ هذا الكلام؟

قيل له: إنَّ يوسفَ كَرِهَ أنْ يُجيبَهُمَا عن تأويلِ رؤياهما، لِمَا عَلِمَ من مكروهِ ذلك على أَحَدِهما، فأعرضَ عن ذِكْرِه، وأخذَ في غيره، لِيُعْرِضَا عن مسألتِه الجوابَ عَمَّا سألاه من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾

يعني بقولـه: «واتبعتُ ملةَ آبـائي إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ»، واتبعتُ دِينَهُم، لا دِينَ أهلِ الشركِ. «ما كانَ لنا أنْ نُشْرِكَ بالله من شيء»، يقول: ما جازَ لنا أنْ نجعلَ لله شريكاً في عبادته وطاعته، بل الذي علينا إفرادُه بالألوهةِ والعبادةِ. «ذلك من فَضْلِ الله علينا»، يقول: اتباعي ملةَ آبائي إبراهيمَ وإسحق ويعقـوب على الإسـلامِ، وتَـرْكي ملةَ قومٍ لا يؤمنونَ بالله وهم بالآخرةِ هم كافـرون، من فَضْلِ الله الذي تَفَضَّلَ به علينا، فأنْعَمَ إذْ أكْرَمَنَا به. «وعلى الناس»، يقول: وذلك أيضاً من فَضْلِ الله على الناسِ، إذْ أرسلنا إليهم دُعَاةً إلى توحيدِه وطاعته. «ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكرون»، يقول: ولكنَّ مَنْ يكفرُ بالله لا يشكـر ذلـك من فضله عليه، لأنه لا يعلمُ مَنْ أنعمَ به عليه، ولا يعرفُ المتفضِّلَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩﴾

ذُكِرَ أنَّ يوسفَ صلواتُ الله عليه قال هذا القولَ للفَتَيين اللَّذَيْنِ دخلا معه السجنَ، لأنَّ أحدهما كان مشركاً، فدعاهُ بهذا القولِ إلى الإسلامِ وتَرْكِ عبادةِ الآلهةِ والأوثان، فقال: «يا صاحِبَيِ السجنِ»، يعني: يا مَنْ هو في السجن، وجَعلَهُمَا «صاحبيه»، لكونِهما فيه، كما قال الله تعالى لسكانِ الجنة: ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وكذلك قال لأهلِ النار، وسماهم «أصحابها»، لكونِهم فيها.

وقوله: «أأربابٌ مُتفرِّقُونَ خيرٌ أم الله الواحدُ القهَّار»، يقول: أعبادةُ أربابٍ شَتَّى متفرقينَ، وآلهةٍ لا تنفعُ ولا تَضُرُّ، خيرٌ أم عبادةُ المعبودِ الواحدِ الذي لا ثانيَ له في قُدْرَتِه وسلطانه، الذي قَهَرَ كُلَّ شيءٍ فَذَلَّلَهُ وسَخَّرَهُ، فأطاعَهُ طَوْعاً وكرهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾

يعني بقوله: «ما تَعبدونَ من دونِه»، ما تعبدونَ من دونِ الله.

وقال: «ما تعبدون» وقد ابتدأَ الخطاب بخطابِ اثنين فقال: «يا صاحبي السجن»، لأنه قصدَ المخاطبَ به، ومَنْ هو على الشركِ بالله مقيمٌ من أهلِ مصر، فقال للمخاطَبِ بذلك: ما تعبدُ أنتَ ومَنْ هو على مِثْلِ ما أنتَ عليه من عبادةِ الأوثان. «إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم»، وذلك تَسْمِيَتَهُم أوثانَهم

آلهةً أرباباً، شِرْكاً منهم، وتشبيهاً لها في أسمائها التي سَمَّوْهَا بها الله، تعالى عن أنْ يكونَ له مِثْلٌ أو شبيه. «ما أنزلَ الله بها من سلطانٍ»، يقول: سموها بأسماءٍ لم يَأْذَنْ لهم بتسميتها، ولا وَضَعَ لهم على أنَّ تلك الأسماءَ أسماؤُها، دلالةً ولا حجةً، ولكنها اختلاقٌ منهم لها وافتراء.

وقوله: «إنِ الحُكْمُ إلَّا لله أَمَرَ ألا تَعْبُدُوا إلَّا إياهُ»، يقول: وهو الذي أمر ألا تعبدوا أنتم وجميعُ خَلْقِه، إلا الله الذي له الأُلوهةُ والعبادةُ خالصةً دونَ كل ما سواه من الأشياء.

وقوله: «ذلك الدين القيم»، يقول: هذا الذي دَعَوْتُكُمَا إليه من البراءةِ من عبادةِ ما سوى الله من الأوثانِ، وأنْ تُخْلِصَا العبادةَ لله الواحدِ القهار، هو الـدِّينُ القويمُ الذي لا اعوجاجَ فيه، والحقُّ الذي لا شَكَّ فيه. «ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون»، يقول: ولكن أهلَ الشركِ بالله يجهلونَ ذلك، فلا يعلمونَ حقيقته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ، مخبراً عن قِيلِ يوسفَ لِلَّذَيْنِ دخلا معه السجن: «يا صاحبي السجن أمَّا أحَدُكُمَا فيسقي رَبَّهُ خمراً»، هو الذي رأى أنه يعصرُ خمراً فيسقي ربَّه ـ يعني سَيِّدَهُ، وهو ملكهم. «خمراً»، يقول: يكون صاحبَ شرابِه.

وأما الآخَرُ، وهو الذي رأى أنَّ على رأسِه خبزاً تأكلُ الطيرُ منه. «فيصلب فتأكلُ الطيرُ من رأسه»، فذكر أنه لما عَبَّرَ ما أخبراه به أنهما رأياه في منامهما، قالا له: ما رأينا شيئاً! فقال لهما: «قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان»، يقول:

فُرِغَ من الأمرِ الذي فيه اسْتَفْتَيْتُمَا، ووجب حُكْمُ الله عليكما بالذي أَخْبَرْتُكُمَا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفُ لِلَّذِي عَلِمَ أنه نَاجٍ من صاحبيه اللَّذَيْنِ استعبرا لهُ الرؤيا: «اذكرني عند ربك»، يقول: اذكرني عند سَيِّدِكَ، وأخبره بمظلمتي، وأني محبوسٌ بغير جُرْم.

وقوله: «فأنساه الشيطانُ ذِكْرَ ربه»، وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن غفلةٍ عَرَضَتْ ليوسفَ من قِبَلِ الشيطانِ، نسيَ لها ذِكْرَ رَبِّه الذي لو به استغاثَ لأسرعَ بما هو فيه خلاصُه، ولكنه زَلَّ بها فأطالَ من أجلها في السجن حَبْسَهُ، وأوجعَ لها عقوبته.

واختلف أهلُ التأويل في قدر «البِضْعِ»، الذي لَبِثَ يوسف في السجن.

فقال بعضهم: هو سبع سنين.

وقال آخرون: «البضع»، ما بينَ الثلاثِ إلى التسع.

وقال آخرون: بل هو ما دونَ العشر.

والصواب في «البضع»، من الثلاثِ إلى التسعِ، إلى العشرِ، ولا يكونُ دونَ الثلاثِ. وكذلك ما زادَ على العقدِ إلى المئةِ، وما زادَ على المئةِ فلا يكونُ فيه «بضع».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ

يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: وقال مَلِكُ مصرَ: إني أرى في المنام سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنَّ سبعٌ من البقرِ عِجَافٌ. وقال: «إني أرى»، ولم يَذْكُرْ أنه رأى في منامه ولا في غيره، لِتَعَارُفِ العربِ بينها في كلامها إذا قال القائلُ منهم: «أرى أني أفعلُ كذا وكذا»، أنه خَبَرٌ عن رؤيتِه ذلك في منامِه، وإنْ لم يذكر النومَ. وأخرج الخبر جَلَّ ثناؤُهُ على ما قد جرى به استعمالُ العربِ ذلك بينهم.

«وسَبْعَ سُنبلاتٍ خُضْرٍ»، يقول: وأرى سبعَ سُنْبلات خضرٍ في منامي. «وأُخَرَ»، يقول: وسبعاً أُخَرَ من السُّنْبُلِ. «يابساتٍ يا أيها الملأُ»، يقول: يا أيها الأشرافُ من رجالي وأصحابي. «أفتوني في رؤياي»، فاعبُروها، «إنْ كنتم للرؤيا»، عَبَرَةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الملأُ الذين سألهم ملكُ مصرَ عن تعبيرِ رؤياه: رؤياكَ هذه «أضغاثُ أحلام»، يعنون: أنها أخلاطٌ، رؤيا كاذبةٌ لا حقيقةَ لها.

وقوله: «وما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالمين»، يقول: وما نحن بما تؤول إليه الأحلامُ الكاذبةُ بعالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ

سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال الذي نَجا من القتل، من صاحبي السجن اللَّذَيْنِ استعبرا يوسفَ الرؤيا. «وادَّكَر»، يقول: وتَذَكَّرَ ما كان نَسيَ من أمرِ يوسفَ، وذِكْرَ حاجَتِه للملكِ التي كان سأله عند تعبيرِه رؤياهُ أنْ يَذْكُرَهَا له بقوله: «اذكرني عند ربك». «بعد أمة»، يعني: بعد حِينٍ.

وقوله: «أنا أنبئكم بتأويله»، يقول: أنا أُخْبِرُكُمْ بتأويلِه. «فأرسلون»، يقول: فأطلقوني، أَمْضِي لآتيكم بتأويله من عندِ العالِمِ به.

وفي الكلامِ محذوفٌ، قد تُرِكَ ذكره استغناءً بما ظهرَ عما ترك، وذلك: فأرسلوه، فأتى يوسفَ فقالَ له، يا يوسف، يا أيها الصِدِّيقُ.

وقوله: «أَفْتِنَا في سبعِ بقراتٍ سِمانٍ يأكلهن سَبْعٌ عِجافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خُضْرٍ وأخر يابسات»، فإنَّ معناه: أفتنا في سبعِ بقرات سمان رُئِينَ في المنامِ، يأكُلُهُنَّ سبعٌ منها عِجافٌ، وفي سبعِ سنبلات خضر رُئِينَ أيضاً، وسبعٍ أُخَرَ منهن يابساتٍ. فأما «السِّمانُ من البقر»، فإنها السنونَ المُخْصِبةُ.

وقوله: «وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات»، أما «الخضر»، فَهُنَّ السنون المخاصيبُ، وأمَّا «اليابسات»، فهن الجُدُوبُ المُحُولُ.

وقوله: «لعلِّي أرجع إلى الناسِ لعلهم يعلمون»، يقول: كي أرجعَ إلى الناسِ فأخبرهم. «لعلهم يعلمون»، يقول: ليعلموا تأويلَ ما سألتُكَ عنه من الرؤيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفُ لسائلِه عن رؤيا الملك: «تزرعون سبع سنين دأباً»، يقول: تزرعونَ هذه السبعَ السنين، كما كنتم تزرعونَ سائرَ السنين قَبْلَها على عادَتِكُمْ فيما مضى.

و«الدأب»، العادةُ.

وقوله: «فما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ في سُنْبُلِه إلا قليلاً مما تأكلون»، وهذه مَشُورةٌ أشارَ بها نبيُّ الله ﷺ على القومِ، ورأيٌ رآهُ لهم صلاحاً، يأمرهم باستبقاءِ طعامهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول: ثم يجيءُ من بعدِ السنين السبعِ التي تزرعونَ فيها دأباً سنون سبعٌ شِدادٌ، يقول: جُدُوبٌ قَحطةٌ. «يأكلن ما قَدَّمتم لهن»، يقول: يُؤْكَلُ فيهنَّ ما قدمتم في إعدادِ ما أَعْدَدتُمْ لهن في السنين السبعةِ الخصبةِ من الطعامِ والأقوات.

«إلا قليلاً مما تُحْصِنُونَ»، يقول: إلا يسيراً مما تُحْرِزُونَهُ.

و«الإحصانُ»، التصييرُ في الحصن، وإنما المرادُ منه الإحرازُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وهذا خَبَرٌ من يوسفَ عليه السلام للقومِ عَمَّا لم يَكُنْ في رؤيا مَلِكِهم، ولكنه من عِلْمِ الغيبِ الذي آتاهُ الله دَلالةً على نُبُوَّتِه وحجةً على صِدْقِه.

ويعني بقوله: «فيه يُغَاثُ الناسُ»، بالمطرِ والغيثِ.

وأما قوله: «وفيه يَعْصِرُون»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: وفيه يعصرونَ العنبَ والسمسم وما أشبهَ ذلك.

وقال آخرون: معنى قوله: «وفيه يعصرون»، وفيه يَحْلِبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما رجع الرسولُ الذي أرسلوه إلى يُوسُفَ، الذي قال: «أنا أنبئكم بتأويلِه فأرسلون»، فأخبرهم بتأويلِ رؤيا الملكِ عن يوسفَ عَلِمَ الملكُ حقيقةَ ما أفتاهُ به من تأويلِ رؤياهُ وصِحَّةِ ذلك، وقال الملكُ: ائتوني بالذي عبرَ رُؤْيَايَ هذه.

وقوله: «فلما جاءه الرسولُ»، يقول: فلما جاءه رسولُ الملكِ يَدْعُوه إلى المَلِكِ. «قال ارْجِعْ إلى رَبِّكَ»، يقول: قال يوسف للرسولِ: ارجع إلى سَيِّدِكَ. «فاسأله ما بالُ النسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيديهن»؟ وأبى أنْ يَخْرُجَ مع الرسولِ وإجابةَ الملك، حتى يعرفَ صِحّةَ أمره عندهم مما كانوا قَرَفُوه به من شأنِ النساء، فقال للرسول: سَلِ المَلِكَ ما شأنُ النسوةِ اللاتي قطعن أيديهن، والمرأةِ التي سُجِنْتُ بسببها؟

وقوله: «إنَّ ربي بكيدِهِنَّ عليم»، يقول: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ ذُو عِلْمٍ بصَنِيعِهِنَّ وأفعالهن التي فَعَلْنَ بي، ويفعلن بغيري من الناس، لا يَخْفَى عليه ذلك كله، وهو من وَراء جزائهن على ذلك.

وقيل: إنَّ معنى ذلك: إنَّ سيدي إطفير العزيز، زوج المرأةِ التي راودَتْنِي عن نفسي، ذُو عِلْمٍ ببراءتي مما قَرَفَتْنِي به من السوء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾

وفي هذا الكلامِ متروكٌ، قد استغنى بدلالةِ ما ذكر عليه عنه، وهو: «فرجعَ الرسولُ إلى الملكِ من عندِ يوسفَ برسالته، فدعا الملكُ النسوةَ اللاتي قَطَّعْنَ أيديهن وامرأة العزيز»، فقال لهن: «ما خَطْبُكُنَّ إذْ رَاوَدْتُنَّ يوسفَ عن نفسه».

ويعني بقوله: «ما خطبكن»، ما كانَ أَمْرُكُنَّ، وما كان شأْنُكُنَّ. «إذْ راودتن يوسفَ عن نفسِه»، فأَجَبْنَهُ فَقُلْنَ: «حاشَ لله ما عَلِمْنَا عليه من سوءٍ قالت امرأةُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ»، تقول: الآن تَبَيَّنَ الحق وانكشفَ فظهرَ. «أنا رَاوَدْتُهُ عن نفسِه» وإنَّ يوسفَ لَمِنَ الصادقينَ في قولِه: «هيَ راودَتْنِي عن نفسي».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ ۞

يعني بقوله: «ذلك ليعلم أني لم أَخُنْهُ بالغيبِ»، هذا الفِعْلُ الذي فعلتُه، من رَدِّي رسولَ الملكِ إليه، وتَرْكِي إجابتَهُ والخروجَ إليه، ومسألتي إيَّاهُ أنْ يسألَ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أيديهنَّ عن شأنِهنَّ إذْ قطعنَ أيديهن، إنما فعلتهُ ليعلمَ أني لم أَخُنْهُ في زوجتِه. «بالغيب»، يقول: لم أركب منها فاحشةً في حالِ غَيبتِه

عني. وإذا لم يَرْكَبْ ذلكَ بمَغِيبِه، فهو في حالِ مشهدِه إياهُ أَحْرَى أنْ يكونَ بعيداً من ركوبه.

وقوله: «وأنَّ الله لا يهدي كيدَ الخائنين»، يقول: فعلتُ ذلك، ليعلمَ سيدي أني لم أخنه بالغيب. «وأنَّ الله لا يهدي كيدَ الخائنين»، يقول: وأنَّ الله لا يُسَدِّدُ صَنيعَ مَنْ خانَ الأماناتِ، ولا يرشدُ فِعَالَهم في خِيَانَتِهِمُوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾

يقـول يوسفُ صلواتُ الله عليه: ومـا أُبَـرِّئُ نفسي من الخـطإِ والزَّللِ فأُزكِّيها. «إنَّ النفسَ لأمارةٌ بالسوء»، يقول: إنَّ النفوسَ نفوسَ العباد، تأمرهم بما تَهواهُ، وإنْ كانَ هَواهَا في غير ما فيه رِضَى الله. «إلَّا ما رَحِمَ ربي»، يقول: إلا أنْ يرحمَ ربي مَنْ شاء من خَلْقِه، فينجيه من اتباعِ هواها وطاعتها فيما تأمرُه به من السوء.

ويعني بقوله: «إنَّ ربي غفورٌ رحيم»، إنَّ الله ذُو صَفْحٍ عن ذنوبِ مَنْ تابَ من ذنوبه، بتركِه عقوبتَهُ عليها وفضيحتَهُ بها. «رحيم»، به بعد توبتِه، أن يعذبه عليها.

وذُكِرَ أنَّ يوسفَ قالَ هذا القولَ، من أجلِ أنَّ يوسفَ لما قال: «ذلك ليعلمَ أني لم أخنه بالغيب»، قال مَلَكٌ من الملائكة: ولا يومَ هَمَمْتَ بها! فقال يوسفُ حيئنذٍ: «وما أُبَرِّئُ نفسي إنَّ النفسَ لأمَّارةٌ بالسوء».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وقال الملك»، يعني مَلِكُ مصرَ الأكبر، وهو فيما ذكر ابن إسحق: الوليد بن الرّيان.

حين تَبَيَّنَ عُذْر يوسفَ، وَعَرفَ أمانتَهُ وعِلْمَهُ، قال لأصحابه: «ائتوني به أستخلِصْهُ لنفسي»، يقول: أجعله من خُلصائي دونَ غيري.

وقوله: «فلما كَلَّمَهُ»، يقول: فلما كَلَّمَ الملكُ يوسفَ، وعرفَ براءَتَهُ وعِظَمَ أمانتِه قال له: إنكَ، يا يوسفُ، «لدينا مكينٌ أمينٌ»، أي: مُتَمَكِّنٌ مما أردتَ وَعَرَضَ لكَ من حاجةٍ قِبَلَنَا، لِرِفْعَةِ مكانِكَ ومَنْزِلَتِكَ، لدينا. «أمينٌ» على ما ائتمنتَ عليه من شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال يوسفُ للملك: اجعلني على خزائنِ أرضك.

وهذا من يوسف صلواتُ الله عليه، مسألةٌ منه للملكِ أنْ يولِّيه أمرَ طعامِ بلدِه وخَرَاجها، والقيام بأسباب بلدِه، ففعلَ ذلك الملكُ به.

وقوله: «إني حفيظٌ عليم»، اختلفَ أهلُ التأويلِ في تأويله.

فقال بعضهم: معنى ذلك: إني حفيظٌ لما اسْتَوْدَعْتَنِي، عليمٌ بما وَلَّيْتَنِي.

وقال آخرون: إني حافظٌ للحسابِ، عليمٌ بالألسُنِ.

وأوْلى القولين عندنا بالصواب، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: «إني حافظ لما استودعتني، عالم بما أوليتني»، لأنَّ ذلك عقيبَ قولِه: «اجعلني على خزائنِ الأرض»، ومسألته الملكَ استكفاءَهُ خزائنَ الأرض، فكان إعلامه بأنَّ عنده خبرةً

في ذلك وكفايته إياه، أشبه من إعلامِه حفظه الحساب، ومعرفته بالألسن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهكذا وطَّأنا ليوسفَ في الأرض ـ يعني أرضَ مصر. «يتبوأ منها حيثُ يشاء»، يقول: يَتَّخذُ من أرضِ مصرَ منزلاً حيثُ يشاء، بعد الحَبْسِ والضِيقِ. «نُصيبُ برحمتنا مَنْ نشاء»، من خَلْقِنا، كما أَصَبْنَا يوسفَ بها، فَمَكَّنَّا له في الأرضِ بعد العبودةِ والإسارِ، وبعد الإلقاءِ في الجُبِّ. «ولا نضيعُ أجرَ المحسنين»، يقول: ولا نُبْطِلُ جزاءَ عملِ مَنْ أحسنَ فأطاعَ رَبَّهُ، وعملَ بما أمرَهُ، وانتهى عما نَهاهُ عنه، كما لم نُبْطِلْ جزاءَ عملِ يوسفَ إذْ أحسنَ فأطاعَ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولثوابُ الله في الآخرةِ. «خيرٌ للذين آمنوا»، يقول: للذين صَدَّقُوا الله ورسولَه، مما أعطى يوسفَ في الدنيا من تمكينِه له في أرضِ مصرَ. «وكانوا يتقون»، يقول: وكانوا يتقونَ الله، فيخافونَ عِقابَهُ في خِلافِ أمرِه واستحلالِ محارِمه، فيطيعونَهُ في أمرِه ونهيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وجاء إخوةُ يوسفَ فدخلوا عليه فَعَرفَهُمْ»، يوسفُ، «وهُمْ» ليوسفَ، «مُنْكِرُونَ»، لا يعرفونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩﴾

يقول: ولما حَمَّلَ يوسفُ لإخوتِه أباعِرَهُمْ من الطعام، فأوقَر لِكُلِّ رجلٍ منهم بعيرَهُ، قال لهم: «ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم»، كَيْمَا أحمل لكم بعيراً آخر، فَتَزْدادُوا به حِمْلَ بعيرٍ آخر، «ألا ترون أني أُوفي الكيلَ»، فلا أبخسه أحداً. «وأنا خير المنزلين»، وأنا خيرُ مَنْ أنزلَ ضيفاً على نفسِه من الناسِ بهذه البلدةِ، فأنا أضيفكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ يوسفَ لإخوتِه: «فإنْ لم تأتوني به»، بأخِيكم من أبيكم. «فلا كَيْلَ لكم عندي»، يقول: فليسَ لكم عندي طعامٌ أكيلُه لكم. «ولا تَقْرَبُونِ»، يقول: ولا تقربوا بلادي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إخوةُ يوسفَ ليوسفَ، إذْ قال لهم: «ائتوني بأخٍ

لكم من أبيكم»: «قالوا سنراودُ عنه أباهُ»، ونسأله أنْ يُخَلِّيه معنا حتى نَجيءَ به إليكَ. «وإنَّا لفاعلون»، يعنون بذلك: وإنَّا لفاعلونَ ما قلنا لك إنا نفعله من مراودةِ أبينا عن أخينا منه، ولَنَجْتَهِدَنَّ.

وقوله: «وقال لفتيانه اجعلُوا بضاعتَهُمْ في رِحَالِهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال يوسفُ. «لفتيانه»، وهم، غلمانه.

«اجعلوا بضاعتهم في رحالهم»، يقول: اجعلوا أثمانَ الطعامِ التي أخذتُموها منهم. «في رِحالهم».

فإن قالَ قائلٌ: ولأيَّةِ عِلَّةٍ أمرَ يوسفُ فتيانَهُ أنْ يجعلُوا بضاعةَ إخوتِه في رحالهم؟

قيل: يحتملُ ذلك أوجهاً:

أحدها: أنْ يكونَ خَشيَ أنْ لا يكونَ عند أبيهِ دراهم، إذْ كانت السَّنة سنةَ جَدْبٍ وقَحْطٍ، فيُضِرُّ أخذُ ذلك منهم به، وأحَبَّ أن يرجع إليه.

أو: أرادَ أنْ يَتَّسِعَ بها أبوهُ وإخوتُه، مع [قلَّةِ] حاجَتِهم إليه، فردَّهُ عليهم من حيثُ لا يعلمونَ سببَ ردِّهِ، تَكَرُّماً وتَفَضُّلاً.

والثالث: وهو أنْ يكونَ أرادَ بذلك أنْ لا يُخْلِفُوهُ الوعدَ في الرجوع، إذا وَجَدُوا في رِحالهم ثمنَ طعامٍ قد قَبَضُوه وملكَهُ عليهم غيرهم، عِوَضاً من طعامه، ويتحرَّجُوا من إمساكِهم ثمنَ طعامٍ قد قبضوه حتى يؤدُّوه على صاحبِه، فيكون ذلك أدْعَى لهم إلى العَوْدِ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما رجعَ إخوةُ يوسفَ إلى أبيهم. «قالوا يا أبانا مُنِعَ منا الكيلُ فأرسلْ معنا أخانا نَكْتَلْ»، يقول: مُنِعَ منا الكيلُ، فوقَ الكيلِ الذي كِيلَ لنا، ولم يُكَلْ لكلِّ رَجُلٍ منَّا إلَّا كيلُ بعيرٍ. «فأرسل معنا أخانا»، بنيامين يكتَلْ لنفسه كيلَ بعيرٍ آخرَ زيادة على كيلِ أباعِرِنا. «وإنا له لحافظون»، من أنْ يَنالَهُ مكروهٌ في سفره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال أبوهم يعقوبُ: هل آمَنُكُمْ على أخِيكُمْ من أبيكم، الذي تسألوني أنْ أُرسلَهُ معكم، إلا كما أَمِنْتُكُمْ على أخيهِ يوسف من قَبْلُ؟ يقول: من قَبْلِه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «فالله خير حافظاً».

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة وبعض الكوفيين والبصريين: ﴿فَالله خَيْرٌ حِفْظاً﴾، بمعنى: والله خَيْرُكُمْ حِفظاً.

وقرأ ذلك عامة قرأةِ الكوفيين وبعض أهل مكة: ﴿فَالله خَيْرٌ حَافِظاً﴾، بالألف، على توجيه «الحافظ» إلى أنه تفسيرٌ للخيرِ، كما يقال: «هو خيرٌ رجلًا»، والمعنى: فالله خيركم حافظاً، ثم حذفت «الكاف والميم».

والصوابُ من القولِ في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، قد قرأَ بكلٍّ واحدةٍ منهما أهلُ عِلْمٍ بالقرآن، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ. وذلك أنَّ مَنْ وَصَفَ الله بأنه خيرهم حفظاً، فقد وصَفَهُ بأنه خيرهم حافظاً، ومن وصفه بأنه خيرهم حافظاً، فقد وصفه بأنه خيرهم حفظاً.

«وهو أرحم الراحمين»، يقول: والله أرحمُ راحمٍ بخلْقِه، يرحمُ ضَعْفي على كِبَرِ سنِّي، ووَحْدَتي بفقدِ ولدي فلا يُضيعه، ولكنه يحفظه حتى يَرُدَّهُ عليَّ لرحمته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما فتحَ إخوةُ يوسفَ متاعَهم الذي حملوهُ من مصرَ من عنـدِ يوسف. «وجدوا بضاعَتَهم»، وذلك ثمنُ الطعامِ الذي اكتالُوه منه. «رُدَّتْ إليهم قالوا يا أبانا ما نَبْغِي هذه بضاعَتُنَا رُدَّتْ إلينا»، يعني أنهم قالوا لأبيهم: ماذا نبغي؟ هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، تَطْيِيباً منهم لنفسِه بما صُنِعَ بهم في رَدِّ بضاعتِهم إليهم.

وقوله: «ونَمِيرُ أهلَنا»، يقول: ونطلبُ لأهلنا طعاماً فنشتريه لهم.

«ونحفظُ أخانا»، الذي تُرسلُه معنا. «ونَزْدَادُ كيلَ بعير»، يقول: ونزدادُ على أحمالنا من الطعامِ حملَ بعيرٍ، يُكال لنا ما حَمل بعيرٌ آخرُ من إبلنا «ذلك كَيْلٌ يسير»، يقول: هذا حملٌ يسير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يعقوبُ لبنيه: لَنْ أُرسِلَ أخاكم معكم إلى ملكِ

مصرَ. «حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً من الله»، يقول: حتى تُعْطونِ موثقاً من الله بمعنى «الميثاق»، وهو ما يُوثَقُ به من يمينٍ وعَهْدٍ. «لَتَأْتُنَّنِي به»، يقول: لتأتنني بأخيكم. «إلاَّ أنْ يُحاطَ بكم»، يقول: إلا أنْ يُحيط بجميعِكُم ما لا تَقْدِرُونَ معه على أن تأتوني به.

وقوله: «فلما آتوه موثقهم»، يقول: فلما أَعْطَوْهُ عُهُودَهُمْ، «قال»، يعقوبُ «الله على ما نقولُ»، أنا وأنتم. «وكيلٌ»، يقول: هو شهيدٌ علينا بالوفاء بما نقولُ جميعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يعقوبُ لبنيه، لما أرادُوا الخروجَ من عنده إلى مصرَ ليمتارُوا الطعامَ: يا بَنِيَّ لا تدخلُوا مصرَ من طريقٍ واحد، وادخلوا من أبوابٍ متفرقة.

وذُكِرَ أنه قالَ ذلك لهم، لأنهم كانوا رِجالاً لهم جمالٌ وهيأةٌ، فخافَ عليهم العَيْنَ إذا دَخَلُوا جماعةً من طريقٍ واحدٍ، وهم وَلَدُ رجلٍ واحدٍ، فأمرهم أن يفترقوا في الدخول إليها.

وقوله: «وما أغني عنكم من الله من شيء»، يقول: وما أقدرُ أنْ أدفعَ عنكم من قضاءِ الله الذي قد قَضَاهُ عليكم من شيءٍ صغيرٍ ولا كبير، لأنَّ قضاءَهُ نافذٌ في خَلْقِه. «إنِ الحُكْمُ إلا لله»، يقول: ما القضاءُ والحكمُ إلا لله دونَ ما سِواهُ من الأشياءِ، فإنه يحكمُ في خَلْقِه بما يشاءُ، فينفذُ فيهم حُكْمه، ويقضي فيهم، ولا يُرَدُّ قضاؤه. «عليه توكلتُ»، يقول: على الله توكلتُ فوثقتُ

به فيكم وفي حِفْظِكم عليَّ، حتى يردكم إليَّ وأنتم سالمون معافون، لا على دخولكم مصرَ إذا دخلتُمُوهَا من أبوابٍ متفرقة. «وعليه فليتوكَّلِ المتوكلون»، يقول: وإلى الله فليفوِّضْ أمورَهم المفوِّضُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما دخلَ ولَدُ يعقوبَ من حيثُ أمرهم أبوهم، وذلك دخـولهم مصرَ من أبوابٍ متفرقة. «ما كان يُغْنِي»، دخولهم إياها كذلك. «عنهم»، من قضاءِ الله الذي قَضَاهُ فيهم فَحَتَّمَهُ. «من شيءٍ إلا حاجةً في نفسِ يعقوبَ قَضَاها»، إلا أنهم قضوا وطراً ليعقوبَ بدخولهم، لا من طريقٍ واحد، خوفاً من العينِ عليهم، فاطمأنتْ نَفْسُه أنْ يكونوا أتوا من قِبَلِ ذلك، أو نَالَهُمْ من أجلِه مكروهٌ.

وقوله: «وإنه لذُو عِلْمٍ لما علمناه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنَّ يعقوبَ لَذُو عِلْمٍ، لتعليمنا إياه.

«ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون»، يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ: ولكنَّ كثيراً من الناسِ غير يعقوب، لا يعلمونَ ما يعلَمُهُ، لأنَّا حَرَمناه ذلك فلم يعلمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما دخلَ ولَدُ يعقوبَ على يوسفَ «آوى إليه أخاهُ»، يقول: ضَمَّ إليه أخاه لأبيهِ وأمه.

وقوله: «فلا تبتئس»، يقول: فلا تَسْتَكِنْ ولا تَحْزَنْ.

فتأويلُ الكلام إذاً: فلا تحزنْ ولا تستكنْ لشيءٍ سَلَفَ من إخوتِكَ إليكَ في نفسك، وفي أخيكَ من أمك، وما كانوا يفعلون قبلَ اليومِ بك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ۝٧٠﴾

يقول: ولما حَمَّلَ يوسفُ إبلَ إخوتِه ما حَمَّلها من الميرةِ، وقضى حاجتهم.

وقوله: «جعلَ السقاية في رحلِ أخيه»، يقول: جعلَ الإناءَ الذي يكيلُ به الطعامَ في رَحْلِ أخيه، يعني: في متاعِ أخيه ابنِ أمِّهِ وأبيه، وهو بنيامين.

وقوله: «ثم أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ»، يقول: ثم نادى مُنَادٍ. «أيتها العيرُ»، وهي القافلةُ فيها الأحمالُ. «إنكم لسارقون».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: قال بَنُـو يعقـوبَ، لمـا نُودُوا: «أيتها العير إنكم لسارقون»، وأقبلوا على المنادي ومَنْ بحضرتهم يقولون لهم: «ماذا تفقدون»، ما الذي تَفْقِدُون؟ «قالوا نفقدُ صُواعَ الملك»، يقول: فقال لهم القوم: نفقد مَشْرَبَةَ الملكِ.

و«الصواع»، هو الإناءُ الذي كان يوسفُ يَكِيلُ به الطعام.

وقوله: «ولمن جاء به حِمْلُ بعير»، يقول: ولمن جاء بالصواعِ حملُ بعيرٍ من الطعام.

وقوله: «وأنا به زعيم»، يقول: وأنا بأنْ أُوفِّيه حِمْلَ بعيرٍ من الطعام إذا جاءني بصواعِ الملك، كفيلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إخوةُ يوسف: «تالله»، يعني: والله.

وهذه «التاء» في «تالله»، إنما هي «واو» قُلبتْ «تاء»، كما فعل ذلك في «التوراة» وهي من «ورّيت»، و«التُّراث»، وهي من «ورثت»، و«التخمة»، وهي من «الوخامة»، قلبت الواو في ذلك كله تاء، و«الواو» في هذه الحروف كلها من الأسماء، وليست كذلك في «تالله»، لأنها إنما هي واو القسم. وإنما جعلت تاء، لكثرةِ ما جرى على ألسُنِ العربِ في الأيمانِ في قولهم: «والله»، فخُصَّت في هذه الكلمة بأنْ قُلِبَتْ تاء. ومَنْ قال ذلك في اسم الله فقال: «تالله». لم يقل «تالرحمن» و«تالرحيم»، ولا مع شيءٍ من أسماء الله، ولا معَ شيءٍ مما يقسم به، ولا يقال ذلك إلا في «تالله» وحده.

وقوله: «لقد علمتم ما جِئْنَا لِنُفْسِدَ في الأرضِ»، يقول: لقد علمتم ما جئنا لنعصي الله في أرضكم.

فإنْ قالَ قائل: وما كان عِلْمُ مَنْ قِيلَ له: «لقد علمتم ما جئنا لنفسدَ في الأرضِ»، بأنهم لم يجيئوا لذلك، حتى استجازَ قائِلُو ذلك أنْ يقولوه؟

قيل: استجازوا أنْ يقولوا ذلك، لأنهم، فيما ذُكِرَ، ردُّوا البضاعةَ التي

وجدوها في رِحالهم، فقالوا: لو كُنَّا سُرَّاقاً، لم نَرُدَّ عليكم البضاعةَ التي وجدناها في رحالنا.

وقيل: إنهم كانوا قد عُرِفُوا في طريقهم ومسيرهم أنهم لايظلمونَ أحداً، ولا يتناولون ما ليسَ لهم، فقالوا ذلك حين قِيلَ لهم: «إنكم لسارقون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال أصحابُ يوسفَ لإخوتِه: فما ثوابُ السَّرَقِ إنْ كنتم كاذبينَ في قولكم: «ما جئنا لِنُفْسِدَ في الأرضِ وما كنا سارقين»؟ «قالوا جزاؤُه مَنْ وُجِدَ في رَحْلِه فهو جزاؤه»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وقال إخوةُ يوسفَ: ثوابُ السَّرَقِ مَنْ وُجِدَ في متاعِه السرق «فهو جزاؤُه»، يقول: فالذي وُجِدَ ذلك في رحله ثوابه بأنْ يُسَلَّمَ بسَرِقته إلى مَنْ سرق منه حتى يَسْتَرِقَّهُ. «كذلك نجزي الظالمين»، يقول: كذلك نفعلُ بِمَنْ ظلمَ ففعلَ ما ليسَ له فِعْلُه، مِنْ أخذِهِ مالَ غيرِه سَرَقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ففتش يوسفُ أوعيَتَهُمْ ورِحَالهم، طالباً بذلك صُوَاعَ الملكِ، فبدأ في تفتيشِه بأوعيةِ إخوته من أبيهِ، فجعلَ يُفَتِّشُهَا وِعاءً وعاءً قبلَ

وعاءِ أخيهِ من أبيهِ وأمه، فإنه أخَّرَ تفتيشه، ثم فَتَّشَ آخِرَهَا وعاءَ أخيه، فاستخرجَ الصُّواعَ من وعاءِ أخيه.

وقوله: «كذلك كِدْنَا ليوسفَ»، يقول: هكذا صنعنا ليوسفَ، حتى يخلِّصَ أخاهُ لأبيهِ وأمه من إخوته لأبيه، بإقرارٍ منهم أنَّ له أنْ يَأْخُذَهُ منهم ويحتبسه في يديه، ويحولَ بينه وبينهم. وذلك أنهم قالوا، إذْ قِيلَ لهم: «ما جزاؤُهُ إنْ كنتم كاذبين»: جزاءُ من سرق الصُّواعَ، أنَّ مَنْ وُجِدَ ذلك في رَحْلِه فهو مُسْتَرَقٌّ به. وذلك كان حُكْمهم في دِينهم. فكادَ الله ليوسفَ، كما وَصَفَ لنا، حتى أخذَ أخاهُ منهم، فصارَ عنده بِحُكْمِهم وصُنْعِ الله له.

وقوله: «ما كان ليأخذ أخاهُ في دِينِ الملك إلا أنْ يشاءَ الله»، يقول: ما كان يوسفُ ليأْخُذَ أخاهُ في حكم ملكِ مصرَ وقضائِه وطاعتِه منهم، لأنه لم يكنْ من حُكْمِ ذلك الملك وقضائه أنْ يُسْتَرَقَّ أحدٌ بالسَّرَقِ، فلم يكن ليوسفَ أخذ أخيهِ في حكم ملكِ أرضه، إلا أنْ يشاء الله بكيدِه الذي كاده له، حتى أسلمَ مَنْ وُجِدَ في وعائه الصُّواعُ إخوتُه ورفقاؤُه بحكمِهم عليه، وطابتْ أنفسهم بالتسليم.

وقوله: «نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاء»، بمعنى: نرفع مَنْ نشاء مراتِب ودرجاتٍ في العلم على غيرِه، كما رفعنا يوسف.

وقوله: «وفوقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عليم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وفوقَ كُلِّ عالمٍ من هو أعلَم منه، حتى ينتهي ذلك إلى الله. وإنما عَنَى بذلك أنَّ يوسفَ أعلم إخوته، وأنَّ فوقَ يوسفَ مَنْ هو أعلم من يوسف، حتى ينتهي ذلك إلى الله.

إنْ قالَ لنا قائلٌ: وكيف جازَ ليوسفَ أنْ يجعلَ السقايةَ في رحلِ أخيه، ثم يُسَرِّقَ قوماً أبرياءَ من السَّرَقِ، ويقول: «أيتها العيرُ إنكم لسارقون»؟

قِيلَ: إنَّ قوله: «أيتها العيرُ إنكم لسارقون»، إنما هو خَبرٌ من الله عن

مؤذِّنٍ أذَّنَ به، لا خبر عن يوسف. وجائزٌ أنْ يكونَ المؤذِّنُ أذَّنَ بذلك عن أمرِ يوسف، واستجازَ الأمرَ بالنداء بذلك، لعلمه بهم أنهم قد كانوا سرقوا سَرِقةً في بعض الأحوال، فأمر المؤذنَ أنْ يناديهم بوصفهم بالسَّرق، ويوسف يعني ذلك السَّرق لا سَرَقهم الصُّواع. وقد قال بَعضُ أهلِ التأويل: إنَّ ذلك كان خطأً من فِعْلِ يوسفَ، فعاقبه الله بإجابةِ القومِ إيَّاهُ: «إنْ يَسْرِقْ فقد سرقَ أخٌ له من قَبْلُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قالوا إنْ يسرقْ فقد سرقَ أخٌ له من قبل»، يعنون أخاهُ لأبيهِ وأمه، وهو يوسفُ.

ويعني بقوله: «فأسَرَّهَا»، فأضْمَرَهَا.

وقـوله: «والله أعلم بما تصفون»، يقول: والله أعلمُ بما تكذبون فيما تَصِفُونَ به أخاهُ بنيامين.

فمعنى الكلام إذاً: فأسَرَّهَا يوسفُ في نفسِه ولم يُبْدِهَا لهم، قال: أنتم شَرٌّ عنـدَ الله منـزلاً مِمَّنْ وَصَفْتُموه بأنه سرقَ، وأخبثُ مكاناً، بما سَلَفَ من أفعالِكم، والله عالمٌ بكَذِبِكُمْ، وإنْ جَهِلَهُ كثيرٌ ممن حضرَ من الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت إخوةُ يوسفَ ليوسفَ: «يا أيها العزيزُ»، يا أيها المَلِكُ. «إنَّ له أبـاً شيخـاً كبيراً»، كَلِفاً بحبِّه، يَعْنُونَ يعقوبَ. «فَخُذْ أحَدَنا مكـانه»، يعنون: فخذ أحداً منّا بدلاً من بنيامين، وخَلِّ عنه. «إنَّا نراكَ من المحسنين»، يقول: إنا نراكَ من المحسنين في أفعالك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفُ لإخوته: «مَعاذَ الله»، أعوذُ بالله.

«أنْ نأخُذَ إلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعنا عنده»، يقول: أستجيرُ بالله من أنْ نأخذَ بريئاً بسقيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: «فلما استيأسُوا منه»، فلما يَئِسُوا منه من أنْ يُخَلِّي يوسفُ عن بنيامين، ويأخذَ منهم واحداً مكانه، وأنْ يُجيبَهُمْ إلى ما سألوه من ذلك.

وقوله: «خَلَصُوا نَجِيًّا»، يقول بعضُهم لبعضٍ يتناجون، لا يختلطُ بهم غيرهم.

وقوله: «قال كبيرهم»، اختلفَ أهلُ العلم في المعنِّي بذلك.

فقال بعضهم: عَنَى به كبيرَهُمْ في العقلِ والعلمِ، لا في السنِّ، وهو شمعون. قالوا: وكان روبيل أكبر منه في الميلاد.

وقال آخرون: بل عَنَى به كبيرَهُمْ في السن، وهو روبيل.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة، قولُ مَنْ قال: عَنَى بقوله: «قال كبيرهم»، روبيل، لإجماعِ جميعِهم على أنه كان أكبرهم سنًّا. ولا تفهم العربُ في المخاطبة إذا قيل لهم: «فلانٌ كبيرُ القوم»، مطلقاً بغيرِ وصلٍ، إلا أحد معنيين: إما في الرياسةِ عليهم والسؤدد، وإما في السن. فأما في العقل، فإنهم إذا أرادوا ذلك وصَلُوه فقالوا: «هو كبيرهم في العقل». فأما إذا أطلق بغير صلته بذلك، فلا يفهم إلا ما ذكرت.

وقد قال أهلُ التأويل: لم يكن لشمعون وإنْ كان قد كان من العلمِ والعقلِ بالمكانِ الذي جعله الله به على إخوته رياسةٌ وسؤدداً، فيعلم بذلك أنه عَنَى بقوله: «قال كبيرهم». فإذا كان ذلك كذلك، فلم يَبْقَ إلا الوجهُ الآخر، وهو الكبر في السن. وقد قال الذين ذكرنا جميعاً: «روبيل كان أكبر القوم سنًّا»، فَصَحَّ بذلك القولُ الذي اخترناه.

وقوله: «ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذَ عليكم مَوْثِقاً من الله»، يقول: ألم تعلموا، أيها القومُ، أنَّ أباكم يعقوب قد أخذَ عليكم عهودَ الله ومواثيقَهُ: لَتَأْتِيَنَّهُ به جميعاً إلا أنْ يُحاطَ بكم. «ومن قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ في يوسف»، ومن قبلِ فِعْلَتِكُمْ هذه، تفريطكم في يوسفَ. يقول: أو لم تعلموا من قبل هذا تفريطَكم في يوسف؟

وقوله: «فَلَنْ أبرحَ الأرضَ»، التي أنا بها، وهي مصر، فأفارقها. «حتى يأذن لي أبي»، بالخروجِ منها.

وقوله: «أو يحكمَ الله»، أو يقضي لي ربي بالخروجِ منها، وترك أخي

بنيامين، وإلا فإني غير خارج. «وهـو خيرُ الحاكمين»، يقول: والله خيرُ مَنْ حَكَمَ، وأعدلُ من فَصَلَ بين الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ روبيل لإخوتِه، حين أخذ يوسفُ أخاه بالصواعِ الذي اسْتُخْرِجَ من وعائِه: ارجعوا، إخوتي، إلى أبيكم يعقوب فقولوا له: يا أبانا، إنَّ ابنكَ بنيامين سرق.

واختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: وما قلنا إنه سَرَقَ إلا بظاهرِ عِلْمِنَا بأنَّ ذلك كذلك، لأنَّ صواعَ الملك أُصيبَ في وعائِه دونَ أوعيةِ غيرِه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما شهدنا عند يوسفَ، بأنَّ السارقَ يُؤْخَذُ بسرقته، إلَّا بما علمنا.

وقوله: «وما كنا للغيب حافظين»، يقول: وما كنا نرى أن ابنك يسرق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا: «ونحفظ أخَانَا»، مِمَّا لنا إلى حِفْظِه منه السبيل.

وأولى التأويلين بالصوابِ عندنا في قوله: «وما شَهِدْنَا إلا بما عَلِمْنَا»، قولُ مَنْ قال: وما شهدنا بأنَّ ابنكَ سرقَ إلا بما علمنا من رؤيتنا للصواعِ في وعائه، لأنه عَقِيبَ قوله: «إنَّ ابنكَ سرق»، فهو بأنْ يكونَ خبراً عن شهادتِهم بذلك، أَوْلى من أنْ يكونَ خبراً عما هو منفصل.

وذكر أن: «الغيب»، في لغة حِمْيَر، هو الليلُ بعينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢﴾

يقول: وإنْ كنتَ مُتَّهِماً لنا، لا تُصَدِّقنا على ما نقولُ من أنَّ ابنكَ سرق: «فاسألِ القريةَ التي كنا فيها»، وهي مصر، يقول: سَلْ مَنْ فيها من أهلها. «والعِير التي أقبلنا فيها»، وهي القافلةُ التي كنا فيها، التي أقبلنا منها معها، عن خبرِ ابنكَ وحقيقةِ ما أخبرناكَ عنه من سَرَقِهِ، فإنك تَخْبُر مِصْدَاقَ ذلك. «وإنَّا لصادقون»، فيما أخبرناكَ من خبره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨٣﴾

في الكلام متروكٌ، وهو: فرجعَ إخوةَ بنيامين إلى أبيهم وتَخَلَّفَ روبيل، فأخبروه خَبَرَهُ، فلما أخبروه أنه سَرَقَ. «قال بل سَوَّلَتْ لكم أنفسكم أمراً»، يقول: بل زَيَّنَتْ لكم أنفسكم أمراً هَمَمْتُمْ به وأردتُموه. «فصبرٌ جميل»، يقول: فصبري على ما نالني من فقد ولدي، صبرٌ جميل لا جزعَ فيه ولا شكايةَ عسى الله أنْ يأتيني بأولادي جميعــاً فيردَّهُمْ عليَّ. «إنــه هو العليم»، بوَحْـدتي، وبفقدِهم وحزني عليهم، وصِدْقِ ما يقولونَ من كذبه. «الحكيم»، في تدبيره خَلْقَهُ.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝٨٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ، بقوله: «وتولَّى عنهم»، وأعْرَضَ عنهم يعقوبُ. «وقال يا أسفا على يوسف»، يعني: يا حَزنا عليه.

يقال: إنَّ «الأسفَ»، هو أشدُّ الحزنِ والتَّندُّمِ. يقال منه: «أسِفْتُ على كذا آسَفُ عليه أسَفاً».

يقول الله جَلَّ ثناؤهُ: وابيضَّتْ عينا يعقوب من الحزنِ. «فهو كظيم»، يقول: فهو مكظومٌ على الحزنِ، يعني أنه مملوءٌ منه، مُمْسِك عليه لا يُبينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: قال وَلَدُ يعقوب الذين انصرفُوا إليه من مصر له، حين قال: «يا أسفا على يوسف»: تالله لا تزالُ تذكرُ يوسفَ.

وقوله: «حتى تكون حَرَضاً»، يقول: حتى تكونَ دَنِفَ الجسمِ مخبولَ العقل.

وأصل «الحرض»، الفساد في الجسمِ والعقلِ من الحزنِ أو العشقِ.

وقوله: «أو تكونَ من الهالكين»، يقول: أو تكون مِمَّنْ هَلَكَ بالموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يعقوبُ للقائلينَ له من ولده: «تالله تَفْتَأُ تذكرُ يوسفَ حتى تكون حَرَضاً أو تكونَ من الهالكين»: لستُ إليكم أشكو بَثِّي وحُزْني، وإنما أشكو ذلك إلى الله.

ويعني بقوله: «إنما أشكو بثي»، ما أشكو هَمِّي وحزني إلّا إلى الله.

وأما قوله: «وأعلمُ من الله ما لا تعلمون»، فإنَّ ابنَ عباس كان يقول في ذلك، فيما ذُكِرَ عنه: أعلمُ أنَّ رؤيا يوسف صادقةٌ، وأني سأسجدُ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، حين طمعَ يعقوبُ في يوسفَ قال لبنيه: «يا بَنيَّ اذهبوا»، إلى الموضعِ الذي جئتم منه وخَلَّفْتُمْ أخوَيْكُمْ به. «فتحسَّسوا من يوسف»، يقول: التمسوا يوسفَ وتعرَّفوا من خبره.

«وأخيه»، يعني: بنيامين. «ولا تيأسوا من روح الله»، يقول: ولا تقنطوا من أنْ يُرَوِّحَ الله عنا ما نحنُ فيه من الحُزنِ على يوسفَ وأخيهِ بفَرَجٍ من عندِه، فَيُرِينَيْهِمَا. «إنه لا ييأسُ من روح الله»، يقول: لا يقنطُ من فَرَجِه ورحمته، ويقطعُ رجاءَهُ منه. «إلا القومُ الكافرون»، يعني: القومُ الذين يجحدون قُدرته على ما يشاء تكوينه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

وفي الكلامِ متروكٌ قد استغني بذكرِ ما ظهرَ عما حذف، وذلك: فخرجُوا راجعينَ إلى مصر حتى صاروا إليها فَدَخَلُوا على يوسفَ. «فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيزُ مَسَّنَا وأهلَنا الضُّرُّ»، أي الشدةُ من الجَدْبِ والقحطِ «وجئنا ببضاعةٍ مزجاة».

وعَنى بقوله: «وجئنا ببضاعةٍ مُزْجاة»، بدراهم، أو ثمن لا يجوزُ في ثمنِ الطعام إلا لمن يتجاوز فيها.

وقوله: «فأوفِ لنا الكيلَ»، يقول: فأتِمَّ لنا حقوقنا في الكيلِ بها، وأعْطِنَا بها ما كنتَ تُعطينا قَبْلُ بالثمنِ الجيِّدِ والدراهمِ الجائزةَ الوافيةَ التى لا تردّ.

وقوله: «وتصدق علينا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالوا: وتَفَضَّلْ علينا بما بَيْنَ سِعْرِ الجيادِ والرديَّة، فلا تَنْقصْنَا من سعرِ طَعامك، لرديٍّ بضاعتنا. «إن الله يجزي المتصدقين»، يقول: إنَّ الله يُثيبُ المتفضلينَ على أهلِ الحاجة بأموالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾

ذُكِرَ أنَّ يوسفَ صلواتُ الله عليه لما قال له إخوتُه: «يا أيها العزيزُ مَسَّنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعةٍ مُزْجاةٍ فأوفِ لنا الكيلَ وتَصَدَّقْ علينا إنَّ الله يجزي المتصدقين»، أدركته الرِقَّةُ، وباحَ لهم بما كان يَكْتُمُهُمْ من شأنِه.

فتأويل الكلام: هل تذكرون ما فعلتم بيوسفَ وأخيهِ، إذ فَرَّقْتُمْ بينهما، وصنعتم ما صنعتم إذْ أنتم جاهلون؟ يعني: في حال جَهْلِكم بعاقبةِ ما تفعلونَ بيوسفَ، وما إليه صائرٌ أمرُه وأمرُكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: قال إخوةَ يوسفَ له، حين قالَ لهم ذلك يوسف: «إنك لأنتَ يوسف»؟ فقال: نعم أنا يوسف. «وهذا أخي قد من الله علينا»، بأنْ جمعَ بيننا بعد ما فَرَّقْتُمْ بيننا. «إنه مَنْ يَتَّقِ ويصبرْ»، يقول: إنه مَنْ يتق الله فيراقبه بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه. «ويصبرْ»، يقول: ويكفَّ نفسَهُ فيحبسها عما حَرَّمَ الله عليه من قولٍ أو عملٍ عند مصيبةٍ نزلتْ به من الله. «فإنَّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين»، يقول: فإن الله لا يُبْطلُ ثوابَ إحسانه وجزاء طاعته إيَّاه فيما أمره ونهاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال إخوةُ يوسفَ له: تالله لقد فَضَّلَكَ الله علينا، وآثرك بالعلمِ والحلمِ والفَضلِ. «وإنْ كنا لخاطئين»، يقول: وما كُنَّا في فِعْلِنَا الذي فَعَلْنَا بكَ، في تَفْرِيقنا بينكَ وبينَ أبيكَ وأخيكَ وغير ذلك من صَنِيعنَا الذي صنعنا بك، إلا خاطئينَ. يعنون: مخطئين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفُ لإخوته: «لا تثريبَ»، يقول: لا تغييرَ عليكم، ولا إفسادَ لما بيني وبينكم من الحرمةِ وحقِّ الأُخُوَّةِ، ولكنْ لكم عندي الصفحُ والعفو.

وقـولـه: «يغفـرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين»، وهذا دعاءٌ من يوسفَ لإخوتِه، بأنْ يغفرَ الله لهم ذنبهم فيما أتوا إليه ورَكِبُوا منه من الظلمِ. يقول:

عَفَا الله لكم عن ذَنْبكم وظُلْمِكُمْ، فَسَتَرهُ عليكم. «وهو أرحمُ الراحمين»، يقول: والله أرحمُ الراحمينَ لمن تابَ من ذنبه، وأنابَ إلى طاعته بالتوبة من معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

ذُكِرَ أنَّ يوسفَ ﷺ لما عَرَّفَ نفسه إخوته، سألهم عن أبيهم فقالوا: ذَهَبَ بَصَرُهُ من الحزنِ! فعند ذلك أعطاهُمْ قميصهُ وقال لهم: «اذهبوا بقميصي هذا».

وقوله: ««يأتِ بصيراً»، يقول: يَعُدْ بصيراً. «وأْتُوني بأهلكم أجمعين»، يقول: وجِيئُوني بجميعِ أهلكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولما فَصَلَتْ عِيرُ بني يعقوب من عندِ يوسفَ متوجهةً إلى يعقوب، قال أبوهم يعقوب: «إني لأجدُ ريحَ يوسف». ذُكر أنَّ الريحَ استأذنت رَبَّها في أنْ تأتي يعقوبَ بريحِ يوسفَ قبلَ أنْ يأتيه البشيرُ، فأذِنَ لها، فأتتهُ بها.

وأما قوله: «لولا أنْ تُفَنِّدون»، فإنه يعني: لولا أن تُعَنِّفُوني، وتُعَجِّزُوني، وتلوموني، وتُكَذِّبوني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الذين قال لهم يعقوبُ من ولدِه: «إني لأجدُ ريحَ يوسف لولا أن تفندون»: تالله، أيها الرجلُ، إنكَ مِنْ حُبِّ يوسفَ وذِكْرِه لفي خطئكَ وزَلَلِكَ القديم، لا تنساهُ ولا تتسلَّى عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما أنْ جاء يعقوبَ البشيرُ من عندِ ابنه يوسف، وهو المبشِّرُ برسالةِ يوسفَ، وذلك بريدٌ، فيما ذُكر، كان يوسفُ أبردَهُ إليه.

وقوله: «ألقاهُ على وجهه»، يقول: ألقى البشيرُ قميصَ يوسفَ على وجهِ يعقوبَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال ولد يعقوبَ الذين كانوا فَرَّقوا بينه وبين يوسفَ: يا أبانا سَلْ لنا رَبَّكَ يَعْفُ عنَّا، ويسترْ علينا ذنوبنا التي أذنبناها فيكَ وفي يوسف، فلا يعاقبنا بها في القيامة. «إنا كنا خاطئين»، فيما فعلنا به، فقد اعترفنا بذنوبنا. «قال سوف أستغفرُ لكم ربي»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال يعقوب: سوف أسألُ ربي أنْ يعفوَ عنكم ذنوبَكُمْ التي أذنبتموها فيَّ وفي يوسف.

وقوله: «إنه هو الغفور الرحيم»، يقول: إنَّ ربي هو الساترُ على ذنوبِ التائبينَ إليه من ذنوبهم. «الرحيم»، بهم أنْ يُعَذِّبَهُمْ بعد توبتهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ

أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ، فلما دخلَ يعقوبُ وولَدُه وأهلُوهم على يوسفَ. «آوى إليه أبويه»، يقول: ضَمَّ إليه أبويه، فقال لهم: «ادخلوا مصرَ إنْ شاء الله آمنين».

فإنْ قال قائل: وكيف قال لهم يوسفُ: «ادخلوا مصرَ إنْ شاء الله آمنين»، بعدما دخلوها، وقد أخبرَ الله عزَّ وجلَّ عنهم أنهم لما دخلوها على يوسف وضَمَّ إليه أبويه، قال لهم هذا القولَ؟

قيل: قد اختلفَ أهلُ التأويلِ في ذلك.

فقال بعضهم: إنَّ يعقوبَ إنما دخلَ على يوسفَ هو وولَدُهُ، وآوى يوسفُ أبويه إليه قبل دخولِ مصر. قالوا: وذلك أن يوسفَ تلقَّى أباهُ تكرمةً له قبلَ أنْ يدخلَ مصر، فآواهُ إليه، ثم قال له ولمن معه: «ادخلوا مصرَ إنْ شاء الله آمنين»، بها قبل الدخول.

وقال آخرون: بل قوله: «إنْ شاء الله»، استثناءٌ من قولِ يعقوبَ لبنيه: «أستغفر لكم ربي». قال: وهو من المُؤَخَّرِ الذي معناه التقديمُ. قالوا: وإنما معنى الكلام: قال: أستغفرُ لكم ربي إنْ شاء الله إنه هو الغفورُ الرحيم، فلما دخلوا على يوسفَ آوى إليه أبويه، وقال ادخُلوا مصرَ، ورفع أبويه.

والصواب من القول في ذلك عندنا قولُ مَنْ قال: إنَّ يوسفَ قال ذلك

لأبويه ومَنْ معهما من أولادِهما وأهاليهم قبلَ دخولهم مصر حين تَلَقَّاهُمْ، لأنَّ ذلك في ظاهرِ التنزيل كذلك، فلا دلالةَ تدلُّ على صحةِ ما قالَ ابن جريج، ولا وجهَ لتقديمِ شيءٍ من كتابِ الله عن موضعه أو تأخيره عن مكانِه إلَّا بحجةٍ واضحةٍ.

وقيل: عُنِي بقوله: «آوى إليه أبويه» أبوهُ وخالتُه. وقال الذين قالوا هذا القول: كانتْ أمُّ يوسفَ قد ماتت قَبْلُ، وإنما كانت عند يعقوبَ يومئذٍ خالتُه أخت أمه، كان نكحها بعد أمِّه.

وقال آخرون: بل كان أباه وأمه.

وأوْلى القولين في ذلك بالصوابِ ما قاله ابنُ إسحق، لأن ذلك هو الأغلب في استعمالِ الناسِ والمتعارفِ بينهم في «أبوين»، إلا أنْ يصح ما يقالُ من أنَّ أمَّ يوسفَ كانت قد ماتت قبلَ ذلك بحجةٍ يجب التسليمُ لها، فيسلّم حينئذٍ لها.

وقوله: «وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين»، مما كنتم فيه في باديتكم من الجدب والقحط.

وقوله: «رفع أبويه على العرشِ»، يعني: على السرير.

وقوله: «وخَرُّوا له سُجَّداً»، يقول: وخَرَّ يعقوبُ وولده وأمّه ليوسف سجّداً. وكانت تحيةُ الناسِ يومئذٍ أن يسجد بعضُهم لبعض.

وإنما عَنَى مَنْ ذكر بقوله: «إنَّ السجودَ كان تحيةً بينهم»، أنَّ ذلك كان منهم على الخُلُق، لا على وَجْهِ العبادةِ من بعضِهم لبعض. ومما يدلُّ على أنَّ ذلك لم يزل من أخلاقِ الناس قديماً قبلَ الإسلامِ على غير وجهِ العبادةِ من بعضهم لبعض، قول أعشى بني ثعلبة[1]:

---

(١) ديوانه: ٣٩.

فَلَمَّـا أَتَـانَـا بُعَـيْدَ الـكَـرَى سَجَـدْنـا لهُ ورَفَـعْـنـا عَمَـارَا

وقوله: «يا أبتِ هذا تأويلُ رُؤْيَايَ من قَبْلُ قد جعلها ربي حقًّا»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: قال يوسفُ لأبيه: يا أبتِ، هذا السجودُ الذي سجدتَ أنت وأمّي وإخوتي لي. «تأويلُ رؤيايَ من قبل»، يقول: ما آلتْ إليه رؤيايَ التي كنتُ رأيتها، وهي رؤياهُ التي كان رآها قَبْلَ صنيعِ إخوتِه به ما صنعوا: أنَّ أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر له ساجدون. «قد جعلها ربي حقًّا»، يقول: قد حققَها ربي، لمجيء تأويلها على الصحَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال يوسفَ، بعد ما جمعَ الله له أبويه وإخوته، وبسطَ عليه من الدنيا ما بسطَ من الكرامةِ، ومكَّنَهُ في الأرض، متشوِّقاً إلى لقاء آبائه الصالحين: «رَبِّ قد آتيتني من المُلْكِ»، يعني: من مُلْكِ مصر. «وعَلَّمتني من تأويلِ الأحاديث»، يعني من عبارةِ الرؤيا، تعديداً لنعمِ الله عليه، وشكراً له عليها. «فاطرَ السمواتِ والأرض»، يقول: يا فاطرَ السمواتِ والأرض، يا خالِقَهَا وبارئَها. «أنتَ وليي في الدنيا والآخرة»، يقول: أنت وليي في دنيايَ على مَنْ عَادَاني وأرادني بسوء بنصرك، وتَغْذُوني فيها بنعمتكَ، وتَلِيني في الآخرة بفضلكَ ورحمتكَ. «تَوَفَّني مسلماً»، يقول: اقبضني إليكَ مسلماً. «وألحقني بالصالحين»، يقول: وألحقني بصالحِ آبائي إبراهيمَ وإسحقَ ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك.

وقيل: إنه لم يَتَمَنَّ أحدٌ من الأنبياءِ الموتَ قبل يوسف.

وذُكِرَ أنَّ بَني يعقوب الذين فعلوا بيوسفَ ما فعلوا، استغفرَ لهم أبوهُمْ، فتابَ الله عليهم وعَفَا عنهم، وغفرَ لهم ذنبهم.

وذُكِرَ أنَّ يعقوبَ توفي قبل يوسف، وأوصى إلى يوسف، وأمره أنْ يدفنه عند قبرِ أبيه إسحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۝١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الخبرُ الذي أخبرتُكَ به، من خبرِ يوسفَ ووالدِه يعقوب وإخوته وسائر ما في هذه السورة. «من أنباء الغيب»، يقول: من أخبارِ الغيبِ الذي لم تُشاهِدْهُ ولم تُعاينه، ولكنَّا نُوحيهِ إليكَ ونُعَرِّفكهُ لنثبِّتَ به فؤادكَ، ونشجعَ به قلبكَ، وتصبرَ على ما نالكَ من الأذى من قومكَ في ذاتِ الله، وتعلمَ أنَّ مَنْ قبلكَ من رُسُلِ الله إذْ صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأمِرُوا بالعُرف، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظَّفَرِ، وأُيِّدُوا بالنصرِ، ومُكِّنُوا في البلاد، وغلبوا من قَصَدوا من أعدائهم وأعداء دين الله. يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: فَبِهِمْ، يا محمدُ، فتأسَّ، وآثارَهُمْ فقُصَّ. «وما كنتَ لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون»، يقول: وما كنتَ حاضراً عند إخوةِ يوسفَ، إذْ أجمعوا واتفقتْ آراؤهم، وصَحَّتْ عزائمهم، على أنْ يُلْقُوا يوسفَ في غيابةِ الجُبِّ. وذلك كان مَكْرَهم الذي قال الله عزَّ وجلَّ: «وهم يمكرون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وما أكثرَ مشركي قومكَ، يا محمدُ، ولو حرصتَ على

أنْ يُؤْمِنوا بك فيصدِّقُوكَ ويَتَّبِعُوا ما جِئْتَهُمْ به من عندِ ربك، بمصدِّقيك ولا مُتَّبِعيك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لمحمدٍ ﷺ: وما تسأل، يا محمدُ، هؤلاء الذين يُنْكِرُونَ نُبُوَّتَكَ، ويمتنعونَ من تصديقكَ والإقرار بما جئتهم به من عندِ ربك، على ما تَدْعُوهم إليه من إخلاصِ العبادةِ لربكَ، وهجرِ عبادةِ الأوثانِ وطاعةِ الرحمن. «من أجر»، يعني: من ثواب وجزاء منهم، بل إنما ثوابكَ وأجر عملكَ على الله. يقول: ما تسألهم على ذلك ثواباً فيقولوا لك: إنما تريدُ بدعائك إيَّانا إلى اتباعك لننزلَ لكَ عن أموالنا إذا سألتنا ذلك. وإذْ كنت لا تسألهم ذلك، فقد كان حقًّا عليهم أنْ يعلموا أنك إنما تَدْعُوهم إلى ما تدعوهم إليه، اتباعاً منك لأمرِ ربكَ، ونصيحةً منك لهم، وأن لا يستغشُّوك.

وقوله: «إنْ هو إلا ذِكْرٌ للعالمين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما هذا الذي أرسلكَ به رَبُّكَ، يا محمدُ، من النبوةِ والرسالةِ. «إلا ذِكْرٌ»، يقول: إلا عِظَةٌ وتذكيرٌ للعالمينَ، لِيَتَّعِظُوا ويتذكَّرُوا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾

يقول جَلَّ وعَزَّ: وكَمْ من آيةٍ في السمواتِ والأرضِ لله وعبرةٍ وحجةٍ، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آياتِ السمواتِ، وكالجبالِ والبحارِ والنباتِ والأشجارِ وغير ذلك من آياتِ الأرض. «يَمُرُّونَ عليها»، يقول: يعاينونها فيمرُّونَ بها مُعْرِضِينَ عنها، لا يعتبرونَ بها، ولا يفكرون فيها وفيما

دَلَّتْ عليه من توحيدِ رَبِّها، وأنَّ الألوهةَ لا تنبغي إلا للواحدِ القهَّارِ الذي خلَقَها وخلق كلَّ شيء، فدبَّرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يُقِرُّ أكثرُ هؤلاء الذين وصَفَ عزَّ وجلَّ صِفتَهُمْ بقوله: «وكأيِّنْ من آيةٍ في السمواتِ والأرضِ يمرُّون عليها وهم عنها معرضون»، بالله أنه خالِقُه ورازقُه وخالقُ كُلِّ شيء. «إلا وهم مشركون»، في عبادتهم الأوثانَ والأصنامَ، واتخاذهم من دونِه أرباباً، وزَعْمِهم أنَّ له ولداً، تعالى الله عما يقولون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: أفأَمِنَ هؤلاءِ الذين لا يُقِرُّونَ بأنَّ الله رَبّهم إلا وهُمْ مشركونَ في عبادتهم إياه غيرَهُ. «أنْ تأتيهم غاشيةٌ من عذابِ الله»، تغشاهم من عقوبةِ الله وعذابه على شِرْكِهم بالله ـ أو تأتيهم القيامةُ فجأةً وهم مُقيمونَ على شركهم وكفرهم بربّهم ـ فيخلِّدهُم الله عزَّ وجلَّ في ناره، وهم لا يدرون بمجيئها وقيامها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: قل، يا محمدُ، هذه الدعوةُ التي أدعو إليها، والطريقةُ التي أنا عليها، من الدعاءِ إلى توحيدِ الله، وإخلاصِ العبادةِ له دونَ الآلهةِ والأوثانِ، والانتهاءِ إلى طاعته، وتركِ معصيته. «سبيلي»، طريقتي ودعوتي، أدعو إلى الله وحده لا شريكَ له. «على بصيرة»، بذلك ويقينِ علمٍ منّي به أنا، ويدعو إليه على بصيرة أيضاً من اتَّبعني وصَدَّقني وآمنَ بي. «وسبحان الله»، يقول له تعالى ذِكْرُهُ: وقل، تنزيهاً لله، وتعظيماً له من أنْ يكونَ له شريكٌ في ملكه، أو معبودٌ سواه في سلطانه: «وما أنا من المشركين»، يقول: وأنا بريءٌ من أهلِ الشركِ به، لستُ منهم ولا هُمْ منّي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أرسلنا، يا محمدُ، مِنْ قَبْلِكَ إلا رجالاً، لا نساءً ولا ملائكة. «نُوحِي إليهم» آياتنا، بالدعاءِ إلى طاعتنا وإفرادِ العبادةِ لنا. «من أهلِ القرى»، يعني: من أهلِ الأمصارِ دونَ أهل البوادي.

وقوله: «أفلم يسيروا في الأرض»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفلم يَسِرْ هؤلاء المشركونَ الذين يُكَذِّبُونَكَ، يا محمدُ، ويجحدونَ نبوَّتَكَ، وينكرون ما جِئْتَهُمْ به من توحيد الله، وإخلاصِ الطاعةِ والعبادةِ له. «في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم»، إذْ كَذَّبُوا رُسُلَنا؟ ألم نُحِلَّ بهم عُقوبَتَنا فنهلكهم بها، ونُنَجِّ منها رُسُلَنا وأتباعَنا، فيتفكروا في ذلك ويعتبروا؟

وقوله: «ولدارُ الآخرةِ خيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا فِعْلنا في الدنيا

بأهلِ ولايتنا وطاعتنا، أنَّ عقوبتنا إذا نزلتْ بأهلِ معاصينا والشركِ بنا، أنجيناهم منها، وما في الدار الآخرة لهم خيرٌ.

وقوله: «أفلا تعقلون»، يقول: أفلا يعقلُ هؤلاء المشركون بالله حقيقةَ ما نقولُ لهم ونخبرهم به، من سوءِ عاقبةِ الكفر، وغِبِّ ما يصيرُ إليه حالُ أهلِه، مع ما قد عاينوا ورأوا وسمعوا مما حَلَّ بمن قَبْلَهُمْ من الأممِ الكافرةِ المكذبةِ رسلَ ربِّها؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهلِ القُرَى»، فدعوْا مَنْ أرسلنا إليهم، فكذبوهم وردُّوا ما أَتَوْا به من عند الله. «حتى إذا استيأسَ الرسلُ»، الذين أرسلناهم إليهم منهم أن يؤمنوا بالله، ويصدِّقُوهم فيما أتوهم به من عندِ الله - وظن الذين أرسلناهم إليهم من الأممِ المكذِّبةِ أنَّ الرسلَ الذين أرسلناهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهُمْ عن الله، من وَعْدِه إياهم نصرَهم عليهم. «جاءهم نصرنا».

وأما قوله: «فَنُجِّيَ مَنْ نشاء»، فإنَّ القَرَأَةَ اختلفتْ في قراءته.

فقرأه عامة قرأة أهلِ المدينة ومكة والعراق: ﴿فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ﴾، مُخَفَّفة بنونين، بمعنى فننجي نحنُ مَنْ نشاء من رسلنا والمؤمنين بنا، دونَ الكافرينَ الذين كَذَّبوا رُسلنا، إذا جاء الرسلَ نصرنا.

واعتلَّ الذين قرأوا ذلك كذلك، أنه إنما كتب في المصحفِ بنونٍ واحدة، وحُكْمُـه أنْ يكـونَ بنونين، لأنَّ إحدى النونين حرفٌ من أصلِ الكلمة من:

«أنجى ينجي»، والأخرى «النون» التي تأتي لمعنى الدلالة على الاستقبال من فعلِ جماعةٍ مُخْبِرةٍ عن أنفسها، لأنهما حرفان، أعني النونين، من جنسٍ واحدٍ يَخْفَى الثـاني منهمـا عن الإظهارِ في الكلام، فحذفت من الخط، واجْتُزِئَ بالمثبتة من المحذوفة، كما يفعلُ ذلك في الحرفين اللذين يُدْغم أحدهما في صاحبه.

وقرأ ذلك بعض الكوفيين على هذا المعنى، غير أنه أدغمَ النُّونَ الثانية وشدَّدَ الجيم.

وقرأه آخر منهم بتشديدِ الجيمِ ونصبِ الياء، على معنى فعل ذلك به، من: «نَجَّيْتُه أُنَجِّيه».

وقـرأ ذلك بعض المكيين: ﴿فَنَجَا مَنْ نَشَاءُ﴾ بفتح النون والتخفيف، من: «نَجَا يَنْجُو».

والصوابُ من القراءةِ في ذلك عندنا، قراءةُ مَنْ قرأه: ﴿فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ﴾ بنونين، لأنَّ ذلك هو القراءة التي عليها القَرَأَةُ في الأمصار، وما خالفه مِمَّنْ قرأ ذلك ببعضِ الوجوه التي ذكرناها، فمنفردٌ بقراءته عما عليه الحُجَّةُ مجمعةٌ من القَرَأَةِ. وغيرُ جائزٍ خلافُ ما كان مستفيضاً بالقراءة في قرأة الأمصار.

وتأويل الكلام: فننجي الرسلَ ومَنْ نشاء من عبادنا المؤمنينَ إذا جاء نصرنا.

وقـوله: «ولا يُرَدُّ بأسُنَا عن القومِ المجرمين»، يقول: ولا تُرَدُّ عقوبَتُنَا وبطشُنَا بمن بطشنا به من أهلِ الكفر بنا، وعن القومِ الذين أجرموا فكفروا بالله، وخالفوا رسله وما أتوهم به من عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لقد كان في قَصَص يوسفَ وإخوته عبرةٌ لأهلِ الحجَى والعقولِ يعتبرونَ بها، وموعظةٌ يَتَّعِظُونَ بها. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ بعد أن أُلْقي يوسفُ في الجُبِّ ليهلكَ، ثم بيع بَيْعَ العبيدِ بالخسيسِ من الثمن، وبعد الإسارِ والحبسِ الطويلِ، مَلَّكَهُ مصرَ، ومكَّنَ له في الأرضِ، وأعلاه على مَنْ بَغَاهُ سوءاً من إخوتِه، وجمعَ بينه وبين والديه وإخوته بقدرته، بعد المدةِ الطويلة، وجاء بهم إليه من الشُّقَّةِ النائيةِ البعيدة، فقال جَلَّ ثناؤُهُ للمشركينَ من قريش من قوم نبيِّه محمدٍ ﷺ: لقد كانَ لكم، أيها القومُ، في قَصَصِهم عبرةٌ لو اعتبرتم به، أنَّ الذي فعلَ ذلك بيوسفَ وإخوته، لا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ مِثْلِه بمحمدٍ ﷺ، فَيُخْرِجُهُ من بين أظهُرِكُمْ، ثم يُظْهِرُه عليكم، ويمكِّنُ له في البلاد، ويُؤَيِّدُه بالجُنْدِ والرجالِ من الأتباعِ والأصحابِ، وإنْ مَرَّتْ به شدائد، وأتت دونه الأيامُ والليالي والدهور والأزمان.

وقوله: «ما كان حديثاً يفترى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما كان هذا القولُ حديثاً يُخْتَلَقُ ويُتَكَذَّبُ ويُتَخَرَّص.

«ولكن تصديقَ الذي بين يديه»، يقول: ولكنه تصديقُ الذي بين يديه من كُتُبِ الله التي أنزلها قَبْلَهُ على أنبيائِه، كالتوراةِ والإنجيلِ والزبورِ، يصدِّق ذلك كله ويشهد عليه أنَّ جميعَهُ حَقٌّ من عند الله.

وقوله: «وتفصيلَ كُلِّ شيءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهو أيضاً تفصيلُ كُلِّ ما بالعبادِ إليه حاجةٌ من بيانِ أمرِ الله ونَهْيِهِ، وحلالِه وحرامِه، وطاعتِه ومعصيته.

وقوله: «وهدى ورحمةً لقومٍ يؤمنون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهو بيانُ أمرِه ورشادِه لِمَنْ جَهِلَ سبيلَ الحق فعميَ عنه، إذا اتبعه فاهتدى به من ضلالته. «ورحمـة»، لمن آمنَ به وعَمِلَ بما فيه، يُنْقِذُهُ من سَخَطِ الله وأليمِ عذابه، ويورِّثُه في الآخرة جنانه، والخلودَ في النعيمِ المقيم. «لقومٍ يؤمنون»، يقول: لقومٍ يُصَدِّقُونَ بالقرآنِ وبما فيه من وَعْدِ الله ووعيدِه، وأمْرِه ونهيه، فيعملونَ بما فيه من أمرِه، وينتهون عما فيه من نهيه.



سورة الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾

قد بَيَّنَّا القولَ في تأويلِ قوله: «الر» و«المر»، ونظائرهما من حروفِ المعجم التي افْتُتِحَ بها أوائلُ بعضِ سورِ القرآن، فيما مضى، بما فيه الكفاية من إعادتها[1].

وقوله: «تلك آياتُ الكتاب»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: تلك التي قَصَصْتُ عليكَ خبرَها، آيات الكتاب الذي أنزلته قبل هذا الكتاب الذي أنزلتُه إليكَ إلى مَنْ أنزلته إليه من رسلي قبلك.

وقيل: عَنَى بذلك التوراةَ والإنجيل.

وقوله: «والذي أُنزلَ إليكَ من رَبِّكَ الحق»، القرآن، فاعملْ بما فيه واعتصم به.

وقوله: «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون»، ولكنَّ أكثرَ الناسِ من مشركي قومكَ لا يُصَدِّقُونَ بالحقِّ الذي أنزل إليك من ربك، ولا يُقِرُّونَ بهذا القرآنِ وما فيه من مُحْكَمِ آيهِ.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله، يا محمدُ، هو الذي رفعَ السمواتِ السبع بغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها، فجعلها للأرضِ سَقْفاً مسموكاً.

و«العَمَد» جمع «عمود»، وهي السَّواري، وما يعمد به البناء.

وأما قوله: «ثم استوى على العرش»، فإنه يعني: عَلاَ عليه.

وقوله: «وسَخَّرَ الشمسَ والقمر»، يقول: وأجرى الشمسَ والقمرَ في السماء فَسَخَّرهُمَا فيها لمصالحِ خَلْقِه، وذَلَّلهما لمنافعهم، ليعلموا بِجَرْيِهِمَا فيها عَدَدَ السنين والحساب، ويفصلوا به بين الليل والنهار.

وقوله: «كُلٌّ يجري لأجلٍ مُسَمًّى»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: كُلُّ ذلك يجري في السماء. «لأجل مسمى»، أي: لوقتٍ معلوم، وذلك إلى فناءِ الدنيا وقيامِ القيامة التي عندها تُكَوَّرُ الشمسُ، ويُخْسَفُ القمر، وتنكدرُ النجوم.

وقوله: «يُدَبِّرُ الأمرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يقضي الله الذي رفعَ السموات بغيرِ عمدٍ ترونها أمورَ الدنيا والآخرة كلها، ويدبِّرُ ذلك كله وحدَهُ بغيرِ شريكٍ ولا ظهيرٍ ولا معين سُبْحانه.

وقوله: «يفصل الآيات»، يقول: يُفَصِّلُ لكم ربُّكم آياتِ كتابه، فَيُبَيِّنُهَا لكم، احتجاجاً بها عليكم، أيها الناسُ. «لعلكم بلقاءِ رَبِّكم توقنون»، يقول: لِتُوقِنُوا بلقاءِ الله والمَعَادِ إليه، فتصدقوا بوعدِه ووعيده، وتنزجروا عن عبادةِ الآلهةِ والأوثانِ، وتُخْلِصُوا له العبادةَ إذا أيقنتم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله الذي مَدَّ الأرضَ، فبسطها طولاً وعرضاً.

وقوله: «وجعل فيها رواسيَ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وجعلَ في الأرض جبالاً ثابتة.

وقوله: «وأنهاراً»، يقول: وجعلَ في الأرضِ أنهاراً من ماء.

وقوله: «ومن كُلِّ الثمراتِ جعل فيها زوجين اثنين». فـ«مِنْ» في قوله: «ومن كُلِّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين»، من صلة «جعل» الثاني لا الأول.

ومعنى الكلام: وجعلَ فيها زوجين اثنين من كُلِّ الثمرات: وعَنَى بـ«زوجين اثنين»، من كُلِّ ذَكَرٍ اثنان، ومن كلِّ أنثى اثنان، فذلك أربعة، من الذكور اثنان، ومن الإناث اثنان، في قول بعضهم.

وقد بينا فيما مضى أنَّ العرب تسمي الاثنين: «زوجين»، والواحد من الذكور «زوجاً» لأنثاه، وكذلك الأنثى الواحدة «زوجاً»، و«زوجة» لِذَكَرِهَا، بما أَغْنَى عن إعادته في هذا الموضع.

ويزيدُ ذلك إيضاحاً قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى﴾ [النجم: ٤٥]، فسمى الاثنين الذكر والأنثى «زوجين».

وإنما عَنَى بقوله: «زوجين اثنين»، نَوْعين وضَرْبين.

وقوله: «يغشي الليل النهار»، يقول: يجلِّلُ الليلُ النهارَ فيلبسه ظلمته، والنهارُ الليلَ بضيائه.

وقوله: «إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ فيما وصفت وذكرت من عجائبِ خَلْقِ الله وعظيمِ قُدْرتِه التي خلق بها هذه الأشياء، لدَلالاتٍ وحُجَجاً وعِظَاتٍ لقومٍ يتفكَّرون فيها، فيستدلون ويعتبرون بها، فيعلمون أنَّ العبادةَ لا تصلحُ ولا تجوزُ إلا لمن خلقها ودبَّرها، دونَ غيره من الآلهة والأصنام التي لا تقدر على ضُرٍّ ولا نفعٍ، ولا لشيء غيرها، إلا لمن أنشأ ذلك فأحْدَثَهُ من غير شيء، تبارك وتعالى ـ وأنَّ القدرةَ التي أبدعَ بها ذلك، هي القدرة التي لا يتعذَّرُ عليه إحياء مَنْ هلك مِنْ خلقه، وإعادة ما فنيَ منه، وابتداع ما شاء ابتداعه ـ بها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وفي الأرض قِطَعٌ متجاورات»، وفي الأرض قطع منها متقاربات متدانيات، يقربُ بعضُها من بعضٍ بالجوار، وتختلفُ بالتفاضُلِ مع تجاورها وقُرْبِ بعضِها من بعضٍ، فمنها قِطْعة سَبَخَةٌ لا تنبتُ شيئاً، في جوارِ قطعةٍ طيبة تنبتُ وتنفع.

وقوله: «وجناتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغير صِنْوانٍ يُسقى بماء واحدٍ ونُفَضِّلُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وفي الأرض مع القطعِ المختلفاتِ المعاني منها بالملوحةِ والعُذُوبةِ والخبث والطيب، مع تجاورها وتَقَارُب بعضِها من بعض، بساتينُ من أعنابٍ وزرع ونخيلٍ أيضاً متقاربةٌ في الخِلْقَةِ، مختلفةٌ في الطُّعُومِ والألوان، مع اجتماعِ جميعِهَا على شِرْبٍ واحدٍ. فمن طَيِّبٍ طَعْمُهُ منها حَسَنٍ مَنْظَرُه طيبةٍ رائحتُه، ومن حامضٍ طَعْمُه ولا رائحةَ له.

وأما قوله: «ونخيل صنوان وغير صنوان».

فإنَّ «الصنوان» جمع «صِنْو»، وهي النخلاتُ يجمعهن أصلُ واحد.

وقوله: «يُسقَى بماءٍ واحد»، اختلفت القَرَأَةُ في قوله: «يسقى».

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة والعراقِ من أهلِ الكوفة والبصرة: ﴿تُسْقَى﴾، بالتاء بمعنى: تُسْقَى الجناتُ والزرعُ والنخيل. وقد كان بعضُهم يقول: إنما قيل «تسقى»، بالتاء، لتأنيث «الأعناب».

وقرأ ذلك بعض المكيين والكوفيين: ﴿يُسْقَى﴾، بالياء.

وأعجبُ القراءتين إليَّ أنْ أقرأ بها، قراءة مَنْ قرأ ذلك بالتاء: ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ على أنَّ معناه: تُسْقَى الجناتُ والنخلُ والزرع بماء واحد، لمجيء «تسقى» بعد ما قد جرى ذِكْرُها، وهي جِمَاعٌ من غير بني آدم. وليس الوجه الآخر بممتنعٍ على معنى: يُسْقى ذلك بماءٍ واحد، أي: جميعُ ذلك يُسْقَى بماء واحدٍ عَذْبٍ دون المالح.

وقوله: «ونفضِّلُ بعضَها على بعض في الأُكُلِ» اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأه عامة قرأة المكيين والمدنيين والبصريين وبعض الكوفيين: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾، بالنون، بمعنى: ونفضِّلُ نحنُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ.

وقرأته عامةُ الكوفيين: ﴿وَيُفَضِّلُ﴾، بالياء، ردًّا على قوله: «يُغْشي الليل النهار» «ويفضل بعضها على بعض».

وهما قراءتان مستفيضتان بمعنى واحد، فبأيِّتِهِمَا قرأ القارئُ فمصيبٌ. غيرَ أنَّ «الياء» أعجبهما إليَّ في القراءة، لأنه في سياقِ الكلام ابتداؤه: «الله الذي رفَعَ السمواتِ»، فقراءته بالياء، إذ كان كذلك، أولى.

ومعنى الكلام: إنَّ الجناتِ من الأعنابِ والزرعِ والنخيلِ الصنوانِ وغير الصنوان، تُسْقَى بماءٍ واحدٍ عَذْبٍ لا ملح، ويخالفُ الله بين طُعومِ ذلك فيفضِّلُ بعضَها على بعضٍ في الطعم، فهذا حلوٌ وهذا حامضٌ.

وقوله: «إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في مخالفة الله عزَّ وجلَّ بين هذه القِطَعِ من الأرضِ المتجاوراتِ وثمارِ جَنَّاتِها وزُرُوعِها على ما وصفنا وبيَّنا، لدليلاً واضحاً وعبرةً لقومٍ يعقلون اختلاف ذلك، أنَّ الذي خالفَ بينه على هذا النحوِ الذي خالفَ بينه، هو المخالفُ بين خَلْقِه فيما قَسَمَ لهم من هدايةٍ وضلال، وتوفيقٍ وخذلان، فوفَّقَ هذا وخَذَلَ هذا، وهَدَى ذا وأضلَّ ذا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وإنْ تعجب»، يا محمدُ، من هؤلاء المشركينَ المتَّخذينَ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ آلهةً يعبدونها من دوني. «فَعَجَبٌ قولُهم أئذا كنا تراباً»، وبَلِينا فَعُدِمْنَا. «أئِنَّا لَفي خَلْقٍ جديد»، إنَّا لَمُجَدَّدٌ إنشاؤُنَا وإعادتنا خَلْقاً جديداً كما كُنَّا قبلَ وفاتنا!! تكذيباً منهم بقدرةِ الله، وجحوداً للثوابِ والعقابِ والبعثِ بعد الممات.

وقوله: «أولئك الذين كفروا بربهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين أنكروا البعثَ وجَحدُوا الثوابَ والعقاب، وقالوا: «أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد»، هم الذين جَحَدُوا قُدْرَةَ ربِّهم وكذَّبوا رسوله، وهم الذين في أعناقهم الأغلالُ يومَ القيامةِ في نارِ جهنم، فأولئك «أصحاب النار»، يقول: هم سكانُ

النارِ يوم القيامة. «هم فيها خالدون»، يقول: هم فيها ماكِثُونَ أبداً، لا يموتون فيها ولا يُخْرَجون منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ويستعجلونكَ»، يا محمدُ، مُشْركُو قومكَ بالبلاءِ والعقوبةِ قبل الرخاءِ والعافيةِ، فيقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وهم يعلمون ما حَلَّ بمن خَلَا قبلهم من الأمم التي عَصَتْ رَبَّها وكَذَّبَتْ رُسُلَها من عقوباتِ الله وعظيمِ بلائه، فمن بين أمةٍ مسخت قِردةً، وأخرى خنازير، ومن بين أمَّةٍ أُهْلِكَتْ بالرَّجْفةِ، وأخرى بالخسف. وذلك هو «المَثُلاتُ» التي قال الله جَلَّ ثناؤُهُ: «وقد خلت من قبلهم المثلات».

وقوله: «وإنَّ ربكَ لَذُو مغفرةٍ للناس على ظُلْمِهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإن ربك، يا محمدُ، لذو سترٍ على ذنوبِ مَنْ تابَ من ذنوبه من الناس، فتاركٌ فضيحتَهُ بها في موقفِ القيامة، وصافحٌ له عن عقابِه عليها عاجلاً وآجلاً. «على ظلمهم»، يقول: على فِعْلِهم ما فَعَلُوا من ذلك بغير إذني لهم بفعله. «وإن ربك لشديد العقاب»، لِمَنْ هَلَكَ مُصِراً على معاصِيه في القيامة، إنْ لم يعجِّلْ له ذلك في الدنيا، أو يجمعهما له في الدنيا والآخرة.

وهذا الكلام، وإنْ كان ظاهرَ خبرٍ، فإنه وعيدٌ من الله وتهديدٌ للمشركين من قومِ رسولِ الله ﷺ، إنْ هُمْ لم يُنِيبُوا ويتوبوا من كُفْرِهم قبل حُلولِ نقمة الله بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ويقول الذين كفروا»، يا محمدُ، من قومكَ. «لولا أُنزلَ عليه آيةٌ من ربه»، هَلاَّ أنزلَ على محمدٍ آيةٌ من ربه؟ يعنون عَلامةً وحُجَّةً له على نُبُوَّته، وذلك قولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود:١٢]. يقول الله له: يا محمد، «إنما أنتَ مُنْذِرٌ»، لهم تُنْذِرهُمْ بأسَ الله أنْ يحلَّ بهم على شِرْكِهم. «ولِكُلِّ قومٍ هاد»، يقول: ولكل قومٍ إمامٌ يأتَمُّون به، وهاد يتقدمهم فيهديهم إما إلى خيرٍ وإما إلى شرٍّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خَلْقٍ جديد»، مُنْكِرِينَ قُدْرَةَ الله على إعادتهم خَلْقاً جديداً بعد فنائِهم وبلائهم، ولا ينكرون قدرته على ابتدائِهم وتصويرهم في الأرحام، وتدبيرهم وتصريفهم فيها حالاً بعد حالٍ ـ فابتدأ الخبرَ عن ذلك ابتداءً، والمعنى فيه ما وصفت، فقال جَلَّ ثناؤُهُ: «الله يعلم ما تحمل كُلُّ أنثى وما تغيضُ الأرحامُ وما تزداد»، يقول: وما تنقصُ الأرحامُ من حَمْلِها في الأشهر التسعة بإرسالها دَمَ الحيضِ. «وما تزداد»، في حملها على الأشهرِ التسعةِ لتمامِ ما نقصَ من الحمل في الأشهر التسعة بإرسالها دَمَ الحيض. «وكُلُّ شيءٍ عنده بمقدار»، لا يجاوزُ شيءٌ من قَدَره عن تقديره، ولا يقصرُ أمرٌ أرادَهُ فَدَبَّرَهُ عن تدبيره، كما لا يزدادُ حمل أنثى على ما قُدِّرَ له من الحملِ، ولا يُقَصِّرُ عما حُدَّ له من القدر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله عالمٌ ما غابَ عنكم وعن أبصارِكم فلم تروه، وما شاهدتُموه فعاينتم بأبصاركم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، لأنهم خَلْقُه وتدبيره. «الكبيرُ الذي كُلُّ شيءٍ دونه»، «المتعال»، المستعلي على كُلِّ شيء بقدرته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: معتدلٌ عند الله منكم، أيها الناسُ، الذي أَسَرَّ القولَ، والذي جَهَرَ به، والذي هو مُسْتَخْفٍ بالليلِ في ظُلْمَته بمعصيةِ الله. «وسارب بالنهار»، يقول: وظاهرٌ بالنهارِ في ضوئه، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك. سواءٌ عنده سِرُّ خَلْقِه وعلانيتهم، لأنه لايستسرُّ عنده شيءٌ ولا يَخْفَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: لله تعالى ذِكْرُهُ مُعَقِّباتٌ. قالوا: «الهاء» في قوله: «له» ، من ذِكْرِ اسمِ الله.

و «المعقبـات»، التي تَعتقبُ على العبـدِ. وذلـك أنَّ ملائكةَ الليلِ إذ صعدت بالنهارِ أعقبتها ملائكةُ النهار، فإذا انقضى النهارُ صعدت ملائكةُ النهار

ثم أعقبتها ملائكةُ الليل. وقالوا: قيل «معقبات»، و«الملائكة» جمع «ملك» مذكر غير مؤنث، وواحد «الملائكة» «معقِّب»، وجماعتها «مُعَقِّبة»، ثم جمع جمعه أعني جمع «معقّب»، بعدما جمع «مُعَقّبة» وقيل «معقِّبات»، كما قيل: «ساداتُ سعد»، «ورجالاتُ بني فلان»، جمع «رجال».

وقال آخرون: بل عنى بـ«المعقبات» في هذا الموضع، الحرَس الذي يتعاقبُ على الأمير.

وقوله: «من بين يديه ومن خلفه»، يعني بقوله: «من بين يديه»، من قُدَّامِ هذا المُسْتَخْفِي بالليلِ والساربِ بالنهار. «ومن خَلْفِه»، من وراءِ ظهرِه.

وأوْلى التأويلين في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: «الهاء»، في قوله: «له معقبات»، من ذكر «مَنْ» التي في قوله: «ومَنْ هو مستخفٍ بالليل» وأنَّ «المعقبات من بين يديه ومن خلفه»، هي حَرَسُه وجَلَاوِزَتُه[1].

وإنما قلنا: «ذلك أولى التأويلين بالصواب»، لأنَّ قوله: «له معقبات»، أقـرب إلى قوله: «ومَنْ هو مستخفٍ بالليل»، منه إلى «عالم الغيب»، فهي لِقُرْبِهَا منه أوْلى بأنْ تكونَ من ذكره. وأن يكونَ المعنيَّ بذلك هذا، مع دلالة قول الله: «وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مَرَدَّ له»، على أنهم المعنيُّون بذلك.

وذلك أنه جَلَّ ثناؤُهُ ذَكَرَ قوماً أهلَ معصيةٍ له وأهلَ ريبة، يَسْتخفونَ بالليلِ ويَظْهرونَ بالنهار، ويمتنعون عند أنفسهم بحرسٍ يحرسهم، ومَنْعَةٍ تَمْنَعُهم من أهلِ طاعته أنْ يحولوا بينهم وبين ما يأتون من معصيةِ الله. ثم أخبرَ أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ إذا أرادَ بهم سوءاً لم ينفعهم حَرَسُهم، ولا يدفعُ عنهم حِفْظُهم.

وقـوله: «يحفظونه من أمرِ الله»، اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ هذا

---

(١) الجلاوزة: جمع جِلْواز، وهو الشرطي الذي يخفُّ بين يدي الأمير ويأتمر بأمره.

الحرف على نحوِ اختلافِهم في تأويلِ قوله: «له معقبات».

فمن قال: «المعقبات»، هي الملائكةُ، قال: الذين يحفظونه من أمر الله هم أيضاً الملائكة.

ومن قال: «المعقبـات»، هي الحَـرَسُ والجلاوزةُ من بني آدم، قال: الذين يحفظونه من أمرِ الله، هم أولئك الحرسُ.

فتأويلُ الكلام: سواء منكم، أيها الناسُ، من أسَرَّ القولَ ومَنْ جهرَ به عنـد ربكم، ومَنْ هو مستخفٍ بفِسْقِـه وريبته في ظلمة الليل، وساربٌ يذهبُ ويجيءُ في ضوءِ النهـار ممتنعاً بجندِه وحَرَسِه الذين يتعقبونه من أهلِ طاعةِ الله أنْ يحـولُـوا بينه وبين ما يأتي من ذلك، وأنْ يقيموا حَدَّ الله عليه، وذلك قوله: «يحفظونه من أمر الله».

وقوله: «إنَّ الله لايغيرُ ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إن الله لا يغير ما بقوم»، من عافيةٍ ونعمةٍ، فيزيلُ ذلكَ عنهم ويهلكهم. «حتى يغيروا ما بأنفسهم»، من ذلك، بِظُلْمِ بعضِهم بعضاً، واعتداءِ بعضِهم على بعض، فَتَحلَّ بهم حينئذٍ عقوبتُه وتغييره.

وقوله: «وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مَرَدَّ له»، يقول: وإذا أراد الله بهؤلاء الذين يَسْتخفونَ بالليلِ ويسربونَ بالنهار، لهم جُنْدٌ ومَنْعةٌ من بين أيديهم ومن خَلْفِهم يحفظونهم من أمرِ الله ـ هلاكاً وخزياً في عاجل الدنيا ـ «فلا مَرَدَّ له»، يقول: فلا يقدرُ على رَدِّ ذلك عنهم أحدٌ غيرُ الله. يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وما لهم من دونه من والٍ»، يقول: وما لهؤلاء القومِ ـ و«الهاء والميم» في «لهم» من ذِكْرِ القومِ الذين في قوله: «وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً»، من دونَ الله. «من والٍ»، يعني: من وال يليهم ويلي أمرهم وعقوبتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «هو الذي يُريكمُ البرقَ»، يعني: أنَّ الرب هو الذي يُري عبادَهُ البرقَ، وقوله: «هو»، كناية اسمه جَلَّ ثناؤُهُ.

وقوله: «خوفاً»، يقول: خوفاً للمسافرِ من أذاه. وذلك أنَّ «البرق»، الماء، في هذا الموضع.

وقوله: «وطمعاً»، يقول: وطمعاً للمقيمِ أنْ يمطرَ فينتفع.

وقوله: «ويُنْشِئُ السحابَ الثِقال»، ويثيرُ السحابَ الثقالَ بالمطرِ ويُبْدِئُه.

ومعنى قوله: «ويسبحُ الرعدُ بحمده»، ويُعَظِّمُ الله الرعدُ ويمجِّدُه، فيثني عليه بصفاته، ويُنَزِّهُهُ مما أضافَ إليه أهلُ الشرك به، ومما وصفوه به من اتخاذِ الصاحبةِ والوَلَدِ، تعالى رَبُّنَا وتَقَدَّسَ.

وقوله: «والملائكة من خيفته»، يقول: وتُسَبِّحُ الملائكة من خِيفةِ الله ورَهْبته.

وأما قوله: «ويرسل الصواعق فيصيبُ بها من يشاء».

فقد بينا معنى «الصاعقة»، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «وهم يجادلون في الله»، يقول: وهؤلاء الذين أصابهم الله بالصواعقِ، أصابهم بها في حال خُصومتهم في الله عزَّ وجلَّ لرسولِه ﷺ.

وقوله: «وهو شديد المحال»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله شديدةٌ مُماحَلَتُه[1] في عقوبةِ مَنْ طَغَى عليه وعَتَا وتمادى في كفره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لله من خَلْقِه: الدعوة الحق، و«الدعوة» هي «الحق»، كما أضيفتِ «الدار» إلى «الآخرة» في قوله: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وإنما عَنَى بالدعوةِ الحق، توحيدَ الله وشهادةَ أنْ لا إله إلاّ الله.

وقوله: «والذين يَدْعُونَ من دونه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والآلهةُ التي يَدْعوها المشركونَ أرباباً وآلهة.

وقوله: «من دونه»، يقول: من دونِ الله.

وإنما عنى بقوله: «من دونه»، الآلهةَ، أنَّها مقصِّرةٌ عنه، وأنَّها لاتكون إلهاً، ولا يجوزُ أن يكون إلهاً إلَّا الله الواحد القهار.

وقوله: «لا يستجيبون لهم بشيء»، يقول: لا تُجيبُ هذه الآلهةُ، التي يَدْعُوها هؤلاءِ المشركونَ آلهةً، بشيءٍ يُريدُونَهُ من نَفْعٍ أو دفعِ ضُرٍّ. «إلا كباسطِ كَفَّيْهِ إلى الماء»، يقول: لا ينفعُ داعي الآلهة دعاؤه إياها، إلَّا كما ينفع باسط كفيه إلى الماء بسطُه إياهما إليه من غيرِ أنْ يرفعه إليه في إناء، ولكن ليرتفع إليه بدعائه إياه، وإشارته إليه، وقبضه عليه.

وقوله: «وما دعاءُ الكافرينَ إلَّا في ضلال»، يقول: وما دعاء من كفر بالله

(١) المماحلة: العقوبةُ المهلكة والنكال.

ما يدعو من الأوثانِ والالهة. «إلا في ضلال»، يقول: إلا في غير استقامة ولا هدىً، لأنه يشركُ بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإن امتنع هؤلاء الذين يدعون من دون الله الأوثانَ والأصنامَ لله شركاء، من إفرادِ الطاعةِ والإخلاصِ بالعبادةِ له. فلله يسجدُ مَنْ في السمواتِ من الملائكة الكرام، ومن في الأرض من المؤمنين به طَوْعاً، فأما الكافرونَ به فإنهم يسجدونَ له كَرْهاً حين يُكْرَهُونَ على السُّجود.

وقوله: «وظلالهم بالغُدوِّ والآصال»، يقول: ويسجدُ أيضاً ظلالُ كُلِّ مَنْ سجـد طوعاً وكرهاً بالغُدُوات والعَشايا. وذلك أنَّ ظلَّ كلِّ شخص فإنه يفيءُ بالعشيِّ، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إلى ما خَلَقَ الله مِنْ شَيءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لله وَهُمْ دَاخِرونَ﴾ [النحل: ٤٨].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قل، يا محمدُ، لهؤلاء المشركينَ بالله: مَنْ رَبُّ السموات والأرض ومدبِّرها؟ فإنهم سيقولون: الله. وأمرَ الله نبيَّهُ ﷺ أن يقول: «الله»، فقال له: قُلْ، يا محمدُ، رَبُّها الذي خلقها وأنشأها، هو الذي لا تصلح العبادةُ إلَّا له، وهو الله. ثم قال: فإذا أجابوكَ بذلك. فقـل لهم: أفاتَّخذْتُم من دونِ رَبِّ السموات والأرض أولياءَ لا تملكُ لأنفسها نفعاً تجلبه إلى نفسها، ولا ضرًّا تدفَعُهُ عنها؟ وهي إذْ لم تملك ذلك لأنفسها، فَمِنْ

مِلْكه لغيرها أبعدُ، فعَبَدْتُموها وتركتم عبادة مَنْ بيدِه النفعُ والضر، والحياةُ والموت وتدبيرُ الأشياء كُلِّها. ثم ضربَ لهم جلَّ ثناؤُهُ مثلاً فقال: «قل هل يستوي الأعمى والبصير».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: قل، يا محمدُ، لهؤلاء المشركينَ الذين عَبَدُوا من دونِ الله الذي بيده نَفْعُهم وضرهم ما لا ينفعُ ولا يضرُّ: «هل يستوي الأعمى»، الذي لا يبصرُ شيئاً ولا يهتدي لمحجَّةٍ يسلكها إلاَّ بأن يُهدى. «والبصير»، الذي يهدي الأعمى لمحجةِ الطريقِ الذي لايُبصر؟ إنهما لا شك لَغَيْرُ مُسْتَويينِ. يقول: فكذلك لا يستوي المؤمنُ الذي يُبْصِرُ الحقَّ فيتبعه ويعرف الهدى فيسلكه، وأنتم أيها المشركون الذين لا تعرفون حقاً ولا تُبْصِرُونَ رَشَداً.

وقوله: «أم هل تستوي الظلماتُ والنور»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهل تستوي الظلماتُ التي لا تُرَى فيها المحجةُ فتُسْلَك، ولا يُرَى فيها السبيلُ فيُرْكَب ـ والنور الذي تُبْصَرُ به الأشياءُ، ويَجْلُو ضوؤه الظَّلامَ؟ يقول: إنَّ هذين لا شَكَّ لغيرُ مستويين، فكذلك الكفرُ بالله، إنما صاحِبُه منه في حيرةٍ يضربُ أبداً في غَمْرَةٍ، لا يرجعُ منه إلى حقيقة. والإيمانُ بالله صاحِبُه منه في ضياءٍ يعملُ على عِلْمٍ بربِّه، ومعرفةٍ منه بأنَّ له مُثِيباً يُثِيبُهُ على إحسانِه، ومعاقباً يعاقبه على إساءته، ورازقاً يرزقه، ونافعاً ينفعه.

وقوله: «أم جعلوا لله شركاءَ خَلَقُوا كخلقهِ فتشابهَ الخَلْقُ عليهم»، يقول

تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء المشركين: أَخَلَق أوثانُكم التي اتَّخَذْتُموها أولياء من دونِ الله خَلْقاً كخلقِ الله، فاشتبهَ عليكم أمْرُها فيما خَلَقَتْ وخَلَقَ الله، فجعلتموها له شركاءَ من أجلِ ذلك، أمْ إنما بكم الجهلُ والذهابُ عن الصوابِ؟ فإنه لا يُشْكِلُ على ذي عقلٍ أنَّ عبادةَ ما لا يَضُرُّ ولا ينفعُ من الفعلِ جهلٌ، وأنَّ العبادةَ إنما تصلحُ للذي يُرْجَى نَفْعُه ويُخْشَى ضُرُّهُ، كما أنَّ ذلك غير مشكلٍ خَطَؤُه وجهلُ فاعِله، كذلك لا يشكل جهلُ مَنْ أشركَ في عبادةِ مَنْ يرزقه ويكفله ويَمُونه، مَنْ لا يقدِرُ له على ضرٍّ ولا نفع.

وقوله: «قُلِ الله خالقُ كُلِّ شيء»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ المشركينَ إذا أَقَرُّوا لكَ أنَّ أوثانهم التي أشركوها في عبادةِ الله لا تخلق شيئاً: فالله خالقُكم وخالقُ أوثانِكم وخالقُ كُلِّ شيء، فما وَجْهُ إشراكِكم ما لا يَخْلُقُ ولايَضُرُّ؟

وقوله: «وهو الواحد القهار»، يقول: وهو الفردُ الذي لا ثانيَ له. «القهار»، الذي يستحقُّ الأُلوهةَ والعبادةَ، لا الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

وهذا مَثَلٌ ضربَهُ الله للحقِّ والباطل، والإيمانِ به والكفر.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَثَلُ الحقِّ في ثباته، والباطل في اضمحلاله، مثل ماءٍ أنزلهُ الله من السماءِ إلى الأرض. «فسالت أوديةٌ بقدرها»، يقول: فاحْتَمَلَتْهُ

الأوديةُ بملئها، الكبيرُ بكبره، والصغيرُ بصغره. «فاحتملَ السيلُ زبداً رابياً»، يقول: فاحتملَ السيلُ الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء، زَبَداً عالياً فوقَ السيل.

فهذا أحدُ مثلي الحقِّ والباطل. فالحقُّ هو الماءُ الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل.

والمثـل الآخـر: «ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ومثلٌ آخر للحقِّ والباطل. مثل الفضة أو ذهب يُوقِدُ عليها الناسُ في النارِ طلبَ حِلْيةٍ يَتَّخِذُونَها أو متاعٍ، وذلك من النحاسِ والرصاصِ والحديدِ، يوقد عليه ليتخذ منه متاع ينتفعُ به. «زبد مثله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومما يوقدون عليه من هذه الأشياء زَبَدٌ مثله، يعني: مثلَ زَبَدِ السَّيل، لا يُنْتَفَعُ به ويذهبُ باطلاً، كما لا ينتفعُ بزبدِ السَّيل ويذهبُ باطلاً.

يقول الله تعالى: «كذلك يضرب الله الحق والباطل»، يقول: كما مَثَّلَ الله مثـلَ الإيمـانِ والكفر، في بُطُولِ الكفر وخيبةِ صاحبِه عند مجازاةِ الله، بالباقي النافعِ من ماءِ السيلِ وخالصِ الذهب والفضة، كذلك يمثلَ الله الحق والبـاطـل. «فـأمـا الزبدُ فيذهبُ جُفَاء»، يقول: فأما الزبد الذي عَلاَ السيلَ والذهب والفضة والنحاس والرصاص عند الوقود عليها، فيذهبُ بدفعِ الرياحِ وقذفِ الماء به، وتعلُّقه بالأشجارِ وجوانبِ الوادي، وأما ما ينفعُ الناسَ من الماءِ والـذهبِ والفضـةِ والـرصاصِ والنحاس، فالماءُ يمكثُ في الأرض فتشربه، والذهب والفضة تمكث للناس.

«كذلك يضربُ الله الأمثالَ»، يقول: كما مَثَّلَ هذا المثل للإيمانِ والكفرِ، كذلك يُمَثِّلُ الأمثال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أما الذين استجابوا لله فآمنوا به حين دَعَاهُمْ إلى الإيمانِ به، وأطاعوه فاتَّبَعُوا رسولَهُ وصدَّقُوه فيما جاءهم به من عند الله. «فإنَّ لهم الحسنى»، وهي الجنة.

وقوله: «والذين لم يستجيبوا له لو أنَّ لهم ما في الأرضِ جميعاً ومِثْلَهُ معه لافتدوا به»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأما الذين لم يستجيبوا لله حين دعاهم إلى توحيدِه والإقرارِ بربوبيته، ولم يطيعوه فيما أمَرَهُمْ به، ولم يَتَّبِعُوا رسولَهُ فيصدقوه فيما جاءهم به من عند ربهم، فلو أنَّ لهم ما في الأرضِ جميعاً من شيء ومِثْلَهُ معه مُلْكاً لهم، ثم قُبِلَ مثل ذلك منهم، وقبل منهم بدلاً من العذابِ الذي أعَدَّهُ الله لهم في نار جهنم وعوضاً، لافتدوا به أنفسهم منه. يقول الله: «أولئك لهم سوء الحساب»، يقول: هؤلاء الذين لم يستجيبوا لله. «لهم سُوءُ الحساب»، يقول: لهم عندَ الله أنْ يأخذهم بذنوبهم كلها، فلا يغفر لهم منها شيئاً، ولكنْ يعذبهم على جَمِيعِها.

وقوله: «ومأواهم جهنم»، يقول: ومَسْكَنُهم الذي يسكنونه يومَ القيامة، جهنم. «وبئس المهاد»، يقول: وبئسَ الفِراشُ والوِطاءُ جهنمُ التي هي مأواهم يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أهذا الذي يعلم أنَّ الذي أنزله الله عليك، يا محمدُ، حَقٌّ فيؤمنُ به ويُصَدِّقُ ويَعملُ بما فيه، كالذي هو أعمى، فلا يعرفُ موقعَ حُجَّةِ الله عليه به، ولا يعلمُ ما ألزمه الله من فرائضه؟

وقوله: «إنما يتذكر أُولُو الألباب»، يقول: إنما يَتَّعِظُ بآياتِ الله ويعتبرُ بها ذَوُو العقولِ، وهي «الألباب» واحدها «لُبٌّ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنما يَتَّعِظُ ويعتبرُ بآياتِ الله أولو الألباب، الذين يوفون بوصيةِ الله التي أوصاهم بها. «ولا ينقضونَ الميثاق»، ولا يخالفونَ العهدَ الذي عاهدوا الله عليه إلى خِلافِه، فيعملُوا بغيرِ ما أمرهم به، ويخالفوا إلى ما نَهى عنه.

وقوله: «والذين يَصِلُونَ ما أمرَ الله به أنْ يُوصَلَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين يَصِلُون الرَّحِمَ التي أمرهم الله بوصلها فلا يقطعونَها. «ويخشون ربهم»، يقول: ويخافونَ الله في قَطْعِهَا، أنْ يقطعوها فيعاقبهم على قطعها وعلى خِلافِهم أمرَه فيها

وقوله: «ويخافونَ سُوءَ الحساب»، يقول: ويَحْذَرُونَ مناقشةَ الله إياهم في الحسابِ، ثم لايصفحُ لهم عن ذنبٍ، فهم لِرَهْبَتِهم ذلك جادُّون في طاعته، محافظون على حدوده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين صبروا على الوفاءِ بعهدِ الله، وتَرْكِ نقض الميثاق، وصِلَةِ الرحم. «ابتغاءَ وجهِ رَبِّهم»، ويعني بقوله: «ابتغاء وجه ربهم»، طَلَبَ تعظيمِ الله، وتنزيهاً له أن يُخَالَفَ في أمْرِه، أو يأتي أمراً كره إتيانه فيعصيه به. «وأقاموا الصلاة»، يقول: وأدَّوا الصلاةَ المفروضةَ بحدودها في أوقاتها. «وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية»، يقول: وأدَّوا من أموالهم زكاتَها المفروضةَ وأنفقوا منها في السُّبُلِ التي أمرهم الله بالنفقةِ فيها. «سرًّا»، في خَفَاءٍ «وعلانية». في الظاهر.

وقوله: «ويدرأون بالحسنةِ السيئةَ»، يقول: ويدفعونَ إساءةَ مَنْ أساء إليهم من الناسِ بالإحسانِ إليهم.

وقوله: «أولئك لهم عُقْبَى الدار»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين وَصَفْنَا صِفَتَهم، هم الذين «لهم عُقْبَى الدار»، يقول: هم الذين أعقبهم الله دارَ الجنان، من دارِهم التي لو لم يكونوا مؤمنينَ كانتْ لهم في النار، فأعقبهم الله من تلك هذه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

يقول: «جنات عدن»، ترجمة عن «عُقْبَى الدار»، كما يقال: نِعْمَ الرجلُ عبدالله»، فَعَبْدُالله هو الرجلُ المَقُول له: «نِعْمَ الرجلُ».

وتأويل الكلام: أولئك لهم عَقِيبَ طاعتهم ربَّهم، الدارُ التي هي جَنَّات عدْنٍ.

وقوله: «ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: جنات عدن يدخلها هؤلاءِ الذينَ وَصَفَ صِفَتَهم ـ وهم الذين يوفون بعهدِ الله، والذين يَصِلُونَ ما أمرَ الله به أن يُوصَلَ، ويخشون ربهم، والذينَ صبروا ابتغاءَ وجهِ ربهم، وأقاموا الصلاةَ، وفعلوا الأفعالَ التي ذكرها جَلَّ ثناؤُهُ في هذه الآياتِ الثلاث.

«ومَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم»، وهي نِساؤُهم وأهْلُوهم، «وذرِّيَّاتِهم».

و«صلاحهم»، إيمانُهم بالله، واتِّبَاعُهم أمرَهُ وأمرَ رسولِه عليه السلام.

وقـولـه: «والمـلائكةُ يدخلون عليهم من كل باب * سلامٌ عليكم بما صبرتم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وتدخلُ الملائكةُ على هؤلاءِ الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ صِفَتَهم في هذه الآيات الثلاث. في جنات عدن، من كُلِّ بابٍ منها، يقولون لهم: «سلام عليكم بما صبرتم»، على طاعةِ رَبِّكم في الدنيا. «فنعم عقبى الدار».

وأما قوله: «فنعم عقبى االدار»، فإنَّ معناه، إنْ شاء الله: الجنة بدلاً من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: وأما الذين ينقضون عهدَ الله، و«نقضهم ذلك»،

خِلافُهم أمرَ الله، وعَمَلُهم بمعصيتِه. «من بعد ميثاقه»، يقول: من بعدِما وَثَّقُوا على أنفسهم أنْ يَعْمَلُوا بما عَهِدَ إليهم. «ويقطعونَ ما أمرَ الله به أن يُوصَلَ»، يقول: ويقطعونَ الرَّحِمَ التي أمرهم الله بوصلها. «ويفسدون في الأرض»، فَسَادُهُمْ فيها، عَمَلُهم فيها بمعاصي الله. «أولئك لهم اللعنةُ»، يقول: فهؤلاء لهم اللعنة، وهي البُعْدُ من رحمتِه، والإقصاءُ من جِنانِه. «ولهم سوء الدار»، يقول: ولهم ما يَسُوؤُهُمْ في الدارِ الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ۝٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله يُوَسِّعُ على مَنْ يشاءُ من خَلْقِه في رزقه فيبسط له منه: لأنَّ منهم مَنْ لا يُصْلِحُه إلا ذلك. «ويقدر»، يقول: ويُقَتِّرُ على مَنْ يشاءُ منهم في رزقه وعيشه فيضيِّقهُ عليه، لأنه لا يُصْلِحُه إلَّا الإقتارُ. «وفَرِحُوا بالحياةِ الدنيا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وفرِحَ هؤلاء الذين بُسِط لهم في الدنيا من الرزق على كُفْرِهم بالله ومعصيتهم إياهُ بما بسط لهم فيها، وجهلوا ما عندَ الله لأهلِ طاعته والإيمانِ به في الآخرة من الكرامةِ والنعيم.

ثم أخبر جَلَّ ثناؤُهُ عن قدر ذلك في الدنيا فيما لأهلِ الإيمانِ به عِنْدَهُ في الآخرة، وأعْلَمَ عبادَهُ قِلَّته فقال: «وما الحياةُ الدنيا في الآخرةِ إلا متاع»، يقول: وما جميعُ ما أُعطيَ هؤلاءِ في الدنيا من السَّعةِ، وبُسِط لهم فيها من الرزق ورَغَدِ العيشِ، فيما عند الله لأهلِ طاعتِه في الآخرة. «إلا متاع»، قليل، وشيءٌ حقيرٌ ذاهب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويقولُ لك، يا محمدُ، مشركو قومكَ: هَلاَّ أُنزلَ عليكَ آيةٌ من ربك، إمَّا مَلَكٌ يكونُ معكَ نذيراً، أو يُلْقَى إليك كنزٌ؟ فَقُلْ: إنَّ الله يُضِلُّ منكم مَنْ يشاء، أيها القومُ، فيخذله عن تصديقي والإيمانِ بما جئته به من عند ربي. «ويَهدي إليه مَنْ أناب»، فرجع إلى التوبة من كفره والإيمان به، فيوفقه لاتِّباعي وتصديقي على ما جِئْته به من عندِ رَبِّه، وليس ضلالُ مَنْ يَضِلُّ منكم بأنْ لم ينزلْ عليَّ آية من ربِّي، ولا هدايةُ مَنْ يهتدي منكم بأنَّها أُنْزِلَتْ عليَّ، وإنما ذلك بيَدِ الله يوفِّق مَنْ يشاء منكم للإيمانِ، ويخذل من يشاء منكم فلا يؤمن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويَهدي إليه مَنْ أنابَ بالتوبةِ الذين آمنوا.

و«الذين آمنوا»، في موضع نَصْبٍ، ردٌّ على «مَنْ»، لأن «الذين آمنوا»، هم «مَنْ أناب»، ترجمَ بها عنها.

وقـولـه: «وتطمئن قلوبهم بذكرِ الله»، يقول: وتسكنُ قلوبهم وتَستأنسُ بذكر الله.

وقـولـه: «ألَا بذكـر الله تطمئنُّ القلوبُ»، يقـول: ألا بذكْرِ الله تسكنُ وتستأنسُ قلوبُ المؤمنين.

وقيل: إنه عَنَى بذلك قلوبَ المؤمنين من أصحابِ رسولِ الله ﷺ.

وقوله: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، الصالحات من الأعمال، وذلك العمل بما أَمَرَهُمْ رَبُّهم. «طوبى لهم».

وقد اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «طوبى لهم».

فقال بعضهم: معناه: نِعْمَ ما لَهُمْ.

وقال آخرون: معناه: غبطةٌ لهمَ.

وقال آخرون: معناه: فَرَحٌ وقُرَّةُ عينٍ.

وقال آخرون: معناه: حُسْنَى لهم.

وقال آخرون: معناه: خيرٌ لهم.

وقال آخرون: «طوبى لهم»، اسمٌ من أسماءِ الجنة، ومعنى الكلام: الجنَّةُ لَهُمْ.

وقال آخرون: «طوبى لهم»، شجرةٌ في الجنة.

وأما قوله: «وحُسْنُ مآب»، فإنه يقول: وحُسْنُ مُنْقَلَبٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هكذا أرسلناكَ، يا محمدُ، في جماعةٍ من الناسِ ـ يعني إلى جماعةٍ ـ قد خَلَتْ من قبلها جماعاتٌ على مِثْلِ الذي هُمْ عليه، فَمَضَتْ. «لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك»، يقول: لِتُبَلِّغَهُمْ ما أرسَلْتُكَ به إليهم من وَحْيِي الذي أوحيتُه إليكَ. «وهم يكفرون بالرحمن»، يقول: وهم يجحدونَ وحدانيّةَ الله ويكذِّبُونَ بها. «قُلْ هو ربي»، يقول: إنْ كَفَرَ هؤلاء الذين أرسلتُكَ إليهم، يا محمدُ، بالرحمنِ فَقُلْ أنتَ: الله ربِّي «لا إله إلا هو عليه توكلتُ وإليه متاب»، يقول: وإليه مرجعي وأوبتي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: «وهم يكفرون بالرحمن»، «ولو أن قرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ»، أي: يكفرونَ بالله ولو سَيَّرَ لهم الجبالَ بهذا القرآنِ. وقالوا: هو من المُؤَخَّرِ الذي معْناه التقديمُ، وجعلوا جواب «لو» مُقَدَّماً قَبْلَها. وذلك أنَّ الكلام على معنى قِيلهم: ولو أنَّ هذا القرآنَ سُيِّرَتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ لكفَرُوا بالرَّحمن.

وقال آخرون: بَلْ معناهُ: «ولو أنَّ قرآناً سيرت به الجبالُ»، كلامٌ مبتدأ مُنْقَطِعٌ عن قولـه: «وهم يكفـرونَ بالرحمنِ». قال: وجوابُ «لو» محذوف، استغْنِيَ بمعرفةِ السامعينَ المرادَ من الكلامِ عن ذِكْرِ جوابها. قالوا: والعربُ تفعل ذلك كثيراً.

وقوله: «ولو أنَّ قرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ»، الآية، قال: قالوا للنبيِّ ﷺ: إنْ كنتَ صادقاً فَسَيِّرْ عنا هذه الجبالَ واجعلها حُرُوثاً كهيئةِ أرضِ الشام ومصر والبُلْدان، أو ابْعَثْ مَوْتَانا فأخبرهم فإنهم قد ماتوا على الذي نحنُ عليه! فقال الله: «ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى»، لم يُصْنَعْ ذلك بقرآنٍ قط ولا كتابٍ، فيصنع ذلك بهذا القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾

تأويل الكلام: ولو أنَّ قرآناً سِوى هذا القرآن كان سُيِّرَتْ به الجبالُ، لسُيِّرَ

بهـذا القرانِ، أو قُطِّعَتْ به الأرضُ، لقُطعت بهذا أو كُلِّمَ به الموتى، لكُلِّمَ بهذا، ولكن لم يُفْعل ذلك بقرآنٍ قبل هذا القرآنِ فيُفْعل بهذا. «بَلْ لله الأمرُ جميعاً»، يقول ذلك: كله إليه وبيده، يَهدي مَنْ يشاءُ إلى الإِيمانِ فيوفِّقه له، ويُضِل من يشاء فيخذله، أَفَلَمْ يَتبيَّنِ الذين آمنوا بالله ورسوله - إذْ طمِعُوا في إجابتي مَنْ سأل نبيَّهم ما سأله من تَسييرِ الجبالِ عنهم، وتقريبِ أرضِ الشام عليهم، وإحياءِ موتاهم - أنْ لو يشاءُ الله لهدَى الناسَ جميعاً إلى الإِيمانِ به من غيرِ إيجادِ آيةٍ، ولا إحداثِ شيءٍ مِمَّا سألوا إحداثَهُ؟ يقول تعالى ذِكْرُهُ: فما معنى مَحَبَّتِهِمْ ذلك، مع عِلْمِهِمْ بأنَّ الهداية والإهلاكَ إليَّ وبيدي، أنزلتُ آيةً أو لم أُنْزِلْهَا، أَهدي مَنْ أشاءُ بغيرِ إنزالِ آيةٍ، وأُضِلُّ مَنْ أردتُ مع إنزالها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ولا يزالُ»، يا محمدُ. «الذين كفروا»، من قومكَ. «تُصِيبُهم بما صنعوا»، مِنْ كُفْرِهم بالله، وتَكْذِيبِهم إياكَ، وإخراجِهم لكَ من بين أَظْهُرِهم. «قارعةٌ»، وهي ما يقرعهم من البلاءِ والعذابِ والنِّقَمِ، بالقتلِ أحياناً، وبالحروبِ أحياناً، والقَحْطِ أحياناً. «أو تحلُّ»، أنتَ يا محمدُ، يقول: أو تنزلُ أنتَ. «قريباً من دارهم»، بجيشكَ وأصحابكَ. «حتّى يأتيَ وَعْدُ الله» الذي وَعَدَكَ فيهم، وذلك ظهورُكَ عليهم، وفتحُكَ أرضَهمْ، وقَهْرُكَ إياهم بالسيف. «إنَّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد»، يقول: إنَّ الله مُنْجِزُكَ، يا محمدُ، ما وعدكَ من الظهورِ عليهم، لأنه لا يخلف وعده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: يا محمدُ، إنْ يَستهزئْ هؤلاءِ المشركونَ من قومكَ ويطلبُوا منكَ الآياتِ تكذيباً منهم ما جِئْتَهُمْ به، فاصبرْ على أذاهم لكَ، وامْضِ لأمرِ ربك في إنذارهم والإعذارِ إليهم، فلقد استهزأتْ أممٌ من قبلك قد خلَتْ فَمَضَتْ، بُرسلِي، فأطلتُ لهم في المَهَلِ، ومَدَدْتُ لهم في الأجَلِ، ثم أحللتُ بهم عذابي ونقمتي حين تمادَوْا في غيِّهم وضَلالهم، فانْظُرْ كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم، ألم أذقهم أليمَ العذابِ، وأجعلهم عبرةً لأولى الألباب؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفالرَّبُّ الذي هو دائمٌ لا يَبيدُ ولا يَهْلِكُ، قائمٌ بحفظِ أرزاقِ جميعِ الخَلْقِ، متضمنٌ لها، عالمٌ بهم وبما يكسبُونه من الأعمالِ، رقيبٌ عليهم لايَعْزُبُ عنه شيءٌ أينما كانوا، كمَنْ هو هالكٌ بائدٌ لا يَسمَعُ ولا يُبصر ولا يفهم شيئاً، ولا يَدْفَعُ عن نفسِه ولا عَمَّن يَعْبُدُهُ ضُرًّا، ولا يَجْلبُ إليهما نفعاً، كلاهما سَواءٌ؟

وقوله: «وجَعَلُوا لله شركاءَ قُلْ سَمُّوهم أم تنبِّؤُنَهُ بما لايعلمُ في الأرض أمْ بظاهرٍ من القول»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أنا القائمُ بأرزاقِ هؤلاءِ المشركينَ،

والمـدبِّـرُ أمـورَهُمْ، والحافظُ عليهم أعمالَهُمْ، وجعلوا لي شركاءَ مِنْ خَلْقي يعبدُونها دوني، قُلْ لهم يا محمدُ: سمّوا هؤلاءِ الذين أشركتموهم في عبادةِ الله، فإنهم إنْ قالوا: آلهة، فقد كذبوا، لأنه لا إله إلا الواحد القهار لا شريكَ له. «أم تُنبِّؤونَهُ بما لا يعلم في الأرض»، يقول: أتخبرونه بأن في الأرض إلهاً، ولا إله غيرُه في الأرضِ ولا في السماء؟

وقوله: «أم بظاهرٍ من القولِ»، مسموع، وهو في الحقيقة باطلٌ لا صِحَّة له.

وقوله: «بل زُيِّنَ للذين كفروا مَكْرُهم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما لله مِنْ شريكٍ في السموات ولا في الأرض، ولكن زُيِّنَ للمشركينَ الذين يدعون من دونه إلهاً، مَكْرُهم، وذلك افتراؤُهُم وكَذِبُهم على الله.

وأما قوله: «وصُدُّوا عن السبيلِ»، فإنَّ القَرَأَةَ اختلفت في قراءته.

فقـرأته عامة قَرَأَة الكوفيين: ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾، بضم «الصاد»، بمعنى: وصَدَّهُمْ الله عن سبيله لِكُفْرِهم به، ثم جُعلت «الصاد» مضمومةً إذْ لم يُسَمَّ فاعله.

وأمـا عامـة قرأة الحجاز والبصرة فقرأوه بفتح «الصاد»، على معنى أنَّ المشركينَ هم الذين صَدُّوا الناسَ عن سبيلِ الله.

والصوابَ من القول في ذلك عندي أنْ يقالَ: إنهما قراءتان مشهورتان، قد قَرَأَ بكلٍّ واحدةٍ منهما أئمةٌ من القرأةِ، متقاربتا المعنى. وذلك أن المشركينَ بالله كانوا مصدودين عن الإيمانِ به، وهم مع ذلك كانوا يصدون غيرَهُمْ كما وَصَفَهُم الله به بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقوله: «ومن يُضْلل الله فمَا لَهُ من هاد»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ أضَلَّهُ

الله عن إصابةِ الحق والهدى بخذلانه إياهُ، فما لَهُ أحدٌ يَهْدِيه لإصابتهما، لأنَّ ذلك لا يُنالُ إلا بتوفيقِ الله ومعونته، وذلك بيدِ الله وإليه، دُونَ كلِّ أحدٍ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، لهؤلاءِ الكفارِ الذين وَصَف صِفَتَهم في هذه السورة، عذابٌ في الحياة الدنيا بالقتلِ والإسارِ والآفاتِ التي يُصيبهم الله بها. «ولَعَذَابُ الآخرةِ أشَقُّ»، يقول: ولتعذيبُ الله إياهم في الدارِ الآخرةِ أشدُّ من تعذيبه إيَّاهم في الدنيا.

وقوله: «وما لهم من الله من وَاقٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما لهؤلاءِ الكفارِ من أحدٍ يَقِيهم من عذاب الله إذا عذَّبَهم، لا حَمِيمٌ ولا وليٌّ ولا نصيرٌ، لأنه جَلَّ جلاله لا يعادُّه[1] أحدٌ فيقهره، فيتخَلَّصَهُ من عذابه بالقهر، ولا يشفعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه، وليس يأذَنُ لأحدٍ في الشفاعةِ لِمَنْ كفَرَ به فماتَ على كفره قبلَ التَّوبة منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

ذكرَ الله تعالى ذِكْرُهُ «المَثَلَ»، فقال: «مَثَلُ الجنة»، والمراد الجنة، ثم وُصِفَتِ الجنةُ بصفتها، وذلك أنَّ مَثَلَها إنما هو صِفَتُهَا، وليست صِفتها شيئاً

---

(١) عاده يعاده، عداداً ومعادة: ناهده وقارنه.

غيرهـا. وإذْ كانَ ذلكَ كذلكَ، ثم ذكر «المثل» فقيل، «مثل الجنة»، ومثلها صِفَتُها وصفة الجنّة، فكانَ وَصْفُهَا كوصفِ «المَثَل»، وكان كأنَّ الكلام جرى بِذِكْرِ الجنة فقيل: الجنةُ تجري من تحتها الأنهار.

وقوله: «أُكُلُهَا دائمٌ وظلها»، يعني ما يُؤْكَلُ فيها، يقول: هو دائمٌ لأهلها، لاينقطعُ عنهم ولا يزولُ ولا يَبيدُ، ولكنه ثابتٌ إلى غيرِ نهاية. «وظلها»، يقول: وظلها أيضاً دائم، لأنه لا شمسَ فيها.

«تلك عقبى الـذين اتَّقَوْا»، يقول: هذه الجنةُ التي وصف جَلَّ ثناؤُهُ، عاقبة الذين اتَّقَوا الله، فاجتنبوا مَعَاصيه وأدَّوْا فرائضه.

وقوله: «وعقْبَى الكافرين النار»، يقول: وعاقبةُ الكافرين بالله النارُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين أنزلنا إليهم الكتابَ مِمَّنْ آمنَ بكَ واتبعكَ، يا محمدُ، يفرحونَ بما أنزل إليك منه. «ومن الأحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بعضه»، يقول: ومن أهلِ المِللِ المتحزِّبينَ عليكَ، وهم أهلُ أدْيانٍ شَتَّى، مَنْ ينكرُ بعضَ ما أُنـزلَ إليك. فقل لهم: إنَّما أُمِرْتُ، أيها القومُ، أنْ أعبدَ الله وحدَهُ دونَ ما سواه. «ولا أشـرك به»، فأجعـل له شريكـاً في عبـادتي، فأعبـدَ معه الآلهةَ والأصنامَ، بَلْ أخلِص له الدينَ حَنِيفاً مسلماً. «إليه أدعو»، يقول: إلى طاعتِهِ وإخلاصِ العبادةِ له أدعو الناسَ. «وإليه مآب»، يقول: وإليه مصيري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكما أنزلنا عليكَ الكتابَ، يا محمدُ، فأنكرهُ بعضُ الأحزاب، كذلك أيضاً أنزلنا الحكم والدِينَ، حُكْماً عربياً.

وجعل ذلك «عربيًّا»، ووصَفَهُ به، لأنه أنزل على محمدٍ ﷺ وهو عربيٌّ، فَنَسَبَ الدِّينَ إليه. إذْ كان عليه أُنْزِلَ، فكذَّبَ به الأحزابُ. ثم نَهَاهُ جَلَّ ثناؤُهُ عن تَرْكِ ما أنزلَ إليه واتباعِ الأحزابِ، وتَهَدَّدَهُ على ذلك إنْ فَعَلَهُ فقال: «ولئن اتبعتَ»، يا محمدُ، «أهواءهم»، أهواءَ هؤلاءِ الأحزاب ورِضَاهم ومَحَبَّتَهُمْ، وانتقلتَ من دينك إلى دِينهم، ما لَكَ مَنْ يَقِيكَ عَذابَ الله إنْ عَذَّبَكَ على اتباعكَ أهواءَهم، وما لَكَ من ناصرٍ ينصركَ فَيَسْتَنْقِذُكَ من الله إنْ هو عاقبكَ، يقول: فاحذرْ أن تَتَّبِعَ أهواءَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أرسلنا، يا محمدُ، رُسُلاً من قَبْلِكَ إلى أممٍ قَدْ خَلَتْ من قبلِ أمتك، فجعلناهم بَشراً مِثْلَكَ، لهم أزواجُ ينكحون، وذريةٌ أنْسَلوهم، ولم نجعلهم ملائكةً لا يأكلونَ ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعلَ الرسولَ إلى قومكَ من الملائكةِ مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشراً مثلهم، كما أرسلنا إلى مَنْ قَبْلَهُمْ من سائرِ الأمم بشراً مثلهم. «وما كان لرسولٍ أنْ يأتيَ بآيةٍ إلا بإذنِ الله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يقدِر رسولٌ أرسله الله إلى خَلْقِه أنْ

يأتي أُمَّتَهُ بآيةٍ وعلامة، من تسييرِ الجبال، ونقلِ بَلْدةٍ من مكانٍ إلى مكان آخر، وإحياءِ الموتى، ونحوها من الآيات. «إلا بإذن الله»، يقول: إلا بأمرِ الله الجبالَ بالسير، والأرض بالانتقالِ، والميتَ بأنْ يحيَا. «لكلِّ أجلٍ كتاب»، يقول: لكلِّ أجلٍ أمرٍ قَضَاهُ الله، كِتابٌ قد كَتَبه فهو عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: يمحو الله ما يشاءُ من أمورِ عبادِه فيغيِّره، إلا الشقاء والسعادة، فإنهما لا يُغَيَّران.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنَّ الله يمحو ما يشاء ويثبتُ من كتابٍ سوى أمِّ الكتاب الذي لا يُغَيَّرُ منه شيءٌ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه يمحو كُلَّ ما يشاء، ويثبتُ كُلَّ ما أراد.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنَّ الله ينسخُ ما يشاء من أحكامِ كِتَابه، ويثبتُ ما يشاء منها فلا ينسَخُه.

وقال آخرون: معنى ذلك أنه يمحو مَنْ قَدْ حانَ أَجَلُه، ويثبتُ مَنْ لم يجيْ أَجَلُه إلى أجَلِه.

وقال آخرون: معنى ذلك: ويغفرُ ما يشاء من ذنوبِ عباده، ويتركُ ما يشاء فلا يغفر.

وأَوْلى الأقوال التي ذكرتُ في ذلك بتأويلِ الآية وأشبهُها بالصَّوابِ، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: أنه يمحو مَنْ قد حانَ أجلُهُ، ويُثَبِّت مَنْ لم يجيء أجله

إلى أجله، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ تَوَعَّدَ المشركينَ الذين سألوا رسولَ الله ﷺ الآياتِ بالعقوبة، وتهدَّدهم بها، وقال لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، يُعْلِمُهم بذلك أنَّ لقضائه فيهم أجلاً مُثْبَتاً في كتاب، هم مُؤَخَّرُونَ إلى وقتِ مجيءِ ذلك الأجلِ. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجلُ، يجيءُ الله بما شاءَ ممن قد دَنا أجلُه وانقطعَ رِزْقُه، أو حانَ هلاكُه أو اتِّضَاعُه من رِفْعَةٍ أو هلاكِ مالٍ، فيقضي ذلك في خَلْقِه، فلذلك مَحْوُهُ، ويثبتُ ما شاء ممن بقي أجلُه ورزقُه وأُكْله، فيتركُه على ما هوَ عليه فلا يمحوه.

وأما قوله: «وعنده أمُّ الكتاب»، يقول: وعنده أصلُ الكِتاب وجملتُهُ، وذلك أنه تعالى ذِكْرُهُ أخبرَ أنه يمحُو ما يشاءُ ويثبتُ ما يشاء، ثم عقَّب ذلك بقوله: «وعنده أمُّ الكتاب»، فكان بَيِّناً أن معناه. وعنده أصل المثبَت منه والمَمْحُوِّ وجملتُه في كتابٍ لديه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: ﴿ويثبت﴾.

فقرأ ذلك عامة قرأةِ المدينةِ والكوفة: ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بتشديد «الباء»، بمعنى: ويتركه ويُقِرُّهُ على حالِه فلا يَمْحُوهُ.

وقرأه بعض المكيين وبعض البصريين وبعض الكوفيين: ﴿وَيُثْبِتُ﴾، بالتخفيف، بمعنى: يكتب.

وقد بيَّنَّا قَبْلُ أنَّ معنى ذلك عندنا: إقرارُه مكتوباً وتركُ مَحْوِهِ، على ما بد بيَّنَّا. فإذا كان ذلك كذلك، فالتثبيتُ به أولى، والتشديدُ أَصْوَبُ من تخفيف. وإنْ كان التخفيفُ قد يحتمل توجيهه في المعنى إلى التشديدِ، لتشديد إلى التخفيف، لتقاربِ مَعْنَيَيْهِمَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: وإما نُرِيَنَّكَ، يا محمدُ، في حياتك بعضَ الذي نَعِدُ هؤلاء المشركينَ بالله من العقاب على كفرهم ـ أو نتوفيَنَّكَ قبل أن نُريَكَ ذلك، فإنما عليكَ أن تنتهيَ إلى طاعةِ رَبِّكَ فيما أمركَ به من تبليغهم رسالتَه، لا طَلَبَ صلاحِهم ولا فسادِهم، وعلينا محاسبتهم، فمجازاتُهُم بأعمالهم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤١﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معناه: أَوَ لَمْ يَرَ هؤلاء المشركون مِنْ أهلِ مكةَ الذين يسألون محمداً الآيات، أنَّا نأتي الأرضَ فنفتَحُها له أرضاً بعد أرضٍ حَوَالَيْ أرضهم؟ أفلا يخافون أنْ نفتحَ لَهُ أرضَهم كما فتحنا له غيرها؟

وقال آخرون: بل معناه: أو لم يروا أنا نأتي الأرضَ فنخرِّبها، أو لا يَخافون أنْ نفعلَ بهم وبأرضِهم مثل ذلك، فنهلكهم ونخرِّب أرضهم؟

وقال آخرون: بل معناه: ننقص من بَركتها وثمرتها وأهلِها بالموت.

وقال آخرون: معناه: أنا نأتي الأرض ننقصُها من أهلِها، فنتطرَّفهم بأخذِهم بالموت.

وقال آخرون: «ننقصُها من أطرافها»، بذهاب فُقَهائِها وخِيارها.

وأَوْلى الأقوال في تأويلِ ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: «أو لم يروا أنا نأتي الأرضَ ننقصها من أطرافها»، بظهورِ المسلمين من أصحاب محمدٍ ﷺ عليها وقَهْرِهم أهلَها، أفلا يعتبرونَ بذلك فيخافون ظُهورَهم على أرْضِهم وقَهْرَهم إياهم؟ وذلك أنَّ الله توعَّدَ الذين سألوا رسولَه الآياتِ من مشركي قومه بقوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، ثم وبَّخهم تعالى ذِكْرُهُ بسوءِ اعتبارهم بما يعاينون من فعل الله بضُرَبائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات، فقال: «أو لم يَرَوْا أنا نأتي الأرضَ ننقصها من أطرافها»، بقهرِ أهلها، والغلبة عليها من أطرافِها وجوانبِها، وهم لا يعتبرونَ بما يَرَوْن من ذلك.

وأما قوله: «والله يحكُم لا مُعقّب لحكمه»، يقول: والله هو الذي يحكم فيَنْفُذُ حُكْمه، ويَقْضي فيَمْضِي قضاؤه، وإذا جاء هؤلاء المشركين بالله من أهل مكة حُكْمُ الله وقضاؤُه، لم يستطيعوا رِدَّهُ. يعني بقوله: «لا مُعَقِّبَ لحكمه»، لا رَادَّ لحكمه.

وقوله: «وهو سريع الحساب»، يقول: والله سريع الحساب، يُحْصي أعمالَ هؤلاءِ المشركينَ، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، وهو من وراءِ جزائهم عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قَد مكرَ الذين من قَبْل هؤلاء المشركين من قُرَيشٍ من الأمم التي سلفت، بأنبياءِ الله ورُسله. «فلله المكرُ جميعاً»، يقول: فلله أسبابُ المكرِ جميعاً، وبيدهِ وإليه، لا يَضُرُّ مكرُ مَنْ مَكَر منهم أحداً إلَّا مَنْ أراد ضرَّه به. يقول: فلم يَضرَّ الماكرونَ بمكرِهم إلا مَنْ شاء الله أن يضرَّه

ذلك، وإنما ضَرُّوا به أنفسهم، لأنهم أسْخَطُوا ربَّهم بذلك على أنفسهم، حتى أهلكهم، ونَجَّى رُسُلَهُ، يقول: فكذلك هؤلاء المشركون من قريش، يمكرونَ بكَ، يا محمدُ، والله مُنَجِّيكَ من مكرهم، ومُلْحِقٌ ضُرَّ مَكْرِهم بهم دونك.

وقوله: «يعلم ما تكسب كُلُّ نفسٍ»، يقول: يَعْلَمُ رَبُّكَ، يا محمدُ، ما يعمل هؤلاء المشركونَ من قومكَ، وما يَسْعَوْنَ فيه من المكر بكَ، ويعلم جميعَ أعمالِ الخَلْقِ كلهم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها. «وسيعلَمُ الكفارُ لمن عقبى الدار»، يقول: وسيعلمون، إذا قَدِمُوا على رَبِّهم يومَ القيامة، لِمَنْ عاقبةُ الدارِ الآخرةِ حين يدخلونَ النار، ويدخلُ المؤمنون بالله ورسوله الجَنَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ۝٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويقول الذين كفروا بالله من قومكَ يا محَمَّدُ: لستَ مُرْسَلًا! تكذيباً منهم لكَ، وجُحُوداً لنبوَّتِكَ، فَقُلْ لهم إذا قالوا ذلك: «كفى بالله»، يقول: قُلْ حَسْبي الله. «شهيداً»، يعني: شاهداً «بيني وبينكم»، عليَّ وعليكم، بِصِدْقي وكَذِبِكُمْ. «ومَنْ عِنْدَهُ علمُ الكتاب»، يعني: والذين عندهم عِلْمُ الكتابِ، أي الكتب التي نزلت قبل القرآن كالتوراةِ والإنجيل.

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

(ترتيبها ١٤) (آياتها ٥٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القول في تأويل قَولِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾

قد تَقَدَّمَ منا البيانُ عن معنى قوله: «الر»، فيما مضى، بما أَغْنَى عن إعادتِه في هذا الموضع[1].

وأما قوله: «كتاب أنزلناه إليكَ»، فإنَّ معناه: هذا كتابٌ أنزلناهُ إليكَ، يا محمدُ، يعني القرآن. «لتخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النور»، يقول: لتهديهم به من ظُلماتِ الضلالةِ والكفرِ، إلى نورِ الإيمانِ وضيائه، وتُبصِّر به أهلَ الجهلِ والعمَى سُبُلَ الرَّشادِ والهُدَى.

وقوله: «بإذن ربهم»، يعني: بتوفيقِ رَبِّهم لهم بذلك ولطفه بهم. «إلى صراطِ العـزيزِ الحميد»، يعني: إلى طريقِ الله المستقيم، وهـو دِينُـه الذي ارتضَاهُ، وشَرَّعَهُ لخلْقِه.

وأضاف تعالى ذِكْرُهُ إخراجَ الناسِ من الظلمات إلى النورِ بإذنِ ربِّهم لهم بذلك، إلى نبيهِ ﷺ، وهو الهادي خَلْقَه، والموفِّقُ مَنْ أحبَّ منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفهُمْ ما لهم فيه وعليهم. فَبَيَّنٌ بذلك صِحة قول

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

أهلِ الإثبات الذين أضافوا أفعالَ العبادِ إليهم كَسْباً، وإلى الله جَلَّ ثناؤُهُ إنشاءً وتدبيراً، وفسادُ قولِ أهلِ القَدر الذين أنكرُوا أنْ يكونَ لله في ذلك صُنْعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾

معنى قوله: «الله الذي له ما في السمواتِ وما في الأرضِ»، الله الذي يملكُ جميعَ ما في السموات ومَا في الأرض.

يقول لنبيهِ محمدٍ ﷺ: أنزلنا إليكَ هذا الكتابَ لتدعُوَ عِبادي إلى عِبَادةِ مَنْ هذه صِفَتُه، ويَدَعُوا عبادةَ مَنْ لا يملكُ لهم ولا لنفسه ضَرًّا ولا نفْعاً من الآلهةِ والأوثان. ثم تَوَعَّدَ جَلَّ ثناؤُهُ مَنْ كفرَ به، ولم يستجبْ لدعاء رسوله إلى ما دَعَاهُ إليه من إخلاصِ التوحيد له فقال: «وَوَيْلٌ للكافرينَ من عذابٍ شديد»، يقول: الوادِي الذي يسيلُ من صديدِ أهلِ جهنم، لمن جَحَدَ وحدانيتَهُ، وعبَدَ معه غيرَهُ، مِن عَذَابِ الله الشَّدِيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾

يعني جَلَّ ثنـاؤُهُ بقـوله: «الذين يستحبون الحياةَ الدنيا على الآخرة»، الـذينَ يختارونَ الحياةَ الدنيا ومتاعَها ومعاصي الله فيها، على طاعةِ الله وما يقرِّبُهم إلي رِضَاهُ من الأعمالِ النافعةِ في الآخرة. «ويصدُّون عن سَبيلِ الله»، يقول: ويمنعونَ مَنْ أرادَ الإيمانَ بالله واتِّباعَ رسولِه على ما جاءَ به من عندِ الله، من الإيمانِ به واتباعه. «ويَبْغُونَها عِوَجاً»، يقول: ويلتمسون سَبِيلَ الله ـ وهي دِينُه الذي ابتعثَ به رسولَهُ ـ «عوجاً»، تحريفاً وتبديلاً بالكذب والزُّور.

يقول الله عَزَّ ذِكْرُه: «أولئك في ضلال بعيد»، يعني: هؤلاء الكافرين الذين يستحبُّون الحياةَ الدنيا على الآخرة. يقول: هُمْ في ذهابٍ عن الحَقِّ بعيد، وأَخْذٍ على غيرِ هُدًى، وجَوْرٍ عن قَصْدِ السبيل.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أرسلنا إلى أمةٍ من الأمم، يا محمدُ، من قبلك ومن قبـلِ قومـكَ، رسولاً إلَّا بلسانِ الأمةِ التي أرسلناهُ إليها ولغتهم. «ليبينَ لهم»، يقول: ليفهمهم ما أرسلَهُ الله به إليهم من أمرِه ونَهيه، لِيُثْبتَ حُجَّةَ الله عليهم، ثم التوفيقُ والخذلانُ بيدِ الله، فيخذلُ عن قبولِ ما أتاه به رسُوله من عنده مَنْ شاء منهم، ويوفِّق لقبوله مَنْ شاء ـ ولذلك رَفَعَ «فيُضلُّ»، لأنه أُريدَ به الابتداء لا العطف على ما قبله، كما قيل: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ [الحج: ٥]. «وهو العزيز»، الذي لايمتنع مما أراده من ضلال أو هدايةِ مَنْ أرادَ ذلك به. «الحكيم»، في توفيقه للإيمانِ مَنْ وفَّقه له، وهدايته له مَنْ هداه إليه، وفي إضلاله مَنْ أضلَّ عنه، وفي غير ذلك من تدبيره.

القَـوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: ولقد أرسلنا موسى بأدلتنا وحُجَجنا من قبلك، يا محمدُ، كما أرسلناكَ إلى قومكَ بمثلها من الأدلةِ والحجج.

وقوله: «أنْ أخرجْ قومكَ من الظلماتِ إلى النور»، كما أنزلنا إليك، يا

محمدُ، هذا الكتابَ لتخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النور بإذنِ ربهم. ويعني بقوله: «أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور»، أنِ ادْعُهُمْ[١] من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان.

وقوله: «وَذَكِّرْهُم بأيام الله»، يقول جَلَّ وعَزَّ: وعِظْهُمْ بما سَلَفَ من نُعْمَى عليهم في الأيامِ التي خلت ـ فاجتُزِئَ بذكر «الأيام» من ذكر النعم التي عَنَاها، لأنها أيامٌ كانت معلومة عندهم، أنعم الله عليهم فيها نعماً جليلةً، أنقذهم فيها من آلِ فرعون، بعدَ ما كانوا فيما كانوا [فيه] من العذابِ المُهين، وغَرَّقَ عَدُوَّهم فرعونَ وقومَه، وأوْرَثهم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم.

«إن في ذلك لآياتٍ لكل صَبّارٍ شَكُور»، يقول: إنَّ في الأيامِ التي سلفت بنِعَمِي عليهم ـ يعني على قومِ موسى ـ «لآياتٍ»، يعني لِعبراً ومواعظ. «لكل صَبَّار شكور»، يقول: لِكُلِّ ذي صبرٍ على طاعةِ الله، وشكرٍ له على ما أنعم عليه من نِعَمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: واذْكُرْ، يا محمدُ، إذ قال موسى بن عِمْران لقـومِـه من بني إسرائيل: «اذكروا نعمة الله عليكم»، التي أنعمَ بها عليكم. «إذْ أنجاكم من آلِ فرعون»، يقول: حين أنجاكم من أهلِ دِينِ فرعونَ وطاعته. «يسومونكم سُوءَ العذاب»، أي يُذِيقُونكُم شديدَ العذاب. «ويذبِّحُونَ أبناءكم»، مع إذاقَتِهم إياكم شديدَ العذاب يُذَبِّحُونَ أبناءكم.

---

(١) وأراد: أن ادعهم ليخرجُوا من الضلالة إلى الهدى.

وقوله: «ويستحيون نساءكم»، يقول: ويُبْقُونَ نساءكم فيتركون قَتْلَهُنَّ، وذلك استحياؤهم كَان إياهُنَّ، ومعناه: يتركونهم والحياة.

«وفي ذلكم بلاءٌ من رَبِّكم عظيم»، يقول تعالى: فيما يصنعُ بكم آلُ فرعون من أنواعِ العذاب، بلاءٌ لكم من ربكم عظيمٌ، أي ابتلاء واختبارٌ لكم، من ربكم عظيم. وقد يكون «البلاء»، في هذا الموضع نَعْماء، ويكون من البلاء الذي يصيبُ النَّاسَ من الشدائد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: واذكروا أيضاً حين آذَنَكُمْ رَبُّكم. و «تأذَّنَ»، «تَفَعَّلَ» من «آذن». والعربُ ربما وضعت «تفعَّل» موضع «أفعل»، كما قالوا: «أوعدتُه» «وتَوعَّدْتُه»، بمعنى واحد. و «آذنَ»، أعْلَمَ، كما قال الحارث بن حِلِّزة[1]:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

يعني بقوله: «آذنتنا»، أعلمتنا.

وقوله: «لئن شكرتُم لأزيدنكم»، يقول: لئن شكرتم ربَّكم، بطاعتكم إياه فيما أمَرَكُمْ ونهاكم، لأزيدنكم في أيادِيه عندكم ونعمِه عليكم، على ما قَدْ أعطاكم من النجاةِ من آلِ فرعون والخلاصِ مِنْ عذابهم.

وقوله: «ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد»، يقول: ولئن كفرتم، أيها القومُ، نعمةَ الله، فجحدتُموها بتركِ شُكْره عليها وخلافِه في أمره ونهيه، وركوبكم معاصيه. «إن عَذَابي لشديد»، أُعَذِّبُكُمْ كما أعذبُ مَنْ كفرَ بي من خلقي.

---

(١) مطلع قصيدته المشهورة، وهي من السبع الطوال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال موسى لقومه: إنْ تَكْفُروا، أيها القومُ، فتجحدوا نعمةَ الله التي أنعمها عليكم، أنتم ـ ويفعلُ في ذلك مثل فِعْلِكُمْ مَنْ في الأرض جميعاً. «فإنَّ الله لغني» عنكم وعنهم من جميعِ خَلْقِه، لا حاجةَ به إلى شكركم إياه على نعمه عند جميعكم. «حميد»، ذو حَمْدٍ إلى خَلْقِه بما أنعم به عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيلِ موسى لقومِه: يا قوم: «ألم يأتكم نبأُ الذين من قبلكم»، يقول: خَبَرُ الذين من قبلكم من الأممِ التي مَضَتْ قبلكم. «قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ»، وقوم نُوح، مُبيَّنٌ بهم عن «الذين»، و «عاد» معطوف بها على «قوم نوح»، «والذينَ مِنْ بعدِهم»، يعني من بعدِ قومِ نوحٍ وعاد وثمود. «لا يعلمهم إلا الله»، يقول: لا يُحْصِي عَدَدهم ولا يعلمُ مبلغهم إلا الله.

وقوله: «جاءتهم رسلهم بالبينات»، يقول: جاءتْ هؤلاءِ الأمم رسلُهم الذين أرسلهم الله لهم بدعائِهم إلى إخلاصِ العبادةِ له. «بالبيناتِ»، يعني بحججٍ ودلالاتٍ، على حقيقةِ ما دَعَوْهُمْ إليه، مُعْجِزاتٍ.

وقوله: «فَرَدُّوا أيدِيَهُمْ في أفواهِهِم»، يعني: فَعَضُّوا عليها، غيظاً على الرسل، كما وصَفَ الله جَلَّ وعَزَّ به إخوانهم من المنافقين فقال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُم الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمرن: ١١٩]. فهذا هو الكلامُ المعروف والمعنى المفهوم من «رَدِّ اليدِ إلى الفم».

وقوله: «وقالوا إنَّا كفرنا بمَا أُرسلتم به»، يقول عزَّ وجلَّ: وقالوا لرسلهم: إنا كفرنا بما أُرسلتُمْ به مَنْ أرسلكم، من الدعاءِ إلى تركِ عبادةِ الأوثانِ والأصنامِ. «وإنا لفي شك»، من حقيقةِ ما تَدْعُونَنا إليه من توحيدِ الله. «مُريب»، يقول: يريبنا ذلك الشك، أي يُوجِبُ لنا الريبَةَ والتُّهَمَةَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت رُسُل الأممِ التي أتتها رسُلها: «أفي الله»، أَنَّهُ المستحقُّ عليكم، أيها الناسُ، الأُلوهةَ والعبادةَ دونَ جميعِ خَلْقِه. «شَكٌّ». وقوله: «فاطر السموات والأرض»، يقول: خالق السموات والأرض. «يدعوكم ليغفرَ لكم من ذنوبكم»، يقول: يدعوكم إلى توحيدِه وطاعته. «ليغفرَ لكم من ذنوبكم»، يقول: فيستر عليكم بعضَ ذُنوبِكم بالعفوِ عنها، فلا يعاقبكم عليها، «ويؤخركم»، يقول: ويُنْسِيء في آجالِكم، فلا يعاقبكم في العاجل فيهلككم، ولكن يُؤَخِّـرُكُم إلى الوقتِ الذي كتبَ في أمِّ الكتابِ أنه يقبضكم فيهِ، وهو الأجلُ الذي سَمَّى لكم. فقالت الأممُ لهم: «إنْ أنتم»، أيها القوم «إلا بَشَرٌ مثلنا»، في الصورة والهيئة، ولستم ملائكة، وإنما تُريدونَ بقولكم هذا الذي

تقولون لنا. «أن تَصدُّونا عما كان يعبدُ آباؤنا»، يقول: إنما تُريدونَ أنْ تصرِفونا بقولكم عن عبادةِ ما كان يعبدُه من الأوثانِ آباؤنا. «فأتونا بسلطانٍ مبين»، يقول: فَأْتُونَا بحجةٍ على ما تَقولونَ، تُبين لنا حقيقتَهُ وصحتَهُ، فنعلم أنكم فيما تقولون محقُّون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالتْ للأممِ التي أتتهم الرّسلُ رُسُلُهم: «إنْ نحنُ إلَّا بشر مثلكم»، صدقتم في قولكم، إنْ أنتم إلا بشر مثلنا، فما نحنُ إلا بَشَرٌ من بني آدم، إنسٌ مثلكم. «ولكنَّ الله يَمُنُّ على مَنْ يشاء من عباده»، يقول: ولكن الله يتفضلُ على مَنْ يشاء من خَلْقِه، فيهديه ويوفقه للحقِّ، ويفضِّلُه على كثيرٍ من خلقه. «وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان»، يقول: وما كان لنا أن نأتيكم بحجةٍ وبرهانٍ على ما نَدْعُوكم إليه. «إلا بإذن الله»، يقول: إلا بأمرِ الله لنا بذلـك. «وعلى الله فليتـوكـل المؤمنون»، يقول: وبالله فليثق به مَنْ آمنَ به وأطاعَهُ، فإنَّا به نَثِقُ، وعليه نتوكلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قِيل الرُّسل لأممها: «وما لنا أن لا نتوكلَ على الله»، فَنَثِقَ به وبكفايته ودفاعِه إياكم عنَّا. «وقد هدانا سُبُلنا»، يقول: وقد بَصَّرنا طريقَ النجاةِ من عذابه، فَبَيَّنَ لنا. «ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا»، في الله،

وعلى ما نَلْقى منكم من المكروهِ فيه بسببِ دُعائنا لكم إلى ما نَدْعُوكم إليه، من البـراءةِ من الأوثان والأصنام، وإخلاص العبادة له. «وعلى الله فليتوكلِ المتوكلون»، يقول: وعلى الله فليتوكلْ مَنْ كان به واثقاً من خَلْقِه، فأما مَنْ كان به كافراً فإنَّ وليَّهُ الشيطان.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: وقال الذين كفروا بالله لرسلهم الذين أُرسِلُوا إليهم، حين دَعَـوْهُمْ إلى توحيدِ الله وإخـلاصِ العبادةِ له، وفراقِ عبادةِ الآلهة والأوثانِ. «لنخـرجنَّكُمْ من أرضنـا»، يعنون: من بلادِنَا فنطردكم عنها. «أو لتعودُنَّ في مِلَّتنا، يعنون: إلا أنْ تَعُودوا في ديننا الذي نحنُ عليه من عبادةِ الأصنام.

وقوله: «فأوحَى إليهم ربُّهم لنُهلكنَّ الظالمين»، الذين ظلموا أنفسهم، فأوجَبُـوا لها عقابَ الله بكفرهم. وقد يجوز أن يكونَ قِيلَ لهم «الظالمون»، لعبادتهم مَنْ لا تجوزُ عبادتُه من الأوثانِ والآلهة، فيكون بوضعهم العبادةَ في غيرِ موضعها، إذْ كان ظلماً، سُمُّوا بذلك.

وقوله: «ولَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرضَ من بعدهم»، هذا وَعْدٌ من الله مَنْ وَعَدَ من أنبيائـه النصـرَ على الكَفَرةِ به من قومه. يقول: لما تمادتْ أممُ الرسلِ في الكفر، وتوعدوا رسُلَهُمْ بالوقوعِ بهم، أوحى الله إليهم إهلاكَ مَنْ كَفَر بهم من أممهم، ووعدهم النصر. وكلُّ ذلك كان من الله وعيداً وتهدُّداً لمشركي قوم نبيِّنا محمدٍ ﷺ على كفرهم به، وجُرْأتهم على نبيهِ، وتثبيتاً لمحمدٍ ﷺ، وأمراً

له بالصبر على ما لقيَ من المكروهِ فيه من مشركي قومه، كما صبرَ مَنْ كانَ قَبْلَهُ من أولي العزمِ من رسله ـ ومُعرِّفَهُ أنَّ عاقبةَ أمرِ مَنْ كفرَ به الهلاكُ، وعاقبتَه النصرُ عليهم، سُنَّةُ الله في الذين خَلَوْا من قَبْلُ.

وقوله: «ذلك لمن خَافَ مَقامي وخافَ وَعِيدِ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: هكذا فِعْلي لمن خافَ مَقامَه بين يديَّ، وخافَ وعيدي فاتَّقاني بطاعته، وتجنَّبَ سُخطي، أنصُرهُ على من أرادَ به سُوءاً وبَغَاه مكروهاً من أعدائي، أُهْلِكُ عدوَّهُ وأُخْزيه، وأورثه أرضَه وديارَه.

وقال: «لمن خافَ مَقَامي»، ومعناه ما قلت: من أنه لمن خافَ مَقامه بين يديَّ، بحيثُ أُقيمُه هنالك للحساب، كما قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، معناه: وتجعلون رِزقي إياكم أنَّكم تكذبون. وذلك أنَّ العربَ تُضيف أفعالَها إلى أنفسها، وإلى ما أوقعت عليه، فتقول: «قد سُرِرتُ برؤيتكَ، وبرؤيتي إياكَ»، فكذلك ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واستفتحتِ الرُّسلُ على قومها، أي استنصرتِ الله عليها. «وخاب كُلُّ جبارٍ عنيد»، يقول: هَلَكَ كُلُّ متكبرٍ جائرٍ حائدٍ عن الإقرارِ بتوحيدِ الله وإخلاصِ العبادة له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: «من ورائه»، من أمامِ كُلِّ جَبار «جهنم» يَرِدُونها.

و«وراء» في هذا الموضع، يعني: أمام، كما يقال: «إنَّ الموت مِنْ ورائِكَ»، أي قُدَّامَكَ.

وقوله: «ويُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ»، يقول: ويُسْقَى من ماءٍ، ثم بَيَّنَ ذلك الماءَ جَلَّ ثناؤُهُ وما هو، فقال: هو «صديد»، وذلك رد «الصَّديد» في إعرابه على «الماء»، لأنه بيَانٌ عنه.

و«الصديد»، هو القَيْحُ والدم.

وقوله: «ومِنْ وَرائه عَذَابٌ غليظ»، يقول: ومن وراءِ ما هو فيه من العذاب ـ يعني أمامه وقدامه. «عذابٌ غليظٌ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ١٨﴾

هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ الله لأعمالِ الكفّارِ فقال: مَثَلُ أعمالِ الذين كفروا يومَ القيامة، التي كانوا يعملونها في الدنيا يزعمُون أنهم يريدونَ الله بها، مَثَلُ رمادٍ عَصَفَتِ الريحُ به في يومِ ريحٍ عاصفٍ، فنسفته وذهبتْ به، فكذلك أعمالُ أهلِ الكفر به يومَ القيامة، لا يجدون منها شيئاً ينفعهم عندَ الله فينجيهم من عذابِهِ، لأنهم لم يكونوا يَعْملونها لله خالصاً، بَلْ كانوا يشركون فيها الأوثانَ والأصنام.

يقول الله عزَّ وجلَّ: «ذلك هو الضلالُ البعيد»، يعني أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، التي يشركون فيها مع الله شركاء، هي أعمالٌ عملت على

غيرِ هُدًى واستقامة، بل على جَوْرٍ عن الهُدَى بعيد، وأخذٍ على غيرِ استقامةٍ شديد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ، يا محمدُ، بعينِ قلبكَ، فتعلم أنَّ الله أنشأ السمواتِ والأرض بالحقِّ منفرداً بإنشائها بغير ظهيرٍ ولا مُعين. «إنْ يشأ يُذْهِبْكُمْ ويأْتِ بخلقٍ جديد»، يقول: إنَّ الذي تَفَرَّدَ بخلقِ ذلك وإنشائِه من غيرِ معينٍ ولا شريكٍ، إنْ هُوَ شاءَ أنْ يُذْهِبَكُمْ فيفنيكم، أَذْهَبَكُمْ وأفناكم، ويأت بخلقٍ آخرَ سِواكم مكانكم فيجدِّد خَلْقَهُمْ. «وما ذلك على الله بعزيز»، يقول: وما إذهابُكُمْ وإفناؤكم وإنشاء خَلْقٍ آخر سواكم مكانَكُم، على الله بِمُمْتَنِعٍ ولا متعذِّرٍ، لأنه القادرُ على ما يشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وبرزوا لله جميعاً»، وظهرَ هؤلاء الذين كفروا به يومَ القيامةِ من قبورهم، فصاروا بالبَراز من الأرض. «جميعاً»، يعني كلَّهم «فقال الضعفاء للذين استكبروا»، يقول: فقال التُّبَّاعُ منهم للمتبوعينَ، وهم

الذين كانوا يستكبرونَ في الدنيا عن إخلاصِ العبادةِ لله واتباعِ الرُّسُلِ الذين أُرسِلُوا إليهم. «إنَّا كنا لكم تَبَعاً»، في الدنيا.

وإنما عنوا بقولهم: «إنَّا كنا لكم تبعاً»، أنهم كانوا أتباعَهُمْ في الدنيا يأتمرونَ لما يأمرونَهُمْ به من عبادةِ الأوثانِ والكفرِ بالله، وينتهونَ عما نَهَوْهُمْ عنه من اتِّباعِ رُسُلِ الله. «فهل أنتم مُغْنُونَ عَنَّا من عذابِ الله من شيء»، يعنون: فهل أنتم دافعونَ عَنَّا اليومَ من عذابِ الله من شيء.

وقوله: «لو هدانا الله لهديناكم»، يقول عَزَّ ذِكْرُه: قالت القادةُ على الكفرِ بالله لِتُبَّاعِها: «لو هدانا الله»، يعنون: لو بَيَّنَ الله لنا شيئاً ندفع به عَذَابَه عنا اليوم. «لهديناكم»، لبيَّنا ذلك لكم حتى تَدْفَعُوا العذابَ عن أنفسِكم، ولكنَّا قد جزعنا مِن العذاب، فلم ينفعنا جَزَعُنَا منه وصَبْرُنا عليه. «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص»، يعنون: ما لهم من مَراغٍ يَرُوغُونَ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال إبليس، «لما قُضِيَ الأمرُ»، يعني لما أُدْخِلَ أهلُ الجنة الجنةَ وأهل النارِ النارَ، واستقرَّ بكل فريقٍ منهم قرارهم، أنَّ الله وَعَدَكُمْ، أيها الأتباعُ، النارَ، ووعدتُكم النُّصْرةَ، فأخلفتُكُمْ وعدي، ووفى الله لكم بوعده. «وما كان لي عليكم من سلطان»، يقول: وما كان لي عليكم، فيما وعدتُكُمْ من النُّصْرَةِ، من حجةٍ تثبتُ لي عليكم بصدقِ قولي: «إلا أنْ دعوتكم». وهذا

من الاستثناء المنقطع عن الأول، كما تقول: «ما ضربْتُه إلا أنه أحمق»، معناه: ولكن دَعَوْتُكم فاستجبْتُمْ لي. يقول: إلَّا أنْ دعوتكم إلى طاعتي ومعصيةِ الله، فاستجبتم لدعـائي. «فلا تلوموني»، على إجابتكم إيايَ. «ولُومُوا أنفسكم»، عليها، . «ما أنا بمُصْرِخِكم»، يقول: ما أنا بمُغِيثكم. «وما أنتم بمصرخِيَّ»، ولا أنتم بمُغيثيَّ مِنْ عذابِ الله فمُنْجِيَّ منه. «إني كفرتُ بما أشركتموني من قَبْـلُ»، يقـول: إني جَحـدْتُ أنْ أكـون شريكـاً لله فيما أشركتموني فيه من عبادتكم. «مِنْ قَبْلُ»، في الدنيا. «إن الظالمين لهم عذاب أليم»، يقول: إنَّ الكافرينَ بالله لهم عذاب. «أليم»، من الله موجِع.

القَـوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: وأُدخِلَ الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، فأقَرُّوا بوحدانيةِ الله وبـرسـالة رُسلِه، وأنَّ ما جاءتْ به من عندِ الله حق. «وعملوا الصالحات»، يقول: وعملوا بطاعةِ الله، فانتهوا إلى أمرِ الله ونهيِه. «جنَّات تجري من تحتها الأنهار»، بساتين تجري من تحتها الأنهار. «خالدين فيها»، يقول: ماكِثينَ فيها أبـداً. «بإذن ربهم»، يقول: أُدْخِلُوها بأمر الله لهم بالدخولِ. «تحيتهم فيها سلامٌ»، وذلك إنْ شاء الله: الملائكةُ يُسَلِّمون عليهم في الجنة.

وقوله: «ألم تر كيف ضربَ الله مَثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ، يا محمدُ، بعينِ قلبكَ، فتعلم كيف مَثَّلَ الله مَثَلاً وشبَّه شبَهاً. «كلمة طيبة»، ويعني بالطيبةِ الإيمانَ به جَلَّ ثناؤهُ، كشجرةٍ

طَيّبـةِ الثمـرةِ، وتـركَ ذِكْرَ «الثمرة» استغناءً بمعرفةِ السَّامعين عن ذِكْرِها بذكرِ «الشَّجرة». وقوله: «أصْلُهَا ثابتٌ وفرعها في السماء»، يقول عزَّ ذِكْرُه: أصلُ هذه الشجرةِ ثابتٌ في الأرض. «وفرعها»، وهو أعلاها في «السماء»، يقول: مرتفعٌ عُلوًّا نحوَ السماء. وقوله: «تؤتي أُكُلَها كل حينٍ بإذنِ رَبِّها»، يقول: تُطْعِمُ ما يُؤكَلُ منها مِنْ ثمرها كُلَّ حينٍ بأمرِ ربها. «ويضربُ الله الأمثالَ للناس»، يقول: ويُمَثِّـلُ الله الأمثـالَ للنـاس، ويشبِّهُ لهم الأشباه. «لعلهم يتذكرون»، يقول: ليتـذكروا حُجَّةَ الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعِظوا، فينزجروا عما هُمْ عليه من الكفر به إلى الإيمان.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومثل الشِّرْكِ بالله، وهي «الكلمةُ الخبيثة»، «كشجرةٍ خبيثة»، قال أكثرهم: هي الحَنْظل.

وقـولـه: «اجْتُثَّتْ من فوقِ الأرض»، يقـول: استُـؤْصِلتْ. يقـال منه: «اجتثَثْتُ الشيء، أجْتثُّه اجتثاثاً». إذا استأصلته.

«ما لها من قرار»، يقول: ما لهذه الشجرةِ من قَرارٍ ولا أصلٍ في الأرضِ تثْبُت عليه وتقوم. وإنما ضُربت هذه الشجرةُ التي وصَفها الله بهذه الصِفَةِ لكُفرِ الكافرِ وشِرْكِه به مثلاً. يقول: ليس لكُفْرِ الكافرِ وعَمله الذي هو معصيةُ الله في الأرض ثَبَاتٌ، ولا لَهُ في السماء مَصْعَدٌ، لأنه لا يَصْعَد إلى الله منه شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ ۞

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «يثبتُ الله الذين آمنوا»، يحقق الله أعمالَهم وإيمانهم. «بالقولِ الثابت»، يقول: بالقولِ الحقِّ، وهو فيما قيل: شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله.

وأما قوله: «في الحياة الدنيا»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفُوا فيه.

فقال بعضهم: عَنَى بذلك أنَّ الله يُثَبِّتُهُمْ في قبورهم قبلَ قيامِ الساعة.

وقال آخرون: معنى ذلك: يثبتُ الله الذين آمنوا بالإيمانِ في الحياة الدنيا، وهو «القول الثابت». «وفي الآخرة»، المسألةُ في القبر.

والصوابُ من القولِ في ذلك ما ثَبَتَ به الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ في ذلك[1]، وهو أنَّ معناه: «يثبتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا»، وذلك تثبيته إياهم في الحياةِ الدنيا بالإيمانِ بالله وبرسوله محمد ﷺ. «وفي الآخرة»، بمثلِ الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هُمْ عليه من التوحيدِ والإيمانِ برسولِه ﷺ.

وأما قوله: «ويُضِلُّ الله الظالمين»، فإنه يعني: أنَّ الله لا يوفِّق المنافقَ والكافرَ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة عند المُسَاءَلة في القبر، لِمَا هَدَى له المؤمنَ من الإيمان بالله ورسولِه ﷺ.

وقوله: «ويفعلُ الله ما يشاء»، يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: وبيدِ الله الهدايةُ والإضلالُ، فلا تُنْكِرُوا، أيها الناسُ، قُدْرَتَهُ، ولا اهتداءَ مَنْ كان منكم ضالاً، ولا ضلالَ مَنْ كان منكم مهتدياً، فإنَّ بيدِهِ تصريفَ خَلْقِه وتقليبَ قُلوبِهم، يفعلُ فيهم ما يشاء.

---

(١) لحديث البراء بن عازب في عذاب القبر الذي ساقه المؤلف بأربعة عشر إسناداً في هذا الموضع، وهو في الصحيحين: البخاري (١٣٦٩) و(٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألم تنظُرْ يا محمدُ «إلى الذين بَدَّلُوا نِعْمَة اللهِ كُفْراً»، يقول: غَيَّرُوا ما أنعمَ اللهُ به عليهم من نِعَمِهِ، فجعلوها كُفْراً به، وكان تبديلُهم نعمةَ الله كُفْراً في نبيِّ الله محمدٍ ﷺ، أنعمَ اللهُ به على قريش، فأخرجَهُ منهم، وابتعثَهُ فيهم رسولاً رحمةً لهم، ونعمةً منه عليهم، فكفروا به، وكذَّبُوه، فبدَّلُوا نعمةَ الله عليهم به كفراً.

وقوله: «وأحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ» يقول: وأنزلوا قومهم من مُشْركي قريش دارَ البوار، وهي دار الهلاك.

ثم ترجمَ عن دارِ البوار، وما هي؟ فقيل: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وبِئْسَ القَرَارِ» يقول: وبئس المستقرّ هي جهنمُ لمن صلاها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ هؤلاء الذين بدَّلُوا نعمةَ الله كفراً لربهم أنداداً، وهي جماع نِدٍّ، وقد بيَّنتُ معنى النِّدِّ، فيما مضى بما أغْنَى عن إعادته، وإنما أراد أنهم جعلوا لله شركاء.

وقوله: «لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ» اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامَّة قَرَأةِ الكوفيين «لِيُضِلُّوا» بمعنى: كي يضلوا الناسَ عن سبيلِ الله بما فعلوا من ذلك.

وقرأته عامة قَرأة أهل البصرة «لِيَضِلُّوا» بمعنى: كي يَضِلَّ جاعلُو الأندادِ لله عن سبيلِ الله.

وقوله: «قُل تَمَتَّعُوا» يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يامحمدُ لهم: تمتعوا في الحياة الدنيا وَعِيداً من الله لهم، لا إباحَةً لهم التمتع بها، ولا أمراً على وجـهِ العبادةِ، ولكنْ توبيخاً وتهدداً ووعيداً، وقد بَيَّنَ ذلك بقوله: «فإنَّ مَصِيرَكُمْ إلى النَّـارِ» يقول: استمتِعُوا في الحياةِ الدنيا، فإنها سريعةُ الزوالِ عنكم، وإلى النـار تَصِيرُونَ عن قريب، فتعلمونَ هنالك غبَّ تَمَتُّعِكُمْ في الدنيا بمعاصي الله وكفركم فيها به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ «قُلْ» يا محمد «لِعبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا» بكَ، وصدَّقُوا أنَّ ما جئتهم به من عندي «يُقِيمُوا الصَّلاةَ»، يقول: قل لهم: فَلْيُقِيمُوا الصلواتِ الخمس المفروضةَ عليهم بحدودها، ولينفقوا مما رزقناهم، فَخَوَّلْناهم من فَضْلِنا سِرّاً وعلانيةً، فليؤدُّوا ما أوجبتُ عليهم من الحقوقِ فيها سرّاً وإعـلانـاً «مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ»، يقول: لا يُقْبَلُ فيه فِدية وعِوَضٌ من نَفْسٍ وَجَبَ عليها عقابُ الله بما كان منها من معصيةِ رَبِّها في الـدنيا، فيقبـل منهـا الفدية، وتترك فلا تعاقب، فَسَمَّى الله جلَّ ثناؤه الفِديةَ عِوَضاً، إذْ كان أخذ عوض من معتاضٍ منه.

وقـوله: «وَلا خِلالٌ»، يقول: وليس هناك مخالةُ خليلٍ، فيصفحُ عَمَّن استوجبَ العقوبةَ عن العقابِ لمخالَّتِهِ، بل هنالك العدلُ والقسط.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي أنشأ السمواتِ والأرضِ من غير شيء أيها الناسُ، وأنزل من السماء غيثاً أحيا به الشجرَ والزرعَ، فأثمرتْ رزقاً لكم تأكلونَه «وسَخَّـرَ لَكُمُ الفُلْكَ» وهي السفن «لِتَجْـرِيَ في البَحْرِ بأمْرِهِ» لكم تركبونها، وتحملونَ فيهـا أمتعتكم من بلدٍ إلى بلد. «وسَخَّرَ لَكُمُ الأنهَارَ» ماؤُها شرابٌ لكم، يقول تعالى ذِكْرُه: الذي يستحقُّ عليكم العبادةَ وإخلاصَ الطاعة له، مَنْ هذه صِفَتُهُ، لا مَنْ لا يقدرُ على ضرٍّ ولا نفعٍ لنفسه ولا لغيرِه من أوثانِكم أيها المشركونَ وآلهتِكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «اللهُ الذي خلقَ السموَاتِ وَالأرْضَ»، وفعلَ الأفعالَ التي وصف، «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والقَمَرَ» يتعاقبان عليكم أيها الناسُ بالليلِ والنهـار، لصـلاحِ أنفسِكم ومعاشِكم «دَائِبَيْنِ» في اختلافهما عليكم. وقيل: معناه: أنهما دائبانِ في طاعة الله.

وقوله: «وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ» يختلفانِ عليكم باعتقابٍ، إذا ذهبَ هذا جاءَ هذا بمنافِعكم وصلاحِ أسبابكم، فهذا لكم لِتَصَرُّفِكُمْ فيه لمعاشِكم، وهذا لكم للسَّكنِ، تسكنونَ فيه، ورحمةٌ منه بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطاكم مع إنعامِهِ عليكم بما أنعمَ به عليكم من تسخيرِ هذه الأشياء التي سخرها لكم والرزق الذي رزقكم من نباتِ الأرض وغروسها من كلِّ شيء سألتموه، ورغبتم إليه شيئاً.

وقوله تعالى: «وَإِنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها، إنَّ الإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ»: يقول تعالى ذكره: وإنْ تعدّوا أيها الناس نعمةَ الله التي أنعمها عليكم لا تُطِيقُوا إحصاءَ عَدَدِهَا والقيام بشكرها إلا بعونِ الله لكم عليها «إنَّ الإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ»، يقول: إنَّ الإِنسانَ الذي بَدَّلَ نعمةَ الله كُفْراً لظلومٌ: يقول: لشاكر غيرَ مَن أنعمَ عليه، فهو بذلك من فِعْلِه واضعُ الشُّكْرَ في غيرِ مَوْضِعه، وذلك أنَّ الله هو الذي أنعمَ عليه بما أنعمَ، واستحقَّ عليه إخلاصَ العبادةِ له فَعَبَدَ غيرَهُ، وجعلَ له أنداداً لِيُضِلَّ عن سبيله، وذلك هو ظلمه.

وقوله: «كَفَّارٌ»، يقول: هو جُحُودُ نعمةِ الله التي أنعمَ بها عليه لِصَرْفِهِ العبادةَ إلى غيرِ مَنْ أنعمَ عليه، وتَرْكِه طاعةَ مَنْ أنعم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكُرْ يا محمد «إذْ قالَ إبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذا البَلَدَ آمِنا) يعني الحَرَمَ، بلداً آمناً أهلُه وسكانه «وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أنْ نَعْبُدَ الأصنامَ»،

يقول: أَبْعِدْني وبَنِيَّ من عبادةِ الأصنام، والأصنام: جمع صَنَم، والصَّنَم: هو التمثالُ المصوَّر.

وقوله: «رَبِّ إنَّهُنَّ أضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ»، يقول: ياربِّ إنَّ الأصنامَ أضللن: يقول: أزْلَلْنَ كثيراً من الناسِ عن طريقِ الهُدَى وسبيلِ الحقِّ حتى عَبَدُوهُنَّ، وكفروا بك.

وقوله: «فَمَنْ تَبِعَنِي فإنَّهُ مِنِّي» يقول: فمن تبعني على ما أنا عليه من الإيمانِ بكَ وإخلاصِ العبادة لك، وفراقِ عبادةِ الأوثان، فإنه مني: يقول: فإنه مُسْتَنٌّ بِسُنَّتِي، وعاملٌ بمثلِ عملي، «وَمَنْ عَصَانِي فإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: ومَنْ خالفَ أمري فلم يقبلْ مني مادعوتهُ إليه، وأشركَ بكَ، فإنك غفورٌ لذنوبِ المذنبينَ الخَطَّائينَ بفضلكَ، رحيمٌ بعبادكَ تَعْفُو عَمَّنْ تشاء منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

وقال إبراهيمُ خليلُ الرحمن هذا القولَ حين أسكنَ إسماعيلَ وأُمَّهُ هاجَرَ - فيما ذُكِر - مكةَ.

فتأويلُ الكلام إذن: ربنا إني أسكنتُ بعضَ وَلَدي بوادٍ غير ذي زَرْعٍ، وفي قوله ﷺ دليلٌ على أنه لم يكن هنالك يومئذٍ ماءٌ، لأنه لو كان هنالك ماءٌ لم يصفه بأنه غير ذي زرع، عند بيتكَ الذي حَرَّمْتَهُ على جميعِ خَلْقِكَ أنْ يستحلوه.

وقوله: «المُحَرَّمِ» معناه: المحرّم من استحلالِ حُرُماتِ الله فيه، والاستخفاف بحقه.

وقولـه: «رَبَّنـا لِيُقيمُـوا الصلاةَ»، يقول: فعلت ذلك يا ربنا كي تُؤدَّى فرائضَكَ من الصلاةِ التي أَوْجَبْتَهَا عليهم في بيتك المحرّم.

وقوله: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إلَيهِمْ»، يخبر بذلك تعالى ذِكْرُه عن خليله إبراهيم أنه سألَهُ في دُعائِه أن يجعلَ قلوبَ بعضِ خَلْقه تنزعُ إلى مساكن ذُريته الذين أسكنَهُم بوادٍ غير ذي زرع عند بيته المُحَرَّم، وذلك منه دعاءٌ لهم بأن يرزقهم حَجَّ بيته الحرام.

وقوله: «وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وارزقهم من ثمراتِ النباتِ والأشجار مارزقتَ سكانَ الأريافِ والقُرى التي هي ذوات المياه والأنهار، وإنْ كنتَ أسكنتَهُم وادياً غيرَ ذي زرعٍ ولا ماء، فَرَزَقهم جلَّ ثناؤه ذلك.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ»، يقول: ليشكروكَ على مارزقتهم وتنعم به عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن استشهادِ خليله إبراهيم إياهُ على مانوى وقَصَـدَ بدعـائـهِ وقيلِهِ «رَبِّ اجْعَـلْ هَذَا البَلَدَ آمِنـا وَاجْنُبْني وَبنِيَّ أَنْ نَعْبُـدَ الأَصْنامَ». . . الآية، وأنه إنما قصدَ بذلك رضا الله عنه في محبته أنْ يكونَ وَلَدُه من أهلِ الطاعةِ لله، وإخلاصِ العبادة له على مِثْلِ الذي هو له، فقال: ربنا إنك تعلمُ ماتخفي قلوبُنا عند مسألتنا ما نسألكَ، وفي غير ذلك من أحوالِنا، وما نعلنُ من دعائنا، فنجهرُ به وغير ذلك من أعمالنا، وما يَخْفَى عليكَ يا ربنا من شيءٍ يكونُ في الأرض ولا في السماء، لأن ذلك كله ظاهرٌ لكَ متجلٍّ بادٍ، لأنك مُدَبِّرُهُ وخالقه، فكيف يَخْفَى عليك؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾

يقول: الحمد لله الذي رزقني على كِبَرٍ من السِنِّ ولداً إسماعيل وإسحاق. «إنَّ رَبّي لسميعُ الدُّعاءِ»، يقول: إن ربي لسميعٌ دعائي الذي أدعوه به، وقولي: «اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِنا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أنْ نَعْبُدَ الأصْنامَ»، وغير ذلك من دعائي ودعاء غيري، وجميع مانطقَ به ناطقٌ لا يخفى عليه منه شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾

يقول: ربِّ اجعلْني مؤدِّياً ما ألْزَمْتَني من فريضتك التي فرضتها عليَّ من الصلاة «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي»، يقول: واجعل أيضاً من ذرِّيتي مُقِيمي الصلاة لك «رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ»، يقول: ربنا وتقبل عملي الذي أعمله لك، وعبادتي إياك، وهذا نظير الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الدُّعاءَ هُوَ العبادَةُ، ثم قرأ: «وقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أسْتَجِبْ لَكُمْ، إنَّ الذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جهَنَّمَ دَاخِرِينَ»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

(١) حديث صحيح من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/٢٠٠، وأحمد: ٢٦٧/٤ و٢٧١، ٢٧٦، والترمذي (٣٢٤٧) و(٣٣٧٢)، والطيالسي (٨٠١)، وأبو داود (١٤٧٩)، وابن ماجة (٣٨٢٨)، والنسائي في الكبرى ٣٠/٩، وابن حبان (٨٩٠)، والبغوي في شرح السنة (١٣٨٤) والحاكم: ٤٩٠/١ ـ ٤٩١ وغيرهم.

ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

وهذا دعاء من إبراهيم صلواتُ الله عليه لوالديه بالمغفرة، واستغفار منه لهما، وقد أخبر الله عَزَّ ذكره أنه لم يكن «اسْتِغْفارُ إبْراهِيمَ لأبَيهِ إلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاهُ، فَلَمَّا تَبيَّنَ لَهُ أنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ، إنَّ إبْراهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ».

وقد بيَّنا وقت تبرئهِ منه فيما مضى، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «ولِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول: وللمؤمنين بكَ ممن تبعني على الدين الذي أنا عليه، فأطاعكَ في أمرك ونَهْيك.

وقوله: «يَوْمَ يَقُومُ الحِسابُ»، يعني: يقومُ الناسُ للحساب، فاكتفى بذكر الحسابِ من ذكر الناس، إذْ كان مفهوماً معناه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ» يا محمدُ «غَافِلًا» ساهياً «عَمَّا يَعْمَلُ» هؤلاء المشركون من قومكَ، بل هو عالمٌ بهم وبأعمالهم مُحْصِيهَا عليهم، ليجزيهم جزاءَهم في الحين الذي قد سَبَقَ في عِلْمِه أنه يجزيهم فيه.

وقوله تعالى: «إنَّما يُؤخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخصُ فِيهِ الأبصار»، يقول: إنما يُؤَخِّرُ ربك يا محمد هؤلاء الظالمين الذين يُكَذِّبُونكَ، ويَجْحَدُونَ نُبوَّتكَ، ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار. يقول: إنما يؤخِّرُ عِقَابهم، وإنزالَ العذابِ بهم، إلى يومٍ تشخصُ فيه أبصارُ الخَلْقِ، وذلك يوم القيامة.

وأما قوله: «مُهْطِعِينَ» فإنَّ أهل التأويل اختلفوا في معناه:

فقال بعضهم: معناه: مُسرعين.

وقال آخرون: معنى ذلك: مُدِيمي النظر.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا يرفعُ رأسَهُ.

وقوله: «لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ»، يقول: لا ترجع إليهم لشدَّةِ النظر أبصارُهم.

وقوله: «وأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ»، اختلف أهل التأويل في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: متخرِّقَةٌ لا تعي من الخير شيئاً.

وقال آخرون: إنها لا تستقرُّ في مكانٍ تردّد في أجوافهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنها خرجت من أماكنها فنشبت بالحُلوق.

وأَوْلى هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل ذلك قول من قال: معناه: أنها خالية ليسَ فيها شيءٌ من الخير، ولا تعقل شيئاً، وذلك أنَّ العربَ تسمي كُلَّ أجوف خاوٍ: هواء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝٤٤﴾

يقول تعالى ذكره: وأنذر يا محمدُ الناسَ الذين أرسلتكَ إليهم داعياً إلى الإسلام ماهو نازلٌ بهم، يومَ يأتيهم عذابُ الله في القيامة، «فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقول: فيقول الذين كفروا بربهم، فظلموا بذلك أنفسهم: «رَبَّنا

أخِّرْنا»: أي أخِّرْ عنا عذابكَ، وأمْهِلْنَا «إلى أجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ» الحقّ، فنؤمن بك، ولا نشرك بكَ شيئاً «وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ»، يقولون: ونصدِّق رُسُلَكَ فنتبعهم على ما دَعَوْتَنَا إليه من طاعتكَ واتباعِ أمرك.

وقوله تعالى: «أوَ لَمْ تَكُونُوا أقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مالَكُمْ مِنْ زَوَالٍ»: تَقريعٌ من الله تعالى ذِكْرُه للمشركينَ من قريش، بعد أنْ دخلوا النارَ بإنكارهم في الدنيا البعثَ بعد الموتِ، يقول لهم: إذْ سألوهُ رَفْعَ العذابِ عنهم، وتأخيرهم لِيُنِيبوا ويتوبوا: «أوَ لَمْ تَكُونُوا» في الدنيا، «أقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مالَكُمْ مِنْ زَوَالٍ»، يقول: مالكم من انتقالٍ من الدنيا إلى الآخرة، وإنكم إنما تَموتون، ثم لا تُبْعَثُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وسكنتم في الدنيا في مساكن الذين كفروا بالله، فظلموا بذلك أنفسهم من الأمم التي كانت قبلكم، وتَبَيَّنَ لكم كيف فعلنا بهم، يقول: وعَلمتم كيف أهلكناهم حين عَتَوْا على رَبِّهم، وتمادوا في طغيانهم وكفرهم. «وَضَرَبْنا لَكُمُ الأمْثالَ»، يقول: ومَثَّلْنَا لكم فيما كنتم عليه من الشركِ بالله مقيمينَ الأشباه، فلم تُنِيبوا ولم تتوبوا من كفركم، فالآن تَسألونَ التأخيرَ للتوبةِ حين نزلَ بكم ما قد نزلَ بكم من العذابِ، إنَّ ذلك لغيرُ كائنٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾

يقول تعالى ذكره: قد مَكَرَ هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، فسكنتم من بعدهم في مساكنهم، مكرهم.

ومعنى الكلام: وقد أشركَ الذين ظلموا أنفسهم بربِّهم، وافتروا عليه فِرْيَتَهُمْ عليه، وعند الله عِلْمُ شِرْكِهم به وافترائهم عليه، وهو مُعَاقِبُهم على ذلك عقوبتهم التي هم أهْلُهَا، وما كان شِرْكُهم وفريتهم على الله، لتزول منه الجبال، بل ماضَرُّوا بذلك إلا أنفسهم، ولا عادتْ بغية مكرُوهِهِ إلا عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «فَلا تَحْسَبنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ» الذي وعدهم مَنْ كذَّبهم، وجَحَدَ ما أتوْهم به من عنده. وإنما قاله تعالى ذِكْرُه لنبيه تثبيتاً وتشديداً لعزيمته، ومُعَرِّفَهُ أنه مُنْزِلٌ من سَخَطِهِ بمن كذَّبَهُ وجَحَدَ نبوَّتَهُ، وردَّ عليه ما أتاهُ به من عند الله، مثال ماأنزلَ بمَنْ سلكوا سبيلهَم من الأمم الذين كانوا قبلهم على مثل منهاجِهم من تكذيبِ رُسُلِهم، وجحودِ نبوّتهم، وردِّ ما جاءوهم به من عند الله عليهم.

وقوله: «إنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ»، يعني بقوله: «إنَّ اللهَ عَزِيزٌ»: لا يمتنعُ منه شيءٌ أراد عقوبته، قادر على كل من طلبه، لا يفوتُه بالهَرَبِ منه. «ذُو انْتِقامٍ» مِمَّنْ كفَرَ برسله وكذَّبهم، وجحد نبوتهم، وأشركَ به واتخذ معه إلهاً غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله ذو انتقامٍ، «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرْضُ غيرَ الأرْضِ والسَّمَوَاتُ»، من مشركي قومكَ يا محمدُ من قريش، وسائر مَنْ كفرَ بالله وجحدَ

نبوّتك ونبوَّةَ رسله من قبلك، فيوم من صِلَةِ الانتقام.

واخْتُلِفَ في معنى قوله: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غيرَ الأَرْضِ».

فقال بعضهم: معنى ذلك: يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ التي عليها الناسُ اليومَ في دار الدنيا غير هذه الأرض، فتصير أرضاً بيضاء كالفضة.

وقال آخرون: تبدّل ناراً.

وقال آخرون: بل تُبَدَّلُ الأرضُ أرضاً من فضة.

وقال آخرون: يُبَدِّلُهَا خبزة.

وقال آخرون: تبدَّلُ الأرضُ غير الأرض.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، قول مَنْ قال: معناه: يوم تُبَدَّلُ الأرضُ التي نحنُ عليها اليوم يومَ القيامة غيرَها، وكذلك السمواتُ اليوم تُبدَّلُ غيرَها، كما قال جلَّ ثناؤه؛ وجائزٌ أنْ تكون المُبَدَّلة أرضاً أخرى من فضة، وجائزٌ أنْ تكون ناراً، وجائز أن تكون خبزاً، وجائز أن تكون غير ذلك، ولا خبرَ في ذلك عندنا من الوجهِ الذي يجبُ التسليم له أيّ ذلك يكون، فلا قولَ في ذلك يصحُّ إلا ما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيل.

وقوله: «وَبَرَزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ»، يقول: وظهروا لله المُنْفَرِدِ بالربوبيةِ، الذي يقهرُ كلَّ شيء فيغلبه ويصرفه لما يشاءُ كيفَ يشاءُ، فيحيي خَلْقَهُ إذا شاء، ويُميتهم إذا شاء، لا يغلبهُ شيء، ولا يَقْهرُه بَعْثُهم من قبورهم أحياء لموقفِ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ

ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذكره: وتُعَاينُ الذين كفروا بالله، فاجترموا في الدنيا الشركَ يومئذٍ، يعني: يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسموات. «مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفادِ»، يقـول: مُقَـرَّنـة أيديهم وأرجلهم إلى رِقابِهم بالأصفادِ، وهي الوثاقُ من غلّ وسلسلة، واحـدهـا: صَفَـد، يقال منه: صفدتُه في الصَّفَد صَفْداً وصِفاداً، والصفاد: القيد.

وقوله: «سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطرانٍ»، يقول: قُمُصُهم التي يلبسونها، واحدها: سربال.

وقـوله: «وتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ»، يقول: وتلفَحُ وجوههم النار فتحرقها «لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ماكَسَبَتْ» يقول: فعلَ اللهُ ذلك بهم جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا، كيما يُثيب كلَّ نَفْسٍ بما كسبت من خيرٍ وشرٍّ، فَيَجْزِي المحسنَ بإحسانهِ، والمسيءَ بإساءته «إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ»، يقول: إنَّ الله عالمٌ بعمـلِ كلِّ عاملٍ، فلا يحتاجُ في إحصاء أعمالهم إلى عقدِ كَفٍّ ولا معاناةٍ، وهو سريعٌ حسابُه لأعمالهم، قد أحاط بها عِلْماً، لا يعزبُ عنه منها شيءٌ، وهو مُجازِيهم على جميع ذلك صغيرهِ وكبيرهِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى ذكره: هذا القرآنُ بلاغٌ للناس، أبلغَ اللهُ به إليهم في الحجةِ عليهم، وأعْذَرَ إليهم بما أنزلَ فيه من مواعظهِ وعِبره، «وَلِيُنْذَرُوا بِهِ»، يقول: ولينذَرُوا عقابَ الله، ويَحْذَرُوا به نقماته، أنزله إلى نبيه ﷺ، «وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إلهٌ وَاحِدٌ»، يقول: وليعلموا بما احتجَّ به عليهم من الحججِ فيه أنَّما هو إلهٌ

واحد، لا آلهةٌ شَتَّى، كما يقوله المشركون بالله، وأن لا إله إلا هو الذي له ما في السمـواتِ ومـا في الأرض، الذي سخر لهم الشمسَ والقمرَ، والليلَ والنهار، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم. وسخر لهم الفُلكَ لتجريَ في البحرِ بأمره، وسخر لهم الأنهار، «وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ»، يقول: وليتذكَّرَ فيتَّعِظَ بما احتجَّ اللهُ به عليه من حججه التي في هذا القرآن، فينزجر عن أن يجعل معه إلهاً غيره، ويُشْرِكَ في عبادته شيئاً سواه أهلُ الحِجى والعقول، فإنهم أهلُ الاعتبار والادِّكارِ، دونَ الذين لا عقولَ لهم ولا أفهامَ، فإنهم كالأنعامِ بَلْ هم أضلُّ سبيلا.



سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾

أما قوله جَلَّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه «الٓر»، فقد تقدم بيانها فيما مضى قبل[1].

وأما قوله: «تِلْكَ آياتُ الكِتابِ» فإنه يعني: هذه الآيات، آيات الكُتُبِ التي كانت قَبْلَ القرآنِ كالتوراةِ والإنجيل «وقُرآنٍ»، يقول: وآيات قرآن «مُبِينٍ»، يقول: يُبين مَنْ تأمله وتدبَّره رشدَه وهداه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾

تأويل الكلام: ربما يودُّ الذين كفروا بالله فجحدوا وحدانيتَهُ لو كانوا في دار الدنيا مسلمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ذَرْ يا محمدُ هؤلاء المشركين يأكلوا في هذه الدنيا ماهم آكِلوه، ويتمتعوا من لَذَّاتِها وشهواتِهم فيها إلى أجلهم الذي أجلت لهم، ويُلْهِهم الأملُ عن الأخذِ بحظهم من طاعةِ الله فيها، وتَزَوُّدِهم لمعَادِهم منها بما يُقَرِّبُهم من رَبِّهم، فسوف يعلمون غداً إذا وردوا عليه، وقد هَلَكُوا على كُفْرِهم بالله وشركهم حين يُعاينونَ عذابَ الله أنهم كانوا من تَمَتُّعِهم بما كانوا يتمتعون فيها من اللذَّاتِ والشهواتِ كانوا في خسارٍ وتَباب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَما أَهْلَكْنا» يا محمدُ «مِنْ» أهلِ «قَرْيَةٍ» من أهلِ القرى التي أهلكنا أَهْلَهَا فيما مضى «إلَّا وَلَهَا كِتابٌ مَعْلُومٌ»، يقول: إلا ولها أجلٌ مؤقَّتٌ ومدةٌ معروفة، لا نُهْلِكُهم حتى يبلغوها، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك، فيقول لنبيه محمد ﷺ، فكذلك أهلُ قريتكَ التي أنتَ منها وهي مكة، لا نهلك مشركي أهلها إلا بعد بلوغِ كتابِهم أجلَهُ، لأنَّ مِنْ قضائي أن لا أُهْلِكَ أهلَ قريةٍ إلا بعد بلوغِ كتابِهم أجله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما يتقدَّمُ هلاكُ أمةٍ قبلَ أجَلِهَا الذي جعله اللهُ أجلاً لهلاكها، ولا يستأخرُ هلاكها عن الأجلِ الذي جعل لها أجلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ

﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء المشركونَ لك من قومكَ يا محمدُ «يا أيُّها الَّـذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الـذِّكْـرُ»، وهو القرآنُ الذي ذكر الله فيه مواعظَ خَلْقِه «إنَّكَ لَمَجْنُونٌ» في دعائِكَ إيَّانا إلى أنْ نَتَّبعكَ، ونَذَرَ آلهتنا. «لَوْما تَأْتِينا بالمَلائِكَةِ» قالـوا: هَلَّا تأتينـا بالمـلائكةِ شاهدةً لكَ على صِدْقِ ما تقول؟ «إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»، يعني: إنْ كنت صادقاً في أن الله تعالى بعثك إلينا رسولاً، وأنزل عليك كتاباً، فإن الربَّ الذي فعل ماتقولُ بك، لا يتعذَّرُ عليه إرسالُ مَلَكٍ من ملائكته معكَ حُجَّةً لكَ علينا، وآيةً لك على نبوّتك، وصِدْقِ مقالتك؛ والعربُ تضع موضع لَوْمَا: لولا، وموضع لولا: لوما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾

تأويل الكلام: ما نُنَزِّلُ ملائكتنا إلا بالحقِّ، يعني بالرسالةِ إلى رُسُلِنَا، أو بالعذابِ لمن أردنا تعذيبَهُ، ولو أرسلنا إلى هؤلاء المشركين على مايسألون إرسالهم معكَ آيةً فكفروا لم يُنْظَروا فيؤخروا بالعذاب، بل عُوجِلُوا به كما فعلنا ذلـك بِمَنْ قبلَهُم من الأممِ حين سألـوا الآياتِ فكفروا حين أتتهمُ الآيات، فعاجلناهم بالعقوبةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾



يقـول تعـالى ذِكْـرُه: «إنَّـا نَحْنُ نَزَّلْنـا الـذِّكْرَ»، وهو القرآن، «وَإنَّا لَهُ لحَافِظُونَ»، قال: وإنَّا للقرآنِ لحافظون من أن يُزَادَ فيه باطلٌ مَا ليسَ منه، أو

يُنْقَصَ منه ماهو منه من أحكامهِ وحدودِه وفرائضه، والهاء في قوله: «لَهُ» من ذِكْرِ الذكر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولقد أرسلنا يا محمدُ من قبلك في الأممِ الأوَّلينَ رُسُلاً، وتَرَكَ ذِكْر الرُّسُلِ اكتفاءً بدلالةِ قوله: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ» عليه، وعَنَى بشيعِ الأوَّلينَ: أمم الأوَّلين: واحدتها شيعة، ويقال أيضا لأولياءِ الرجلِ: شيعته.

وقوله: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهزِءُونَ»، يقول: وما يأتي شِيَعَ الأوَّلينَ من رسولٍ من الله يرسلُه إليهم بالدعاء إلى توحيده، والإذعان بطاعته، إلا كانوا به يستهزءون: يقول: إلا كانوا يَسْخَرون بالرسولِ الذي يرسله الله إليهم عُتُوّاً منهم، وتَمَرُّداً على ربهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى ذكره: كما سلكنا الكُفْرَ في قلوبِ شِيعِ الأوَّلينَ بالاستهزاءِ بالرسل، كذلك نفعلُ ذلك في قلوب مشركي قومكَ الذين أجرموا بالكفرِ بالله «لا يُؤمِنُونَ بِهِ»، يقول: لا يُصَدِّقُونَ بالذِّكْرِ الذي أُنزلَ إليك، والهاء في قوله: «نَسْلُكُهُ» من ذكر الاستهزاء بالرسل والتكذيب بهم.

وقوله: «وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ» يقول تعالى ذِكْرُه: لا يؤمنُ بهذا القرآنِ قومُكَ الذين سلكت في قلوبهم التكذيب «حتى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ»، أخذاً

منهم سُنَّةَ أسلافهم من المشركين قَبْلَهُمْ من قوم ِ عادٍ وثمود وضُرَبائِهم من الأمم ِ التي كَذَّبَتْ رُسُلَها، فلم تُؤمِنْ بما جاءها من عندِ الله حتى حَلَّ بها سَخَطُ الله فهلكت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾

اختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيينَ بقوله: «فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ».

فقال بعضهم: معنى الكلام: ولو فتحنا على هؤلاء القائلينَ لك يا محمدُ، «لَوْما تَأْتِينا بالمَلائِكَةِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»، باباً من السماء فَظَلَّت الملائكةُ تعرجُ فيه، وهم يرونهم عياناً «لقالُوا إنَما سُكِّرَتْ أبصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ».

ومعنى قوله تعالى: «سُكِّرَتْ أبصارنا» أُخِذَتْ أبصارُنا وسُحِرَتْ، فلا تبصرُ الشيءَ على ماهُوَ به، وذهبَ حَدُّ إبصارها، وانطفأ نورُه، كما يُقال للشيء الحار إذا ذهبت فورته، وسَكَنَ حَدُّ حَرِّهِ، قد سكر يسكر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد جعلنا في السماء الدنيا منازلَ للشمس ِ والقمرِ، وهي كواكب ينزلها الشمس والقمر «وَزَيَّنّاها للنَّاظِرِينَ»، يقول: وزَيَّنّا السماءَ بالكواكبِ لمن نظرَ إليها وأبصرها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَفِظْنَا السماءَ الدنيا من كلِّ شيطانٍ لعينٍ قد رَجَمَهُ اللهُ ولعنـه، «إِلَّا مَنِ اسْتَـرَقَ السَّمْعَ»، يقول: لكن قد يسترق من الشياطين السمع مما يحدث في السماء بعضها، فيتبعه شهابٌ من النار مبينٌ، يبينُ أثره فيه، إما بإخبالِه وإفسادِه، أو بإحراقِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «والأَرْضَ مَدَدْناها»: والأرض دَحَوْنَاها فبسطناها «وأَلْقَيْنا فِيها رَوَاسِي»، يقول: وألقينا في ظهورها رواسيَ، يعني جبالاً ثابتة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ» أيها الناسُ في الأرض «مَعَايِشَ»، وهي جَمْعُ مَعيشةٍ.

«وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ». اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ في قوله: «وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ».

فقال بعضهم: عَنَى به الدوابَّ والأنعام.

وقال آخرون: عَنَى بذلك الوحشَ خاصة.

وأَوْلى ذلك بالصواب، وأحسن أن يقال: عَنَى بقوله: «وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ»، من العبيد والإماء والدوابِّ والأنعام. فمعنى ذلك: وجعلنا لكم فيها معايشَ، والعبيدَ والإماء والدوابَّ والأنعام، وإذا كانَ ذلكَ كذلك، حَسُنَ أنْ تُوضعَ حينئذٍ مكانَ العبيدِ والإماء والدوابِّ «مَنْ»، وذلك أنَّ العربَ تفعلُ ذلك إذا أرادت الخبرَ عن البهائمِ معها بَنُو آدم. وهذا التأويلُ على ماقلناه وصرفنا إليه معنى الكلام إذا كانت «من» في موضع نَصْبٍ عطفاً به على معايشَ بمعنى: جعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم فيها مَنْ لستم له برازقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما من شيءٍ من الأمطارِ إلا عندنا خزائِنُه، وما نُنَزِّلُهُ إلا بقدرٍ لكلِّ أرضٍ معلوم عندنا حَدُّهُ ومبلغه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

اختلف أهلُ العربية في وجه وَصْفِ الرياح باللقح، وإنما هي مُلْقِحةٌ لا لاقحة، وذلك أنها تُلْقِح السحابَ والشجرَ، وإنما تُوصفُ باللقح الملقوحةُ لا المُلْقِحُ، كما يقال: ناقة لاقح.

وكان بعضُ نحويي البصرة يقول: قيل: الرياح لواقح، فجعلها على لاقح، كأنَّ الرياحَ لقحت، لأن فيها خيراً، فقد لَقَحَتْ بخيرٍ. قال: وقال بعضهم: الرياحُ تَلْقِحُ السحابَ، فهذا يدلُّ على ذلك المعنى، لأنها إذا أنشأته وفيها خيرٌ وصل ذلك إليه. وكان بعض نحويي الكوفة يقول: في ذلك معنيان:

أحدهما أنْ يجعلَ الريحَ هي التي تلقح بمرورها على الترابِ والماء.فيكون فيها اللقاح، فيقال: ريحٌ لاقح، كما يقال: ناقةٌ لاقح، قال: ويشهد على ذلك أنه وصفَ ريحَ العذاب، فقال: «عَلَيهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ»[1]، فجعلها عقيماً إذا لم تلقح. قال: والوجه الآخر أن يكون وصفها باللَّقْحِ، وإنْ كانت تُلْقِح، كما قيل: ليل نائم والنوم فيه، وسِرٌّ كاتم. وكما قيل: المبروز والمختوم[2]، فجعل مبـروزاً، ولم يقل مبرزاً بناه على غير فعله: أي أن ذلك من صفاته. فجاز مفعول لمفعل، كما جاز فاعل لمفعول، إذا لم يرد البناء على الفعل، كما قيل: ماء دافق[3].

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي: أنَّ الرياحَ لواقح كما وصفها به جَلَّ ثناؤه من صفتها، وإن كانت قد تُلْقِح السحابَ والأشجار، فهي لاقحة مُلْقِحة، ولقحها: حملها الماء. وإلقاحها السحابَ والشجرَ: عملها فيه.

وقوله: «فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فأَسْقَيْناكُموهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأنزلنا من السمـاء مطراً فأسقيناكم ذلك المطرَ لشربِ أرضِكم ومواشِيكم؛ ولو كان معنـاه: أنـزلناه لتشربوهُ لقيل: فَسَقَيْنَاكُمُوهُ. وذلك أن العربَ تقولُ إذا سقتِ الرجلَ ماءً شَرِبَهُ أو لبناً أو غيره، سَقَيْتُه بغير ألفٍ إذا كان لسقيه، وإذا جعلوا له ماء لشربِ أرضه أو ماشيته، قالوا: أسقيتُه وأسقيتُ أرضَهُ وماشيته، وكذلك إذا استسقت له، قالوا: أسقيته واستسقيته.

وقوله: «ومَا أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنينَ»، يقول: ولستم بخازني الماء الذي أنزلنا من السماء فأسقيناكموه، فَتَمْنَعُوهُ مَنْ أسقيه، لأنَّ ذلك بيدي وإليَّ، أسقيه مَنْ

---

(١) الذاريات: ٤١.

(٢) استعمل هذا لبيد في بيت هو:

أو مذهـب جدد على ألـواحـه ... الـنـاطـق الـمـبـروز والـمـخـتـوم

(٣) هذا كله في معاني القرآن للفراء: ٢/٨٧ ـ ٨٨.

أشاء، وأمنعه من أشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وإنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي» مَنْ كان ميتاً إذا أردنا «ونُميتُ» مَنْ كان حَيًّا إذا شئنا، «ونَحْنُ الوَارِثُونَ»، يقول: ونحنُ نرثُ الأرضَ ومَنْ عليها بأنْ نُميتَ جميعَهُم، فلا يبقى حيٌّ سوانا إذا جاء ذلك الأجل.

وقوله: «وَلَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَقْدِمينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلمنْا المُسْتأخِرِينَ». اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: معنى ذلك: ولقد علمنا مَنْ مضى من الأمم، فتقدَّمَ هَلاكُهم، ومَنْ قد خُلِقَ وهو حيٌّ، ومَنْ لم يُخْلَقْ بَعْدُ مِمَّنْ سَيُخْلَق.

وقال آخرون: عَنَى بالمستقدمين: الذين قد هلكوا، والمستأخرين: الأحياء الذين لم يهلكوا.

وقال آخرون: بل معناه: ولقد علمنا المستقدمين في أوَّل الخَلْقِ، والمستأخرين في آخرهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد علمنا المستقدمين من الأمم، والمستأخرين من أمة محمدٍ ﷺ.

وقال آخرون: بل معناه: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الخير، والمستأخرين عنه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصفوف

في الصلاة، والمستأخرين فيها، بسبب النساء.

وأوْلى الأقوالِ عندي في ذلك بالصحة قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأمواتَ منكم يابني آدم فتقدَّمَ موتُه، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتُهم ممن هو حيٌّ ومَنْ هو حادث منكم ممن لم يحدث بَعْدُ لدلالةِ ما قبله من الكلام، وهو قوله: «وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ» وما بَعْدَهُ، وهو قوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ»، على أنَّ ذلكَ كذلك، إذْ كان بين هذين الخبرين، ولم يَجْرِ قبل ذلك من الكلام مايدلُّ على خلافه، ولا جاء بَعْدُ، وجائزٌ أنْ تكونَ نزلت في شأن المستقدمين في الصفِّ، لشأنِ النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون الله عزَّ وجلَّ عَمَّ بالمعنى المراد منه جميعَ الخَلْقِ، فقال جَلَّ ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضى من الخلقِ وأحصيناهم، وما كانوا يعملون، ومَنْ هو حيٌّ منكم، ومَنْ هو حادث بعدكم أيها الناس، وأعمال جميعكم خيرها وشرِّها، وأحصينا جميعَ ذلك، ونحنُ نحشرُ جميعَهُمْ، فنجازي كلًّا بأعماله، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرّاً فشرّاً، فيكون ذلك تهديداً ووعيداً للمستأخرين في الصفوف لشأنِ النساء، ولكلِّ مَنْ تَعَدَّى حَدَّ الله، وعملَ بغيرِ ما أذِنَ له به، ووعداً لمن تقدّم في الصفوف لسبب النساء، وسارع إلى محبةِ الله ورضوانه في أفعاله كلها.

وقوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ»، يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: وإنَّ ربك يا محمدُ هو يجمع جميع الأوَّلينَ والآخرين عنده يومَ القيامةِ، أهل الطاعةِ منهم والمعصية، وكلَّ أحدٍ من خَلْقِه، المستقدمينَ منهم والمستأخرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد خلقنا آدمَ وهو الإنسانُ من صلصال.

واختلف أهل التأويل في معنى الصلصال.

فقال بعضهم: هو الطينُ اليابس لم تُصِبْهُ نارٌ، فإذا نقرتَهُ صَلَّ، فسمعت له صلصلة.

وقال آخرون: الصلصال: المُنْتِنُ. وكأنهم وجَّهوا ذلك إلى أنه من قولهم: صَلَّ اللحمُ وأصلَّ: إذا أنتن، يقال ذلك باللغتين كلتيهما: يَفْعَل وأَفْعَلَ.

والذي هو أَوْلى بتأويل الآية أن يكون الصلصال في هذا الموضع الذي له صوتٌ من الصلصلة، وذلك أن الله تعالى وصفه في موضع آخر فقال: «خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخَّارِ»، فشبهه تعالى ذِكْرُه بأنه كان كالفخَّار في يُبْسِه، ولو كان معناه في ذلك المُنتِن لم يشبهه بالفخار. لأنَّ الفخار ليس بمنتنٍ فيشبَّه به في النتن غيره.

وأما قوله: «مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ»، فإنَّ الحمأ: جمع حَمْأة، وهو الطينُ المتغَيِّرُ إلى السواد. وقوله: «مَسْنُونٍ»، يعني: المتغير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ 

يقول تعالى ذِكْرُه: «والجانَّ» وقد بَيَّنا فيما مضى معنى الجانّ، ولِم قيلَ له جان. وعَنَى بالجانِّ ههنا: إبليس أبا الجنِّ، يقول تعالى ذِكْرُه: وإبليس خلقناه من قَبْلِ الإنسانِ من نار السموم.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «نارِ السَّمُومِ».

فقال بعضهم: هي السموم الحارَّة التي تقتل.

وقال آخرون: يعني بذلك من لَهَبِ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «و» اذكُرْ يا محمدُ «إذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، فإذَا سَوَّيْتُهُ»، يقول: فإذا صَوَّرْتُه فعدَّلْتُ صورته «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» فصار بشراً حياً «فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ» سُجُودَ تحيةٍ وتكرمةٍ لا سجودَ عبادة[1].

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما خلق الله ذلك البشر، ونفخ فيه الروحَ بعد أنْ سَوَّاهُ سجدَ الملائكةُ كلهم جميعاً، إلا إبليس، فإنه أبى أنْ يكونَ مع الساجدين في سجودهم لآدم حين سجدوا، فلم يسجدْ له معهم تَكَبُّراً وحَسَداً وبغياً، فقال الله تعالى ذكره: «يا إبليسُ مالكَ ألَّا تكونَ مَعَ السَّاجِدِينَ»، يقول: ما مَنَعَكَ من أنْ تكونَ مع الساجدين.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٢/٨٨.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» إبليسُ: «لَمْ أكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» وهو من طينٍ وأنا من نارٍ، والنارُ تأكلُ الطين.

وقوله: «فاخْرُجْ مِنْها» يقول الله تعالى ذِكْرُه لإبليس: «فاخْرُجْ مِنها، فإنَّكَ رَجِيمٌ».

والرجيم: المرجوم: صرف من مفعول إلى فعيل وهو المشتوم.

وقوله: «وَإنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلى يَوْمِ الدّينِ»، يقول: وإنَّ غَضَبَ اللهِ عليكَ بإخراجِهِ إياكَ من السمواتِ وطردكَ عنها إلى يومِ المجازاة، وذلك يوم القيامة. وقد بَيَّنا معنى اللعنة في غير موضعٍ بما أغنى عن إعادته ههنا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبليس: ربِّ فإذْ أخرجتني من السموات ولعنتني، فأخِّرْني إلى يومِ تبعثُ خَلْقَكَ من قبورهم، فتحشرهم لموقفِ القيامة، قال الله له: فإنك ممن أُخِّرَ هلاكُه إلى يومِ الوقتِ المعلوم لهلاكِ جميعِ خلقي، وذلك حين لا يبقى على الأرضِ من بني آدم دَيَّار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبليسُ: «رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي» بإغوائك «لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ»، وكأن قوله: «بِمَا أَغْوَيْتَنِي» خرجَ مخرجَ القسم، كما يقال: بالله، أو بعزَّةِ الله لأُغوينهم. وعَنَى بقوله: «لأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ»: لَأُحَسِّنَنَّ لهم معاصِيكَ، ولأُحَبِّبَنَّها إليهم في الأرض «وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أجمَعِينَ» يقول: ولأُضِلَّنَّهُمْ عن سبيلِ الرشاد «إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ»، يقول: إلَّا مَنْ أخلصته بتوفيقكَ فهديته، فانَّ ذلك ممن لا سلطانَ لي عليه ولا طاقة لي به. وقد قُرِىءَ «إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلِصِينَ»، فمن قرأ ذلك كذلك، فإنه يعني به: إلا مَنْ أخلص طاعتكَ، فإنه لا سبيلَ لي عليه[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝٤٢﴾

قوله تعالى: «هَذا صِراطٌ عليَّ مُسْتَقِيمٌ» بمعنى: هذا طريقٌ إليَّ مستقيم.

فكان معنى الكلام: هذا طريقٌ مرجعه إليَّ، فأُجازي كلًّا بأعمالهم، كما قال الله تعالى ذكره: «إنَّ ربَّكَ لبالمرْصَاد»، وذلك نظير قولِ القائل لمن يتوعده ويتهدده: طريقُكَ عليَّ، وأنا على طريقك، فكذلك قوله: «هَذا صِرَاطٌ» معناه: هذا طريقٌ عليَّ وهذا طريق إليَّ.

وقوله: «إنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إلَّا مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إن عبادي ليس لك عليهم حجةٌ، إلا من اتَّبعَكَ على مادعوته إليه من الضلالةِ ممن غَوَى وهَلَكَ.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٨٩.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لإبليس: وإنَّ جهنمَ لموعد مَنْ تبعكَ أجمعين «لها سَبعةُ أبوابٍ»، يقول: لجهنمَ سبعةُ أطباقٍ، لكلِّ طَبَقٍ منهم: يعني من أتباعِ إبليسَ جزءٌ، يعني: قسماً ونصيباً مقسوماً.

وذُكر أنَّ أبوابَ جهنم طبقاتٌ بعضُها فوقَ بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا الله بطاعته وخافوه، فتجنبوا معاصيه في جناتٍ وعيون، يقال لهم: «ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ» من عقابِ الله، أو أنْ تُسْلَبُوا نعمةً أنعمها الله عليكم، وكرامةً أكرمكم بها.

قوله: «وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلّ»، يقول: وأخرجنا ما في صدورِ هؤلاء المتقين الذين وصف صِفتهم من حقدٍ وضغينةٍ بعضِهم لبعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: لَايَمسُّ هؤلاء المتقينَ الذين وَصَفَ صِفتهم في

الجنات نَصَبٌ، يعني تَعَبٌ «ومَا هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ»، يقول: وما هُمْ من الجنةِ ونعيمِها وما أعطاهمُ اللهُ فيها بمخرجين، بل ذلك دائمٌ أبداً.

وقوله: «نَبِّئْ عِبادِي أنّي أنا الغَفُورُ الرَّحِيمُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أخبر عبادي يا محمدُ، أني أنا الذي أسترُ على ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا، بتركِ فضيحتِهم بها وعقوبَتِهم عليها، الرحيم بهم، أنْ أُعَذِّبَهُمْ بعد توبتهم منها عليها «وأنَّ عَذابِي هُو العَذَابُ الألِيمُ»، يقول: وأخبرهم أيضاً أنَّ عَذابي لمن أصَرَّ على معاصيَّ، وأقامَ عليها ولم يَتُبْ منها، هو العذابُ الموجِعُ الذي لا يشبهُه عذاب، هذا من الله تحذيرٌ لخلْقِه التقدم على معاصيه، وأمرٌ منه لهم بالإنابةِ والتوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وأخبر عبادي يا محمدُ عن ضيفِ إبراهيم: يعني الملائكة الذين دخلوا على إبراهيمَ خليلِ الرحمنِ حين أرسلهم رَبُّهم إلى قوم لوطٍ ليهلكوهم «فَقالُوا سَلاماً»، يقول: فقال الضيفُ لإبراهيم: سلاماً «قال: إنَّا مِنْكُمْ وجِلُون»، يقول: قال إبراهيم: إنا منكم خائفون. وقد بيَّنا وَجْهَ النصب في قوله: «سَلاماً»، وسببَ وَجَلِ إبراهيمَ من ضيفه، واختلاف المختلفين ودَلَّلْنَا على الصحيحِ من القولِ فيه فيما مضى قَبْلُ بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وأما قوله: «قالُوا سَلاماً»، وهو يعني به الضيف، فجمع الخبر عنهم، وهم في لفظٍ واحد، فإنَّ الضيف اسمٌ للواحد والاثنين والجمع مثل الوزن

والقطر والعدل، فلذلك جمع خبره، وهو لفظ واحد.

وقوله: «قَالُوا لا تَوْجَلْ»، يقول: قال الضيفُ لإبراهيم: لا توجل لاتَخَفْ[1] «إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ للملائكة الذين بَشَّرُوه بغلامٍ عليم «أَبَشَّرْتُمُونِي على أنْ مَسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ»، يقول: فبأيِّ شيءٍ تبشرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: قال ضيفُ إبراهيم له: بشرناكَ بحقٍّ يقين، وعِلْمٍ منَّا بأنَّ الله قد وَهَبَ لك غلاماً عليماً، فلا تَكُنْ من الذين يَقْنَطُونَ من فضلِ الله، فييأسُونَ منه، ولكن أبشِرْ بما بَشَّرْنَاكَ به واقبل البُشرى.

وقوله: «قال وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلَّا الضَّالُّونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ للضيفِ: ومَنْ ييأس من رحمةِ الله إلا القومُ الذين قد أخطئوا سبيلَ الصواب، وتركوا قصدَ السبيل في تركهم رجاءَ الله، ولا يخيب مَنْ رَجاهُ، فَضَلُّوا بذلك عن دينِ الله.

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «وَمَنْ يَقْنَطُ».

فقرأ ذلك عامَّة قَرَأة المدينة والكوفة «وَمَنْ يَقْنَطُ» بفتح النون إلا الأعمش

(١) انظر معاني القرآن للزجاج: ٣/١٨١.

والكسائي، فإنهما كسرا النون مِن «يَقْنَط». فأما الذين فتحوا النون منه ممن ذكرنا فانهم قرءوا «مِنْ بَعْدِ مَاقَنَطوا» بفتح القاف والنون. وأما الأعمش فكان يقرأ ذلك: من بعد ماقَنِطُوا، بكسر النون. وكان الكسائيّ يقرؤه بفتح النون. وكان أبوعمرو بن العلاء يقرأ الحرفين جميعاً على النحو الذي ذكرنا من قراءة الكسائي.

وأوْلى القراءاتِ في ذلك بالصواب قراءةُ مَنْ قرأه «مِنْ بَعْدِ مَاقَنَطوا» بفتح النون «وَمَنْ يَقْنِطُ» بكسر النون، لإجماع الحجة من القُرَّاءِ على فتحها في قوله: «مِنْ بعْدِ ماقَنَطُوا» فكسرها في «وَمَنْ يَقْنِطُ» أولى إذ كان مجمعاً على فنحها في قَنَط، لأنَّ فَعَل إذا كانت عين الفعل منها مفتوحة، ولم تكن من الحروفِ الستة التي هي حروف الحلق، فإنها تكون في يفْعِل مكسورة أو مضمومة. فأما الفتح فلا يُعرف ذلك في كلام العرب.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَـى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبراهيمُ للملائكة: فما شأنكم: ما أمرُكم أيُّها المرسلون؟ قالت الملائكةُ له: إنا أُرْسِلنا إلى قومٍ مجرمين: يقول: إلى قومٍ قد اكتسبوا الكفرَ بالله، إلا آلَ لوط: يقول: إلا أتباع لوط على ماهو عليه من الدينِ، فإنا لن نُهْلِكَهُمْ، بل نُنَجِّيهم من العذابِ الذي أمرنا أن نُعذِّبَ به قومَ لوط، سوى امرأةِ لوطٍ قَدَّرْنَا إنها من الغابرين: يقول: قَضَى الله فيها إنها لمن الباقين، ثم هي مُهْلَكَةٌ بَعْدُ. وقد بيَّنا الغابر فيما مضى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أتى رسلُ الله آلَ لوط، أنكرهم لوطٌ فلم يعرفهم، وقال لهم: «إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»: أي نُنْكركم لا نعرفكم، فقالت له الرسلُ: بل نحنُ رُسُلُ الله جئناكَ بما كان فيه قومُكَ يَشُكُّونَ أنه نازلٌ بهم من عذابِ الله على كفرهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الرُسُلُ للوط: وجئناكَ بالحقِّ اليقينِ من عندِ الله، وذلك الحقّ هو العذابُ الذي عَذَّبَ اللهُ به قومَ لوط. وقد ذكرت خبرهم في سورة هود وغيرها حين بعثَ الله رسله ليعذِّبَهُمْ به.

وقولهم: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ»، يقولون: إنا لصادقون فيما أخبرناكَ به يالوطُ من أنَّ الله مُهْلِك قومك «فَأَسْرِ بأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَيْلِ»، يقول تعالى ذكره مخبراً عن رسله أنهم قالوا للوط، فأسر بأهلكَ ببقيةٍ من الليلِ، واتَّبِعْ يالوطُ أدبارَ أهلك الذين تسري بهم، وكُنْ من ورائهم، وسِرْ خلفهم وهم أمامكَ، ولا يلتفتْ منكم وراءه أحد، وامضوا حيث يأمركم الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفرغنا إلى لوطٍ من ذلك الأمرِ، وأوحينا أنَّ دابرَ هؤلاء مقطوعُ مُصْبحينَ: يقول: إنَّ آخرَ قومكَ وأوَّلهم مَجْذُوذٍ مستأصَلُ صباحَ ليلتهم، وأنَّ مِنْ قَوْله «أنَّ دَابِرَ» في موضع نصبٍ رداً على الأمرِ بوقوع القضاء عليها. وقد يجوزُ أنْ تكونَ في موضع نصب بفقدِ الخافض، ويكون معناه: وقضينا إليه ذلك الأمرَ بأنَّ دابرَ هؤلاء مقطوعُ مُصبحين. وذُكر أنَّ ذلك في قراءة عبدالله: وقلنا إن دابرَ هؤلاء مقطوعُ مُصبحين. وعُنِي بقوله: «مُصْبِحينَ»: إذا أصبحوا، أو حين يصبحون.

وقوله: «وجاءَ أهْلُ المَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ»، يقول: وجاء أهل مدينة سَدُوم وهم قومُ لوط لما سمعوا أنَّ ضيفاً قد ضافَ لوطاً مستبشرينَ بنزولهم مدينتهم طمعاً منهم في ركوبِ الفاحشة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قال لوطٌ لقومه: إنَّ هؤلاء الذين جئتموهم تُريدونَ منهم الفاحشةَ ضيفي، وحَقٌّ على الرجلِ إكرامُ ضيفه، فلا تفضحونِ أيها القومُ في ضيفي، وأكرموني في ترككم التعرُّضَ لهم بالمكروه.

وقوله: «وَاتَّقُوا اللهَ»، يقول: وخافوا الله فيَّ وفي أنفسكم أنْ يحلَّ بكم عقابُـه «وَلا تُخْزُونِ»، يقول: ولا تُذِلُّوني ولا تُهينوني فيهم، بالتعرُّضِ لهم بالمكروه «قالُوا أو لَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالَمينَ»، يقول تعالى ذكره: قال للوطٍ قومُهُ: أو لم نَنْهَكَ أنْ تضيفَ أحداً من العالمين.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال لوطٌ لقومه: تزوَّجُوا النساء فَأْتُوهُنَّ، ولا تفعلوا ماقد حَرَّمَ اللهُ عليكم من إتيانِ الرجالِ، إنْ كنتم فاعلين ما آمرُكُمْ به، ومنتهين إلى أمري.

وقـوله: «لَعَمْرُكَ» يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وحياتكَ يا محمدُ، إنَّ قومكَ من قريش «لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ»، يقول: لفي ضلالتهم وجهلهم يَتردَّدُونَ.

وقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ»، يقول تعالى ذكره: فأخذتهم صاعقةُ العـذاب، وهي الصيحـةُ مشـرقين: يقـول: إذْ أشـرقوا، ومعناه: إذا أشرقتِ الشمسُ، ونَصَبَ مشـرقينَ ومصبحين على الحالِ بمعنى: إذْ أصبحوا، وإذ أشرقوا، يقال منه: صِيْحَ بهم: إذا أُهْلِكُوا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فجعلنا عاليَ أرضِهم سافِلَها، «وأمطرنا عليهم حِجارة مِن سجيِّل»، أي: من طين.

وقوله: «إنّ في ذلكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ»، يقول: إن في الذي فعلنا بقومِ لوطٍ من إهـلاكهم، وأحللنـا بهم من العـذابِ لَعَلاماتٍ ودلالاتٍ للمتفرِّسينَ المعتبرينَ بعلامات الله، وعِبَرِهِ على عواقبِ أمورِ أهلِ معاصيه والكفرِ به.

وإنما يعني تعالى ذِكْرُه بذلك قومَ نبيِّ الله ﷺ من قريش؛ يقول: فلِقومكَ يا محمدُ في قومِ لوطٍ، وما حَلَّ بهم من عذابِ الله حين كَذَّبُوا رسولهم، وتمادوا في غيهم، وضلالهم، مُعْتَبَر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذكره: وإنَّ هذه المدينةَ، مدينةَ سَدُوم، لَبِطَريقٍ واضحٍ مقيم يراها المجتازُ بها لا خَفَاءَ بها، ولا يبرح مكانها، فيجهل ذو لُبٍّ أمرها، وغبَّ معصيةِ الله، والكفر به.

وقوله: «إِنَّ فِي ذلك لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في صنيعنا بقومِ لوطٍ ما صنعنا بهم، لعلامةً ودلالةً بَيِّنَةً لمن آمنَ بالله على انتقامهِ من أهلِ الكفرِ به، وإنقاذه من عذابه، إذا نزلَ بقوم أهل الإيمان به منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقد كان أصحابُ الغَيْضةِ ظالمينَ، يقول: كانوا بالله كافرين، والأيكة: الشجرُ الملتفُّ المجتمع.

وقوله: «فانْتَقَمْنا منْهُمْ وإنَّهُما لَبِإمامٍ مُبِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فانتقمنا من ظَلَمَةِ أصحابِ الأيكة.

وقوله: «وإنَّهُما لَبِإمامٍ مُبينٍ»، يقول: وإنَّ مدينةَ أصحابِ الأيكة، ومدينةَ قومِ لوط، والهاء والميم في قوله: «وإنَّهُما» من ذِكْرِ المدينتين «لَبِإمامٍ»، يقول:

لبطريقٍ يأتمونَ به في سفرهم، ويهتدونَ به «مُبينٍ» يقول: يبين لمن ائتمَّ به استقامتُه، وإنما جُعِلَ الطريقُ إماماً لأنه يُؤَمُّ ويُتَّبَعُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: ولقد كَذَّبَ سُكَّان الحِجْرِ، وجُعِلُوا لِسُكْنَاهُمْ فيها ومُقَامِهِم بها أصحابَها، كما قال تعالى ذِكْرُهُ «ونَادَى أصحابُ الجَنَّةِ أصحَابَ النَّارِ أنْ قَدْ وجَدْنَا ما وعَدَنَا رَبُّنا حَقًّا»، فجعلهم أصحابها لسُكناهم فيها ومقامهم بها.

والحِجْر: مدينةُ ثمود.

وقـولـه: «وآتَيْناهُمْ آياتِنا فكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ»، يقول: وأَرَيْنَاهُمْ أدِلَّتنا وحُجَجنا على حقيقةِ ما بعثنا به إليهم رسولنا صالحاً، فكانوا عن آياتنا التي آتيناهُمُوها مُعْرِضينَ لا يعتبرونَ بها ولا يتعظون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: وكـان أصحـابُ الحجر، وهم ثمود قوم صالح، «ينحِتون مِنَ الجبال بُيُوتاً آمِنِينَ» من عذابِ الله، وقيل: آمنينَ من الخرابِ أنْ تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال. وقيل: آمنين من الموت.

وقـوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِيْنَ»، يقول: فأخذتهم صيحةُ الهلاكِ حين

أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم الذي وُعِدُوا العذابَ، وقيل لهم: تَمتَّعوا في داركم ثلاثةَ أيام.

وقوله: «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ»، يقول: فما دَفَعَ عنهم عذابَ الله ما كانوا يَجْترحونَ من الأعمالِ الخبيثةِ قبل ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما خلقنا الخلائقَ كُلَّها، سماءَها وأرضَها، ما فيهما وما بينهما، يعني بقوله: «ومَا بَيْنَهُما» مما في أطباقِ ذلك «إلَّا بالحَقِّ»، يقول: إلا بالعدلِ والإنصافِ، لا بالظلمِ والجَوْرِ. وإنما يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أنه لم يظلم أحداً من الأمم التي اقتصَّ قَصَصَها في هذه السورة، وقصص إهلاكه إياها بما فعلَ به من تعجيلِ النقمةِ له على كفره به، فيعذِّبَهُ ويهلكه بغيرِ استحقاق، لأنه لم يخلق السمواتِ والأرض وما بينهما بالظلم والجور، ولكنه خلق ذلك بالحقِّ والعدل.

وقوله: «وإنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنَّ الساعةَ، وهي الساعة التي تقومُ فيها القيامةُ لجائيةٌ، فارضَ بها لمشركي قومك الذين كذَّبُوكَ، ورَدُّوا عليكَ ماجِئْتَهُمْ به من الحقِّ «فاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ»، يقول: فأعْرِضْ عنهم إعراضاً جميلاً، واعْفُ عنهم عفواً حسناً.

وقوله: «إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ رَبَّكَ هو الذي خلقهم وخلق كلَّ شيءٍ، وهو عالمٌ بهم وبتدبيرهم، وما يأتون من الأفعال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى السبع الذي آتى اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ من المثاني.

فقال بعضهم: عَنَى بالسبع: السبع السور من أوَّلِ القرآن اللواتي يُعْرَفْنَ بالطول. وقائلو هذه المقالة مختلفون في المثاني، فكان بعضهم يقول: المثاني هذه السبع، وإنما سمين بذلك لأنهنّ ثُنيَ فيهنّ الأمثالُ والخبرُ والعِبَر.

وقال آخرون: عَنَى بذلك: سبع آيات وقالوا: هن آياتُ فاتحة الكتاب، لأنهنَّ سبعُ آياتٍ، وهم أيضا مختلفون في معنى المثاني، فقال بعضهم: إنما سمين مثانيَ لأنهن يثنين في كلِّ ركعةٍ من الصلاة.

وقال آخرون: عنى بالسبع المثاني: معاني القرآن.

وقـال آخـرون: من الذين قالوا عُنِي بالسبعِ المثاني: فاتحةُ الكتاب. المثاني هو القرآن العظيم.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: عَنَى بالسبع المثاني: السبع اللواتي هنّ آيات أُمِّ الكتاب، لصحةِ الخبرِ بذلك عن رسول الله ﷺ[1].

فإذ كان الصحيح من التأويل في ذلك ما قلنا، فالواجبُ أنْ تكونَ المثاني مُراداً بها القرآن كله، فيكون معنى الكلام: ولقد آتيناكَ سبعَ آياتٍ مما يَثْني بعض آيهِ بعضاً. وإذا كان ذلك كذلك كانت المثاني: جمع مَثْناة، وتكون آي القـرآن موصوفةً بذلك، لأنَّ بعضَها يَثْنِي بعضاً، وبعضها يتلو بعضاً بفصولٍ تفصلُ بينها. فيعرفُ انقضاء الآيةِ وابتداء التي تليها، كما وصفها به تعالى ذكره

---

(١) من حديث أبـي سعـيد بن الـمعلى في البخـاري (٤٤٧٤) و(٤٦٤٧) و(٤٧٠٣) و(٥٠٠٦)، وغيره.

فقال: «اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْن رَبَّهُمْ».

وأما قوله: «والقرآنَ العَظِيمَ»، فإنَّ القرآن معطوفٌ على السبع بمعنى: ولقد آتيناكَ سبعَ آياتٍ من القرآن، وغير ذلك من سائر القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تتمنينَّ يا محمدُ ما جعلنا من زينةِ هذه الدنيا متاعاً للأغنياء من قومك، الذين لا يؤمنونَ بالله واليوم الآخر، يتمتعونَ فيها، فإنَّ مِنْ ورائهم عذاباً غليظاً «وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ»، يقول: ولا تحزنْ على ما مُتِّعُوا به، فَعُجِّلَ لهم، فإنَّ لك في الآخرةِ ماهو خيرٌ منه، مع الذي قد عَجَّلنا لكَ في الدنيا من الكرامةِ بإعطائنا السبع المثاني والقرآن العظيم، يقال منه: مَدَّ فلانٌ عينه إلى مالِ فلان: إذا اشتهاهُ وتمنَّاهُ وأراده.

وقوله: «وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وألِنْ لمن آمنَ بك، واتَّبعَكَ واتبعَ كلامكَ، وقرِّبْهُمْ منكَ، ولا تَجْفُ بهم، ولا تَغْلُظْ عليهم. يأمُرهُ تعالى ذِكْرُه بالرِّفْقِ بالمؤمنين.

والجناحانِ من بني آدم: جَنْبَاهُ، والجناحان: الناحيتان، ومنه قول الله تعالى ذِكْرُه «وَاضْمُمْ يَدَكَ إلى جَناحِكَ»، قيل: معناه: إلى ناحيتكَ وجنبك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وقُلْ يا محمدُ للمشركين: إني أنا النذيرُ الذي قد أبانَ إنذارهُ لكم من البلاءِ والعقابِ أن ينزل بكم من الله على تماديكم في غيكم، كما أنزلنا على المقتسمين: يقول: مِثْلَ الذي أنزلَ الله تعالى من البلاءِ والعقابِ على الذين اقتسموا القرآن، فجعلوه عِضِين.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الذين عُنُوا بقوله: «المُقْتَسِمِينَ».

فقال بعضهم: عَنَى به: اليهود والنصارى، وقال: كان اقتسامهم أنهم اقتسموا القرآن وعَضُّوْهُ، فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه.

وقال آخرون: «المُقْتَسِمِينَ»: أهلُ الكتاب، ولكنهم سُمُّوا المقتسمينَ، لأنَّ بعضهم قال استهزاء بالقرآن: هذه السورة لي، وقال بعضهم: هذه لي.

وقـال آخـرون: هم أهـل الكتـاب، ولكنهم قيل لهم: المقتسمـون: لاقتسامهم كتبهم، وتفريقهم ذلك بإيمانِ بعضِهم ببعضِها، وكُفْرِه ببعضٍ، وكفرِ آخرينَ بما آمنَ به غيرهم، وإيمانُهم بما كفرَ به الآخرون.

وقال آخرون: عُنِي بذلك رهطٌ من كفارِ قريشٍ بأعيانهم.

وقـال آخـرون: عُنِيَ بذلك رهطٌ من قومِ صالحٍ الذين تقاسموا على تبييتِ صالح وأهله.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يُعْلِمَ قومه الذين عضوا القرآنَ ففرقوه، أنه نذيرٌ لهم من سَخَطِ الله تعالى وعقوبته، أن يَحُلَّ بهم على كفرهم ربهم، وتكذيبهم نبيهم، ماحلَّ بالمقتسمين من قبلهم ومنهم، وجائزٌ أن يكون عَنَى بالمقتسمين: أهلَ الكتابين: التوراة والإنجيل، لأنهم اقتسمـوا كتـابَ الله، فأقـرَّت اليهودُ ببعضِ التوراة وكَذَّبَتْ ببعضِهَا، وكذبت بالإنجيلِ والفرقانِ، وأقرَّت النصارى ببعضِ الإنجيلِ وكذَّبتْ ببعضه وبالفرقان. وجائزٌ أنْ يكون عُنِي بذلك: المشركونَ من قريش، لأنهم

اقتسموا القرآن، فسماه بعضهم شعراً، وبعضٌ كهانةً، وبعضٌ أساطير الأوّلين.
وجائز أن يكون عُنِي به الفريقان، وممكنٌ أنْ يكونَ عُنِيَ به المقتسمون على صالح من قومه، فإذْ لم يكن في التنزيل دلالةٌ على أنه عُنِي به أحدُ الفرقِ الثلاثةِ دونَ الآخرين، ولا في خبرٍ عن الرسولِ ﷺ، ولا في فطرةِ عَقْلٍ، وكان ظاهر الآية محتَملاً ما وصفت، وجب أن يكون مقضياً بأنَّ كُلَّ من اقتسم كتاباً لله بتكذيبِ بعضٍ وتصديقِ بعضٍ، واقتسم على معصية الله ممن حَلَّ به عاجلُ نقمـةِ الله في الـدار الدنيا قبل نزولِ هذه الآية، فداخلٌ في ذلك، لأنهم، لأشْكالهم من أهلِ الكُفر بالله، كانوا عِبرةً، وللمتَّعظينَ بهم منهم عِظَة.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ»، فقال بعضهم: معناه: الذين جعلوا القرآن فِرَقاً مفترقة.

وقـال آخرون: بل هي جمع عِضَة، جُمِعَتْ عِضِين كما جمعت البُرَة بُرِين، والعِزة عِزين، فإذا وُجِّه ذلك إلى هذا التأويلِ كان أصلُ الكلام عِضَهَة، ذهبت هاؤها الأصلية، كما نقصوا الهاء من الشَّفَة وأصلها شَفَهَة، ومن الشاة، وأصلها شاهة، يدلُّ على أن ذلك الأصلَ تصغيرهم الشفة: شُفَيْهة، والشاة: شُوَيْهة، فيردُّونَ الهاءَ التي تسقط في غير حالِ التصغير إليها في حال التصغير، يقال منه: عَضَهْتُ الرجل أعَضَهُهُ عَضْهاً: إذا بَهَتَهُ، وقذفته بُبهتان، وكأن تأويل مَنْ تأوَّلَ ذلك كذلك: الذين عَضَهوا القرآنَ، فقالوا: هو سِحْرٌ، أو هو شِعرٌ.

وقد قال جماعة من أهل التأويل: إنه إنما عَنَى بالعَضْهِ في هذا الموضع، نِسْبَتَهم إياهُ إلى أنه سِحْرٌ خاصة دون غيرِه من معاني الذمِّ.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أمر نبيه ﷺ أن يُعْلِمَ قوماً عَضَهُوا القرآنَ أنه لهم نذيرٌ من عقوبةٍ تنزلُ بهم بِعَضْهِهِمْ إياهُ مثل ماأُنْزل بالمقتسمين، وكان عَضْهُهُم إياه: قَذْفَهُمُوه بالباطلِ، وقِيْلهم إنه شعرٌ وسحر، وما أشبهَ ذلك.

وإنما قلنا: إنَّ ذلك أوْلى التأويلات به لدلالةِ ما قَبْلَهُ من ابتداءِ السورة وما بعده، وذلك قوله: «إنَّا كَفَيْناكَ المُسْتَهْزِئينَ» على صِحَّةِ ما قُلْنَا، وإنه إنما عُنِيَ بقوله: «الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ» مشركي قومِهِ. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنه لم يكن في مشركي قومه مَنْ يؤمنُ ببعضِ القرآنِ ويكفر ببعضٍ، بل إنما كان قومهُ في أمرِهِ على أحدِ معنيين: إما مؤمن بجميعه، وإما كافر بجميعه. وإذْ كان ذلك كذلك، فالصحيحُ من القول في معنى قوله: «الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ» قول الذين زعموا أنهم عَضَهوه، فقال بعضهم: هو سحرٌ. وقال بعضهم: هو شعر. وقال بعضهم: هو كهانة، وما أشبه ذلك من القول، أو عَضَّوْه ففرقوه[1]، بنحوِ ذلك من القول. وإذا كان ذلك معناه احتمل قوله: عِضِين، أنْ يكـون جمع: عِضة، واحتمل أن يكون جمع عُضْو، لأنَّ معنى التعضية: التفـريق، كمـا تُعضى الجَـزُور والشاة، فتفرق أعضاء. والعَضْهُ: البَهْتُ، ورميه بالباطل من القول، فهما متقاربان في المعنى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٣ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: فَوَرَبِّكَ يا محمدُ لنسألنَّ هؤلاء الذين جعلوا القرآن في الدنيا عِضين في الآخرةِ عما كانوا يعملونَ في الدنيا، فيما أمرنـاهم به، وفيما بعثناكَ به إليهم من آي كتابي الذي أنزلتُه إليهم، وفيما دَعَوْنَاهُمْ إليه من الإقرار به، ومن توحيدي والبراءةِ من الأندادِ والأوثان.

ويعني بقوله: «فاصدع بما تُؤمَرْ»، فامضِ وافرُق.

وأما قوله: «وأعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: بَلِّغْ

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٢/٩٢.

قومكَ ما أُرسلتَ به، واكفُفْ عن حرب المشركين بالله وقتالهم، وذلك قبلَ أنْ يفرضَ عليه جهادَهُمْ، ثم نَسَخَ ذلك بقوله: «فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: إنا كفيناكَ المستهزئينَ يا محمد، الذين يستهزئون بكَ، ويسخرونَ منك، فاصدعْ بأمرِ الله، ولا تَخَفْ شيئاً سوى الله، فإنَّ الله كافيكَ مَنْ نَاصَبَكَ وآذاك، كما كفاكَ المستهزئين، وكان رؤساءُ المستهزئين قوماً من قريش معروفين.

وقوله: «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» وعيدٌ من الله تعالى ذِكْرُه، وتهديدٌ للمستهزئينَ الذين أَخبرَ نبيهُ ﷺ أنه قد كَفَاهُ أمْرَهُمْ بقوله تعالى ذِكْرُه: إنا كفيناك يا محمدُ الساخرينَ منك، الجاعلينَ مع الله شريكاً في عبادته، فسوف يعلمونَ ما يَلْقَوْنَ من عذابِ الله عند مصيرهم إليه في القيامة، وما يَحُلُّ بهم من البلاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: ولقد نَعْلَمُ يا محمدُ أنك يَضِيقُ صَدْرُكَ بما يقولُ هؤلاء المشركون من قومك من تكذيبهم إياك واستهزائهم بك، وبما جئتهم به، وأنَّ ذلك يُحْرِجك «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، يقول: فافْزَعْ فيما نابكَ من أمرٍ تَكْرَهُهُ منهم إلى الشكرِ لله والثناءِ عليه والصلاة، يَكْفِكَ اللهُ من ذلك

ما أهَمَّكَ، وهذا نحو الخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ، أنه كان إذا حَزَبه أمر فَزِع إلى الصلاة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: واعبد رَبَّكَ حتى يأتيكَ الموتُ، الذي هو مُوْقَنٌ به[1] وقيل: يَقِينٌ، وهو موقَنٌ به، كما قيل: خَمْرٌ عَتِيقٌ، وهي مُعَتَّقَة.

(١) ساق المؤلف حديث أم العلاء في قصة عثمان بن مَظعون عندما حضره الموت وقول رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير» وهو في البخاري (١٢٤٣) وغيره، وهذا لفظه.



سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: أتى أمـرُ الله فَقَـرُبَ منكم أيها الناسُ ودَنَا، فلا تستعجلوا وقوعَهُ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الأمرِ الذي أعْلَمَ اللهُ عباده مجيئه وقُرْبَهُ منهم ما هُوَ، وأيّ شيءٍ هو؟

فقال بعضهم: هو فرائضه وأحكامه.

وقال آخرون: بل ذلك وعيدٌ من الله لأهلِ الشرك به، أخبرهم أنَّ الساعةَ قد قَرُبت، وأنَّ عذابهم قد حضر أجله، فدنا.

وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: هو تهديدٌ من الله أهلَ الكفرِ به وبرسوله، وإعلامٌ منه لهم قُرْبَ العذابِ منهم والهلاك، وذلك أنه عَقَّبَ ذلك بقوله سبحانه وتعالى: «عَمَّا يُشْرِكونَ»، فَدَلَّ بذلك على تقريعهِ المشركينَ، ووعيده لهم. وبعد، فإنه لم يَبْلُغْنَا أنَّ أحداً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ استعجلَ فرائضَ قبل أنْ تُفْرضَ عليهم، فيقال لهم من أجل ذلك: قد

جاءتكم فرائضُ الله فلا تستعجلوها. وأما مستعجلو العذاب من المشركين، فقد كانوا كثيراً.

وقوله سبحانه وتعالى: «عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه تنزيهاً لله، وعُلُوّاً له عن الشركِ الذي كانت قريش، ومَنْ كان من العربِ على مِثلِ ماهُمْ عليه يَدِين به.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله تعالى: «عَمَّا يُشْرِكُونَ» فقرأ ذلك أهلُ المدينة وبعض البصريين والكوفيين «عَمَّا يُشْرِكُونَ» بالياء على الخبرِ عن أهلِ الكفر بالله، وتوجيه للخطاب بالاستعجالِ إلى أصحابِ رسول الله ﷺ، وكذلك قرءوا الثانية بالياء. وقرأ ذلك عامَّة قَرَأَةِ الكوفة بالتاء على توجيه الخطاب بقوله: «فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ» إلى أصحابِ رسول الله ﷺ، وبقوله تعالى «عَمَّا تُشْرِكُونَ» إلى المشركين. والقراءة بالتاء في الحرفين جميعاً على وجه الخطابِ للمشركين أوْلى بالصوابِ لما بيَّنتُ من التأويل، أنَّ ذلك إنما هو وعيدٌ من الله للمشركين، ابتدأ أوَّل الآية بتهديدهم، وختم آخرها بنكيرِ فعلهم، واستعظامِ كُفْرِهم على وجهِ الخطاب لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾

فتأويل الكلام: يُنزِّلُ الله ملائكته بما يَحْيَا به الحقُّ، ويضمحلُّ به الباطلُ من أمره على مَنْ يشاءُ من عباده، يعني على مَنْ يشاء من رسله أنْ أنذروا، فأنْ الأولى في موضعِ خفضٍ، ردّاً على الروح، والثانية في موضع نصب بأنذروا. ومعنى الكلام: ينزلُ الملائكةَ بالروحِ من أمره على مَنْ يشاء من عباده، بأنْ أنذروا عبادي سطوتي على كُفرهم بي وإشراكهم في اتخاذهم معي

الآلهةَ والأوثانَ، فإنه لا إله إلاَّ أنا، يقول: لا تنبغي الألوهةُ إلا لي، ولا يصلح أن يُعْبَدَ شيءٌ سواي، فاتقونِ: يقول: فاحذروني بأداء فرائضي، وإفرادِ العبادة، وإخلاصِ الربوبية لي، فإنَّ ذلك نجاتكم من الهلكة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُعَرِّفاً خَلْقَهُ حُجَّتَهُ عليهم في توحيده، وأنه لا تصلحُ الألوهةُ إلا له: خلقَ رَبُّكم أيها الناسُ السمواتِ والأرضَ بالعدلِ، وهو الحقُّ منفرداً بخلقها، لم يشركه في إنشائها وإحداثها شريكٌ، ولم يُعِنْهُ عليه مُعينٌ، فأنَّى يكونُ له شريك «تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول: جَلَّ ثناؤه: عَلاَ رَبُّكم أيها القومُ عن شِرْكِكُمْ ودعواكم إلهاً دونه، فارتفع عن أنْ يكونَ له مِثْلٌ أو شريكٌ أو ظهير، لأنه لا يكونُ إلهاً إلا مَنْ يخلقُ ويُنشىءُ بقدرته مثل السمواتِ والأرض، ويبتدعُ الأجسامَ فَيُحْدِثُها من غيرِ شيء، وليس ذلك في قُدْرةِ أحدٍ سوى الله الواحد القهَّار الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له، ولا تصلحُ الألوهةُ لشيءٍ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن حججه عليكم أيضاً أيها الناسُ، أنه خلقَ الإنسانَ من نطفةٍ، فأحدثَ من ماء مَهينٍ خلقاً عجيباً، قلبه تاراتٍ خلقاً بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاث، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تَمَّ خَلْقُه ونفخ فيه الروح، فغذّاه ورزقه القوتَ ونَمَّاهُ، حتى إذا استوى على سُوقِه، كفر بنعمةِ ربه،

وجحد مُدَبِّرَهُ، وعَبَدَ مَنْ لا يضرُّ ولا ينفع، وخاصمَ إلهه، فقال: «مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ»، ونسِي الذي خلقه، فسوَّاهُ خَلْقاً سوِّياً من ماء مهين، ويعني بالمبين: أنه يبين عن خصومته بمنطقه، ويجادل بلسانه، فذلك إبانته، وعَنَى بالإنسان: جميعَ الناس، أخرج بلفظ الواحد، وهو في معنى الجميع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن حججه عليكم أيها الناسُ ما خَلَقَ لكم من الأنعامِ، فسخَّرها لكم، وجعلَ لكم من أصوافها وأوبارِهَا وأشعارِهَا ملابسَ تدفئون بها، ومنافع من ألبانها، وظهورها تركبونها، «وَمِنْها تَأْكُلُونَ»، يقول: ومن الأنعام ما تأكلونَ لحمَهُ كالإبلِ والبقرِ والغنمِ، وسائرِ ما يُؤكَلُ لحمه، وحذفت «ما» من الكلامِ لدلالةِ مِنْ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧

يقول تعالى ذِكْرُه: ولكم في هذه الأنعام والمواشي التي خلقها لكم «جمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ»، يعني: تردُّونَها بالعشيِّ من مسارحها إلى مَرَاحها ومنازلها التي تأوي إليها، ولذلك سمي المكان: المراح، لأنها تراح إليه عشياً، فتأوي إليه، يقال منه: أراح فلان ماشيته، فهو يريحها إراحة.

وقولـه: «وَحِينَ تَسْـرَحُونَ»، يقول: وفي وقت إخراجِكُمُوهَا غدوةٍ من مُراحهـا إلى مسارحها، يقال منه: سرح فلان ماشيته، يسرحها تسريحاً، إذا

أخـرجهـا للرعي غدوة، وسـرَحت الماشية: إذا خرجت للمرعى تسرح سرحاً وسروحاً، فالسرح بالغداة، والإراحة بالعشيّ.

وقوله: «وتَحْمِلُ أثْقالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إلَّا بِشِقّ الأنْفُسِ»، يقول: وتحملُ هذه الأنعامُ أثقالَكُمْ إلى بلدٍ آخر لم تكونوا بالغيه إلا بجهدٍ من أنفسكم شديد، ومشقة عظيمة.

وقوله: «إنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربكم أيها الناسُ ذو رأفـةٍ بكم، ورحمـة؛ مِنْ رحمتـهِ بكم، خَلَقَ لكم الأنعـامَ لمنـافعكم ومصالحكم، وخلق السمواتِ والأرضَ أدلةً لكم على وحدانيةِ ربكم، ومعرفةِ إلهكم، لتشكروهُ على نعمهِ عليكم، فيزيدكم من فضله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: وخلقَ الخيلَ والبغالَ والحمير لكم أيضاً لتركبوها «وزينـةً»، يقول: وجعلها لكم زينةً تتزينون بها مع المنافعِ التي فيها لكم، للركوبِ وغيرِ ذلك.

وكان بعضُ أهلِ العلم يرى أنَّ في هذه الآية دلالة على تحريمِ أكلِ لحومِ الخيل.

وكان جماعةٌ غيرهم من أهلِ العلم يخالفونهم في هذا التأويل، ويرون أنَّ ذلك غير دالٍّ على تحريمِ شيءٍ، وأنَّ الله جَلَّ ثناؤه إنما عَرَّفَ عبادَهُ بهذه الآية، وسـائر ما في أوائلِ هذه السورة نِعَمَهُ عليهم ونَبَّههم به على حججه عليهم، وأدلته على وحدانيته، وخَطَأَ فِعْلِ مَنْ يشركُ به من أهلِ الشرك.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، ما قاله أهلُ القول الثاني، وذلك أنه لو كان في قوله تعالى ذِكْرُه: «لِتَرْكَبُوها» دلالةً على أنها لا تصلحُ، إذْ كانت للركوب للأكلِ ـ لكانَ في قوله: «فِيها دِفْءٌ ومَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ» دلالة على أنها لا تصلحُ إذْ كانت للأكلِ والدِّفْءِ للركوب، وفي إجماعِ الجميعِ على أن رُكُوبَ ما قال تعالى ذِكْرُه: «وَمِنْها تَأْكُلُونَ» جائزٌ حلالٌ غيرُ حرامٍ، دليلٌ واضح على أنَّ أكلَ ما قال «لِتَرْكَبُوها» جائزٌ حلال غير حرام، إلا بما نصَّ على تحريمهِ أو وضع على تحريمه دلالة من كتابٍ أو وحي إلى رسولِه ﷺ. فأما بهذه الآية فلا يحرمُ أكلُ شيءٍ. وقد وضع الدلالةَ على تحريمِ لحوم الحُمُرِ الأهلية بوحيِهِ إلى رسولِ الله ﷺ، وعلى البغالِ بما قد بَيَّنا في كتابنا: «كتاب الأطعمة» بما أَغْنَى عن إعادتهِ في هذا الموضع، إذ لم يكن هذا الموضعُ من مواضعِ البيان عن تحريم ذلك، وإنما ذكرنا ماذكرنا ليدلَّ على أنْ لا وجهَ لقولِ مَنِ استدلَّ بهذه الآية على تحريمِ لحم الفرس.

وقوله: «وَيَخْلُقُ مالا تَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذكره: ويخلقُ رَبُّكم مع خَلْقِه هذه الأشياء التي ذكرها لكم مالا تعلمون، مما أَعَدَّ في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تَرَهُ عينٌ، ولا سمعته أذنٌ، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذكره: وعلى الله أيها الناسُ بيانُ طريقِ الحقِّ لكم، فمن اهتدى فلنفسه، ومَنْ ضلَّ فإنما يضلُّ عليها. والسبيل: هي الطريق، والقصد من الطريق: المستقيمُ الذي لا اعوجاجَ فيه.

وقوله: «وَمِنْها جائِرٌ»، يعني تعالى ذكره: ومن السبيلِ جائرٌ عن الاستقامةِ

معوجٌّ، فالقاصدُ من السُّبُلِ: الإسلامُ، والجائر منها: اليهوديةُ والنصرانية، وغير ذلك من مِلَلِ الكُفْرِ كلها جائر عن سواء السبيل وقصدها، سوى الحنيفية المسلمة. وقيل: ومنها جائر، لأنَّ السبيلَ يُؤَنَّثُ ويُذَكَّرُ، فأنث في هذا الموضع. وقد كان بعضهم يقول: وإنما قيل: ومنها، لأنَّ السبيل وإن كان لفظها لفظ واحد فمعناها الجمع.

وقوله: «ولَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أجْمَعِينَ»، يقول: ولو شاء الله للطف بجميعِكم أيها الناسُ بتوفيقه، فكنتم تهتدون، وتَلْزَمُونَ قصدَ السبيل، ولا تجورون عنه، فتتفرَّقُونَ في سُبُلٍ عن الحقِّ جائرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذكره: والذي أنعم عليكم هذه النعم، وخلقَ لكم الأنعامَ والخيلَ وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم، هو الربُّ الذي أنزل من السماء ماء، يعني: مطراً لكم من ذلك الماء، شرابٌ تشربونه، ومنه شرابُ أشجاركم، وحياةُ غروسكم ونباتها «فِيهِ تُسِيمُونَ»، يقول: في الشجر الذي ينبت من الماء الذي أنزل من السماء تُسيمون، يعني ترعون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُنبتُ لكم رَبُّكم بالماءِ الذي أنزلَ لكم من السماءِ زَرْعَكم وزيتونَكم ونخيلكم وأعنابكم، ومن كلِّ الثمرات: يعني من كلِّ الفواكه

غير ذلك أرزاقاً لكم وأقواتاً وإداماً وفاكهة، نعمةً منه عليكم بذلك وتفضُّلاً، وحُجةً على مَنْ كفر به منكم. «إنَّ فِي ذلكَ لآيَةً»، يقول جَلَّ ثناؤه: إن في إخراج الله بما ينزل من السماء من ماء ما وَصَفَ لكم لآيةً: يقول: لدلالةً واضحةً، وعلامةً بَيِّنَةً «لقوم يَتَفَكَّرُونَ»، يقول: لقوم يعتبرونَ مواعظَ الله، ويتفكَّرونَ في حججه، فيتذكرون وينيبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن نِعَمه عليكم أيها الناسُ مع التي ذكرها قَبْلُ أنْ سَخَّرَ لكم الليلَ والنهار يتعاقبان عليكم هذا لتصرّفكم في معاشكم، وهذا لسكنكم فيه، والشمس والقمر لمعرفةِ أوقاتِ أزمنتكم وشهوركم وسنيكم، وصلاح معايشكم «والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ» لكم بأمرِ الله تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظُلماتِ البَرِّ والبحر «إنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أنَّ في تسخيرِ الله ذلك على ماسخره لدلالاتٍ واضحاتٍ لقومٍ يعقلون حُجَجَ الله، ويفهمونَ عنه تنبيهه إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «ومَا ذَرأَ لَكُمْ» وسخر لكم ما ذَرَأَ: أي ما خَلَقَ لكم في الأرض مختلفاً ألوانهُ، من الدوابِّ والثمار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟

﴿مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذي فعلَ هذه الأفعالَ بكم. وأنعمَ عليكم، أيها الناسُ هذه النِّعَم: الذي سَخَّرَ لكمُ البحرَ، وهو كُلُّ نهرٍ، ملحاً كان ماؤُه أو عذباً «لتأْكُلُوا منْهُ لحَمْا طريًّا»، وهو السمك الذي يصطاد منه «وتَسْتَخْرِجُوا منْهُ حلْيَةً تَلْبَسُوَنها»، وهي اللؤلؤ والمرجان.

وقوله: «وتَرَى الفُلْكَ مَوَاخرَ فِيه» المَخْرُ في كلام العرب: صوتُ هبوبِ الريح، إذا اشتدَّ هبوبها، وهو في هذا لموضع: صوتُ جَرْي السفينةِ بالريح إذا عصفت وشقها الماء حينئذٍ بصدرها، يقال منه: مخرت السفينة تمخر مخراً ومخوراً. وهي ماخرة، ويقال: امتخرتَ الريحَ وتَمَخَّرْتَها: إذا نظرتَ من أينَ هبوبها، وتسمَّعتَ صوتَ هبوبها.

وقـولـه: «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ»، يقول تعالى ذكره: ولتتصرَّفُوا في طَلَبِ معايشكم بالتجارةِ سَخَّرَ لكم.

وقـولـه: «وَلَعَلَّكُم تشْكُرُونَ»، يقول: ولتشكروا ربكم على ما أنعمَ به عليكم من ذلك. سخر لكم ماسَخَّرَ من هذه الأشياء التي عَدَّدَهَا في هذه الآيات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: ومن نِعَمِهِ عليكم أيها الناسُ أيضاً، أنْ ألقى في الأرض رواسي، وهي جمع راسية، وهي الثوابتُ في الأرض من الجبال.

وقوله: «أنْ تَميدَ بِكُمْ»، يعني: أنْ لا تميدَ بكم، وذلك كقوله: «يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أنْ تَضِلُّوا»، والمعنى: أنْ لا تَضِلُّوا، وذلك أنه جَلَّ ثناؤه أرسى الأرضَ بالجبالِ لئلا يميدَ خَلْقُه الذي على ظهرها، بل وقد كانت مائدة قبل أن تُرْسَى بها.

وقوله: «وأنهَاراً»، يقول: وجعل فيها أنهاراً، فعطف بالأنهار على الرواسي، وأعملَ فيها ما أعملَ في الرواسي، إذ كان مفهوماً معنى الكلام والمراد منه.

وقوله: «وَسُبُلًا»، وهي جمع سبيل، كما الطرق: جمع طريق.

ومعنى الكلام: وجعل لكم أيها الناس في الأرض سبُلاً وفِجاجاً تسلكونها، وتسيرون فيها في حوائِجكم، وطَلَبِ معايِشِكم رحمةً بكم، ونعمةً منه بذلك عليكم ولو عَمَّاهَا عليكم لهلكتم ضلالاً وحيرة.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»، يقول: لكي تهتدوا بهذه السبلِ التي جعلها لكم في الأرض إلى الأماكن التي تقصدون، والمواضع التي تريدون، فلا تضلوا وتتحيروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ



اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بالعلامات.

فقال بعضهم: عَنَى بها معالم الطرق بالنهار.

وقال آخرون: عَنَى بها النجومَ.

وقال آخرون: عَنَى بها الجبالَ.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب أنْ يُقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه عَدَّدَ على عباده من نعمه، إنعامَهُ عليهم بما جعلَ لهم من العلاماتِ التي يهتدونَ بها في مسالكهم وطُرُقِهم التي يسيرونها، ولم يخصص بذلك بعضَ العلاماتِ دونَ بعضٍ، فكلُّ علامةٍ استدلَّ بها الناسُ على طرقهم، وفجاجِ سُبُلهم، فداخلٌ في قوله «وَعَلاماتٍ». والطرقُ المسبولة: المَوْطُوءةُ، علامةٌ للناحية المقصودة، والجبالُ علاماتٌ يُهْتَدَى بهنَّ إلى قَصْدِ السبيل، وكذلك النجومُ بالليل، غير أنَّ الذي هو أوْلى بتأويل الآية أنْ تكونَ العلاماتُ من أدلة النهار إذ كان الله قد فصل منها أدلة الليل بقوله: «وبالنَّجْم هم يَهْتَدُونَ»، وإذْ كان ذلك أشبه وأوْلى بتأويل الآية، فالواجبُ أنْ يكونَ القولُ في ذلك. أنَّ العلامات: معالم الطرق وأماراتها التي يُهْتَدَى بها إلى المستقيم منها نهاراً، وأنْ يكونَ النجم الذي يهتدى به ليلاً هو الجدي والفرقدان، لأنَّ بها اهتداء السفر دون غيرها من النجوم.

فتأويل الكلام إذن: وجعلَ لكم أيها الناسُ علاماتٍ تستدلون بها نهاراً على طرقكم في أسفاركم، ونجوماً تهتدون بها ليلاً في سُبلكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لِعَبَدةِ الأوثان والأصنام: أَفَمنْ يَخْلُقُ هذه الخلائقَ العجيبةَ التي عددناها عليكم وينعم عليكم هذه النعمَ العظيمةَ، كَمَنْ لا يخلقُ شيئاً، ولا ينعمُ عليكم نعمةً صغيرة ولا كبيرة: يقول: أتشركون هذا في عبادةِ هذا؟ يُعَرِّفُهم بذلك عِظَمَ جَهْلِهم، وسوءَ نَظَرهم لأنفسهم، وقلَّةَ شُكْرِهم لمن

أنعم عليهم بالنعم التي عَدَّدَهَا عليهم، التي لا يحصيها أحدٌ غيره، قال لهم جلَّ ثناؤه مُوَبِّخهم: «أفلا تَذَكَّرُونَ» أيها الناس. يقول: أفلا تذكرون نعمَ الله عليكم، وعظيمَ سُلطانهِ وقُدرته على ما شاء، وعَجْزَ أوثانِكم وضَعْفَها ومهانتها، وأنها لا تجلبُ إلى نفسها نفعاً، ولا تدفع عنها ضرّاً، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه مقيمون من عبادَتِكُموها وإقراركم لها بالألوهة.

وقوله: «وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها» لاتُطِيقُوا أداءَ شُكْرِها، «إنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنَّ الله لغفورٌ لما كان منكم من تقصيرٍ في شكرِ بعضِ ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباعِ مرضاته، رحيمٌ بكم أنْ يُعَذِّبَكُمْ عليه بعد الإنابةِ إليه والتوبة.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي هو إلهكُم أيها الناسُ، يعلم ما تُسِرُّونَ في أنفسكم من ضمائركم فتخفُونَهُ عن غيركم، فما تُبْدُونَهُ بألسنتكم وجوارحكم، وما تعلنونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم به يومَ القيامة، المحسن منكم بإحسانِهِ، والمسيء منكم بإساءته، ومُسَائِلُكُمْ عما كان منكم من الشكرِ في الدنيا على نعمه التي أنعمها عليكم فيها التي أحصيتم، والتي لم تُحْصُوا.

وقـوله: «والَّذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخلَقُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأوثانكم الذين تَدْعُونَ من دونِ الله أيها الناسُ آلهة لا تَخْلُقُ شيئاً وهي تُخْلَقُ، فكيف يكونُ إلهاً ما كان مصنوعاً مُدَبَّراً، لا تملكُ لأنفسها نفعاً ولا ضرّاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركين من قريش: والذين تَدْعُونَ من دونِ الله أيها الناسُ «أمْوَاتُ غيرُ أحيْاءٍ»، وجعلها جَلَّ ثناؤه أمواتاً غير أحياء، إذ كانت لا أرواحَ فيها.

وقوله: «ومَا يَشْعُرُون»، يقول: وما تدري أصنامُكم التي تَدْعُونَ من دونِ الله متى تُبْعَثُ. وقيل: إنما عَنَى بذلك الكفار، أنهم لا يدرون متى يُبعثون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: معبودُكم الذي يستحقُّ عليكم العبادةَ، وإفراد الطاعة له دون سائر الأشياء: معبودٌ واحدٌ، لأنه لا تصلحُ العبادةُ إلا له، فأفْرِدُوا له الطاعةَ، وأخْلِصُوا له العبادةَ، ولا تجعلوا معه شريكاً سواه «فالَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالذين لا يُصَدِّقُونَ بوعدِ الله ووعيدِه، ولا يُقِرُّونَ بالمعَادِ إليه بعد المماتِ قلوبُهم مُنْكِرةٌ، يقول تعالى ذِكْرُه: مستنكرة لما نقص عليهم من قدرةِ الله وعظمته، وجميلِ نِعَمِه عليهم، وأنَّ العبادة لا تصلحُ إلا له، والألوهة ليست لشيءٍ غيره يقول: وهم مستكبرونَ عن إفرادِ الله بالألوهةِ، والإقرارِ له بالوحدانيةِ، اتباعاً منهم لما مَضَى عليه من الشرك بالله أسلافُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: لا جَرَم حقاً أنَّ الله يعلمُ ما يُسِرُّ هؤلاء المشركون من إنكارهم ماذكرنا من الأنباءِ في هذه السورة، واعتقادهم نكيرَ قولنا لهم: إلهكم إلهٌ واحد، واستكبارهم على الله، وما يعلنون من كفرهم بالله وفريتهم عليه. «إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرينَ»، يقول: إنَّ الله لا يحبُّ المستكبرينَ عليه أن يوحدوه ويخلعوا مادونه من الآلهة والأنداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقــول تعــالى ذِكْــرُه: وإذا قيل لهؤلاء الـذين لا يؤمنـون بالآخـرة من المشركين، ماذا أنزلَ رَبُّكم، أيّ شيءٍ أنزلَ ربكم، قالوا: الذي أنزل ما سَطَّرهُ الأوَّلونَ من قَبْلِنَا من الأباطيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقولُ هؤلاء المشركون لمن سألهم، ماذا أنزل ربكم الذي أنزل ربنا فيما يزعم محمد عليه: أساطيرُ الأوَّلين، لتكون لهم ذنوبهم التي هُمْ عليها مقيمون من تكذيبهم الله، وكُفْرهم بما أنزلَ على رسوله ﷺ، ومن ذنوبِ الذين يَصُدُّونَهُمْ عن الإيمانِ بالله يُضِلُّونَ: يَفْتِنونَ منهم بغير علم[1].

وقوله: «ألا ساءَ ما يَزِرُونَ»، يقول: ألا ساء الإِثمُ الذي يأثمون، والثقلُ الذي يتحملون.

---

(١) أي: يحملون ذنـوب ضلالهم كاملة وبعض ذنـوب من ضل بضـلالهم، وهو وزر الإضلال لأن المضل والضال شريكان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد مَكَرَ الذين من قبل هؤلاء المشركين الذين يَصُدُّونَ عن سبيلِ الله، مَنْ أراد اتباع دينِ الله، فراموا مُغَالبةَ الله ببناءٍ بَنَوْهُ، يريدون بزعمهم الارتفاعَ إلى السماء لحربِ مَنْ فيها.

وكان الذي رَامَ ذلك فيما ذُكِرَ لنا جبارٌ من جبابرةِ النَّبط، فقال بعضهم: هو نمرودُ بن كنعان. وقال بعضهم: هو بختنصر. وقيل إن الذي ذُكر في هذا الموضع هو الذي ذكره الله في سورة إبراهيم.

وقوله: «فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ»، اختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: فخرَّ عليهم السقفُ من فوقهم: أعالي بيوتهم من فوقهم.

وقال آخرون: عَنَى بقوله: «فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ» أنَّ العذابَ أتاهم من السماء.

وأوْلى القولين بتأويل الآية، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: تَساقطتْ عليهم سقوفُ بيوتهم، إذْ أتى أُصولَها وقواعدَها أمرُ الله، فائتفكت بهم منازلُهم، لأنَّ ذلك هو الكلامُ المعروفُ من قواعدِ البنيان، وخَرَّ السقف، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهرِ الأعرفِ منها، أوْلى من توجيهها إلى غير ذلك ما وُجِد إليه سبيلٌ «وأتاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأتى هؤلاء الذين مكروا من قَبْل مشركي قريش، عذابُ الله من حيث لا يَدْرُونَ أنه أتاهم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فعل الله بهؤلاء الذين مكروا، الذين وصف الله جلَّ ثناؤه أمْرَهُمْ ما فعلَ بهم في الدنيا، من تعجيلِ العذابِ لهم، والانتقام بكفرهم، وجحودِهم وحدانيته، ثم هو مع ذلك يومَ القيامة مُخْزِيهم، فَمُذِلُّهُمْ بعذابٍ أليم، وقائل لهم عند ورودهم عليه: «أيْنَ شُرَكائيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشاقُّونَ فِيهم» أصله: مِنْ شاققتُ فلاناً فهو يشاقُّني، وذلك إذا فعل كلُّ واحد منهما بصاحبه ما يشقُّ عليه.

يقول تعالى ذِكْرُه يومَ القيامة تقريعاً للمشركين بعبادتهم الأصنام: أين شركائي؟ يقول: أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي اليوم، ما لهم لا يحضرونكم، فيدفعُوا عنكم ما أنا مُحِلٌّ بكم من العذاب، فقد كنتم تعبدونهم في الدنيا، وتتولونهم، والوليُّ يَنْصُر وَلِيَّهُ، وكانت مشاقتهم الله في أوثانهم مخالفتهم إياه في عبادتهم.

وقوله: «قالَ الَّذينَ أُوتُوا العلْمَ إنَّ الخِزْيَ اليَوْمَ والسُّوءَ على الكافرِينَ»، يعني: الذِلَّةَ والهوانَ والسوء. يعني: عذاب الله على الكافرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الذين أُوتوا العلم: إنَّ الخزيَ اليومَ والسُّوءَ على

مَنْ كفر بالله فجحد وحدانيته «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ»، يقول: الذين تقبضُ أرواحَهُم الملائكةُ «ظالِمِي أنْفُسِهِمْ»، يعني: وهُمْ على كُفْرهم وشِرْكِهم بالله. وقيل: إنه عَنَى بذلك مَنْ قُتِلَ من قريشٍ ببدر، وقد أُخرِجَ إليها كرهاً.

وقوله: «فَأَلْقَوُا السَّلَمَ»، يقول: فاستسلموا لأمرِهِ، وانقادوا له حين عاينوا الموتَ قد نزل بهم، «ما كُنَّا نَعْمَلُ منْ سُوءٍ»، وفي الكلامِ محذوفٌ استُغني، بفهم سامعيه مادلَّ عليه الكلام، عن ذكره وهو: قالوا ما كنا نعملُ من سوء، يخبرُ عنهم بذلك أنهم كذَّبوا وقالوا: ما كُنَّا نعصِي الله اعتصاماً منهم بالباطلِ رجاء أنْ ينجوا بذلك، فكذَّبَهُمُ اللهُ، فقال: بل كنتم تعملونَ السوءَ وتصدُّونَ عن سبيلِ الله. «إنَّ اللهَ عَليمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول: إنَّ الله ذو علم بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصيه، وتأتون فيها ما يسخطه.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقول لهؤلاء الظَّلَمَةِ أنفسهم حين يقولون لربهم: ما كنا نعملُ من سوء، ادخلوا أبوابَ جهنم، يعني: طبقات جهنم «خالِدِينَ فيها»، يعني: ماكثينَ فيها «فَلَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِين»، يقول: فلبئس منزل مَنْ تكبَّرَ على الله ولم يُقِرَّ بربوبيته، ويُصَدِّقَ بوحدانيته جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقيل للفريق الآخر، الذين هم أهلُ إيمانٍ وتقوى لله:

«مـاذَا أنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قالُوا خَيْراً»، يقول: قالوا: أنزلَ خيراً. وكان بعضُ أهل العـربية من الكـوفيين يقـول: إنما اختلف الأعرابُ في قوله: «قالُوا أساطِيرُ الأوَّلِينَ»، وقـوله «خَيْراً»، والمسألة قبل الجوابين كليهما واحدة، وهي قوله: «ماذَا أنْزَلَ رَبُّكُمْ»، لأنَّ الكفار جَحَدُوا التنزيلَ، فقالوا حين سمعوه: أساطيرُ الأوّلين: أي هذا الذي جئتَ به أساطير الأوّلين، ولم ينزل الله منه شيئاً. وأما المؤمنون فَصَدَّقُوا التنزيلَ، فقالوا خيراً، بمعنى أنه أنزل خيراً، فانتصب بوقوع الفعل من الله على الخير، فلهذا افترقا، ثم ابتدأ الخبر فقال: «لِلَّذِينَ أحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ». وقد بيَّنا القولَ في ذلك فيما مضى قَبْلُ بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «لِلَّذِينَ أحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: للذين آمنوا بالله في هذه الدنيا ورسوله، وأطاعوه فيها، ودعوا عبادَ الله إلى الإيمانِ والعمـلِ بما أمر الله به حَسَنَةٌ، يقول: كرامةٌ من الله «وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ»، يقول: ولَدَارُ الآخرةِ خيرٌ لَهُمْ مِنْ دَارِ الدُّنْيا، وكرامةُ الله التي أعدّها لهم فيها أعظم من كرامته التي عَجَّلها لهم في الدنيا «وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِينَ»، يقول: ولنعم دارُ الذين خافوا الله في الدنيا فاتقوا عقابه بأداء فرائضِه وتجنب معاصيه دار الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «جَنَّاتُ عَدْنٍ» بساتينُ للمقام. وقد بيَّنا اختلافَ أهلِ التأويلِ في معنى عدن فيما مضى بما أغنى عن إعادته. «يَدْخُلُونَها»، يقول: يدخلون جناتِ عدن، وفي رفع جنات: أوجه ثلاثة: أحدها: أن يكون مرفوعاً على الابتداء، والآخر بالعائد من الذكر في قوله: «يَدْخُلُونَها». والثالث:

على أن يكون خبر النعم، فيكون المعنى: إذا جعلت خبر النعم ولنعم دار المتقين جنات عدن، ويكون «يَدْخُلُونَها» في موضع حال، كما يقال: نِعْمَ الدارُ دارٌ تسكنها أنتَ، وقد يجوز أن يكون إذا كان الكلامُ بهذا التأويل: يدخلونها، من صلة جنات عدن

وقوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهَارُ»، يقول: تجري من تحتِ أشجارها الأنهار «لَهُمْ فِيها ما يشاءُونَ»، يقول: للذين أحسنوا في هذه الدنيا في جنات عدن ما يشاءون مما تشتهي أنفسهم، وتلذُّ أعينهم. «كذَلكَ يَجْزِي اللهُ المُتَّقِينَ»، يقول: كما يَجْزِي اللهُ هؤلاء الذين أحسنوا في هذه الدنيا بما وَصَفَ لكم أيها الناسُ أنه جزاهم به في الدنيا والآخرة، كذلك يَجْزي الذين اتقوه بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كذلك يَجزي الله المتقين الذين تَقْبِضُ أرواحَهم ملائكةُ الله، وهم طَيِّبُونَ بتطييبِ الله إياهم بنظافة الإيمان، وطُهْرِ الإسلام في حالِ حياتهم وحال مماتهم.

وقوله: «يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ»، يعني جَلَّ ثناؤه أنَّ الملائكةَ تقبضُ أرواحَ هؤلاء المتقين، وهي تقول لهم: سلامٌ عليكم صِيرُوا إلى الجنةِ بشارة من الله تُبَشِّرُهُمْ بها الملائكة.

وقوله: «بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول: بما كنتم تصيبون في الدنيا أيامَ حياتِكم فيها طاعةَ الله، وطلب مرضاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: هل ينتظرُ هؤلاء المشركون إلا أنْ تأتيهمُ الملائكةُ لقبضِ أرواحهم، أو يأتيَ أمـرُ رَبِّكَ بحشرِهم لموقفِ القيامة. «كذٰلكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول جَلَّ ثناؤه: كما يفعل هؤلاء من انتظارِهم ملائكةَ الله لقبضِ أرواحهم، أو إتيانِ أمر الله فِعْلَ أسلافِهم من الكَفَرَةِ بالله، لأنَّ ذلك في كلِّ مشركٍ بالله «وما ظَلَمَهُمُ اللهُ» يقول جَلَّ ثناؤه: وما ظلمهم الله بإحلالِ سُخْطِه «ولكِنْ كانُـوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُـونَ» بمعصيتهم رَبَّهم وكُفْـرِهم به، حتى استحقُّوا عقابه، فعجَّل لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأصابَ هؤلاء الذين فعلوا من الأممِ الماضية فِعْلَ هؤلاء المشـركينَ من قريش سيئاتُ ما عملوا، يعني عقوبات ذنوبهم، ونقم معاصيه التي اكتسبوها. «وحَاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقول: وحَلَّ بهم من عذابِ الله ما كانوا يستهزئون منه، ويسخرون عند إنذارهم ذلك رسلُ الله، ونزل ذلك بهم دونَ غيرهم من أهلِ الإيمان بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثانَ والأصنامَ من دونِ الله: ما نعبدُ هذه الأصنامَ إلا لأنَّ الله قد رضيَ عبادتنا هؤلاء، ولا نحرمُ ما حرمنا من البحائرِ والسوائبِ، إلا أنَّ الله شاء منا ومن آبائنا تَحْرِيَمناها ورَضِيَهُ، لولا ذلك لقد غَيَّرَ ذلك ببعضِ عقوباته أو بهدايته إيَّانَا إلى غيرِهِ من الأفعال. يقول تعالى ذِكْرُه: كذلك فَعَلَ الذين من قبلهم من الأممِ المشركةِ الذين اسْتَنَّ هؤلاءِ سُنَّتَهُمْ، فقالوا مِثْلَ قولهم: وسلكوا سبيلَهم في تكذيبِ رُسُلِ الله، واتباعِ أفعالِ آبائهم الضُّلَّال.

وقوله: «فَهَلْ على الرُّسُلِ إلَّا البَلاغُ المُبِينُ»، يقول جلَّ ثناؤه: فهل أيها القائلون: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، على رُسُلِنَا الذين نُرْسِلُهم بانذارِكُمْ عقوبَتَنا على كُفْرِكُمْ، إلا البلاغُ المبين: يقول: إلا أنْ تُبَلِّغَكُمْ ما أَرسلنا إليكم من الرسالة، ويعني بقوله: «المُبِينُ»: الـذي يبين عن معناه لمن أبلغه، ويفهمه مَنْ أرسل إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد بعثنا أيها الناسُ في كلِّ أمةٍ سلفت قبلكم رسولاً، كما بعثنا فيكم بأن اعبدُوا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادةَ «وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ»، يقول: وابعدوا من الشيطان، واحْذَرُوا أنْ يُغويكم، ويصدَّكُمْ عن سبيلِ الله، فتضلوا، «فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ»، يقول: فَمِمَّنْ بعثنا فيهم رُسُلَنا مَنْ هَدَى اللهُ، فوفَّقه لتصديق رسله، والقبول منها،

والإيمان بالله، والعمل بطاعته، ففازَ وأفلح، ونجا من عذاب الله «وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ»، يقول: وممن بعثنا رسلنا إليه من الأمم آخرونَ حَقَّت عليهمُ الضلالةُ، فجاروا عن قَصْدِ السبيل، فكفروا بالله، وكَذَّبُوا رسله، واتبعوا الطاغوتَ، فأهلكهم الله بعقابه، وأنزل عليهم بأسه الذي لا يردُّ عن القومِ المجرمين، «فِسيرُوا فِي الأَرْضِ فانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبينَ»، يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: إنْ كنتم أيها الناسُ غير مصدِّقي رسولِنا فيما يخبركم به عن هؤلاء الأمم الذين حَلَّ بهم ماحلَّ من بأسنا بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله، فسيروا في الأرض التي كانوا يسكنونها، والبلاد التي كانوا يعمرونها، فانظروا إلى آثارِ الله فيهم، وآثارِ سخطه النازلِ بهم، كيف أعقبهم تكذِيبُهم رُسُلَ الله ما أعقبهم، فإنكم ترون حقيقةَ ذلك، وتعلمون به صحةَ الخبرِ الذي يخبركم به محمدٌ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٧﴾

تأويل الكلام: لو كان الأمرُ على ما وصَفْنَا: إنْ تَحْرِصْ يا محمدُ على هُداهم، فإنَّ مَنْ أضَلَّهُ الله فلا هادي له، فلا تجهد نفسك في أمره، وبَلِّغْهُ ما أُرسلتَ به لتتمَّ عليه الحجةُ. «ومَا لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ»، يقول: وما لهم من ناصرٍ ينصرهم من الله إذا أراد عقوبتهم، فيحول بين الله وبين ما أرادَ من عقوبتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَلَفَ هؤلاء المشركونَ من قريشٍ باللهِ جَهْدَ أيْمانِهِمْ حلفهم، لا يبعثُ اللهُ من يموتُ بعد مماته، وكذبوا وأبطلوا في أيمانهم التي حَلَفُوا بها كذلك، بل سيبعثه الله بعد مماته، وعداً عليه أنْ يبعثهم وعد عباده، واللهُ لا يُخْلِفُ الميعادَ. «وَلكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلمُونَ»، يقول: ولكن أكثرَ قريش لا يعلمونَ وعدَ اللهِ عبادَهُ، أنه باعِثُهم يومَ القيامة بعد مماتهم أحياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذكره: بل ليَبعثَنَّ اللهُ مَنْ يموتُ وعداً عليه حقاً، ليبين لهؤلاء الذين يزعمون أنَّ الله لا يبعثُ مَنْ يموت، ولغيرهم الذي يختلفون فيه من أحياءِ الله خَلْقَهُ بعد فنائهم، وليعلم الذين جَحَدُوا صحةَ ذلك. وأنكروا حقيقتَهُ أنهم كانوا كاذبينَ في قِيلهم: لا يبعثُ الله مَنْ يموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذكره: إنا إذا أردنا أنْ نبعثَ مَنْ يموت فلا تَعَبَ علينا ولا نَصَبَ في إحيائِنَاهُمْ، ولا في غير ذلك مما نخلقُ ونُكَوِّنُ ونُحْدِثُ، لأنَّا إذا أردنا خَلْقَهُ وإنشاءه، فإنما نقولُ له: كُنْ فيكون، لا معاناةَ فيه، ولا كُلفةَ علينا.

وقولـه: «وَالَّذِينَ هاجَرُوا في اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً»، يقول تعالى ذكره: والذين فارقوا قومَهم ودُورَهُم وأوطانَهم عداوة لهم في الله على كُفْرِهم إلى آخرينَ غيرهم، «مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا»، يقول: من بعد

ما نِيلَ منهم في أنفسهم بالمكارهِ في ذاتِ الله، «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنْيا حَسَنَةً»، يقول: لَنُسْكِنَنَّهُمْ في الدنيا مسكناً يرضونه صالحاً.

وقوله: «وَلَأَجْرُ الآخرَةِ أكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ»، يقول: ولثوابُ الله إياهم على هجرتهم فيه في الآخرة أكبر، لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التي يدوم نعيمها ولا يبيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾



يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين وصفنا صِفَتهم، وآتيناهمُ الثوابَ الذي ذكرناه، الذين صبروا في الله على ما نابهم في الدنيا، «وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، يقول: وبالله يثقون في أمورهم، وإليه يستندون في نوائبِ الأمورِ التي تَنُوبُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما أرسلنا من قبلكَ يا محمدُ إلى أمةٍ من الأمم، للدعاء إلى توحيدنا، والانتهاء إلى أمرنا ونهينا، إلا رجالاً من بني آدم نُوحي إليهم وَحْيَنَا لا ملائكة، يقول: فلم نُرسِلْ إلى قومكَ إلا مِثْلَ الذي كنا نُرسلُ إلى مَنْ قَبلهم من الأممِ من جنسهم، وعلى منهاجهم. «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ»، يقول لمشركي قريش: وإنْ كنتم لا تعلمون أنَّ الذين كنا نرسلُ إلى مَنْ قبلكم من الأمم رجالٌ من بني آدم مثل محمدٍ ﷺ، وقلتم: هم ملائكة: أي ظَنَنتم أنَّ الله كلمهم قبلاً، فاسألوا أهلَ الذكرِ، وهم الذين قد قرءوا الكتب من قبلهم: التوراة والإنجيل، وغير ذلك من كتبِ الله التي أنزلها على عباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

تأويل الكلام: وما أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ إلا رجالاً نُوحي إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر، وأنزلنا إليك الذكر. والبيناتُ: هي الادلةُ والحجج التي أعطاها الله رُسُلَهُ أدلةً على نُبُوَّتِهم شاهدة لهم على حقيقة ما أتوا به إليهم من عند الله. والزُّبُر: هي الكتب، وهي جمع زَبُور، من زَبَرْت الكتاب وذَبَرته[1]: إذا كتبته.

وقوله: «وأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ»، يقول: وأنزلنا إليك يامحمدُ هذا القرآنَ تذكيراً للناس وعِظَةً لهم، «لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ»، يقول: لتعرفهم ما أنزل إليهم من ذلك «وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»، يقول: وليتذكروا فيه ويعتبروا به: أي بما أنزلنا إليك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفأَمِنَ الذين ظلموا المؤمنينَ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فراموا أنْ يفتنوهم عن دينهم من مشركي قريش الذين قالوا: إذ قيل لهم: ماذا أنزل ربكم: أساطيرُ الأوَّلين، صَدّاً منهم لمن أرادَ الإيمانَ بالله عن قَصْدِ السبيلِ، أنْ يخسفَ اللهُ بهم الأرضَ على كفرهم وشركهم، أو يأتيهم عذابُ الله من مكانٍ لا يشعرُ به، ولا يدري من أين يأتيه.

---

(١) بالذال المعجمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ»، أو يهلكهم في تَصَرُّفِهم في البلاد، وتَرَدُّدِهم في أسفارهم «فما هُمْ بِمعجِزين»، يقول جلّ ثناؤه: فإنهم لا يعجزون الله من ذلك إنْ أرادَ أخذهم كذلك.

وأما قوله: «أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ»، فإنه يعني: أو يهلكهم بِتَخَوُّفٍ، وذلك بنقصٍ من أطرافِهم ونواحيهم الشيءَ بعد الشيء حتى يهلك جميعهم، يقال منه: تَخَوَّفَ مال فلان الإنفاق: إذا انتقصه.

وقوله: «فإنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ»، يقول: فإنَّ رَبَّكُم إنْ لم يأخذ هؤلاء الذين مكروا السيئاتِ بعذابٍ معجَّل لهم، وأخذهم بموتٍ وتنقص بعضهم في إثر بعض، لرؤوف بخلقه، رحيم بهم، ومن رأفته ورحمته بهم لم يخسف بهم الأرض، ولم يعجِّلْ لهم العذابَ، ولكنْ يُخَوِّفُهم ويُنَقِّصُهم بموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

تأويل الكلام: أَوَ لَمْ يَرَ هؤلاء الذين مكروا السيئاتِ، إلى ما خَلَقَ الله من جسم قائم، شَجَرٍ أو جبلٍ أو غير ذلك، يتفيأ ظلالُهُ عن اليمينِ والشمائل، يقول: يرجع من موضع إلى موضع، فهو في أوّل النهار على حال، ثم يتقلّصُ، ثم يعودُ إلى حالٍ أخرى في آخر النهار.

وأما قوله: «سُجّداً لله»، فإنَّ الله أخبر في هذه الآية أنَّ ظلالَ الأشياء هي التي تسجد، وسجودها: مَيَلانُها ودورانُها من جانبٍ إلى جانب، وناحية إلى

ناحية، كما قال ابن عباس: يقال من ذلك: سجدت النخلةُ إذا مالت: وسجدَ البعير وأُسجد: إذا أُميلَ للركوب. وقد بيَّنا معنى السجود في غير هذا الموضع بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «وَهُمْ دَاخِرُونَ»، يعني: وهم صاغرون، يقال منه: دَخَرَ فلانٌ لله يدخر دخراً ودخوراً: إذا ذَلَّ له وخضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولله يخضعُ ويستسلمُ لأمرهِ ما في السمواتِ وما في الأرض من دابَّةٍ يدبُّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التـذلـلِ له بالـطاعـة «وَالَّـذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ، قُلُوبهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ»، وظلالهم تتفيأ «عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذكره: يخافُ هؤلاء الملائكةُ التي في السموات، وما في الأرض من دابة، رَبَّهم من فوقِهم، أنْ يُعَذِّبَهُمْ إنْ عَصَوا أمره، ويفعلون ما يؤمرون. يقول: ويفعلونَ ما أمرهم اللهُ به، فيؤدُّونَ حقوقَهُ، ويجتنبون سُخْطه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذكره: وقال الله لعباده: لا تتخذوا لي شريكاً أيها الناسُ، ولا تعبدوا معبودَيْنِ، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكاً، ولا شريكَ لي، إنما هو إلهٌ واحد، ومعبودٌ واحد، وأنا ذلك، فإيايَ فارهبون: يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إنْ عَصَيْتُموني وعَبَدْتُمْ غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولله مُلْكَ ما في السمواتِ والأرض من شيء، لا شريكَ له في شيءٍ من ذلك هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم، وبيده حياتُهم وموتُهم.

وقوله: «وَلَهُ الدّينُ وَاصِبا»، يقول جلّ ثناؤه: وله الطاعةُ والإخلاصُ دائماً ثابتاً واجباً، يقال منه[1]: وَصَبَ الدِّينُ يَصِبُ وُصُوباً ووَصْباً[2].

وقوله: «أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ»، يقول تعالى ذكره: أفغيرَ اللهِ أيها الناسُ تَتَّقُونَ: أي تَرْهَبُون وتَحْذَرُونَ أنْ يَسْلِبَكُمْ نعمةَ الله عليكم بإخلاصِكم العبادةَ لربكم، وإفرادكم الطاعة له، وما لكم نافعٌ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾

---

(١) انظر مفردات الراغب: ٨٧٢.

(٢) أي: وَجَبَ.

تأويل الكلام: ما يكن بكم في أبدانكم أيها الناسُ من عافيةٍ وصحةٍ وسلامة، وفي أموالكم من نماء، فاللهُ المنعمُ عليكم بذلك لا غيره، لأنَّ ذلك إليه وبيده، «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ»، يقول: إذا أصابكم في أبدانكم سَقَمُ ومرض، وعلةٌ عارضةٌ، وشدَّةٌ من عيش، «فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ»، يقول: فإلى الله تصرخون بالدعاء وتستغيثون به، ليكشف ذلك عنكم. وأصله: من جؤار الثور، يقال منه: جأَرَ الثورُ يجأر جؤاراً، وذلك إذا رفع صوتاً شديداً من جوعٍ أو غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إذا وَهَبَ لكم رَبُّكم العافيةَ، ورفع عنكم ما أصابكم من المرضِ في أبدانكم، ومن الشدّةِ في معاشكم، وفَرَّجَ البلاءَ عنكم. «إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ»، يقول: إذا جماعةٌ منكم يجعلون لله شريكاً في عبادتهم، فيعبدون الأوثانَ، ويذبحونَ لها الذبائحَ شكراً لغير مَنْ أنعمَ عليهم بالفرجِ مما كانوا فيه من الضرِّ. «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ»، يقول: ليجحدوا الله نعمته فيما آتاهم من كشفِ الضُّرِّ عنهم. «فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»، وهذا من الله وعيدٌ لهؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتهم في هذه الآيات، وتهديدٌ لهم، يقول لهم جلَّ ثناؤه: تَمَتَّعُوا في هذه الحياة الدنيا إلى أنْ توافيكم آجالُكم، وتبلغوا الميقاتَ الذي وَقَّتَهُ لحياتكم، وتمتعكم فيها، فإنكم من ذلك ستصيرون إلى ربكم، فتعلمون بلقائهِ وبالَ ما كسبتْ أيديكم، وتعرفونَ سوء مغبةِ أمركم، وتندمونَ حينَ لا ينفعكم الندم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾

﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ويجعلُ هؤلاء المشركون من عَبَدةِ الأوثان، لما لا يعلمون منه ضراً ولا نفعاً، نصيباً، يقول: حظاً وجزاءً مما رزقناهم من الأموالِ، إشراكاً منهم لله الذي يعلمون أنه خلقهم، وهو الذي ينفعهم ويضرّهم دون غيره.

وقـوله: «تالله لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله أيها المشـركـونَ الجـاعلونَ الآلهةَ والأندادَ نصَيباً فيما رزقناكم شركاً بالله وكفراً، ليسـألنكم اللهُ يومَ القيامـة عما كنتم في الدنيا تفترون، يعني: تختلقون من الباطلِ والإفكِ على الله بدعواكم له شريكاً، وتصييركم لأوثانِكم فيما رزقكم نصيباً، ثم ليعاقِبَنَّكُمْ عقوبةً تكونُ جزاءً لكفرانكم نِعَمَهُ وافترائكم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ومِنْ جهلِ هؤلاء المشركينَ وخُبْثِ فعلهم، وقُبْحِ فِرْيتهم على رَبِّهم، أنهم يجعلونَ لمن خلقهم ودبَّرهم وأنعم عليهم، فاستوجب بنعمه عليهم الشكر، واستحقَّ عليهم الحمد: البنات. ولا ينبغي أنْ يكونَ لله ولدٌ ذكر ولا أنثى سبحانه. نَزَّه جَلَّ جلاله بذلك نفسه عما أضافُوا إليه ونَسبوهُ من البناتِ، فلم يرضوا بجهلهم إذْ أضافوا إليه ما لا ينبغي إضافتُه إليه. ولا ينبغي أن يكون له من الولدِ أن يُضيفوا إليه ما يشتهونه لأنفسهم، ويحبونه لها، ولكنهم أضافوا إليه ما يكرهونه لأنفسهم، ولا يرضونه لها من البناتِ ما يقتلونها إذا كانت لهم، وفي «ما» التي في قوله: «ولَهُمْ ما يَشْتَهُونَ» وجهان من العربية النصب عطفاً لها على البنات، فيكون معنى الكلام: إذا أُريدَ ذلك: ويجعلون

لله البنات ولهم البنين الذين يشتهون، فتكون «ما» للبنين، والرفع على أن الكلام مبتدأ من قوله: «ولَهُمْ ما يَشْتَهُونَ»، فيكون معنى الكلام: ويجعلون لله البنات ولهم البنون.

وقوله: «وَإذَا بُشِّرَ أحَدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا»، يقول: وإذا بُشِّرَ أحدُ هؤلاء الذين جعلوا لله البنات بولادة مايضيفه إليه من ذلك له، ظَلَّ وجهه مُسْوَدّاً من كراهته له، «وَهُوَ كَظِيمٌ»، يقول قد كَظَم الحزنَ، وامتلأ غماً بولادته له، فهو لا يظهر ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يتوارى هذا المبشَّرُ بولادةِ الأنثى من الولد له من القوم، فيغيبُ عن أبصارِهم، «مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ»، يعني: من مَسَاءتهِ إياه مَمِيلاً[١] بين أن يمسكه على هُون: أي على هوان[٢].

وقوله: «ألا ساءَ ما يَحْكُمُونَ»، يقول: ألَا ساء الحكمُ الذي يحكم هؤلاء المشركون، وذلك أنْ جعلوا لله ما لا يرضون لأنفسهم، وجعلوا لِمَا لا ينفعهم ولا يضرُّهم شركاً فيما رزقهم الله، وعبدوا غيرَ مَنْ خلقهم، وأنعم عليهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾

---

(١) يقال مال إليه ميلاً وممالاً ومَمِيلاً وتمیالاً وميلاناً وميلولة: عَدَلَ.

(٢) انظر معاني القرآن للفراء: ١٠٦/٢ وهي لغة قريش.

وهذا خبر من الله جلّ ثناؤه أن قوله: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ». والآية التي بعدها مَثَلٌ ضربه الله لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله البنات، فبين بقوله: «لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ»، أنه مثل، وعنى بقوله جل ثناؤه: «لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ»، للذين لا يصدّقون بالمعادِ والثوابِ والعقاب من المشركين «مَثَلُ السَّوْءِ»، وهو القبيح من المثل، وما يسوء من ضرب له ذلك المثل. «وللهِ المَثَلُ الأَعْلَى»، يقول: ولله المثل الأعلى، وهو الأفضلُ والأطيب، والأحسنُ، والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره.

وقوله: «وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقول تعالى ذكره: واللهُ ذو العزّةِ التي لا يمتنعُ عليه معها عقوبة هؤلاء المشركينَ الذين وصف صِفَتهم في هذه الآيات، ولا عقوبة مَنْ أراد عقوبته على معصيته إياه، ولا يتعذّرُ عليه شيءٌ أراده وشاءه، لأنَّ الخَلْقَ خَلْقُه، والأمرَ أمره، الحكيمُ في تدبيره، فلا يدخلُ تدبيرَهُ خَلَلٌ، ولا خطأ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ» عُصَاةَ بني آدم بمعاصيهم «ما تَرَكَ عَلَيْها»، يعني على الأرض «مِنْ دَابَّةٍ» تدبُّ عليها، «وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ»، يقول: ولكن بحلمه يؤخرُ هؤلاء الظلمة فلا يُعاجلهم بالعقوبة، «إلى أجلٍ مُسَمًّى»، يقول: إلى وقتهم الذي وُقِّت لهم، «فإذَا جاءَ أَجَلُهُمْ»، يقول: فإذا جاء الوقتُ الـذي وُقِّتَ لهـلاكِهم «لا يَسْتَأْخِـرُونَ» عن الهـلاك ساعـة فيمهلون، «وَلا

«يَسْتَقْدِمُونَ» له حتى يستوفُوا آجالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ويجعل هؤلاء المشركون لله ما يكرهونه لأنفسهم. «وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ»، يقول: وتقول ألسنتهم الكذبَ وتَفْتريه، أنَّ لهم الحسنى، فأن في موضع نصب، لأنها ترجمةٌ عن الكذب.

وتأويلُ الكلام: ويجعلون لله ما يكرهونه لأنفسهم، ويزعمون أنَّ لهم الحسنى، الذي يكرهونه لأنفسهم، البنات يجعلونهن لله تعالى، وزعموا أنَّ الملائكةَ بنات الله، وأما الحُسنى التي جعلوها لأنفسهم: فالذكور من الأولاد، وذلك أنهم كانوا يَئِدُونَ الإناثَ من أولادهم، ويَسْتَبْقُونَ الذكورَ منهم، ويقولون: لنا الذكورُ ولله البنات، وهو نحو قوله: «وَيَجْعَلُونَ للهِ البَناتِ سُبْحانَهُ، ولَهُمْ ما يَشْتهونَ».

وقوله: «لا جَرَمَ أن لَهُمُ النَّارَ وأنَّهُمْ مُفْرَطُونَ»، يقول تعالى ذكره: حقاً واجباً أنَّ لهؤلاء القائلينَ لله البنات، الجاعلينَ له ما يكرهونه لأنفسهم، ولأنفسهم الحسنى عند الله يوم القيامة النار.

وقوله: «وأنَّهُمْ مُفْرَطُونَ»، يقول تعالى ذكره: وأنهم مُخَلَّفُونَ متروكون في النار، مَنْسِيُّونَ فيها[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٢/١٠٧.

يقول تعالى ذِكْرُه مُقْسِماً بنفسه عزّ وجلّ لنبيه محمد ﷺ: والله يا محمدُ لقد أرسلنا رُسُلاً من قبلك إلى أممها بمثلِ ما أرسلناكَ إلى أمتكَ من الدعاءِ إلى التوحيدِ لله، وإخلاصِ العبادةِ له، والإذعانِ له بالطاعة، وخَلْعِ الأندادِ والآلهة، «فزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ»، يقول: فَحَسَّنَ لهم الشيطانُ ما كانوا عليه من الكفرِ بالله وعبادةِ الأوثانِ مقيمينَ، حتى كَذَّبُوا رسلهم، وردُّوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم. «فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ»، يقول: فالشيطانُ ناصِرُهم اليومَ في الدنيا، وبئس الناصر. «ولَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ» في الآخرة عند ورودهم على رَبِّهم، فلا ينفعهم حينئذٍ ولايةُ الشيطان، ولا هي نفعتهم في الدنيا، بل ضَرَّتْهُمْ فيها، وهي لهم في الآخرة أضرّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: وما أنزلنا يا محمدُ عليك كتابنا وبعثناكَ رسولاً إلى خَلْقِنَا إلا لِتُبَيِّنَ لهم ما اختلفوا فيه من دينِ الله، فتعرِّفَهُم الصوابَ منه، والحقَّ من الباطلِ، وتُقيم عليهم بالصوابِ منه حجةَ الله الذي بعثكَ بها.

وقوله: «وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول: وهدى: بياناً من الضلالة، يعني بذلك الكتاب، ورحمةً لقوم يؤمنون به، فيصدِّقُونَ بما فيه، ويُقِرُّونَ بما تضمن من أمرِ الله ونهيه، ويعملون به، وعطف بالهدى على موضع ليبين، لأنَّ موضعها نصب. وإنما معنى الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بياناً للناس فيما اختلفوا فيه هدى ورحمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

﴿مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقـول تعالى ذكره مُنَبِّهَ خَلْقِه على حُجَجِه عليهم في توحيده، وأنه لا تنبغي الأُلوهةُ إلا له، ولا تصلحُ العبادةُ لِشيءٍ سواه: أيها الناسُ معبودكم الذي له العبادةُ دونَ كلِّ شيء «أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً»، يعني: مطراً، يقول: فأنبتَ بما أنزلَ من ذلك الماء من السماء الأرضَ الميتةَ التي لا زرعَ بها ولا عُشْبَ ولا نبت «بَعْدَ مَوْتِها» بعد ماهي ميتةٌ لا شيءَ فيها. «إنَّ في ذلكَ لآيَةً»، يقول تعالى ذكره: إن في إحيائنا الأرضَ بعد موتها بما أنزلنا من السماء من ماءٍ لدليلاً واضحاً، وحجةً قاطعةً، عُذْرَ مَنْ فكَّرَ فيه. «لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ»، يقول: لقوم يسمعون هذا القولَ فيتدبرونه ويعقلونه، ويُطيعونَ الله بما دلهم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ لكم أيها الناسُ لَعِظَةً في الأنعام التي نُسْقيكم مما في بطونه.

وقوله: «مِنْ بين فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً»، يقول: نُسقيكم لبناً، نُخْرِجُه لكم من بين فَرْثٍ ودَمٍ خالصاً: يقول: خلص من مخالطةِ الدم والفرث، فلم يختلطا به. «سائِغاً للشَّارِبينَ»، يقول: يسوغ لمن شربه فلا يَغَصُّ به كما يَغَصُّ الغاصُّ ببعضِ ما يأكله من الأطعمة. وقيل: إنه لم يَغَصَّ أحدٌ باللبن قَطُّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولكم أيضاً أيها الناسُ عِبرةٌ فيما نسقيكم من ثمراتِ النخيلِ والأعناب ما تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً، مع ما نسقيكم من بطونِ الأنعام من اللبن الخارجِ من بين الفرث والدم.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً»، فقال بعضهم: عنى بالسَّكَر: الخمر، وبالرزق الحسن: التمر والزبيب، وقال: إنما نزلت هذه الآيةُ قبل تحريمِ الخمر[1]، ثم حُرِّمَتْ بَعْدُ.

وقال آخرون: السَّكَر بمنزلةِ الخمرِ في التحريم، وليس بخمرٍ، وقالوا: هو نَقيعُ التمرِ والزبيبِ إذا اشتدَّ وصار يسكر شاربه.

وقال آخرون: السَّكَر: هو كُلُّ ما كان حلالاً شربُه، كالنبيذِ الحلالِ والخلِّ والرطَب، والرزق الحسن: التمر والزبيب.

وهذا التأويلُ عندي هو أوْلى الأقوالِ بتأويل هذه الآية، وذلك أنَّ السكر في كلام العرب على أحدِ أوجهٍ أربعة: أحدها: ما أسكر من الشراب. والثاني: ماطُعِم من الطعام. والثالث: السُّكُون. والرابع: المصدر من قولهم: سكر فلان يسكر سُكْراً وسَكْراً وسَكَراً، فإذا كان ذلك كذلك، وكان مايُسْكِرُ من الشراب حراماً بما قد دللنا عليه في كتابنا المسمى: «لطيفُ القول في أحكام شرائع الإسلام» وكان غير جائز لنا أن نقول: هو منسوخ، إذْ كان المنسوخُ هو مانَفَى حكمهُ الناسخُ، وما لا يجوزُ اجتماعُ الحكم به وناسخه، ولم يكن في حكم الله تعالى ذِكْرُه بتحريمِ الخمر دليلٌ على أن السَّكَر الذي هو غير الخمر، وغير مايسكر من الشراب، حرام، إذْ كان السكر أحد معانيه عند العرب، ومن نزل بلسانه القرآن هو كلّ ماطعم، ولم يكن مع ذلك، إذ لم يكن في نفس التنزيل دليلٌ على أنه منسوخ، أو وَرَدَ بأنه منسوخٌ خبرٌ من الرسول، ولا أجمعت

(١) وهذا قول الفراء في معاني القرآن: ٢/١٠٩.

عليه الأمة، فوجب القولُ بما قلنا من أنَّ معنى السَّكَر في هذا الموضع: هو كلُّ ما حَلَّ شربه، مما يُتَّخَذُ من ثمر النخل والكرم، وفسد أن يكون معناه الخمر أو ما يسكر من الشراب، وخرجَ من أنْ يكونَ معناه السَّكَر نَفْسُه، إذْ كان السَّكَرُ ليس مما يتخذ من النَّخْلِ والكَرْم، ومن أن يكون بمعنى السكون.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، يقول: إن فيما وصفنا لكم من نعمنا التي آتيناكم أيها الناسُ من الأنعامِ والنخلِ والكرم، لدلالة واضحة وآية بينة لقومٍ يعقلون عن الله حججه، ويفهمون عنه مواعظه، فيتعظون بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وألهم رَبُّكَ يا محمدُ النحلَ إيحاءً إليها «أنِ اتَّخِذِي مِنَ الجبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وممَّا يَعْرِشُونَ»، يعني: مما يبنون من السقوفِ، فرفعوها بالبناء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: ثم كلي أيتها النحلُ من الثمراتِ «فاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ»، يقول: فاسلكي طُرُقَ رَبِّك «ذُلُلاً»، يقول: مُذَلَّلة لك، والذُّلُل: جمع ذَلُول.

وقـوله: «يَخْرُجُ مِنْ بُطونِها شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه:

يخرج من بطون النحلِ شرابٌ، وهو العسلُ، مختلف ألوانه، لأنَّ فيها أبيض وأحمر وأسحر، وغير ذلك من الألوان.

قال أبو جعفر أسحر: ألوان مختلفة مثل أبيض يضرب إلى الحمرة.

وقوله: «فِيهِ شِفاءٌ للنَّاسِ»، اختلف أهل التأويل فيما عادت عليه الهاء التي في قوله: «فِيهِ».

فقال بعضهم: عادت على القرآن، وهو المراد بها.

وقال آخرون: بل أُريدَ بها العسل، (وهو قول قَتَادة).

وهذا القول، أعني قول قتادة، أوْلى بتأويل الآية، لأن قوله: «فِيهِ» في سياقِ الخبرِ عن العسلِ فأن تكون الهاء من ذكر العسل، إذْ كانت في سياق الخبرِ عنه أوْلى من غيره.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إخراجِ الله من بطونِ هذه النحل: الشراب المختلف، الذي هو شفاءٌ للناس، لدلالة وحجة واضحة على مَنْ سَخَّرَ النحلَ وهداها لأكلِ الثمراتِ التي تأكل، واتخاذها البيوت التي تنحتُ من الجبالِ والشجرِ والعروش، وأخرجَ من بطونها ما أخرجَ من الشفاءِ للناسِ، أنه الواحدُ الذي ليس كمثله شيءٌ، وأنه لا ينبغي أنْ يكونَ له شريكٌ، ولا تصحُّ الأُلوهةُ إلا له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله خلقكم أيها الناس وأوجدكم، ولم تكونوا شيئاً،

لا الآلهة التي تعبدون من دونه، فاعبدوا الذي خلقكم دونَ غيره «ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ»، يقول: ثم يقبضكم، «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ»، يقول: ومنكم من يَهْرَم، فيصيرُ إلى أرذلِ العمر، وهو أردؤه، يقال منه: رذل الرجل وفسل، يرذلُ رذالةً ورذولةً ورذلته أنا. وقيل: إنه يصير كذلك في خمس وسبعين سنة.

وقوله: «لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً» يقول: إنما نردُّه إلى أرذلِ العمر ليعودَ جاهلاً كما كان في حال طفولته وصباه، «بعد علم شيئاً»، يقول: لئلا يعلم شيئاً بعد علم كان يعلمه في شبابه، فذهب ذلك بالكبر ونسي، فلا يعلمُ منه شيئاً، وانسلخَ من عقله، فصار من بعد عقلٍ كانَ له لا يعقلُ شيئاً. «إنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ»، يقول: إن الله لا ينسى، ولا يتغير عِلْمُه، عليمٌ بكلِّ ما كانَ ويكون، قديرٌ على ما شاء لا يجهل شيئاً، ولا يُعجزه شيء أراده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله أيها الناسُ فَضَّلَ بعضَكم على بعضٍ في الرزقِ الذي رزقكم في الدنيا، فما الذين فضَّلهم الله على غيرهم بما رزقهم «بِرَادِّي رِزْقِهِمْ على ما مَلَكَتْ أيمَـانُهُمْ»، يقول: بمشركي مماليكهم فيما رَزَقهم من الأموالِ والأزواج «فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ»، يقول: حتى يستووا هم في ذلك وعبيدهم، يقول تعالى ذكره: فهم لا يرضَون بأنْ يكونوا هم ومماليكُهم فيما رزقتهم سواء، وقد جعلوا عبيدي شركائي في مُلْكي وسلطاني، وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى ذِكْرُه للمشركين بالله. وقيل: إنما عنى بذلك، الذين قالوا: إنَّ المسيحَ ابن الله من النصارى.

وقوله: «أفبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أفبنعمة الله التي أنعمها على هؤلاء المشركين من الرزقِ الذي رزقهم في الدنيا يجحدون بإشراكهم غير الله من خَلْقِه، في سلطانه ومُلكه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَاللهُ» الذي «جَعَلَ لَكُمْ» أيها الناس «مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً»، يعني أنه خلق من آدم زوجته حوّاء «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أزواجكم بنين وحَفَدةً».

واختلف أهلُ التأويل في المعنيين بالحَفَدةِ.

فقال بعضهم: هم الأختان، أختانُ الرجل على بناته.

وقال آخرون: هم أعوانُ الرجل وخَدَمُهُ.

وقال آخرون: هم وَلَدُ الرجلِ وولدُ ولدِه.

وقال آخرون: هم بنو امرأةِ الرجلِ من غيرِه.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى أخبر عباده مُعَرِّفَهُمْ نِعَمَهُ عليهم، فيما جعلَ لهم من الأزواجِ والبنين، فقال تعالى: «وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً»، فأعلمهم أنه جعلَ لهم من أزواجهم بنينَ وحَفدة، والحفَدة في كلام العرب: جمع حافد، كما الكذبة: جمع كاذب، والفَسَقة: جمع فاسق، والحافد في كلامهم: هو المتخفِّفُ في الخدمة والعمل. والحَفْد: خِفَّةُ العمل. يقال: مَرَّ

البعير يحَفِـد حفَـدَانـاً: إذا مَرَّ يُسـرعُ في سيره. ومنه قولهم: «إليك نسعى ونحفِد»: أي نسرعُ إلى العمل بطاعتك.

وإذْ كان معنى الحفدة ماذكرنا من أنهم المسرعون في خدمةِ الرجل، المتخففونَ فيها، وكان الله تعالى ذِكْرُه أخبرنا أنَّ مما أنعمَ به علينا أنْ جعلَ لنا حَفَدةً تحفدُ لنا، وكان أولادنا وأزواجنا الذين يصلحون للخدمة منا ومن غيرنا وأختاننا الذين هم أزواجُ بناتنا من أزواجنا وخدمنا من مماليكنا إذا كانوا يحفدوننا، فيستحقُّونَ اسم حَفَدة، ولم يكن الله تعالى دَلَّ بظاهرِ تنزيلِه، ولا على لسانِ رسولِه ﷺ، ولا بحجة عقل، على أنه عَنَى بذلك نوعاً من الحفدة، دونَ نوعٍ منهم، وكان قد أنعم بكلٍّ ذلك علينا، لم يكن لنا أنْ نُوجِّهَ ذلك إلى خاصٍّ من الحفدةِ دونَ عام، إلا ما اجتمعت الأمةُ عليه أنه غير داخلٍ فيهم. وإذا كان ذلك كذلك فلكلِّ الأقوالِ التي ذكرنا عَمَّنْ ذكرنا وجهٌ في الصحة، ومَخْرجٌ في التأويل. وإنْ كان أوْلى بالصواب من القول ما اخترنا، لما بَيَّنا من الدليل.

وقـوله: «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ»، يقول: ورزقكم من حلالِ المعاشِ والأرزاقِ والأقواتِ، «أفَبالباطِلِ يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يُحَرِّمُ عليهم أولياء الشيطان من البحائـر والسـوائبِ والوصائلِ، فيصدِّقُ هؤلاء المشركون بالله. «وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ»، يقول: وبما أحلَّ اللهُ لهم من ذلك، وأنعم عليهم بإحلاله: يكفرون. يقول: ينكرون تحليلَهُ، ويجحدون أنْ يكونَ اللهُ أحَلَّهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويعبدُ هؤلاء المشركون بالله من دونه أوثاناً لا تملكُ لهم رزقاً من السموات، لأنها لا تقدر على إنزالِ قَطْرٍ منها لإحياء مَوَتَانِ الأرضين، والأرض. يقول: ولا تملك لهم أيضاً رزقاً من الأرض لأنها لا تقدر على إخراجِ شيءٍ من نباتها وثمارها لهم، ولا شيئاً مما عَدَّدَ تعالى في هذه الآية أنه أنعم بها عليهم، «وَلا يَسْتَطِيعُونَ»، يقول: ولا تملكُ أوثانُهم شيئاً من السمواتِ والأرضِ، بل هي وجميعُ ما في السموات والأرض لله ملك، ولا يستطيعون: يقول: ولا تقدر على شيء.

وقوله: «فَلا تَضْرِبُوا لِلهِ الأَمْثَالَ» يقول: فلا تمثلوا لله الأمثالَ، ولا تُشَبِّهُوا له الأشباهَ، فإنه لا مِثْلَ له، ولا شِبْهَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وشَبَّه لكم شَبهاً أيها الناسُ للكافرِ من عبيدِه، والمؤمن به منهم. فأما مَثَلُ الكافرِ: فإنه لا يعملُ بطاعةِ الله، ولا يأتي خيراً، ولا ينفق في شيءٍ من سبيل الله ماله لِغَلبةِ خذلانِ الله عليه، كالعبدِ المملوك، الذي لا يقدرُ على شيءٍ فينفقه. وأما المؤمنُ بالله فإنه يعملُ بطاعةِ الله، وينفقُ في سبيله ماله كالحرِّ الذي آتاه الله مالاً، فهو ينفقُ منه سرّاً وجهراً، يقول: بعلمٍ من الناسِ وغيرِ عِلْمٍ. «هَلْ يَسْتَوُونَ»، يقول هل يستوي العبدُ الذي لا يملكُ شيئاً ولا يقدرُ عليه، وهذا الحرّ الذي قد رَزَقَهُ الله رزقاً حسناً، فهو ينفقُ كما وَصَف، فكذلك لا يستوي الكافرُ العاملُ بمعاصي الله المخالف أمره، والمؤمن العامل بطاعته.

وقوله: «الحَمْدُ للهِ»، يقول: الحمدُ الكاملُ لله خالصاً دون ما تَدْعُون أيها القومُ من دونه من الأوثان فإياه فاحمدوا دونها.

وقوله: «بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول: ما الأمرُ كما تفعلون، ولا القولُ كما تقولون، ما للأوثانِ عندهم، من يَدٍ ولا معروف، فتُحْمد عليه، إنما الحمدُ لله، ولكنَّ أكثر هؤلاء الكفرة الذين يعبدونها لا يعلمونَ أنَّ ذلك كذلك، فهم بجهلهم بما يأتون ويَذَرُونَ يجعلونها لله شُركاءَ في العبادةِ والحمد.

وكان مجاهد يقول: ضربَ اللهُ هذا المثلَ، والمثلَ الآخر بَعْدَهُ لنفسه، وللآلهةِ التي تُعْبَدُ من دونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

وهذا مثل ضربه الله تعالى لنفسهِ والآلهةِ التي تُعبد من دونهِ، فقال تعالى ذِكْرُه: «وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ، أحَدُهُما أبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ»، يعني بذلك الصنم أنه لا يسمعُ شيئاً، ولا ينطق، لأنه إما خَشَبٌ منحوتٌ، وإما نحاسٌ مصنوع لا يقدرُ على نفعٍ لمن خدمه، ولا دفعِ ضرٍّ عنه، وهو كَلٌّ على مولاه. يقول: وهو عيالٌ على ابن عمه وحلفائهِ وأهلِ ولايته، فكذلك الصنمُ كَلٌّ على من يَعْبُده، يحتاجُ أنْ يحمله، ويضعه ويخدمه، كالأبكمِ من الناسِ الذي لا يقدرُ على شيءٍ، فهو كَلٌّ على أوليائه من بني أعمامه وغيرهم. «أيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يأْتِ بخَيْرٍ»، يقول: حيثما يوجهه لا يأتِ بخير، لأنه لا يفهمُ ما يُقالُ له، ولا يقدرُ أنْ يُعَبِّرَ عن نفسهِ مايريد، فهو لا يفهمُ، ولا يُفْهَمُ عنه، فكذلك الصنمُ، لا يعقلُ ما يُقالُ له، فيأتمرُ لأمرِ مَنْ أمَرَهُ، ولا ينطقُ فيأمر وينهى، يقول

الله تعالى: «هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بالعَدْلِ»، يعني: هل يستوي هذا الأبكمُ الكَلُّ على مولاه الذي لا يأتي بخيرٍ حيثُ توجَّهَ ومَنْ هو ناطقٌ متكلمٌ يأمرُ بالحقِّ، ويدعو إليه، وهو اللهُ الواحدُ القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، يقول: لا يستوي هو تعالى ذِكْرُه، والصنم الذي صِفَتُه ما وصف.

وقوله: «وَهُوَ على صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» يقول: وهو مع أمرهِ بالعدلِ، على طريقٍ من الحقِّ في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يَعْوَجُّ عن الحقِّ، ولا يزولُ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ولله أيها الناسُ مِلكُ ما غابَ عن أبصاركم في السمواتِ والأرضِ دونَ آلهتكم التي تَدْعُونَ من دونه، ودون كلِّ ماسواه، لا يملكُ ذلك أحدٌ سواه. «وما أَمْرُ السَّاعَةِ إلَّا كَلَمْحِ البَصَرِ»، يقول: وما أمرُ قيامِ القيامةِ والساعةِ التي تُنشر فيها الخَلْقُ للوقوف في موقفِ القيامة، إلا كنظرةٍ من البصر، لأنَّ ذلك إنما هو أن يقال له: كُنْ فيكون.

وقوله: «إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقول: إنَّ الله على إقامةِ الساعةِ في أقرب من لمحِ البصرِ قادرٌ، وعلى ما يشاء من الأشياء كلها، لا يمتنعُ عليه شيء أراده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله تعالى أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعدِ ما أخرجكم من بطونِ أمهاتكم، لا تعقلونَ شيئاً ولا تعلمون، فرزقكم عقولاً تفقهون بها، وتميزون بها الخيرَ من الشرِّ وبَصَّركُمْ بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعلَ لكم السمعَ الذي تسمعون به الأصواتَ، فيفقه بعضُكم عن بعضٍ ما تتحاورون به بينكم، والأبصارَ التي تُبْصِرونَ بها الأشخاصَ، فتتعارفون بها، وتميزون بها بعضاً من بعض. والأفئدة: يقول: والقلوب التي تعرفون بها الأشياءَ فتحفظونها، وتفكرون فتفقهون بها. «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، يقول: فَعَلْنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعمَ به عليكم من ذلك، دونَ الآلهةِ والأندادِ، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نِعَمِه شريكٌ.

وقوله: «وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً» كلامٌ مُتَناهٍ، ثم ابتدىء الخبر، فقيل: وجعلَ الله لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ. وإنما قلنا ذلك كذلك، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ جعلَ العبادةَ والسمع والأبصار والأفئدة، قبل أنْ يخرجهم من بطونِ أمهاتهم، وإنما أعطاهم العلمَ والعقلَ بعد ما أخرجهم من بطونِ أمهاتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركين: ألم تَرَوا أيُّها المشركون بالله إلى الطيرِ مسخراتٍ في جوِّ السماء. يعني: في هواء السماء بينها وبين الأرض.

«ما يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ اللهُ» يقول: ما طيرانها في الجوِّ إلا بالله، وبتسخيره إياها بذلك، ولو سلبها ما أعطاها من الطيرانِ لم تَقْدِرْ على النهوضِ ارتفاعاً.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول: إنَّ في تسخيرِ الله

الطيرَ، وتمكينه لها الطيران في جوِّ السماء، لعلاماتٍ ودلالات على أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنه لاحَظَّ للأصنامِ والأوثانِ في الألوهة. «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يعني: لقوم يُقِرُّونَ بوجدانِ ما تُعاينُه أبصارُهم، وتُحِسُّه حواسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى ذكره: «وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ» أيها الناس «مِنْ بُيُوتِكُمْ» التي هي من الحَجَرِ والمَدَرِ «سَكَناً» تسكنونَ أيامَ مقامكم في دوركم وبلادكم «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً» وهي البيوت من الأنطاعِ والفساطيطِ من الشعر والصوف والوبر «تَسْتَخِفُّونَها»، يقول: تستخفون حَمْلَها ونقلها «يَوْمَ ظَعْنِكُمْ» من بلادكم وأمصاركم لأسفاركم «وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ» في بلادكم وأمصاركم «وَمِنْ أَصْوَافِها وأَوْبارِها وأَشْعارِها أثاثاً».

وأما الأثاثُ فإنه متاع البيت لم يسمع له بواحد، وهو في أنه لا واحدَ له مثل المتاع.

وقوله: «وَمَتاعاً إلى حِينٍ»، فإنه يعني: أنه جعل ذلك لهم بلاغاً، يتبلَّغُونَ ويكتفون به إلى حين آجالهم للموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن نعمة الله عليكم أيها الناسُ أنْ جعلَ لكم مما خَلَقَ من الأشجارِ وغيرها ظلالاً تستظُّلونَ بها من شدَّةِ الحَرِّ وهي جَمع ظلّ.

وقوله: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبالِ أكْناناً» يقول: وجعل لكم من الجبال مواضعَ تسكنونَ فيها، وهي جمع كنّ.

وقوله: «سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ»، يقول: ودروعاً تقيكم بأسكم، والبأس: هو الحرب، والمعنى: تقيكم في بأسكم السلاح أن يصل إليكم.

وقوله: «كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لعلّكم تُسْلِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كما أعطاكم رَبُّكم هذه الأشياء التي وصفها في هذه الآيات نعمةً منه بذلك عليكم، فكذا يُتمُّ نعمتَهُ عليكم لعلكم تسلمون. يقول: لتخضعوا لله بالطاعة، وتذِلّ منكم بتوحيدهِ النفوسُ، وتُخْلِصُوا له العبادة.

فإنْ قال لنا قائل: وكيف جعلَ لكم سرابيل تقيكم الحرَّ، فَخَصَّ بالذكرِ الحرَّ دون البرد، وهي تقي الحرَّ والبردَ، أم كيف قيل: «وجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبالِ أكْناناً» وترك ذِكْرَ ما جعلَ لهم من السهل؟

قيل له: قد اختُلف في السبب الذي من أجله جاء التنزيلُ كذلك، وسنذكرُ ما قيل في ذلك، ثم ندلُّ على أوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب.

فرُوي عن عطاء الخراساني في ذلك أنه قال: إنما نزلَ القرآنُ على قَدْرِ معرفتهم، ألا ترى إلى قولِ الله تعالى ذِكْرُه: «وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبالِ أكْناناً» وما جعل لهم من السهولِ أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحابَ جبال، ألا ترى إلى قوله: «وَمِنْ أصْوَافِها وأوْبارِها وأشْعارِها أثاثاً وَمَتاعاً إلى حِينٍ» وما جعلَ لهم من غيرِ ذلك أعظم منه وأكثر، ولكنهم كانوا أصحابَ وَبَرٍ وشَعَر، ألا ترى إلى قوله: «ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ منْ جِبالٍ مِنْ بَرَدٍ» يُعَجِّبهم من ذلك، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفون به،

ألا ترى إلى قوله: «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ» وما تقي من البردِ أكثر وأعظم، ولكنهم كانوا أصحابَ حَرٍّ، فالسبب الذي من أجله خصَّ اللهُ تعالى ذكرُه السرابيلَ بأنها تقي الحرَّ دونَ البردِ على هذا القول، هو أنَّ المخاطبينَ بذلك كانوا أصحابَ حَرٍّ، فذكر الله تعالى ذِكْرُه نعمته عليهم بما يَقِيهم مَكروهَ ما به عرفوا مكروهه، دونَ ما لم يعرفوا مبلغ مكروهه، وكذلك ذلك في سائر الأحرفِ الأُخرَ.

وقال آخرون: ذكر ذلك خاصة اكتفاء بذِكْرِ أحدهما من ذكرِ الآخر، إذ كان معلوماً عند المخاطبين به معناه. وأنَّ السرابيل التي تقي الحرَّ تقي أيضاً البردَ، وقالوا: ذلك موجود في كلامِ العربِ مستعمل.

وأوْلى القولين في ذلك بالصواب: قولُ مَنْ قال: إنَّ القوم خُوطِبُوا على قَدْرِ معرفتهم، وإنْ كان في ذِكْرِ بعض ذلك، دلالة على ماترك ذكره، لمن عرف المذكور والمتروك، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه، إنما عَدَّدَ نعمه التي أنعمها على الذين قُصدوا بالذكرِ في هذه السورة دونَ غيرهم، فذكر أياديه عندهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فإنْ أدبرَ هؤلاء المشركونَ يا محمدُ عَمَّا أرسلتك به إليهم من الحقِّ، فلم يستجيبوا لكَ وأعرضُوا عنه، فما عليكَ من لومٍ ولا عذلٍ، لأنك قد أدَّيْتَ ما عليكَ في ذلك. إنه ليس عليك إلا بلاغهم ما أُرسِلْتَ به. ويعني بقوله: «المُبينُ» الذي يبينُ لمن سمعه حتى يفهمه.

وأما قوله: «يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها» فإن أهلَ التأويلِ اختلفوا في

المعنيّ بالنعمةِ التي أخبر الله تعالى ذِكْرُه عن هؤلاء المشركين أنهم ينكرونها، مع معرفتهم بها.

فقال بعضهم: هو النبيُّ ﷺ عرفوا نُبُوَّتَهُ ثم جَحَدُوها وكذبوه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم يعرفون أنَّ ماعَدَّدَ اللهُ تعالى ذِكْرُهُ في هذه السورة من النعم من عند الله، وأنَّ الله هو المنعم بذلك عليهم، ولكنهم يُنكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وقال آخرون: إنكارهم إياها أن يقولَ الرجلُ: لولا فلانٌ ما كانَ كذا وكذا، ولولَا فلان ما أُصبت كذا وكذا.

وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: مَنْ رزقكم؟ أقرُّوا بأنَّ الله هو الذي رزقهم، ثم يُنكرون ذلك بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعةِ آلهتنا.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، وأشبهها بتأويل الآية، قولُ من قال: عَنَى بالنعمة التي ذكرها الله في قوله: «يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ» النعمةَ عليهم بإرسالِ محمدٍ ﷺ إليهم داعياً إلى مابعثه بدعائهم إليه، وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خَبَرٌ عن رسولِ الله ﷺ، وعَمَّا بُعِثَ به، فأوْلى ما بينهما أنْ يكونَ في معنى ما قبله وما بعده، إذ لم يكن معنى يدلُّ على انصرافهِ عما قَبْلَهُ وعما بعده، فالذي قَبْلَ هذه الآية قوله: «فإنْ تَوَلَّوْا فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ المُبينُ. يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ الله ثُمَّ يُنْكِرُونَها» وما بعده «وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً» وهو رسولها. فإذا كان ذلك كذلك، فمعنى الآية: يعرفُ هؤلاء المشركون باللهِ نعمةَ الله عليهم يا محمدُ بكَ، ثم ينكرونكَ ويجحدونَ نُبُوَّتَكَ «وأَكْثَرُهُمُ الكافِرُونَ»، يقول: وأكثرُ قومكَ الجاحدونَ نبوّتَكَ، لا المقرّون بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا

﴿يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يعرفون نعمةَ الله ثم يُنكرونها اليوم ويستنكرون «يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً» وهو الشاهدُ عليها بما أجابتْ داعيَ الله، وهو رسولُهم الذي أُرسِلَ إليهم، «ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا»، يقول: ثم لا يُؤْذَنُ للذين كفروا في الاعتذار، فيعتذروا مما كانوا بالله وبرسوله يكفرون «وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» فيتركوا الرجوع إلى الدنيا، فينيبوا ويتوبوا، وذلك كما قال تعالى: «هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا عاينَ الذين كَذَّبُوكَ يا محمدُ، وجَحَدوا نُبوّتك، والأمم الذين كانوا على منهاجِ مشركي قومك عذابَ الله، فلا ينجيهم من عذابِ الله شيءٌ، لأنهم لا يُؤْذَنُ لهم، فيعتذرون، فيخفف عنهم العذابُ بالعذرِ الذي يَدَّعُونَهُ. «وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ»، يقول: ولا يُرْجَئُونَ بالعقاب، لأنَّ وقتَ التوبةِ والإنابةِ قد فات، فليس ذلك وقتاً لهما، وإنما هو وقتٌ للجزاءِ على الأعمالِ، فلا ينظر بالعتاب ليعتب بالتوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا رأى المشركون باللهِ يومَ القيامةِ ما كانوا يعبدونَ

من دونِ الله من الآلهة والأوثان وغير ذلك، قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا في الكُفْرِ بكَ، والشركاء الذين كنا ندعوهم آلهةً من دونك، قال الله تعالى ذكره: «فألْقَوْا» يعني: شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دونِ الله القولَ: يقول: قالوا لهم: إنكم لكاذبونَ أيها المشركون، ما كُنَّا ندعوكم إلى عبادتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وألقى المشركون إلى الله يومئذٍ السَّلَمَ. يقول: استسلموا يومئذٍ وذَلُّوا لِحُكْمِه فيهم، ولم تُغْنِ عنهم آلهتُهم ـ التي كانوا يَدْعُونَ في الدنيا من دونِ الله، وتبرأت منهم ـ ولا قومُهم، ولا عشائرُهم الذين كانوا في الدنيا يدافعون عنهم، والعربُ تقول: ألقيتُ إليه كذا تعني بذلك قلت له.

وقوله: «وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ»، يقول: وأخطأهم من آلهتِهِمْ ما كانوا يُأْملون من الشفاعةِ عند الله بالنجاة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ۝٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين جَحَدُوا يا محمدُ نبوّتَكَ وكذَّبوكَ فيما جِئْتَهُمْ به من عند ربك، وصَدُّوا عن الإيمانِ بالله وبرسوله، ومَنْ أراده زِدْنَاهُمْ عذاباً يومَ القيامة في جهنم فوقَ العذابِ الذي هم فيه قبل أن يُزَادُوه.

وقوله: «بِمَا كانُوا يُفْسِدُونَ»، يقول: زِدْنَاهُمْ ذلك العذابَ على مابهم من العذابِ بما كانوا يفسدون، بما كانوا في الدنيا يَعْصُونَ الله، ويأمرون عبادَهُ

بمعصيتهِ، فذلك كان إفسادُهم، اللهمَّ إنا نسألك العافيةَ يا مالكَ الدنيا والآخرة الباقية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»، يقول: نسألُ نبيهم الذي بعثْناهُ إليهم للدعاءِ إلى طاعتنا، وقال: «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» لأنه تعالى ذِكْرُه كان يبعثُ إلى أُممٍ أنبياءَها منها، ماذا أجابوكم، وما رَدُّوا عليكم. «وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هُؤلاءِ»، يقول لنبيه محمد ﷺ: وجئنا بك يا محمد شاهداً على قومك وأمتك الذين أرسلتك إليهم بما أجابوك؟ وماذا عملوا فيما أرسلتك به إليهم؟

وقوله: «وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ»، يقول: نزلَ عليك يا محمدُ هذا القرآنَ بياناً لكلِّ ما بالناسِ إليه الحاجةُ من معرفةِ الحلالِ والحرامِ والثواب والعقاب، «وَهُدًى» من الضلالةِ، «وَرَحْمَةً» لمن صدَّقَ به، وعملَ بما فيه من حدودِ الله، وأمره ونهيه، فأحَلَّ حلالَهُ، وحَرَّمَ حرامه، «وبُشْرَى للمسْلِمينَ»، يقول: وبشارة لمن أطاعَ الله وخضعَ له بالتوحيدِ، وأذعنَ له بالطاعةِ، يبشره بجزيلِ ثوابهِ في الآخرة، وعظيمِ كرامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ الله يأمرُ في هذا الكتابِ الذي أنزله إليكَ يا محمدُ بالعدلِ، وهو الإنصافُ، ومن الإنصافِ: الإقرارُ بمن أنعمَ علينا بنعمتِه، والشكرُ له على إفضالِه، وتولي الحمدِ أهله. وإذا كان ذلك هو العدل، ولم يَكُنْ للأوثانِ والأصنامِ عندنا يَدٌ تستحقُّ الحمدَ عليها كان جهلاً بنا حَمْدُها وعبادَتُها، وهي لا تنعِمُ فَتُشْكَرَ، ولا تنفعُ فتُعْبَدَ، فلزمنا أنْ نشهدَ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، ولذلك قال مَنْ قال: العدلُ في هذا الموضع: شهادةُ أنْ لا إله إلا الله.

وقوله: «وَإيتاءِ ذِي القُرْبى»، يقول: وإعطاءُ ذي القربى الحقَّ الذي أوْجَبَهُ الله عليكَ بسببِ القرابةِ والرحم.

وقوله: «وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ» قال: الفحشاء في هذا الموضع: الزنا.

وقوله: «والبَغْيِ» قيل: عنى بالبغي في هذا الموضع: الكِبْرَ والظلم.

وقوله: «يَعظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، يقول: يُذَكِّرُكُمْ أيها الناسُ ربكم لتتذكروا فَتُنِيبُوا إلى أمرِهِ ونهيِهِ، وتعرفوا الحقَّ لأهلِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾

يقول تعالى ذكره: وأوفوا بميثاقِ الله إذا واثقتموهُ، وعَقْدِه إذا عاقدتُموه، فأوجبتم به على أنفسِكم حقاً لمن عاقدتموهُ به وواثقتموهُ عليه «وَلا تَنقُضُوا الأيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها»، يقول: ولا تخالفوا الأمرَ الذي تعاقدتم فيه الأيمانَ، يعني بعد ما شَدَّدتم الأيمانَ على أنفسِكم، فتحنثُوا في أيمانِكم وتكذبوا فيها، وتَنْقُضُوها بعد إبرامها، يقال منه: وكَّدَ فلانٌ يمينه يوكِّدها توكيداً: إذا شَدَّدها،

وهي لغة أهل الحجاز، وأما أهل نجد، فإنهم يقولون: أكَّدْتُها أؤَكِّدُها تأكيداً.

وقوله: «وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً»، يقول: وقد جعلتمُ الله بالوفاءِ بما تعاقدتم عليه على أنفسِكم راعياً يرعى الموفي منكم بعهدِ الله الذي عاهدَ على الوفاءِ به، والناقض.

وقوله: «إنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ» يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله أيها الناسُ يعلمُ ما تفعلون في العهودِ التي تُعاهدونَ اللهَ من الوفاءِ بها، والأحلافِ والأيمانِ التي تؤكدونها على أنفسكم، أتبرُّونَ فيها أم تَنْقُضُونَها وغير ذلك من أفعالكم. مُحْصٍ ذلك كُلَّه عليكم، وهو مُسَائِلُكم عنها، وعما عَمِلْتُمْ فيها، يقول: فاحذروا الله أنْ تلقوه وقد خالفتم فيها أمرَهُ ونهيه، فتستوجبوا بذلك منه ما لا قِبَلَ لكم به من أليمِ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه ناهياً عباده عن نقضِ الأيمانِ بعد توكيدها، وآمراً بوفاءِ العهودِ، وممثلاً ناقضَ ذلك بناقضةِ غَزْلِهَا من بعدِ إبرامه، وناكِثَتُهُ من بعد إحكامهِ؛ ولا تكونوا أيها الناسُ في نقضكم أيمانكم بعد توكيدها وإعطائِكم الله بالوفاءِ بذلك العهودَ والمواثيقَ «كالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ»، يعني: من بعد إبرامٍ. وكان بعضُ أهل العربية يقول: القوّة: ما غُزِل على طاقةٍ واحدة ولم يثن. وقيل: إن التي كانت تفعل ذلك امرأةٌ حمقاء معروفة بمكة.

وقال آخرون: إنما هذا مَثَلٌ ضربه الله لِمَنْ نقضَ العهدَ، فشبهه بامرأةٍ تفعلُ هذا الفعل، وقالوا: في معنى نقضت غزلها من بعد قُوَّةٍ، نحواً مما قلنا.

وقوله: «تَتَّخِذُونَ أيمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ، أنْ تَكُونَ أُمَّة هِيَ أرْبَى مِنْ أُمَّةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تجعلون أيمانَكُم التي تحلفونَ بها على أنكم مُوفونَ بالعهدِ لمن عاقدتموه «دَخَلاً بَيْنَكُمْ»، يقول: خديعةً وغروراً ليطمئنوا إليكم، وأنتم مُضْمِرُونَ لهم الغدر، وتركَ الوفاءِ بالعهدِ، والنُّقلة عنهم إلى غيرهم من أجل أنَّ غيرهم أكثر عدداً منهم.

والدَّخَلُ في كلام العرب: كلُّ أمرٍ لم يكن صحيحاً، يقال منه: أنا أعلم دَخَلَ فلانٍ ودُخْلُلَهُ، وداخلة أمره ودخلته ودخيلته.

وأما قوله: «أنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أرْبَى مِنْ أُمَّةٍ»، فإن قوله أرْبَى: أفعل من الربا، يقال: هذا أَرْبَى من هذا وأربأ منه، إذا كان أكثر منه.

وقوله: «إنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنما يختبركم الله بأمرهِ إياكم بالوفاءِ بعهدِ الله إذا عاهدتم، ليتبين المطيع منكم المنتهي إلى أمرهِ ونهيه، مِنَ العاصي المخالف أمره ونهيه. «وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذكره: وليبينن لكم أيها الناسُ ربكم يومَ القيامةِ إذا وَرَدْتُمْ عليه بمجازاةِ كلِّ فريقٍ منكم على عمله في الدنيا، المحسن منكم بإحسانهِ، والمسيء بإساءتهِ، ماكنتم فيه تختلفون. والذي كانوا فيه يختلفون في الدنيا أنَّ المؤمنَ باللهِ كانَ يُقِرُّ بوحدانيةِ الله ونبوَّةِ نبيه. ويصدقُ بما ابتعثَ به أنبياءه، وكان يكذِّبُ بذلك كُلِّه الكافرُ، فذلك كان اختلافُهم في الدنيا الذي وَعَدَ الله تعالى ذِكْرُه عبادَهُ أنْ يبينه لهم عند ورودِهم عليه بما وصفنا من البيان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ولو شاء رَبُّكم أيها الناسُ لَلَطفَ بكم بتوقيةٍ[1] مِنْ عنده، فصرتم جميعاً جماعةً واحدة، وأهلَ ملةٍ واحدةٍ لا تختلفونَ ولا تفترقون، ولكنـه تعالى ذِكْرُهُ خالفَ بينكم، فجعلكم أهلَ مِلَلٍ شَتَّى، بأنْ وَفَّقَ هؤلاء للإيمانِ به، والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنينَ، وخذلَ هؤلاء فحَرَمَهم توفيقَهُ فكانوا كافـرين، وليسألنكم الله جميعاً يومَ القيامةِ عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم، ثم لَيُجَازِيَنَّكُمْ جزاءَ المطيع منكم بطاعتهِ، والعاصي له بمعصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ولا تَتَّخِذُوا أيمانَكُم بينكم دَخَلاً وخديعةً بينكم، تَغُـرُّونَ بها الناسَ «فتزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها»، يقول: فتهلكوا بعد أنْ كنتم من الهلاكِ آمنينَ، وإنما هذا مَثَلٌ لكلِّ مُبْتَلى بعد عافيةٍ، أو ساقطٍ في ورطةٍ بعد سلامة، وما أشبه ذلك: «زلَّت قدمه».

وقوله: «وَتَذُوقُوا السُّوءَ»، يقول: وتذوقوا أنتم السُّوءَ، وذلك السوء، هو عذابُ الله الذي يعذِّبُ به أهلَ معاصيه في الدنيا، وذلك بعضُ ما عَذَّبَ به أهلَ الكفر، «بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ الله»، يقول: بما فَتنتم مَنْ أراد الإيمانَ بالله ورسوله عن الإيمان. «وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» في الآخرة، وذلك نارُ جهنم.

---

(١) في الأصل: بتوفية، ولعل الصواب ما اثبتناه، فالتوقية: الكَلاءة والحفظ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تنقضوا عُهودَكُم أيها الناسُ، وعقودَكُم التي عاقدتموها مَنْ عاقدتم مُؤكِّديها بأيمانِكم، تطلبونَ بنقضِكم ذلك عَرَضاً من الدنيا قليلاً، ولكن أوفوا بعهدِ الله الذي أمركم بالوفاءِ به يُثِبْكُمُ اللهُ على الوفاءِ به، فإنَّ ما عندَ اللهِ من الثوابِ لكم على الوفاءِ بذلك، هو خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون، فَضْلَ ما بين العِوَضينِ اللَّذَيْنِ أحَدُهما الثمنُ القليل، الذي تشترونَ بنقضِ عهدِ الله في الدنيا، والآخرُ الثوابُ الجزيلُ في الآخرةِ على الوفاءِ به، ثم بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه، فَرْقَ ما بين العِوَضين وفضلَ ما بين الثوابين، فقال: ما عندكم أيها الناسُ مما تتملكونه في الدنيا، وإنْ كَثُر فنافدٌ فانٍ، وما عندَ اللهِ لمن أوفى بعهدِه وأطاعه من الخيراتِ باقٍ غيرُ فانٍ، فَلِمَا عِنْدَهُ فاعملوا وعلى الباقي الذي لا يفنى فاحْرِصُوا.

وقوله: «وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أجْرَهُمْ بأحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذكره: ولَيُثِيبَنَّ اللهُ الذين صبروا على طاعتهم إياه في السَّرَّاءِ والضرَّاءِ، ثوابهم يوم القيامة على صبرهم عليها، ومسارعتهم في رضاه، بأحسن ما كانوا يَعملُون من الأعمالِ دون أسوئها، وليغفرنَّ اللهُ لهم سَيِّئها بفضله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ عمل بطاعة الله، وأوفى بعهودِ الله إذا عاهدَ من ذكرٍ أو أنثى من بني آدمَ وهو مؤمنٌ: يقول: وهو مُصَدِّقٌ بثوابِ الله الذي وعدَ

أهلَ طاعتهِ على الطاعة، وبوعيدِ أهلِ معصيته على المعصية. «فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً».

واختلف أهلُ التأويل في الذي عَنَى اللهُ بالحياةِ الطيبة التي وَعَدَ هؤلاء القومِ أنْ يُحْيِيهُمُوها، فقال بعضهم: عَنَى أنه يحييهم في الدنيا ما عاشوا فيها بالرِّزْقِ الحلال.

وقال آخرون: «فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً» بأنْ نرزقه القناعةَ.

وقال آخرون: بل يعني بالحياة الطيبة: الحياةَ مؤمناً بالله، عاملاً بطاعته.

وقال آخرون: الحياةُ الطيبة: السعادة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الحياة في الجنة.

وأَوْلى الأقوالِ بالصوابِ قولُ مَنْ قال: تأويلُ ذلك: فلنحيينه حياةً طيبةً بالقناعةِ، وذلك أنَّ مَنْ قنعه الله بما قَسَمَ له من رزق لم يَكْثُرْ للدنيا تَعَبُه، ولم يَعْظُمْ فيها نَصَبُهُ، ولم يَتَكَدَّرْ فيها عَيْشُه باتباعه بغية ما فاته منها وحرصه على ما لَعلَّهُ لا يُدْرِكُه فيها.

وإنما قلت: ذلك أَوْلى التأويلات في ذلك بالآية، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أوعدَ قوماً قبلها على معصيتهم إياه إنْ عَصَوْهُ أذاقَهُم السّوءَ في الدنيا، والعذابَ في الآخرة، فقال تعالى: «وَلا تَتَّخِذُوا أيمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ، فَتزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها، وتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُم عَنْ سَبِيلِ اللهِ»، فهذا لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم، فهذا لهم في الآخرة. ثم أَتْبَعَ ذلك ما لِمَن أوفى بعهدِ الله وأطاعَهُ فقال تعالى: ما عندكم في الدنيا ينفد، وما عند الله باقٍ، (أي: إن الله سبحانه)[1] يعقب ذلك الوعدَ لأهلِ طاعتهِ بالإحسانِ في الدنيا، والغفران

(١) سقط في هذا الموضع كلام في المخطوط والمطبوعات، ووضعنا ما بين الحاصرتين ليتصل الكلام ويبين المعنى.

في الآخرةِ، وكذلك فَعَلَ تعالى ذِكْرُه.

وأما القولُ الذي رُوِي أنه الرزقُ الحلالُ، فهو محتَمل أنْ يكونَ معناه الذي قلنا في ذلك، من أنه تعالى يقنعه في الدنيا بالذي يرزقه من الحلالِ، وإنْ قلَّ فلا تَدْعُوهُ نَفْسُه إلى الكثيرِ منه من غير حِلِّه، لا أنه يرزقه الكثيرَ من الحلالِ، وذلك أنَّ أكثرَ العاملين لله تعالى بما يرضاهُ من الأعمالِ لم نرهم رُزِقوا الرزقَ الكثيرَ من الحلال في الدنيا، ووجدنا ضِيقَ العيش عليهم أغلبَ من السعة.

وقوله: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أجْرَهُمْ بأحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»، فذلك لا شَكَّ أنه في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا كنتَ يا محمدُ قارئاً القرآن، فاستعذْ بالله من الشيطانِ الرجيم. وكان بعضُ أهلِ العربية يزعمُ أنه من المُؤَخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ. وكأن معنى الكلام عنده: وإذا استعذتَ بالله من الشيطان الرجيم، فاقرأ القرآنَ، ولا وجهَ لما قالَ من ذلك، لأنَّ ذلك لو كان كذلك لكان متى استعاذَ مستعيذٌ من الشيطانِ الرجيم، لَزِمَهُ أنْ يقرأَ القرآن، ولكن معناه ما وصفناه، وليس قوله: «فاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ» بالأمر اللازم. وإنما هو إعلامٌ وندب. وذلك أنه لا خلافَ بين الجميع، أنَّ مَنْ قرأ القرآن ولم يستعذْ باللهِ من الشيطانِ الرَّجيم قبلَ قراءتِهِ أو بعدها أنه لم يضيع فرضاً واجباً.

وأما قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُونَ»، فإنه يعني بذلك: أنَّ الشيطانَ ليست له حجةٌ على الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمرَ اللهُ به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه. «وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، يقول: وعلى رَبِّهم يتوكلون فيما نابَهُمْ من مهماتِ أمورهم. «إِنَّما سُلْطانُه عَلى الَّذِينَ يَتولَّونَهُ»، يقول: إنما حجته على الذين يعبدونه «وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»، يقول: والذين هم بالله مشركون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا نسخنا حُكْمَ آيةٍ، فأبدلنا مكانَهُ حُكْمَ أُخرى، «والله أعلمُ بما ينزِّلُ»، يقول: واللهُ أعلمُ بالذي هو أصلحُ لخلْقِه فيما يبدِّلُ ويغير من أحكامه، «قالوا: إنما أنتَ مُفْتَرٍ»، يقول: قال المشركون بالله، المُكَذِّبُو رسوله لرسوله: إنما أنتَ يا محمدُ مفترٍ: أي مكذب تخرص بتقوُّلِ الباطلِ على الله، يقول الله تعالى: بل أكثرُ هؤلاء القائلين لكَ يا محمدُ: إنما أنتَ مفترٍ، جُهّال، بأنَّ الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، لا يعلمون حقيقةَ صحته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ للقائلينَ لك: إنما أنتَ مفترٍ فيما تَتْلُو عليهم من آيِ كتابنا، أنزله روح القُدُس، يقول: قل جاء به جبرئيلُ من عند ربي بالحقِّ، وقد بيَّنتُ في غير هذا الموضع معنى: روح

القُدس، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: «لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ نَزَّلَ هذا القرآنَ ناسخه ومنسوخه روحُ القُدُس عليَّ من ربي، تثبيتاً للمؤمنين، وتقويةً لإيمانهم، ليزدادوا بتصديقِهم لناسخهِ ومنسوخهِ إيماناً لإيمانهم، وهدىً لهم من الضلالةِ، وبُشرى للمسلمينَ الذين استسلموا لأمرِ الله، وانقادوا لأمرهِ ونهيه، وما أنزله في آيِ كتابه، فأقرُّوا بكلِّ ذلك، وصَدَّقُوا به قولاً وعملاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد نعلمُ أنَّ هؤلاء المشركينَ يقولون جهلاً منهم: إنما يُعَلِّمُ محمداً هذا الذي يتلوه بَشَرٌ من بني آدم، وما هُوَ من عندِ الله، يقول الله تعالى ذِكْرُه مُكَذِّبهم في قِيلهم، وذلك: ألا تعلمون كَذِبَ ما تقولون، إنَّ لسانَ الذي تُلْحِدُونَ إليه: يقول: تَميلُونَ إليه بأنه يُعَلِّمُ محمداً أعجميٌّ، وذلك أنهم فيما ذُكر كانوا يزعمون أنَّ الذي يعلِّمُ محمداً هذا القرآنَ عبدٌ روميٌّ، فلذلك، قال تعالى: «لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وهَذَا لِسانٌ عَرَبيّ مُبِينٌ»، يقول: وهذا القرآن لسان عربيٌّ مبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى: إنَّ الذين لا يؤمنون بحججِ الله وأدلَّتِه، فيصدِّقُون بما دلَّت

عليه «لا يَهْدِيهِمُ اللهُ»، يقول: لا يوفقهم الله لإصابةِ الحقِّ، ولا يهديهم لسبيلِ الرشد في الدنيا، ولَهُمْ فِي الآخِرَةِ، وعند الله إذا وَرَدُوا عليه يومَ القيامةِ عذابٌ مؤلِمٌ موجعٌ. ثم أخبر تعالى ذِكْرُه المشركينَ الذين قالوا للنبيِّ ﷺ: إنما أنتَ مُفْتَرٍ، أنهم هم أهلُ الفِرْيَةِ والكذبِ، لا نبيّ الله ﷺ، والمؤمنون به، وبَرَّأ من ذلك نبيَّهُ ﷺ وأصحابه، فقال: إنما يتخرَّصُ الكذبَ، ويتقوَّلُ الباطلَ، الذين لا يُصَدِّقُونَ بحججِ الله وإعْلامِهِ، لأنهم لا يرجون على الصِّدْق ثواباً، ولا يخافون على الكَذِبِ عِقاباً، فهم أهلُ الإفك وافتراءِ الكذبِ، لا مَنْ كان راجياً من الله على الصدقِ الثوابَ الجزيلَ، وخائفاً على الكذب العقابَ الأليم.

وقوله: «وأُولَئِكَ هُمُ الكاذِبُونَ»، يقول: والذين لا يؤمنون بآياتِ الله هم أهلُ الكَذِب لا المؤمنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في عمار بن ياسر وقوم كانوا أسلموا، فَفَتَنَهُم المشركونَ عن دِينهم، فثبت على الإسلام بعضُهم، وافتتن بعض.

وتأويلُ الكلام: مَنْ كفرَ باللهِ من بعد إيمانِهِ، إلَّا مَنْ أُكْرِهَ على الكفر، فنطقَ بكلمةِ الكفر بلسانِهِ وقلبُهُ مطمئنٌّ بالإيمان، مُوقِنٌ بحقيقته، صحيحٌ عليه عزمه، غير مفسوحِ الصدرِ بالكفر، لكنْ مَنْ شرح بالكفر صدراً فاختاره وآثره على الإيمان، وباح به طائعاً، فعليهم غَضَبٌ من الله، ولهم عذابٌ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا

عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى ذكره: حَلَّ بهؤلاء المشركين غضبُ الله، ووجَبَ لهم العذابُ العظيم، من أجل أنهم اختاروا زينةَ الحياةِ الدنيا على نعيمِ الآخرة، ولأن الله لا يوفق القوم الذين يجحدون آياته مع إصرارهم على جحودها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء المشركون الذين وصفتُ لكم صِفَتهم في هذه الآياتِ أيها الناسُ، هُمُ القومُ الذين طَبَعَ الله على قلوبهم، فختَمَ عليها بطابعه، فلا يؤمنونَ، ولا يهتدونَ، وأصَمَّ أسماعَهُمْ فلا يسمعونَ، داعيَ الله إلى الهدى، وأعمى أبصارَهُمْ فلا يُبصرونَ بها حُجَجَ الله إبصارَ مُعْتَبِرٍ ومُتَّعِظٍ. «وأُولَئِكَ هُمُ الغافِلُونَ»، يقول: وهؤلاء الذين جعلَ اللهُ فيهم هذه الأفعالَ هم الساهون، عما أعَدَّ اللهُ لأمثالهم من أهل الكفر، وعما يُرادُ بهم.

وقوله: «لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الخاسِرُونَ» الهالكون، الذين غَبَنوا أَنْفُسَهم حُظوظَها من كرامةِ الله تعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ للذين هاجَرُوا من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم إلى ديارِ أهلِ الإسلام

ومساكنهم وأهلِ ولايتهم، مِنْ بعدِ ما فَتَنَهُمُ المشركونَ الذين كانوا بين أَظْهُرِهم قبل هجرتهم عن دِينهم، ثم جاهدوا المشركينَ بعد ذلك بأيديهم بالسيفِ وبألسنتهم بالبراءةِ منهم، ومما يعبدون من دون الله، وصبروا على جهادهم. «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: إن ربك من بعد فِعْلَتِهم هذه لهم لغفورٌ، يقول: لَذُو سترٍ على ما كانَ منهم من إعطاءِ المشركينَ ما أرادوا منهم من كلمةِ الكفر بألسنتِهم، وهُمْ لغيرها مُضْمِرُونَ، وللإيمانِ مُعْتَقِدُونَ، رحيمٌ بهم أنْ يُعاقِبَهُمْ عليها مع إنابتهم إلى الله وتوبتهم.

وذُكِرَ عن بعض أهلِ التأويل أنَّ هذه الآيةَ نزلت في قومٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، كانوا تَخَلَّفُوا بمكة بعد هجرةِ النبيِّ ﷺ، فاشتدَّ المشركون عليهم حتى فَتَنُوهُمْ عن دِينهم، فأيسوا من التوبةِ، فأنزلَ الله فيهم هذه الآية، فهاجروا ولَحِقُوا برسولِ الله ﷺ.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في شأن عبدالله بن أبي سرح الذي كان يكتبُ لرسولِ الله ﷺ، فأزلَّهُ الشيطانُ، فلحق بالكفارِ، فأمرَ به النبيُّ ﷺ أن يُقتلَ يومَ فتحِ مكة، فاستجار له أبو عمرو[1]، فأجاره النبيُّ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربكَ مِنْ بَعْدِهَا لغفورٌ رحيم، «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ» تخاصم عن نفسها، وتحتجُّ عنها بما أسلفت في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ أو إيمانٍ أو كفر، «وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ» في الدنيا من طاعة ومعصية. «وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»، يقول: وهم لا يُفْعَلُ بهم إلا ما يستحقُّونَهُ ويستوجبونه بما قَدَّمُوه من

---

(١) يعني: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

خيرٍ أو شرٍّ فلا يُجْزَى المحسنُ إلا بالإحسانِ، ولا المسيءُ إلا بالذي أسلفَ من الإساءة، لا يُعاقَبُ محسنٌ ولا يُبْخَسُ جزاء إحسانه، ولا يُثابُ مسيءٌ إلا ثواب عمله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُه: ومَثَّلَ اللهُ مثلاً لمكة التي سكانُها أهلُ الشركِ بالله هي القرية التي كانت آمنةً مطمئنة، وكان أمنها أنَّ العربَ كانت تتعادى، ويقتلُ بعضُها بعضاً، ويَسْبِي بعضُها بعضاً، وأهلُ مكة لا يُغارُ عليهم، ولا يُحارَبونَ في بلدهم، فذلك كان أمنها.

وقوله: «مُطْمَئِنَّةً» يعني: قارَّة بأهلها، لا يحتاجُ أهلها إلى النَّجْعِ، كما كان سكانُ البوادي يحتاجون إليها. «يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً»، يقول: يأتي أهلها معايشهم واسعة كثيرة.

وقوله: «مِنْ كُلِّ مَكانٍ»، يعني: من كلِّ فَجٍّ من فِجاجِ هذه القرية، ومن كل ناحية فيها.

وقوله: «فأذَاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْفِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأذاقَ اللهُ أهلَ هذه القرية لباسَ الجوع، وذلك جوعٌ خالط أذاهُ أجسامَهم، فجعلَ الله تعالى ذِكْرُه ذلك لمخالطتهِ أجسامَهم بمنزلةِ اللباسِ لها، وذلك أنهم سلط عليهم الجوع سنينَ متوالية بدعاءِ رسولِ الله ﷺ، حتى أكَلُوا العلهز والجِيَف، والعلهز: الوَبَرُ يُعجنُ بالدمِ والقُراد يأكلونه؛ وأما الخوفُ فإنَّ ذلك كان خوفهم من سرايا رسولِ الله ﷺ التي كانت تطيفُ بهم.

وقوله: «بِمَا كانُوا يَصْنَعُونَ»، يقول: بما كانوا يصنعونَ من الكفرِ بأنْعُمِ الله، ويجحدونَ آياته، ويُكَذِّبونَ رسولَهُ، وقال: بما كانوا يصنعون.

وقد جرى الكلامُ من ابتداءِ الآيةِ إلى هذا الموضع على وجهِ الخبرِ عن القريةِ، لأنَّ الخبرَ وإنْ كان جرى في الكلام عن القرية، استغناءً بذكرها عن ذِكْرِ أهلها لمعرفةِ السامعينَ بالمرادِ منها، فإنَّ المرادَ أهلُها، فلذلك قيل: «بِمَا كانُوا يَصْنَعُونَ» فَرَدَّ الخبرَ إلى أهل القرية، وذلك نظير قوله: «فجاءَها بأسنا بَياتا أوْ هُمْ قائِلُونَ» ولم يقل قائلة، وقد قال قبله: «فَجاءَها بأسنا»، لأنه رجع بالخبرِ إلى الإخبارِ عن أهلِ القرية؛ ونظائر ذلك في القرآنِ كثيرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد جاء أهلَ هذه القريةِ التي وصفَ اللهُ صِفَتَها في هذه الآية التي قبل هذه الآية «رَسُولٌ مِنْهُمْ»، يقول: رسول الله ﷺ منهم. يقول: من أنفسهم يعرفونه، ويعرفونَ نَسَبَهُ وصِدْقَ لهجته، يدعوهم إلى الحقِّ، وإلى طريقٍ مستقيم «فَكَذَّبُوهُ» ولم يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله «فَأخَذَهُمُ العَـذَابُ» وذلك لباس الجوع والخوف مكان الأمنِ والطمأنينةِ والرزقِ الواسع الـذي كان قبـل ذلك يُرْزَقُونَهُ، وقَتْل بالسيف «وَهُمْ ظالِمُونَ»، يقول: وهم مشركون، وذلك أنه قُتِلَ عُظماؤهم يومَ بدرٍ بالسيفِ على الشرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَكُلوا أيها الناسُ مما رزقكمُ الله من بهائمِ الأنعامِ

التي أحَلَّها لكم حلالاً طيباً مُذَكَّاةً غير مُحرَّمةٍ عليكم. «وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ»، يقول: واشكروا الله على نعمه التي أنعمَ بها عليكم في تحليلهِ ما أحلَّ لكم من ذلك، وعلى غير ذلك من نعمه. «إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ»، يقول: إنْ كنتم تعبدون الله، فتطيعونه فيما يأمركم وينهاكم. وكان بعضهم يقول: إنما عَنَى بقوله: «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً» طعاماً كان بعث به رسولُ الله ﷺ إلى المشركين من قومهِ في سِنِي الجَدْبِ والقحطِ رِقَّةً عليهم، فقال الله تعالى للمشركين: فكلوا مما رَزَقَكُم اللهُ من هذا الذي بعث به إليكم حلالاً طيباً، وذلك تأويل بعيد مما يدلُّ عليه ظاهرُ التنزيل، وذلك أنَّ الله تعالى قد أتْبَعَ ذلك بقوله: «إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ»... الآية والتي بعدها، فَبَيَّنَ بذلك أنَّ قولـه: «فَكُلُوا مِمَّـا رَزَقَكُم اللهُ حَلالاً طَيِّبـاً» إعلامٌ من الله عبادَهُ أنَّ ما كان المشركون يُحَرِّمُونَهُ من البحائرِ والسوائبِ والوصائلِ، وغيرِ ذلك مما قد بيَّنا قَبْلُ فيما مضى لا معنى له، إذْ كان ذلك من خطواتِ الشيطانِ، فإنَّ كلَّ ذلك حلالٌ لم يُحَرِّم اللهُ منه شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُكَذِّباً المشركينَ الذين كانوا يُحْرِّمُونَ ماذكرنا من البحائرِ وغير ذلك: ماحرّم الله عليكم أيها الناسُ إلَّا الميتةَ والدمَ ولحم الخنزير، وما ذُبحَ للأنصابِ، فَسُمِّيَ عليه غيرُ الله، لأنَّ ذلك من ذبائح مَنْ لا يحلُّ أكلُ ذبيحتهِ، فمن اضطرَّ إلى ذلك أو إلى شيءٍ منه لمجاعةٍ حلَّتْ فأكله «غيرَ باغٍ وَلا عاد، فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: ذو سترٍ عليه أن يؤاخذه بأكلِه ذلك في حالِ الضرورةِ، رحيمٌ به أنْ يعاقبه عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

(يعني): ولا تقولوا لوصفِ ألسنَتِكُم الكذبَ فيما رزقَ اللهُ عباده من المطاعم: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، كي تَفْتَرُوا على اللهِ بقِيلكم ذلك الكذبَ، فإنَّ الله لم يحرم من ذلك ما تحرِّمون، ولا أحلَّ كثيراً مما تُحِلُّون، ثم تقدَّمَ إليهم بالوعيدِ على كذبهم عليه، فقال: «إنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ»، يقول: إن الذين يتخرَّصُونَ على الله الكذبَ ويختلقونه، لا يخلَّدُونَ في الدنيا، ولا يبقون فيها، إنما يتمتعون فيها قليلاً، وقال: «مَتاعٌ قَلِيلٌ» فرفع، لأن المعنى، الذي هُمْ فيه من هذه الدنيا متاع قليل، أو لهم متاعٌ قليلٌ في الدنيا.

وقوله: «ولَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ»، يقول: ثم إلينا مَرْجِعُهم ومَعَادُهم، ولهم على كذبهم وافترائِهم على الله بما كانوا يفترون عذابٌ عندَ مصيرِهم إليه أليم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَرَّمنا من قبلكَ يا محمدُ على اليهودِ ما أنبأناكَ به من قَبْلُ في سورةِ الأنعام، وذاك كلّ ذي ظُفُرٍ، ومن البقرِ والغنمِ، حرَّمنا عليهم شحومهما، إلا ما حملتْ ظُهورهما أو الحوايا، أو ما اختلطَ بعظم. «ومَا ظَلَمْناهُمْ» بتحريمنا ذلك عليهم «ولكِنْ كانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» فجزيناهم ذلك بِبَغْيِهم على رَبِّهم، وظُلمِهم أنفسَهُمْ بمعصيةِ الله، فأوْرَثَهُمْ ذلك عقوبةَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ رَبَّكَ للذين عَصَوا الله فَجَهِلُوا بركوبهم ماركِبُوا من معصيةِ الله، وسَفِهوا بذلك ثم راجعوا طاعةَ الله والندم عليها، والاستغفار والتوبة منها، من بعد ما سلفَ منهم ما سلف من ركوبِ المعصية، وأصلحَ، فعمل بما يُحِبُّ الله ويرضاه. «إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها»، يقول: إنَّ ربكَ يا محمدُ من بعد توبتهم له «لَغفُورٌ رَحِيمٌ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ إبراهيمَ خليل الله كان مُعَلِّم خَيْرٍ، يأتمُّ به أهلُ الهدى قانتاً، يقولُ: مطيعاً لله حنيفاً، يقول: مستقيماً على دينِ الإسلام «ولَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ»، يقول: ولم يَكُ يُشركُ بالله شيئاً، فيكون من أولياءِ أهلِ الشرك به، وهذا إعلامٌ من الله تعالى أهلَ الشركِ به من قريش أنَّ إبراهيمَ منهم بريءٌ وأنهم منه برآءُ./ «شاكِراً لأنْعُمِهِ»، يقول: كان يخلصُ الشكرَ لله فيما أنعمَ عليه، ولا يجعل معه في شكرِه في نعمه عليه شريكاً من الآلهةِ والأندادِ وغير ذلك، كما يفعلُ مشركو قريش. «اجْتَبَاهُ»، يقول: اصطفاه واختاره لخُلَّتِهِ، وهَدَاهُ «إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقول: وأرشده إلى الطريقِ المستقيم، وذلك دينُ الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وآتينا إبراهيمَ على قُنُوتِهِ لله، وشُكْرِه له على نِعَمِه، وإخلاصه العبادةَ له في هذه الدنيا ذكراً حسناً، وثناءً جميلاً باقياً على الأيام. «وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ»، يقول: وإنه في الدار الآخرة يومَ القيامةِ لِمَمَّنْ صلحَ أمرُه وشأنه عند الله، وحَسُنَتْ فيها منزلتُه وكرامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ثم أوحينا إليكَ يا محمدُ، وقلنا لكَ: اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم الحنيفيةَ المسلمةَ. حنيفاً: يقول: مُسْلماً على الدينِ الذي كانَ عليه إبراهيمُ، بريئاً من الأوثانِ والأندادِ التي يعبدها قومكَ، كما كان إبراهيمُ تبرأ منها.

وقوله: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ على الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما فرض الله أيها الناسُ تعظيمَ يومِ السبتِ إلَّا على الذين اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو أعظمُ الأيام، لأنَّ الله تعالى فرغ من خَلْقِ الأشياء يومَ الجمعة، ثم سَبَتَ يومَ السبت.

وقال آخرون: بل أعظمُ الأيام يومُ الأحد، لأنه اليومُ الذي ابتدأ فيه خَلْقَ الأشياء، فاختاروه وتركوا تعظيمَ يومِ الجمعةِ الذي فَرض الله عليهم تعظيمَهُ واستحلُّوه.

وقوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربكَ يا محمدُ ليحكمُ بين هؤلاء المختلفينَ بينهم في استحلالِ السبتِ وتحريمهِ عند مصيرِهم إليه يومَ القِيامة، فيقضي بينهم في ذلك وفي غيرِه مما كانوا فيه يختلفون في الدنيا بالحقِّ، ويفصل بالعدلِ بمجازاةِ المصيبِ فيه جزاءه، والمخطىء فيه منهم ماهو أهلُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «ادْعُ» يا محمدُ مَنْ أرسلكَ إليه رَبُّكَ بالدعاءِ إلى طاعته «إلى سَبِيلِ رَبِّكَ»، يقول: إلى شريعة ربك التي شرعها لخلْقِه، وهو الإسلام. «بالحِكْمَةِ»، يقول بوحيِ اللهِ الذي يُوحيهِ إليكَ، وكتابه الذي يُنزلهُ عليكَ. «والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ»، يقول: وبالعبرِ الجميلةِ التي جعلها الله حجةً عليهم في كتابه، وذَكَّرهم بها في تنزيله، كالتي عَدَّدَ عليهم في هذه السورة من حججه، وذَكَّرَهُمْ فيها ما ذَكَّرهم من آلائه. «وجَادِلْهُمْ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ»، يقول: وخاصمهم بالخصومةِ التي هي أحسنُ من غيرها أنْ تصفحَ عما نالوا به عرضكَ من الأذى، ولا تَعْصِه في القيامِ بالواجبِ عليك من تبليغهم رسالةَ ربك.

وقوله: «إنَّ ربكَ هو أعلمُ بمن ضَلَّ عن سبيله»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: إنَّ ربكَ يا محمدُ هو أعلمُ بمن جارَ عن قَصْدِ السبيلِ من المختلفين في السبتِ وغيرِه من خَلْقِه، وحَادَّ الله، وهو أعلمُ بمن كانَ منهم سالكاً قَصْدَ السبيلِ، ومَحَجَّةَ الحقِّ، وهو مُجازٍ جميعَهُم جزاءهم عند وُرُودِهم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين: وإنْ عاقبتم أيها المؤمنون مَنْ ظَلَمَكُمْ واعتدى عليكم، فعاقبوهُ بمثلِ الذي نالكم به ظَالِمُكُمْ من العقوبةِ، ولَئِنْ صَبَرْتُمْ عن عقوبتهِ، واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلمِ، ووَكَلْتُمْ أمره إليه، حتى يكُونَ هو المتولي عقوبته. «لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ»، يقول: للصبر عن عقوبته بذلك خيرٌ لأهلِ الصبر احتساباً، وابتغاء ثوابِ الله، لأنَّ الله يُعَوِّضُه مِنَ الذي أرادَ أنْ يناله بانتقامهِ من ظالمه على ظُلْمِه إياهُ من لذَّةِ الانتصار، وهو من قوله: «لَهُوَ» كناية عن الصبرِ، وحسن ذلك، وإنْ لم يكن ذكر قبل ذلك الصبر لدلالة قوله: «وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ» عليه.

وقد اختلف أهلُ التأويل في السببِ الذي من أجله نزلت هذه الآية. وقيل: هي منسوخة أو محكمة.

فقال بعضهم: نزلت من أجلِ أنَّ رسولَ الله ﷺ وأصحابه أقسموا حين فعلَ المُشركونَ يومَ أُحدٍ مافعلوا بقتلى المسلمينَ من التمثيلِ بهم أنْ يجاوزوا فِعْلَهُمْ في المُثْلَةِ بهم إنْ رُزِقُوا الظَّفَرَ عليهم يوماً، فنهاهم اللهُ عن ذلك بهذه الآية، وأمرهم أنْ يقتصروا في التمثيلِ بهم، إنْ هم ظفروا على مِثْلِ الذي كان منهم، ثم أمرهم بعد ذلك بتركِ التمثيلِ، وإيثارِ الصبرِ عنه بقوله: «وَاصْبِرْ ومَا صَبْرُكَ إلاَّ باللهِ» فنسخ بذلك عندهم ما كان أذِنَ لهم فيه من المُثْلة.

وقال آخرون: نسخ ذلك بقوله في براءة «اقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»، قالوا: وإنما قال: «وَإنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ» خبراً من الله للمؤمنين أنْ لا يبدءوهم بقتالٍ حتى يَبْدَءُوهُمْ به، فقال: «وقاتِلُوا فِي سَبيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ، وَلا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ».

وقال آخرون: بل عَنَى الله تعالى بقوله: «وَاصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلّا باللهِ» نبيَّ الله خاصةً دونَ سائرِ أصحابه، فكان الأمرُ بالصبرِ له عزيمة من الله دونهم.

وقال آخرون: لم يُعْنَ بهاتين الآيتين شيءٌ مما ذكر هؤلاء، وإنما عُنِي بهما أنَّ مَنْ ظُلِمَ بظُلامةٍ، فلا يحلُّ له أنْ ينالَ مِمَّنْ ظلمه أكثر مما نالَ الظالم منه، وقالوا: الآيةُ محكمةٌ غيرُ منسوخة.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه، أمر مَنْ عُوقِبَ من المؤمنين بعقوبةٍ أنْ يعاقبَ مَنْ عاقبه بمثل الذي عُوقبَ به، إن اختارَ عقوبته، وأعلمَهُ أنَّ الصبرَ على تركِ عقوبته، على ما كان منه إليه خيرٌ، وعَزَمَ على نبيه ﷺ أن يصبر، وذلك أنَّ ذلك ظاهرُ التنزيل، والتأويلاتُ التي ذكرناها عَمَّنْ ذكروها عنه، مُحْتَمِلَتَها الآيةُ كلها. فإذا كان ذلك كذلك، ولم يَكُنْ في الآيةِ دلالةٌ على أيِّ ذلك عنى بها من خبرٍ ولا عقلٍ كان الواجبُ علينا الحكم بها إلى ناطق لا دلالة عليه؛ وأنْ يقال: هي آيةٌ مُحْكَمَةٌ أمرَ اللهُ تعالى ذِكْرُه عِبادَهُ أنْ لا يتجاوزُوا فيما وجَبَ لهم قِبَلَ غيرهم من حقٍّ من مالٍ أو نفسٍ، الحَقَّ الذي جعله اللهُ لهم إلى غيره، وأنها غيرُ منسوخةٍ، إذْ كان لا دلالة على نسخها، وأنَّ للقولِ بأنها محكمةٌ وجهاً صحيحاً مفهوماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واصبر يا محمدُ على ما أصابكَ من أذى في الله، «وما صَبْرُكَ إلّا باللهِ»، يقول: وما صبرك إنْ صبرتَ إلا بمعونةِ الله، وتوفيقهِ إياك لذلك، «وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ»، يقول: ولا تحزنْ على هؤلاءِ

المشركينَ الذين يُكَذِّبُونكَ، ويُنكرونَ ماجئتهم به في أن وَلَّوا عنكَ وأعْرَضُوا عما أَتيتَهُمْ به من النصيحةِ، «وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ ممَّا يَمْكُرُونَ»، يقول: ولا يَضِقْ صَدْرُكَ بما يقولون من الجهلِ، ونسبتهم ماجئتهم به إلى أنه سحرٌ أو شِعرٌ أو كهانةٌ، مما يمكرون: مما يحتالونَ بالخدعِ في الصَدِّ عن سبيلِ الله، مَنْ أراد الإِيمانَ بك، والتصديقَ بما أنزل اللهُ إليك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه «إنَّ اللَّهَ» يا محمدُ «مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا» الله في محارمه فاجتنبوها، وخافوا عقابه عليها، فأحجموا عن التقدُّمِ عليها، «وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ»، يقول: وهو مع الذين يحسنون رعايةَ فرائضِه، والقيام بحقوقِهِ، ولزوم طاعتهِ فيما أمرهم به ونهاهم عنه.

المجلد الرابع

فهرس المحتويات